

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
ومن والاه.

أما بعد:

فإن الهممَ لَتَحْمُدُ، وإن الرياحَ لَتَسْكُنُ، وإن النفوسَ ليعترِبها الملل، وينتابها
الفتور.

وإن سِيرَ العِظْمَاءِ لمن أعظم ما يُذَكِّي الأُوار، ويبعث الهمم، ويرتقي
بالعقول، ويوحى بالافتداء.

وكم من الناس من أقبل على الجد، وتداعى إلى العمل، وانبعث إلى معالي
الأُمور، وترقى في مدارج الكَمالات - بسبب حكاية قرأها، أو حادثة رُويت له.
ولقد يسر الله لي أن كتبت عدداً من التراجم القصيرة لبعض العِظْمَاءِ والعلماء.
ولم تكن تلك الكتابة مقصودة بعينها، وإنما أنشئت في ثنايا بعض الكتب أو
الموضوعات، أو كتبت جواباً لسؤال عن عالم من العلماء، أو كتبت بعد وفاة
بعض الشخصيات المؤثرة وهكذا...

فصارت تلك التراجم متناثرة هنا وهناك؛ فنشأت فكرة جمعها في كتاب واحد.
وكانت الأمنية تراودني في الكتابة عن كثير من الشخصيات، وأن يكون لكل
واحد من هؤلاء ترجمة مفردة خاصة به، غير أنني خشيت تراكم الأعمال، وألا
يسعفني الوقت والعمر.

ومن هنا استقر الأمر على إعادة النظر في بعض التراجم، وإضافة ما يمكن إضافته؛ فما لا يدرك كله لا يترك كله، ولعل هذه التراجم تكون نواة للتوسع ومزيد من البسط والإفراد، واستخلاص العبر، واستجلاء الفوائد من تلك التراجم.

هذا وإن من أعظم المقاصد لكتابة تلك التراجم بيان الجوانب المشرقة -وما أكثرها- من سير عظمائنا، والتنويه بما لهم من أعمال جليلة، وأياد بيضاء، وإيقاظ الهمم وحفزها، والارتقاء بالأخلاق وتقويم عوجها، وتزويد القارئ بشيء من خلاصات التجارب، وقرائح الأفهام.

ولهذا فإنك لن تظفر بهذه التراجم بنقد، ولا محاكمة، ولا إيراد غميمة. لا زهداً في النقد؛ فهو حياة الأمم إذا كان بانياً، ولا اعتقاداً بعلمائنا وعظمائنا العصمة حاشا وكلاً؛ فمأهم إلا بشر، وما كان لبشر أن تُدعى له العصمة، أو أنه لم ولن يقول إلا صواباً؛ فليس ذلك إلا للأنبياء -عليهم السلام- فيما يبلغون به عن ربهم -جلا وعلا- .

وإنما المقصود من ذلك نشر الفضائل، ومعرفة أقدار الرجال، وما جرى مجرى ذلك مما مر ذكره.

ثم إن الماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث؛ فكيف إذا كان بحراً لا تكدره الدلاء؟

ثم إننا نرى الأمم الأخرى تحتفل بعظمائها، بل تبالغ في ذلك أشد المبالغة. ونحن أولى بهذه المزية؛ إذ منبع عظمائنا ما يحملونه من دين وعزة، وكرامة،

وخلق، وآثار.

وإنك لتعجب ممن يطعن بسلفه الصالح، ويزري بأكابر أهل ملته من علماء وفضلاء سواء كانوا أحياءاً أو أمواتاً.

يقول الأستاذ العلامة محمد كرد علي رحمه الله في مذكراته ٢٧٤ / ١ : « دخل عليّ مستشار المعارف، وأنا في مكنتي بالوزارة ظاهر الغضب على محرر جريدتنا المقتبس؛ لنشره في الجريدة تعريضاً ببعض رصفائي الوزراء؛ خدمة لأعراض من يخدمهم من حزبه؛ فسألني المستشار عن غضبي على خلاف عادتي، فذكرت له السبب، فقال: لا أعرف كيف أعلل هذه الأخلاق فيكم تسقطون أبداً رجالكم من الأعين، ورجالكم قليلون مهما بلغ عددهم لا يتجاوز المائة؛ فإذا أسقطتموهم كلهم فمن يبقى يخدمكم في السراء والضراء، وينفعكم باسمه ومكانته؟! ».

وقال الأستاذ محمد كرد علي -أيضاً- : « كان أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري وهو على سرير الموت يقول لمن حوله من أصحابه: اذكروا من عندكم من الرجال الذين ينفعونكم في الشدائد، ودوّنوا أسماءهم في جريدة؛ لثلاثتهم، ونوّهوا بهم عند كل سانحة، واحرصوا عليهم حرصكم على أعزّ عزيز. وأظنهم على كثرة ماكدّوا حافظتهم وذاكرتهم لم يعدوا أكثر من خمسين رجلاً.

وكان يقول لنا -أي الشيخ طاهر- تجاوزوا عن سيئاتهم، وانتفعوا بحسناتهم. وشيخنا هذا قضى عمره في السعي إلى الإصلاح والتجدد.

وبعد فهذه مقدمة وتوطئة بين يدي هذه التراجم لتسعة من العظماء من فضلاء علمائنا وأكابرنا.

وهذه التراجم ليست على وتيرة واحدة؛ لأنها كتبت في فترات متباعدة، وفي مناسبات مختلفة؛ فربما يبسط القول في بعضها وربما يختزل.

وهذا الكتاب يحتوي على ترجمة لكل واحد من التالية أسماؤهم:

- ١- العلامة أحمد بن فارس اللغوي.
 - ٢- نور الدين محمود الشهيد.
 - ٣- شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.
 - ٤- الشيخ العلامة محمد الخضر حسين.
 - ٥- الشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور.
 - ٦- الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي.
 - ٧- سماحة الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي.
 - ٨- سماحة الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ.
 - ٩- سماحة الشيخ العلامة عبدالعزيز بن باز.
- فإلى تلك التراجم، والله المستعان، وعليه التكلان.

محمد بن إبراهيم الحمد

الزلفي: ص.ب: ٤٦٠

١٤٢٧/٢/٥ هـ

www.toislam.net
alhamad@toislam.net

العلامة أحمد بن فارس اللغوي

أحمد بن فارس اللغوي**معالم بارزة في حياته**

مولده ونشأته: هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني، المعروف بالرازي، والمشهور بابن فارس.

ولد في أوائل القرن الرابع الهجري، ولم يذكر أحد من أصحاب التراجم الأقدمين تاريخاً محددًا لميلاده، لكنه - كما ذكر بعض الباحثين المحدثين - يدور حول عام ٣١٢هـ.

أما وفاته فكانت سنة ٣٩٥هـ على الرأي الصحيح كما رجح ذلك العلامة عبدالسلام هارون رحمته الله وغيره.

وقد ولد بقزوين، ونشأ بهمدان، وكان أكثر مقامه في الري، لكنه رحل إلى بلاد كثيرة؛ لتلقي العلم.

وقد أخذ عن كثيرين، منهم والده فارس بن زكريا، وأبو بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب، وأبو الحسن علي بن إبراهيم القطان، وأبو عبدالله أحمد ابن طاهر المنجم، وغيرهم كثير.

علومه: أما علومه فكانت متنوعة شاملة لا سيما اللغة التي أتقنها، وأكثر من التأليف في فروعها، وشهر بها؛ ودعي بـ: اللغوي.

ويرجع ذلك إلى مؤلفاته القيمة التي كان لها أثر كبير في الدراسات اللغوية.

وكان صاحب عقلية جبارة، وموهبة فذة مبتكرة، وقد شهد له بذلك الكثير

من القدامى والمحدثين، كالثعالبي، وابن خلكان، والصاحب بن عباد،
وعبد السلام هارون وغيرهم.

وكان فقيهاً شافعيّاً، ويناصر مذهب مالك بن أنس.

أما طريقتة في النحو فطريقة الكوفيين.

ولم يكن ابن فارس من العلماء المنزوين على أنفسهم، مكتفين، بمجالس
العلم والتعليم، بل كان مُتصلاً بالحياة أكمل اتصال، مادّاً بسبب إلى نواح شتى.
شعره: وقد أحسن صنعة الشعر، وكان نقادةً فيه، وله شعره الذي ينم عن
ظرف، ورقة، وحسن تأت.

وهو مُلحٌّ في التهكم والسخرية، ومن شعره في ذلك قوله:

مرت بنا هيفاءً مقدودةً تركيةً تُنمى لتركِيٍّ
ترنوبطرفٍ فاتنٍ فاتر كأنه حُجَّةٌ نحويٍّ

فيجعل من حجة النحوي في ضعفها على ما يراه - شهباً للطرف الفاتن الفاتر.
وهو يتبرم بهمدان والعيش فيها؛ فيرسم حياته فيها على هذا النحو البديع،
فيقول:

سقى همدان الغيثُ لستُ بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نارٌ تَضْرَمُ
ومالي لا أضيءُ الدعاءَ لبلدة أفدتُ بها نسيانَ ما كنتُ أعلم
نسيتُ الذي أحسنتهُ غير أنني مدينٌ وما في جوف بيتي درهمٌ

وهو صاحب حملة على من يزهّدون في الدينار والدرهم؛ بحجة أنهم
يطلبون المجد في العلم، والأدب، فيقول على سبيل التهكم:

قد قال في ما مضى حكيم: ما المرء إلا بأصغريه
فقلت قول امرئ لبيب: ما المرء إلا بدرهميه
من لم يكن معه درهماه لم تلتفت عرسُه^(١) إليه
وكان من ذلك حقيراً تبول سنوره عليه

ولابن فارس التفاتٌ عجيبٌ إلى السنور، وقد سجل في غير هذا الموضع من شعره أنه كان يصطفي لنفسه هرةً تلازمه، وتنفي عنه هموم قلبه، ووساوس نفسه، فقال:

وقالوا: كيف أنت فقلت: خيرٌ
تَقَضَى حاجةً وتنفوت حاجُ
إذا ازدحمت هموم القلب قلنا
عسى يوماً يكون لها انفراج
نديمي هرتي وسرور قلبي
دفاتر لي ومعشوقي السراج

وهو بصير ذو خبرة بطباع الناس، واستثارهم بالمال، وخضوعهم له، يقول في ذلك:

إذا كنت في حاجة مُرسِلاً
وأنت بها كلف مغرمُ
فأرسل حكيماً ولا توصه
وذاك الحكيم هو الدرهم
ويقول:

عتبتُ عليه حين ساء صنيعه
وآليتُ^(٢) لا أمسيتُ طوعَ يديه
فلما خبرتُ الناس خُبر مُجربٍ
ولم أرَ خيراً منه عُدتُ إليه

1 - العرس: الزوجة.

2 - آليت: حلفت.

ويقول لمن يتكاسل في طلاب العلم:

إذا كان يؤذيك حرُّ الصيف ويُبْسُ الخريف وبردُ الشتاء
ويلهيك حسنُ زمانِ الربيع فأخذكُ للعلم قل لي: متى؟^(١)

ولعل ابن فارس من أقدم من استعمل أسلوب الشعر في تقييد مسائل اللغة والعربية.

يقول ياقوت الحموي: «قرأت بخط الشيخ أبي الحسن علي بن عبدالرحيم السلمي: وجدت بخط ابن فارس على وجه المجمل، والأبيات له، ثم قرأتها على سعد الخير الأنصاري، وأخبرني أنه سمعها من ابن شيخه أبي زكريا، عن سليمان بن أيوب، عن ابن فارس:

يا دارَ سَعْدِي بذاتِ الضَّالِّ^(٢) منِ إضْمٍ سقائكِ صوبُ حَيًّا منِ واكفِ العينِ

العين: سحاب ينشأ من قِبَل القبلة.

إني لأذكر أياماً بها ولنا في كلِّ إصباحٍ يومٍ قرّةُ العينِ

العين ههنا: عين الإنسان وغيره.

تُدني مُعشَقَةً منَّا معتَقَةً تَشجُّها عذبةٌ من نابعِ العينِ

إذا تَمَرَّزَها شيخٌ به طَرَقٌ سرت بقوَّتِها في الساقِ والعينِ

العين ههنا: عين الركبة، والطرق: ضعف الركبتين.

والزُّقُّ ملآنٌ من ماءِ السرورِ فلا تخشى تولُّهُ ما فيه من العينِ

1- انظر مقدمة معجم المقاييس ١ / ١١ - ١٣ .

2- الضال: نبت كالسَلَم.

العين ههنا: ثقب يكون في المزادة، وتولهُ الماء: أن يتسرب.

وغيابُ عُذَّالنا عنا فلا كدرٌ في عيشنا من رقيب السوء والعينِ

العين ههنا: الرقيب.

يقسّمُ الوُدَّ فيما بيننا قِسَمًا مِيزانُ صدقٍ بلا بَخْسٍ ولا عينِ

العين ههنا: العين في الميزان.

وفائضُ المالِ يغنيننا بحاضره فنكتفي من ثقلِ الدَّينِ بالعينِ

العين ههنا: المال الناض^(١).

والمجمل المجتبي تغني فوائده حفاظه عن كتاب الجيم والعين^(٢)

أخلاقه: امتاز ابن فارس بأخلاق العلماء حقاً، فقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ورعاً تقياً

شديد التواضع، وفياً لأساتذته، براً بهم، أميناً في النقل عنهم.

وكان جواداً كريماً لا يكاد يرد سائلاً، حتى إنه كان يهب ثياب جسمه،

وفرش بيته.

قال ابن الأنباري: «وكان له صاحب يقال له أبو العباس أحمد بن محمد

الرازي المعروف بالغضبان، وسبب تسميته بذلك أنه كان يخدمه ويتصرف في

بعض أموره، قال: فكنت ربما دخلت فأجد فرش البيت أو بعضه قد وهبه،

فأعاتبه على ذلك، وأضجر منه؛ فيضحك من ذلك، ولا يزول عن عادته.

1- الدراهم والدنانير.

2- معجم الأدباء ١/٥٤٠-٥٤١، ولا يخفى أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أراد أن يشير في هذه الآيات إلى مبحث

الاشتراك أو المشترك في اللغة؛ فكلمة العين واحدة، ومعانيها مختلفة - كما ترى -.

فكنت متى دخلت عليه ووجدت شيئاً من البيت قد ذهب علمت أنه قد وهبه؛ فأعبس، وتظهر الكآبة في وجهي؛ فيسطني ويقول: ما شأن الغضبان؟ حتى لحق بي هذا اللقب منه، وإنما كان يمازحني به»^(١).

تلاميذه: تتلمذ على ابن فارس الصاحبُ بن عباد، وبديع الزمان الهمداني، وأبو الفتح بن العميد وغيرهم.

وفاته: توفي - على القول الصحيح كما مر - سنة ٣٩٥هـ، وروى أكثر من ترجم له أنه قال قبل وفاته بيومين:

يا رب إن ذنوبي قد أَحَطَّتْ بِهَا
علماً وبِيْ وبإعلاني وإسراري
أنا الموحد لكني المُقْرَبُ بِهَا
فهب ذنوبي لتوحيدِي وإقرارِي^(٢)

مؤلفاته: ولابن فارس مؤلفات كثيرة تزيد على الستين، منها المجمل، والمقاييس، والصاحبي، وأصول الفقه، وأخلاق النبي ﷺ، وجامع التأويل في تفسير القرآن، ونقد الشعر، وكتاب اللامات، وحلية الفقهاء، وغيرها كثير.

ابن فارس وأثره في فقه اللغة: هذا وإن لابن فارس اليد الطولى في علم فقه اللغة؛ فلقد كانت البداية الحقيقية لهذا العلم، وظهوره كعلم مستقل على يد ابن فارس وابن جني - رحمهما الله - فلقد كان لهما أبلغ الأثر في التأليف في فقه اللغة، وعلى وجه الخصوص ابن فارس الذي ألف مجموعة من الكتب اللغة، في هذا الشأن، خصوصاً كتابه: (الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن

1- مقدمة معجم مقاييس اللغة ١/٨-٩.

2- انظر مقدمة معجم المقاييس ١/١٠.

العرب في كلامها).

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أمور عديدة لعل أهمها كونه أول كتاب في العربية يحمل اصطلاح (فقه اللغة).

وبه تأثر المؤلفون من بعده، واتخذوا هذا الاصطلاح فناً لغوياً مستقلاً.

وقد عالج ابن فارس رحمته الله في كتابه (الصاحبي) عدداً من الموضوعات التي تعد من صميم فقه اللغة، وجمع في كتابه ما تفرق في كتب من سبقه.

قال رحمته الله في مقدمة كتابه: «والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرق في أصناف

العلماء المتقدمين - رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء -.

وإنما لنا فيه اختصار مبسوط، أو بسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع

متفرق»^(١).

ثم بعد ذلك شرع رحمته الله في أبواب الكتاب التي تعد النواة الأولى في فقه اللغة،

وذلك كحديثه عن نشأة اللغة، والخط العربي، وعن خصائص اللغة، ومزاياها.

وكحديثه عن اختلاف اللغات، وأقسام الكلام، ومعاني الحروف.

وكحديثه عن الخطاب المطلق والمقيد، وعن الحقيقة والمجاز، والقلب،

والإبدال، والعموم، والخصوص، والحذف والاختصار، والإشباع، والنحت،

والإشباع، وغيرها.

وبالجملة فإن الكتاب يحتوي على ٢٠٧ من الأبواب.

كل ذلك مع أن الكتاب في مجلد واحد، ويقع بعد التحقيق في ٢٣٨ صفحة.

وقد طبع عدة طبعات ، ولعل من آخرها طبعة دار الكتاب العلمية ١٤١٨ هـ
-١٩٩٨ م.

وقد علق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج.

كتابه (معجم مقاييس اللغة): منهجه فيه ، وثناء العلماء عليه : لقد أثرى ابن
فارس رحمته الله المكتبة العربية بمعجم سماه (مقاييس اللغة).
وهو من أضخم المعاجم العربية وأعظمها.
وله معجم آخر اسمه (مجل اللغة).

وقد اتبع في تنظيمه لمواد الجمل وكذلك معجم المقاييس طريقة لم يسبق إليها ،
يقول الأستاذ عبدالسلام هارون رحمته الله في مقدمة كتاب معجم مقاييس اللغة مينا
نظام ابن فارس في معجميه الجمل والمقاييس : « جرى ابن فارس على طريقة فاذا
بين مؤلفي المعاجم ، في وضع معجميه : الجمل والمقاييس .

فهو لم يرتب موادهما على أوائل الحروف وتقليباتها كما صنع ابن دريد في
الجمهرة ، ولم يطردها على أبواب أواخر الكلمات كما ابتدع الجوهري في
الصحاح ، وكما فعل ابن منظور والفيروز أبادي في معجميهما ، ولم يَسْقُها على
أوائل الحروف فقط كما صنع الزمخشري في أساس البلاغة ، والفيومي في المصباح
المنير.

ولكنه سلك طريقاً خاصاً به لم يفتن إليه أحد من العلماء ، ولا نبه عليه.
وكنت قد ظننت أنه لم يلتزم نظاماً في إيراد المواد على أوائل الحروف ، وأنه
ساقها في أبوابها هملاً على غير نظام ، ولكنني بتتبع الجمل والمقاييس ألفيته يلتزم

النظام الدقيق التالي :

١- فهو قد قسم مواد اللغة أولاً إلى كتب ، تبدأ بكتاب الهمزة وتنتهي بكتاب الياء .

٢- ثم قسم كل كتاب إلى أبواب ثلاثة أولها باب الثنائي المضاعف والمطابق ، وثانيها أبواب الثلاثي الأصول من المواد ، وثالثها باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية .

٣- والأمر الدقيق في هذا التقسيم أن كل قسم من القسمين الأولين قد التزم فيه ترتيب خاص ، وهو ألا يبدأ بعد الحرف الأول إلا بالذي يليه ؛ ولذا جاء باب المضاعف في كتاب الهمزة ، وباب الثلاثي مما أوله همزة وباء ترتيباً طبيعياً على نسق حروف الهجاء .

ولكن في (باب الهمزة والتاء وما يثلثهما) يتوقع القارئ أن يأتي المؤلف بالمواد على هذا الترتيب : (أتب ، أتل ، أتم ، أتن ، آته ، آتو ، آتى) ، ولكن الباء في (أتب) لا تلي التاء بل تسبقها ، ولذلك أخرها في الترتيب إلى آخر الباب فجعلها بعد مادة (آتى) .

وفي باب التاء من المضاعف يذكر أولاً (تخ) ثم (تر) إلى أن تنتهي الحروف ، ثم يرجع إلى التاء والباء (تب) لأن أقرب ما يلي التاء من الحروف في المواد المستعملة هو الخاء .

وفي أبواب الثلاثي من التاء لا يذكر أولاً التاء والهمزة وما يثلثهما ، بل يؤخر هذا إلى أواخر الأبواب ، ويبدأ بباب التاء والجيم وما يثلثهما ، ثم باب التاء

والحاء وما يثلاثهما، وهكذا إلى أن ينتهي من الحروف، ثم يرجع أدراجه ويستأنف الترتيب من باب التاء والهمزة وما يثلاثهما.

وذلك لأن أقرب ما يلي التاء من الحروف في المواد المستعملة هو الجيم. وتجد - أيضاً - أن الحرف الثالث يراعى فيه هذا الترتيب، ففي باب التاء والواو وما يثلاثهما يبدأ بـ (توى) ثم (توب) ثم (توت) إلى آخره، وذلك لأن أقرب الحروف التي تلي الواو هو الياء.

وفي باب الثاء من المضاعف لا يبدأ بالثاء والهمزة ثم بالثاء والباء، بل يرجع ذلك إلى أواخر الأبواب، ويبدأ بالثاء والجيم (ثج) ثم بالثاء والراء (ثر) إلى أن تنتهي الحروف، ثم يستأنف الترتيب بالثاء والهمزة (ثا) ثم بالثاء والباء (ثب). وفي أبواب الثلاثي من الثاء لا يبدأ بالثاء والهمزة وما يثلاثهما ثم يعقب بالثاء والباء وما يثلاثهما، بل يدع ذلك إلى أواخر الأبواب، فيبدأ بالثاء والجيم وما يثلاثهما إلى أن تنتهي الحروف، ثم يرجع إلى الأبواب التي تركها. وتجد - أيضاً - أن الحرف الثالث يراعى فيه الترتيب. ففي باب الثاء واللام وما يثلاثهما يكون هذا الترتيب (ثلم، ثلب، ثلت، ثلج)... إلخ.

وفي باب الجيم من المضاعف يبدأ بالجيم والحاء (جح) إلى أن تنتهي الحروف (جو) ثم ينسق بعد ذلك (جأ، جب).

وفي أبواب الثلاثي من الجيم يبدأ باب الجيم والحاء وما يثلاثهما إلى أن تنتهي الحروف، ثم يذكر باب الجيم والهمزة وما يثلاثهما، ثم باب الجيم والباء، ثم

الجيم والثاء، مع مراعاة الترتيب في الحرف الثالث، ففي الجيم والنون وما يثلثهما يبدأ أولاً بـ (جنه) ثم (جنى) ويعود بعد ذلك إلى (جناً، جنب، جنث) إلخ.

هذا هو الترتيب الذي التزمه ابن فارس في كتابيه (المجمل) و (المقاييس) وهو يدع كما ترى»^(١).

هذا الكتاب يكاد يكون أعظم كتب ابن فارس إلا يكن أعظمها، بل يكاد يكون أعظم معجم فيما ألف في اللغة العربية.

وهو منهج جديد في التأليف المعجمي يشبه إلى حد ما منهجه في كتاب المجمل، ولكن المقاييس يحمل أفكاراً جديدة على المعجم العربي كله، ولذلك قال عنه ياقوت الحموي رحمته الله: «كتاب جليل لم يصنف مثله»^(٢).

وقال عنه الأستاذ عبدالسلام هارون رحمته الله: «فإن كتابنا هذا لا يختلف اثنان بعد النظر فيه أنه فذ في بابيه، وأنه مفخرة من مفاخر التأليف العربي، ولا إخال لغةً في العالم ظفرت بمثل هذا الضرب من التأليف.

ولقد أضفى ابن فارس عليه من جمال العبارة وحسن الذوق، وروح الأديب، ما يبعد به عن جفوة المؤلفات اللغوية، وعن ممارستها.

فأنت تستطيع أن تتخذ من هذا الكتاب متاعاً لك إذ تبغي المتاع، وسنداً حين تطلب التحقق والوثوق.

1- مقدمة كتاب معجم مقاييس اللغة ٤٢/١-٤٤.

2- معجم الأديباء ٥٣٦/١، وانظر دراسات في المعاجم العربية ص ٩٩.

والكتاب بعد كل أولئك يضم في أعطافه وثناياه ما يهَب القارئ ملكة التفهم لهذه اللغة الكريمة، والظهور على أسرارها»^(١).

وقال في موضع آخر عن الكتاب: «مفخرة من مفاخر التأليف العربي، بل يكاد يكون الفذ من نوعه من بين المؤلفات اللغوية في المحيط العربي، إن لم يكن المحيط اللغوي العالمي؛ فنحن لم نعلم إلى الآن أن مؤلفاً لغوياً آخر حاول أن يدرس مواد اللغة في ظل القياس المطرد في تلك المواد.

ولا غرو؛ فإن مؤلفه أحمد بن فارس يعد في طليعة العلماء الذين أخذوا من كل فن بسهم وافر»^(٢).

ولعل من توفيق الله لابن فارس ولكتابه المقاييس أن قيض الله لتحقيقه وضبطه العلامة المحقق الباحثة عبدالسلام هارون رحمته الله؛ حيث قام بهذا العمل الجليل خير قيام، وصدره بمقدمة أورد فيها حياة ابن فارس، وتحدث عن سيرته وخلقته، وتلقيه العلم، وتعليمه إياه، وعن أبرز شيوخه وطلابه كما تحدث عن الجانب الأدبي، والجانب اللغوي عند ابن فارس.

كما أنه رحمته الله وازن بين كتاب المقاييس والمجمل، وتوصل من خلال ذلك إلى أن المقاييس من أواخر مؤلفات ابن فارس، وأن النضج اللغوي الذي يتجلى فيه من دلائل ذلك^(٣).

1- مقدمة كتاب معجم مقاييس اللغة ٤٥/١.

2- انظر مجلة مجمع اللغة العربية ١٥/١٠ من بحث معجم مقاييس اللغة للأستاذ عبدالسلام هارون.

3- انظر مقدمة المقاييس ٤١/١.

نظرات ابن فارس في النقد والأدب: هذا وإن لابن فارس نظراتٍ في النقد والأدب، ولم يكن كأمثال من ينصرفون عن إنتاج معاصريهم، ولم يكن ممن يحتقر الفائدة، أو التأليف، أو الشعر إذا صدر من معاصر. ولم يكن من اللغويين الجامدين الذين لا يقيمون لمعاصريهم وزناً، بل هو يُصنغي إلى شعر معاصريه، ويروي لكثير منهم، وينتصر للمحسن، ويتنصف من المتعصبين.

وإليك شيئاً من رسالة له كتبها لأبي عمرو محمد بن سعيد الكاتب؛ لتستبين مذهبه ذلك، وتلمس أسلوبه الأدبي، تلك الرسالة التي يتناقلها بعض المؤلفين إلى يومنا هذا، ويرون فيها عزاءً لمن لا يقدرُونَ الإنتاج العلمي والأدبي قدره، ولا يرون التميز إلا للقديم؛ فابن فارس يبين فيها أن الحسن الجيد لا يختص به أحد دون أحد، أو زمان دون زمان، وينكر تلك المقولة التي وقفت سداً منيعاً أمام كثير من المبدعين، ألا وهي قولهم: (ما ترك الأول للآخر شيئاً). ويرشد إلى أن يوضع مكانها: (كم ترك الأول للآخر).

يقول ﷺ في رسالته: «ألمك الله الرشاد، وأصحبك السداد، وجنبك الخلاف، وحبب إليك الإنصاف.

وسبب دعائي بهذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتاباً في الحماسة، وإعظامك ذلك.

ولعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريده، ويرد المنهل الذي يؤمه، لاستدرك من جيد الشعر ونقيته، ومختاره ورضيته كثيراً مما فات المؤلف الأول؛

فماذا الإنكار؟ ولمه هذا الاعتراض؟ ومن ذا حذر على المتأخر مضادة المتقدم؟
ولمه تأخذ بقول من قال: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وتدع قول الآخر:

كم ترك الأول للآخر؟

وهل الدنيا إلا أزمان، ولكل زمان رجال؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة
إلا خطرات الأوهام، ونتائج العقول؟!
وَمَنْ قَصَرَ الآداب على زمانٍ معلوم، ووقفها على وقتٍ محدود؟ ولمه لا ينظر
الآخر مثلما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى في كل
مثل رأيه.

وما تقول للفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نواذر الأحكام نازلة لم تخطر على
بال من كان قبلهم؟ أو ما علمت أن لكل قلب خاطراً، ولكل خاطر نتيجةً،
ولمه جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره، ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه؟
وله حجرت واسعة وحظرت مباحاً، وحرمت حلالاً، وسددت طريقاً
مسلوكاً؟

وهل حبيب^(١) إلا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم؟ ولمه جاز أن
يعارض الفقهاء من مؤلفاتهم، وأهل النحو في مصنفاتهم، والنظار في
موضوعاتهم، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم، ولم يجز معارضة أبي
تمام في كتاب شدّ عنه في الأبواب التي شرعها فيه أمر لا يدرك ولا يدري قدره؟
ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير،

1 - يعني به: أبا تمام: حبيب بن أوس الطائي.

ولضلت أفهام ثاقبة، وَلَكَلَّتِ أَلْسُنُ لِسِنَةٍ، ولما توشى أحد بالخطابة، ولا سلك
شعباً من شعاب البلاغة، وَلَمَجَّتِ الأَسْمَاعُ كل مردود مكرر، وَلَلْفَطَتِ القلوب
كل مُرْجَعٍ مُمَضَّغٍ، وحتّام لا يُسَامُ:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي^(١)

وإلى متى: صَفَحْنَا عن بني ذهل^(٢)

ولمه أنكرت على العجليّ معروفاً؟ واعترفت لحمزة بن الحسين ما أنكره على
أبي تمام في زعمه أن في كتابه تكريراً وتصحيفاً، وإيطاءً وإقواءاً، ونقللاً لأبيات
عن أبوابها إلى أبوابٍ لا تليق بها ولا تصلح لها إلى ما سوى ذلك من روايات
مدخولة، وأمور عليلة؟ ولمه رضيت لنا بغير الرضى؟ وهلا حثت على إثارة ما
غَيَّبَتْهُ الدهور، وتجديد ما أخلقتة الأيام، وتدوين ما نَجَّجَتْهُ خواطرُ هذا الدهر،
وأفكار هذا العصر، على أن ذلك لو رامه رائمٌ لأتعبه، ولو فعله لقرأت ما لم
ينحط عن درجة مَنْ قَبَلَهُ: مِنْ جَدِّ يروءك، وهزل يروءك، واستنباط يعجبك،
ومزاح يلهيك.

وكان بقزوين رجل معروف بأي حامد الضريير القزويني، حضر طعاماً وإلى
جنبه رجل أكل، فأحس أبو حامد بجودة أكله فقال:

1 - يشير إلى قول القائل: لو كنت بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

2 - يشير إلى قول الفند الزماني:

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان

وصاحب لي بطنه كالهواية كأن في أمعائه معاويه^(١)

فانظر إلى وجازة هذا اللفظ ، وجودة وقوع الأمعاء إلى جنب معاوية ، وهل ضر ذلك أن لم يقله حماد عَجْرَدَ وأبو الشمقمق؟ وهل في إثبات ذلك عار على مثبته ، وفي تدوينه وصمه على مدونه؟

وبقزوين رجل يعرف بابن الرياشي القزويني ، نظر إلى حاكم من حكامها من أهل طبرستان مقبلاً ، عليه عمامة سوداء وطيلسان أزرق ، وقميص شديد البياض ، وخف أحمر ، وهو مع ذلك كله قصير على بردون أبلق هزيل الخلق ، طويل الحلق ، فقال حين نظر إليه :

وحاكم جاء على أبلق كعقبي جاء على لقلق

فلو شهدت هذا الحاكم على فرسه لشهدت للشاعر بصحة التشبيه ، وجودة التمثيل ، ولعلمت أنه لم يقصر عن قول بشار :

كأن مشار النقع فوق رؤوسهم وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فما تقول لهذا ، وهل يحسن ظلمه في إنكار إحسانه ، وجحود تجويده؟

وأنشدني الأستاذ أبو علي محمد بن أحمد بن الفضل ، لرجل بشيراز يعرف بالهمذاني وهو اليوم حي يرزق ، وقد عاتب^(٢) بعض كتابها على حضوره طعاماً مرض منه :

1- المعاوية: الكلبة التي تعاوي الكلاب وتناجها، وبها سمي الرجل، وربما أراد بذلك معاوية بن

أبي سفيان ؓ فقد كان رجلاً أكولاً وقد قال فيه النبي ﷺ: «لا أشبع الله بطنك».

2- في الأصل: «عاب».

وُقِيَّتَ الردى وصروف العلل ولا عَرَفَتْ قَدَمَاك العلل
شكا المرض المجد لَمَّا مَرَضُ ستَ فلما نهضت سليماناً أبلّ
لك الذنب لا عتب إلا عليك لماذا أكلت طعام السُّل

وأنشدني له في شاعر هو اليوم هناك يعرف بابن عمرو الأسدي، وقد رأيتُه
فرأيت صفة وافقت الموصوف :

وأصفر اللون أزرق الحدقه في كل ما يدعيه غير ثقه
كأنه مالك الحزين إذا همَّ بزرق وقد لوى عنقه
إن قمت في هجوه بقافيةٍ فكل شعر أقوله صدقه

وأنشدني عبدالله بن شاذان القاري، ليوسف بن حمويه من أهل قزوين؛
ويعرف بابن المنادى :

إذا ما جئت أحمد مُسْتَمِيحاً فلا يَغْرُرُكَ مَنْظَرُهُ الأنيقُ
له لطفٌ وليس لديه عرفٌ كبارقة تروقُ ولا تُريقُ
فما يخشى العدوُّ له وعيداً كما بالوعد لا يثق الصديقُ

ومدح رجلٌ بعض أمراء البصرة، ثم قال بعد ذلك وقد رأى توانياً في أمره
قصيدةً يقول فيها كأنه يجيب سائلاً :

جَوَدْتُ شَعْرَكَ فِي الأَمِي— رِفَكِيْفَ أَمْرِكَ قَلْتُ فَاترُ

فيكفَ تقول لهذا؟ ومن أي وجه تأتي فتظلمه؟ وبأي شيء تعانده فتدفعه عن
الإيجاز والدلالة على المراد بأقصر لفظٍ وأوجز كلام؟ وأنت الذي أنشدتني :

سَدَّ الطريق على الزما نِ وقام في وجهه القطوب

كما أنشدتني لبعض شعراء الموصل :

فديتك ما شبت عن كُبرةٍ وهذي سِنِيٌّ وهذا الحسابُ
ولكن هُجرتُ فحلَّ المشيبُ ولو قد وُصِلتُ لعاد الشبابُ

فلمَ لم تخاصم هذين الرجلين في مزاحمتهما فحولة الشعراء وشياطين
الإنس ، ومردة العالم في الشعر؟

وأنشدني أبو عبدالله المغلسي المراغي لنفسه :

غداة تولت عيسهم فترحلوا بكيته على ترحالهم فعميتُ
فلا مقلتي أدت حقوقَ وداهم ولا أنا عن عيني بذاك رضيتُ

وسمعت أبا الحسين السروجي يقول : كان عندنا طبيب يسمى النعمان ،
ويكنى أبا المنذر ، فقال فيه صديقٌ لي :

أقول لنعمانٍ وقد ساق طُبه نفوساً نفيساتٍ إلى باطن الأرضِ
أبا منذر أفنيتَ فاستبقِ بعضنا حنانيك بعضُ الشرَّاهون من بعض^(١)

إلى آخر ما قاله في رسالته الماتعة^(٢).

رحم الله ابن فارس ، وأجزل مثوبته ، وجزاه خير الجزاء كفاءً ما قدم للعلم
والعربية.

1 - البيت لطرفة في ديوانه ٤٨ .

2 - انظر يتيمة الدهر للثعالبي ٢/٢١٤-٤١٨ ، ومقدمة المقاييس ١ / ١٥ - ٢٠ .

نورالدين محمود الشهيد

نور الدين محمود الشهيد

أولاً: نشأته: هو صاحب الشام، الملك العادل، نور الدين ناصر أمير المؤمنين تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود ابن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد عماد الدين زنكي ابن الأمير الكبير آقسنقر التركي السلطاني الملكشاهي^(١).

قال عنه ابن كثير رحمته الله: «ولد وقت طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب، والموصل، وغيرها من البلدان الكثيرة الكبيرة. تعلم القرآن، والفروسية، والرمي، وكان شهماً، شجاعاً، ذا همة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة، وديانة بينة»^(٢).

لقد خرج هذا الرجل في فترة حرجة من تاريخ الأمة الإسلامية؛ فلقد كانت الأمة تعاني من التفكك، والانحلال، وتسلب الأعداء، وانتشار البدع. فالأمراء والملوك - آنذاك - كل واحد منهم يقبع في أمانة أو دويلة صغيرة، وبينهم ما بينهم من التفرق والتنافر والخلاف. والصليبيون يعيشون في بلاد الشام فساداً بعد أن استولوا على كثير من الحصون والقلاع والمدن.

1 - انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٣١/٢٠.

2 - البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٩/١٢.

والعبيديون الباطنيون كانوا مستولين على مصر؛ فكانت أعلام البدعة مرفوعة، وأعلام السنة موضوعة، مما جعل الحاجة - بل الضرورة - ماسة إلى من يوحد كلمة الأمة، ويلم شعثها، ويصد فلول الأعداء عنها؛ فكان أن خرج نور الدين الذي كان أبرز أبطال الحروب الصليبية، والذي كان بروزه نقطة تحول في تاريخ تلك الحروب؛ فإن له ﷺ من اسمه نصيباً؛ فلقد أوقد في دياجير الظلمة جذوة الدين، وأنزل الهزائم الساحقة بالصليبيين، وامتشق حماسه منذ نعومة أظفاره، فلم يغمده حتى أتاه اليقين، وبعد أن قرت عينيه بتألق نجم تلميذه صلاح الدين حتى قام على تراث الشهيد بالرعاية والصيانة والتمكين^(١).

وإن مما يقوي الرغبة في دراسة سيرة هذا الرجل أعني - نور الدين - هو ذلك التشابه بين الأوضاع القاسية التي مرت بها أمة الإسلام في الماضي، وبين الأوضاع التي نعيشها حالياً؛ فكأن التاريخ يعيد نفسه؛ فكان من مسوغات الحديث عن سيرته - الاستفادة من هموم الماضي لعلاج الحاضر^(٢).
فإلى ما يلي من أسطر تكشف لنا شيئاً من تلك السيرة العطرة لذلك المجاهد العظيم، تلك السيرة التي تنبي عن همة عالية ونفس كبيرة، وتُبين عن شجاعة متناهية وبطولة وسؤدد.

1- انظر أبطال ومواقف للشيخ أحمد فرح عقيلان ص ٤٣١، ونور الدين زنكي في الأدب العربي

في عصر الحروب الصليبية لمحمود فايز السرطاوي ص ٩.

2- انظر نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ١٠.

ثانياً: صفاته ومناقبه:

لقد جمع الله لنور الدين الشيء الكثير، ولقد آتاه من مهيبات النبوغ، ومقومات الألمعية - ما جعله يتبوأ تلك المكانة العلية من تاريخ الأمة الإسلامية.

فمن تلك الصفات التي اتصف بها نور الدين ما يلي:

أ - التقوى والصلاح: فلقد كان نور الدين تقياً، صالحاً، ورعاً، زاهداً،

يخاف الله - تبارك وتعالى - .

وكان ذا تأله وعبادة، وأوراد، وقيام بالليل، وكان كثير التضرع، والدعاء

واللجوء إلى - الله عز وجل - .

قال ابن الأثير رحمته الله متحدثاً عن صفات نور الدين: «فمن ذلك زهده،

وعبادته، وعلمه؛ فإنه كان لا يأكل، ولا يلبس، ولا يتصرف إلا في الذي يخصه

من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح

المسلمين.

ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاهها ثلاثة دكاكين في حمص،

كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً.

فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين

فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك.

وكان يصلي كثيراً بالليل، وله أوراد حسنة، وكان كما قيل:

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحرابَ في المحراب^(١)

وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون بنت الأتابك معين - تكثر القيام في الليل، فنامت ذات ليلة عن وردها، فأصبحت وهي غضبي، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوّت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طلبخانة^(٢) في القلعة وقت السحر؛ لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، وأعطى الضارب على الطلبخانة أجراً جزيلاً، وجراية كثيرة.

فألبس الله هاتيك العظام وإن بليّن تحت الثرى عضواً وغضراناً
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت مثوى قبورهم روحاً وريحاناً^(٣)

«وقال الفقيه أبو الفتح الأشري معيد النظامية ببغداد - وكان قد جمع سيرة مختصرة لنور الدين - قال: وكان نور الدين محافظاً على الصلوات في أوقاتها في جماعة بتمام شروطها، والقيام بها بأركانها، والطمأنينة في ركوعها وسجودها. وكان كثير الصلاة بالليل، كثير الابتهاج والتضرع إلى الله - عز وجل - في أموره كلها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية ممن يعتمد قولهم أنهم دخلوا بلاد القدس للزيارة أيام أخذ القدس الفرنج، فسمعتهم يقولون: إن القسيم ابن

1 - المحراب الأولى: صيغة مبالغة بمعنى كثير الحرب، والمحراب الثانية قبلة الصلاة، وبين الكلمتين جناس تام كما هو معروف عند البلاغيين في فن البديع.

2 - الطلبخانة نوع من الطبول، وهي بمثابة المدافع في عصرنا الحاضر.

3 - الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٢٥/٩ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٠٠/١٢ - ٣٠١.

القسيم - يعنون بذلك نور الدين - له مع الله سر فإنه لم يظفر وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا، وينصر بالدعاء وصلاة الليل؛ فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى الله، ويدعوه؛ فإنه يستجيب له، ويعطيه سؤله؛ فيظفر علينا.

قال: فهذا كلام الكفار في حقه»^(١).

وقال ابن كثير رحمته الله: «وقد كان رحمته الله حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للأثار النبوية، محافظاً على الصلوات في أوقاتها مع الجماعات، كثير التلاوة، مُحباً لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلا نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا.

ولم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتاً وقوراً»^(٢).

وقال الذهبي رحمته الله: «وكان نور الدين مليح الخط، كثير المطالعة، يصلي في جماعة، ويصوم، ويتلو، ويسبح، ويتحرى في القوت، ويتجنب الكبر، ويتشبه بالعلماء والأخيار، ذكر هذا ونحوه الحافظ ابن عساكر»^(٣).

وقال الموفق عبد اللطيف: «وكان يأكل من عمل يده، ينسخ تارة، ويعمل

1 - البداية والنهاية ١٢/٣٠٤.

2 - البداية والنهاية ١٢/٣٠٠.

3 - سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٣٣.

أغلافاً تارة ويلبس الصوف، ويلتزم السجادة والمصحف»^(١).
وقال سبط بن الجوزي: «كان له عجائز، فكان يخيظ الكوافي، ويعمل
الساكر، فيبعثها سرّاً، ويفطر على ثمنها»^(٢).
وقال - أيضاً -: «حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أن الفرنج لما نزلت
على دمياط مازال نور الدين عشرين يوماً يصوم ولا يفطر إلا على الماء، فضعف
حاله وكاد يتلف، وكان مهيباً ما يجسر أحداً أن يخاطبه في ذلك.
فقال إمامه - يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول يا يحيى، بشر نور الدين
برحيل الفرنج عن دمياط.

فقلت: يا رسول الله، ربما لا يصدقني، فقال: قل له: بعلامة يوم حارم^(٣).
وانتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح، وشرع يدعو هابه يحيى، فقال له:
يا يحيى، تحدثني أو أحدثك، فارتعد يحيى، وخرس، فقال: أنا أحدثك: رأيت
النبي ﷺ هذه الليلة، وقال: كذا وكذا، قال: نعم.
قال: فبالله يا مولانا، ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟
فقال: لما التقينا العدو خفت على الإسلام فانفردت، ونزلت، ومرغت
وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي، من محمود في البين؟ الدين دينك،
والجند جندك، وهذا اليوم افعل ما يليق بكرمك.

1 - سير أعلام النبلاء ٥٣٤/٢٠.

2 - سير أعلام النبلاء ٥٣٧/٢٠.

3 - أحد المعارك التي خاضها نور الدين.

قال: فنصرنا الله عليهم»^(١).

ب: العدل: كان نور الدين رحمته الله عادلاً متحريراً للعدل في كافة أموره، حتى إنه أصبح مضرباً للمثل في العدل، بل إنه يسمى الملك العادل.

قال ابن الأثير: «وقد طبق الأرض بحسن سيرته، وعدله، وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريراً منه للعدل»^(٢).

وقال - أيضاً -: «وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً، بل أطلقاً جميعاً في مصر، والشام، والجزيرة، والموصل. وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها.

وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول: قد جئت محاكماً؛ فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك ما يدعيه، وإنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه.

وبنى دار العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده»^(٣).

1 - سير أعلام النبلاء ٥٣٨/٢٠.

2 - الكامل ١٢٥/٩.

3 - الكامل ١٢٥/٩.

وقال - أيضاً - في كتابه التاريخ الباهر: «كان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء»^(١).
وقال الذهبي: «صاحب الشام الملك العادل نور الدين»^(٢).
وقال: «وكان نور الدين حامل رأيي العدل والجهاد، قلّ أن ترى العيون مثله»^(٣).

وقال ابن كثير: «وكان يقوم بأحكامه بالمعدلة الحسنة، واتباع الشرع المطهر، ويعقد مجالس العدل، ويتولاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي، والفقهاء، والمفتيون من سائر المذاهب.

ويجلس يوم الثلاثاء بالمسجد المعلق الذي بالكشك؛ ليصل إليه كل واحد من المسلمين وأهل الذمة حتى يساويهم»^(٤).

ج - الغيرة الصادقة: لقد كان ﷺ ذا غيرة صادقة على دين الله، ومحارم المسلمين، فلقد تفتّحت عيناه على أحوال المسلمين المتردية، وعلى هزائمهم المتلاحقة، وكان ذلك يؤلمه أشد الألم.

ومما يذكر في هذا الصدد أن نور الدين كان قليل الابتسام جداً، فلما وعظه إمامه بأن الابتسام من وصايا النبوة قال له نور الدين: لا تؤاخذني أيها الشيخ،

1 - التاريخ الباهر في أخبار الدولة الأتابكية لابن الأثير ص ١٦٥.

2 - سير أعلام النبلاء ٥٣١/٢٠.

3 - سير أعلام النبلاء ٥٣٢/٢٠.

4 - البداية والنهاية ٢٩٩/١٢.

كيف أبتسم وآلاف المسلمات سبايا عند كفار لا يتقون، ولا يرحمون؟ وكيف أبتسم والمسجد الأقصى يدنسه العدو؟!^(١).

د- الهمة العالية: لقد كان ﷺ ذا همة عالية، ونفس كبيرة طماحة، فمع أنه نشأ وهو يرى ما حل بالمسلمين من ضعف وتفرق ومهانة - إلا أن ذلك لم يفت من عضده، ولم يثن من عزمته، بل كان ذلك دافعاً له أن يسعى في رفع البلاء عن الأمة، وفي استعادة ما سلب منها من عز ومجد.

ولقد كانت أمنيته وهاجسه وشغله الشاغل - فتح بيت المقدس، وتطهيره من رجس الصليب.

ومما يدل على علو همته، وكبر نفسه أنه عندما كان في حلب، وقت تسلط الصليبيين وسيطرتهم - قام بعمل منبر عظيم، وبالغ في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا عملناه؛ لينصب بيت المقدس.

وكان الناس - آنذاك يسخرون منه، ويستبعدون تحقيق أمنيته؛ إلا أنه لم يلتفت إلى ذلك، واستمر في إصلاح ذلك المنبر، وحاله تلك كحال نبي الله نوح - عليه السلام- عندما كان يصنع الفلك، وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه.

ولقد أراد نور الدين من هذا الصنيع أن ييث الروح، وأن يبعث الهمم، وأن يبدد اليأس الذي خيم على كثير من القلوب.

ولقد حقق الله له أمنيته، ففتحت بيت المقدس، ونصب فيها المنبر على يد

1 - انظر أبطال ومواقف ص ٤٣٤.

تلميذه صلاح الدين ، وذلك بعد وفاة نور الدين رحمته الله .

يقول ابن الأثير بعد أن تحدث عن بيت المقدس : « ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ، ومعهم صلاح الدين ، وصلى في قبة الصخرة ، وكان الخطيب والإمام محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق .
ثم رتب صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس ، وأمر أن يعمل له منبر ، فقبل له : إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصنائع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه ، وقال : هذا عملناه ؛ لينصب بالبيت المقدس ، فعمله النجارون عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله ؛ فأمر بإحضاره ، فحمل من حلب ونصب بالقدس .

وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة ، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده »^(١) .

هـ - الشجاعة المتناهية : قال ابن الأثير ؛ « وأما شجاعته فإليها النهاية ، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين^(٢) ؛ ليقاتل بها .

فقال القطب النيسابوري الفقيه : بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام ؛ فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف .

فقال له نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبلي حفظ الله البلاد

1 - الكامل ١٨٤/٩ - ١٨٥ .

2 - التركش أو التركاش : كلمة فارسية معربة معناها الجعبة أي جعبة السهام .

والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو»^(١).

وقال ابن قسيم الحموي يصف شجاعته:

تبدو الشجاعة في طلاقة وجهه كالرمح دل على المساواة ليئنه
ووراء يقظته أناة مجرب لله سطوة بأسه وسكونه^(٢)

وقال الذهبي: «وكان بطلاً شجاعاً، وافر الهيئة، حسن الرمي، مليح الشكل، ذا تعبد وخوف وورع، وكان يتعرض للشهادة.

سمعه كاتبه أبو اليسر يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير»^(٣).

وقال: «قال ابن واصل: كان من أقوى الناس قلباً وبدناً، ولم ير على ظهر فرس أحد أشد منه، كأنما خلق عليه لا يتحرك»^(٤).

وقال الذهبي: «وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها.

قلت - أي الذهبي - : قد أدركها على فراشه، وعلى السنة الناس: نور الدين الشهيد»^(٥).

وتتجلى شجاعته في كثرة حروبه وفتوحاته التي تنم عن شجاعة نادرة، وتبدو

1 - الكامل ١٢٥/٩.

2 - الروضتين ٥٧/١، وانظر الأدب العربي ص ٧٠.

3 - سير أعلام النبلاء ٥٣٢/٢٠.

4 - سير أعلام النبلاء ٥٣٧/٢٠.

5 - سير أعلام النبلاء ٥٧٣/٢٠.

- أيضاً- من كثرة تعرضه للشهادة ورغبته فيها.

ومع ذلك مات ﷺ على فراشه بعله الخوانيق التي ألت بحلقه وذلك سنة ٥٦٩هـ.

فحبُّ الجبان النفس أوردته التقى وحبُّ الشجاع النفس أوردته

هذا وسيمر قريباً ذكر لشجاعته من خلال وصف الشعراء له.

- و- الهيبة الوافرة، والتواضع الجم: كان ﷺ مهيباً وقوراً، وفي الوقت نفسه

كان جمّ التواضع لطيف المعشر، وتلك هي أخلاق العظماء.

ولقد اشتهر عنه ذلك الأمر، قال ابن الأثير: «وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه.

وبالجملة فحسنته كثيرة، ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب»^(٢).

وقال الذهبي عن ابن عساكر: «وكان من رآه شاهد من جلال السلطنة وهيئته

ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته ما يحيره.

حكى من صحبه حضراً وسفراً أنه ما سمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في

ضجره»^(٣).

وقال ابن كثير: «وقد كان مهيباً وقوراً شديد الهيبة في قلوب الأمراء، لا يتجاسر

أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه.

ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن سوى الأمير نجم الدين أيوب.

1 - ديوان المتنبي ٦٥/١.

2 - الكامل ١٢٦/٩.

3 - سير أعلام النبلاء ٥٣٣/٢٠.

وأما أسد الدين شيركوه، ومجد الدين بن الداية نائب حلب، وغيرهما من الأكاابر فكانوا يقفون بين يديه.

ومع هذا كان إذا دخل عليه أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له، ومشى خطوات، وأجلسه معه على سجاده في وقار وسكون. وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول: هؤلاء جند الله، وبدعائهم نصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيتهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»^(١).

ز - الحرص على اتباع السنة: كان حريصاً على اتباع السنة ونشرها، والعمل بها، وقد مر بنا أنه كان كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية. ومما يؤكد ذلك أنه «أظهر ببلاده السنة، وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحى على الصلاة حى على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحى على خير العمل؛ لأن شعار الرفض كان ظاهراً بها»^(٢). ومن شدة حرصه على اتباع السنة أنه «قد سُمع عليه جزء الحديث وفيه (فخرج رسول الله ﷺ متقلداً السيف) فجعل يتعجب من تغير عادات الناس لما ثبت عنه - عليه السلام - وكيف كان يربط الأجناد والأمرء على أوساطهم، ولا يفعلون كما فعل رسول الله ﷺ؟

ثم أمر الجند بأن لا يحملوا السيوف إلا متقلديها، ثم خرج هو في اليوم الثاني

1 - البداية والنهاية ١٢/٣٠٢.

2 - البداية والنهاية ١٢/٢٩٩.

الى الموكب، وهو متقلد السيف، وجميع الجيش كذلك؛ يريد بذلك الاقتداء برسول الله ﷺ»^(١).

ح - محبة العلم والعلماء والصالحين: كان ﷺ محباً للعلم والعلماء والصالحين، وكان حريصاً على التشبه بهم، وتقريبهم، ومؤاخذتهم وزيارتهم^(٢).

قال ابن الأثير: «وكان يكرم العلماء، وأهل الدين، ويعظمهم، ويقوم إليهم، ويجلس معهم، وينبسط معهم، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط يده»^(٣).

وكان يجزل بهم العطايا - كما مر - وكان حريصاً على العلم، ويظهر ذلك من كثرة اطلاعه على الكتب، وحرصه على سماع الحديث.

قال ابن عساكر: «روى الحديث، وأسمعه بالإجازة»^(٤).

ط - الرحمة بالمساكين: مر بنا شيء من ذلك، ومن مظاهر تلك الرحمة أنه إذا احتلم بماليكه أعتقهم وزوجهم بجواريه، ومتى تشكى الناس من ولاته عزّلهم^(٥).

هذه بعض صفاته ومناقبه، فما أخرى بمن اتصف بها أن ينال كل خير ومجد وسؤدد.

1 - البداية والنهاية ١٢/٣٠٢ - ٣٠٣.

2 - انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٣٣ - ٥٣٤.

3 - الكامل ٩/١٢٥.

4 - سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٣٣.

5 - انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٣٣.

ثانياً: جهاده، وفتوحاته، وإصلاحاته:

لقد أخذ بقلبه، وغدا بلبه حب الجهاد، ولقد كانت نفسه تتوق إلى الشهادة في سبيل الله - كما مر -.

«قال الموفق عبداللطيف: كان نورالدين لم ينشف له لبْدٌ من الجهاد»^(١).

ويشهد لذلك ويصدق أنه قضى جل عمره في الجهاد في سبيل الله، وفي فتح الحصون، والمدن، والقلاع.

ولقد اتسع ملكه، وكثرت فتوحاته مع أنه لم يكن تحت يده حين قُتِلَ والدُه إلا ملك حلب.

قال ابن الأثير: «وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين الشريفين، وباليمن»^(٢).

وقال ابن الجوزي: «جاهد، وانتزع من الكفار نيفاً وخمسين حصناً»^(٣).

وقال ابن كثير: «أقام الحدود، وفتح الحصون، وكسر الفرنج مراراً عديدة، واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة، التي كانوا قد استحوذوا عليها من معاقل المسلمين»^(٤).

وقال الذهبي: «وبنى دار العدل، وأنصف الرعية، ووقف على الضعفاء،

1 - سير أعلام النبلاء ٥٣٤/٢٠.

2 - الكامل ١٢٥/٩.

3 - سير أعلام النبلاء ٥٣٤/٢٠.

4 - البداية والنهاية ٢٩٩/١٢.

والأيتام، والمجاورين، وأمر بتكميل سور المدينة النبوية، واستخراج العين بأحد دفنها السيل، وفتح درب الحجاز، وعمر الخوانق، والربط، والجسور، والخانات بدمشق وغيرها.

وكذا فعل إذ ملك حرّان، وسنجار، والرّها، والرقّة، ومَنْبج، وشيْزَر، وحمص، وحمّة، وصرّخد، وبعلبك، وتدمر.

ووقف كتباً كثيرة مثمّنة، وكسر الفرنج، والأرمن على حارم، وكانوا ثلاثين ألفاً؛ فقلّ من نجا»^(١).

قال: «وبنى المدارس بجلب، وحمص، وبعلبك، والجوامع، والمساجد»^(٢).

ثالثاً:- نور الدين في الأدب:

لقد كان لنور الدين مكانة وأثر في أدب الحروب الصليبية؛ فلقد اصطبغ أدب تلك الفترة بالصبغة الجهادية، فجاء شعراً حياً، مصوراً مآسي الأمة، خالياً من الملق والرياء.

ولقد وجد الأدباء في شخصية نور الدين مادة عظيمة، ورافداً كبيراً لأدبهم؛ فانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه، وتصوير بطولته، ووصف معاركه وانتصاراته؛ فأحيوا بذلك مآثره، وخلدوا ذكره.

كل ذلك مع أنه كان لا يأبه بالمديح، ولم يكن يجازي الشعراء على ذلك. قال الذهبي: «كان تقياً لا يرى بذل الأموال إلا في نفع، وما للشعراء عنده من

1 - سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٣٢-٥٣٣.

2 - سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٣٢-٥٣٣.

نَفَاقٌ»^(١).

يقول أسامة بن منقذ مبيناً حال نور الدين مع الشعراء :
سلطاننا زاهدٌ والناسُ قد زهدوا له فكل على الخيرات منكمشُ
أيامُه مثل شهر الصوم طاهرة من المعاصي وفيها الجوع
وفيما يلي نماذج مما قيل في نور الدين من شعر.

قال ابن القيسراني يصف شجاعة نور الدين وزهده :
يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهد زهادها^(٣)

وقال في وصف عفته ، وتجافيه عن الدنيا :
ثنى يده عن الدنيا عفاً ومال بها عن الأموال زهداً^(٤)

وقال مهنتاً له بالظفر في إحدى المعارك :
هذي العزائمُ لا ما تدعى القضبُ وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهممُ اللاتي متى خطبت تعترت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يابن عماد الدين ذروتها براحة للمسامي دونها تعب
مازال جدك يبني كل شاهقةٍ حتى بنى قبّة أوتادها الشهبُ

1 - سير أعلام النبلاء ٥٣٥/٢٠.

2 - سير أعلام النبلاء ٥٣٥/٢٠.

3 - الأدب العربي في الحروب الصليبية ص ٦٤ عن الروضتين ٢٠٩/١.

4 - الأدب العربي ص ٦٤ عن الروضتين ٤٨/١.

أغرَّت سيوفُك بالأفرنج راجفةً فؤادُ روميةَ الكبرى لها يجيبُ^(١)
ضربت كبشهم^(٢) منها بقاصمة أودى بها الصلب وانحطت بها الصُّلب
طهَّرت أرض الأعداء في دمائهم طهارةً كلُّ سيف عندها جنب^(٣)

وقال بعض الشعراء فيه عندما حاصر قلعة حارم :

ألبست دينَ محمدٍ يا نوره عزاً له فوق السُّها آساد
مازلت تشمله بميَّاد القنا حتى تثقف عوده الميَّاد
لم يبقَ منذ أرهفت عزمك دونه عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلماً حمدتك عن خطبائها الأعواد^(٤)

وقال العماد الأصفهاني في مدح نور الدين وذكر محامده ومآثره :

آثاره حميدةٌ وإنما للمرء من آثاره حميدُها
إن الورى بحبِّه وبغضه يعرف من شقيِّها سعيدُها
جلا ظلامَ الظلمِ نورُ الدين عن أرض الشأمِ فله تحميدُها
إن الرعايا منه في رعايةٍ ونعمة مستوجبٌ مزيدُها
لنومها يسهر بل لأمنها يخاف بل بخصبها وجودها

إلى أن يقول :

- 1 - يجب : من الوجيب وهو الاضطراب والخوف.
- 2 - الكبش : هو رئيس القوم ومقدمهم.
- 3 - الكامل لابن الأثير ٢٥/٩-٢٦.
- 4 - الكامل ٤٩/٩.

يا دولة نورية من الورى وخصبها وجودها وجودها
فابق لنا يا ملكاً بقاؤه في كل عام للرعايا عيدها
في نعمة جديدة سعوها ودولة سعيدة جدودها^(١)

وقال ابن منير الطرابلسي في نور الدين :

رآك الصليب صليب القناة أمين العشار متين العمدة
تهم فتسلبه ما اقتنى وتبدأى فتثكله ما احتشد
زبنتهم أمس عن صرخد^(٢) ففضوا كأن نعماً شرد^(٣)

وقال ابن القيسراني فيه بعد هزيمة الفرنج بموقعة بغري ، وبغري مكان من أرض الشام ، يقول في مطلع القصيدة :

يا ليت أن الصدّ صدود أو لا فليت النوم مردود
إلى أن قال :

وكيف لا يُثنى على عيشنا الـ محمود والسلطان محمود
وصارم الإسلام لا ينثني إلا وشلو الكفر مقود
مكارم لم تك موجودةً إلا ونور الدين موجد
وكم له من وقفة يومها عند الملوك الكفر مشهود^(٤)

1 - ديوان العماد الأصفهاني ص ١٤٤ ، وانظر الأدب العربي ص ٩٤-٩٥.

2 - صرخد: بلاد ملاصق لبلد حوران من أعمال دمشق.

3 - ديوان ابن منير ص ٨٨ ، وانظر الأدب العربي ص ٩٩-١٠٠.

4 - الكامل ٢٢/٩.

وعندما توفي نور الدين رثاه الشعراء، وبينوا عظم المصيبة التي حلت بالإسلام والمسلمين بسبب فقده.

ومن رثاه العماد الصفهاني، حيث رثاه بقصيدة طويلة قال فيها:

الدين في ظلمٍ لغيبة نوره والدهر في غمٍ لفقد أميره
مَنْ ينصر الإسلام في غزواته فلقد أصيب بركنه وظهيره
مَنْ للفرنج ومن لأسر ملوكها من للهدى يبغي فكاك أسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولاً أبقارها برواحه في غُدُوهِ وبكوره

ثم قال معدداً مناقب نور الدين:

أنت الذي أحييت شرع محمد وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أمرت بفتح خندق معقل حتى سكنت اللحد في محفوره
كم قيصرٍ للروم رمّت بقسره إرواء بيض الهند من تاموره^(١)
أوتيت فتح حصونه وملكت عقه ر بلاده وسبيت أهل قصوره

ثم قال:

من للكريم ومن لنعش عثاره من لليتيم ومن لجبر كسيره
لهضي على تلك الأنامل إنها مُدُّ غُيِّبَت غاضَ الندى ببحوره

إلى أن قال:

1 - تاموره: يعني دمه.

يا حاملين سريره مهلاً فَمِنْ
عجبٍ نهوضكم بحمل ثبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه
مستجمعين على شفير حفيره
حياك مُعْتَلُّ الصَّبَا بنسيمه
وسقائك مُنْهَلُّ الحيا بدروره
وسكنت عُلَّيْنِ في فردوسه
حلف المسرة ظافراً بأجوره^(١)

رحم الله نور الدين ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً ما جرى به عباده
الصالحين الصادقين.

1 - ديوان العماد الأصفهاني ص ٢١٢-٢١٦ وانظر الأدب العربي ص ١٢٧-١٢٩.

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

«نبذة عن نشأته وأخباره في صباه»

هو تقي الدين ، أبو العباس ، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني ، ولد سنة ٦٦١ هـ ، وتوفي سنة ٧٢٨ هـ .

ذلك الإمام الحبر ، والعلامة البحر ، الذي دنت له قطوف العلوم ، ودانت له نواصي الحكمة ، والذي طبقت شهرته الخافقين ، وسار بجديته الركبان ، فهو أمة في الخير ، وقدوة في الهدى والتقوى .

والحديث عن جوانب النبوغ والألمعية في سيرة هذا الإمام يطول ، والمقام لا يتسع للإسهاب والإطناب ؛ لأن جوانب العظمة في شخصيته كثيرة جداً ، يصعب حصرها ، والوقوف عليها .

وإليك فيما يأتي نبذة عن نشأته وبعض أخباره في صباه :

قال العلامة محمد بن عبدالهادي في كتابه الممتع العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية : « قيل : إن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء ، فرأى هناك طفلة ، فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتاً ، فقال : يا تيمية يا تيمية ؛ فلقب بذلك .

قال ابن النجار ذكر لنا أن جده محمداً كانت أمه تسمى تيمية ، وكانت واعظة ؛ فنسب إليها ، وعرف بها .

ولد شيخنا أبو العباس ب : حران يوم الاثنين عاشر ، وقيل : ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ إحدى وستين وستمائة ، وسافر والداه به ، وبإخوته إلى

الشام عند جور التتار؛ فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة؛ لعدم الدواب، فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة؛ فابتهلوا إلى الله، واستغاثوا به؛ فنجوا وسلموا.

وقدموا دمشق في أثناء سنة سبع وستين وستمائة؛ فسمعوا من الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي جزء ابن عرفة كله، ثم سمع شيخنا الكثير من ابن أبي اليسر، والكمال ابن عبد، والمجد بن عساكر، وأصحاب الخشوعي، ومن الجمال يحيى بن الصيرفي، وأحمد بن أبي الخير، والقاسم الأربلي، والشيخ فخر الدين بن البخاري، والكمال عبدالرحيم، وأبي القاسم بن علان، وأحمد بن شيبان، وخلق كثير^(١).

ثم قال ابن عبد الهادي متحدثاً عن شيوخ ابن تيمية، والكتب التي سمعها وقرأها والعلوم التي برع فيها في بداية طلبه، وعن فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته: «وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ. وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار، والأجزاء، ومن مسموعاته: معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث، وقرأ، ونسخ، وتعلم الخط، والحساب في المكتب، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ العربية على ابن عبدالقوي، ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه؛ حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً؛ حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك.

هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة؛ فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه.

واتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلي أراه، فقال له خياط: هذه طريق كُتَّابه، وهو إلى الآن ما جاء؛ فاقعد عندنا الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً إلى الكتاب، فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمر صبيان، فقال الخياط للحلبي: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشيخ، فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح، فنظر فيه، ثم قال: يا ولدي امسح هذا؛ حتى أملي عليك شيئاً تكتبه، ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً، وقال له: اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه، ثم دفعه إليه، وقال: اسمعه علي، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع، فقال له يا ولدي: امسح هذا، ففعل فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة، فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي؛ ليكون له شأن عظيم؛ فإن هذا لم ير مثله أو كما قال»^(١).

وأورد ابن ناصر الدين الدمشقي قول أبي المظفر السرمرري في المجلس السابع والستين من أماليه في الذكر والحفظ: «ومن عجائب ما وقع في الحفظ في أهل

زماننا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية؛ فإنه كان يمر بالكتاب، فيطالعه مرة، فينتقش في ذهنه، فيذاكر به، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه.

ومن أعجب ما سمعته عنه ما حدثني به بعض أصحابه: أنه لما كان صبياً في بداية أمره أراد والده أن يخرج بأولاده يوماً إلى البستان على سبيل التنزه، فقال له: يا أحمد تخرج مع إخوتك تستريح؛ فاعتلّ عليه، فألحّ عليه والده؛ فامتنع أشد الامتناع، فقال: أشتهي أن تعفيني من الخروج، فتركه وخرج بإخوته، فظلوا يومهم في البستان، ورجعوا آخر النهار، فقال: يا أحمد أوحشت إخوتك اليوم، وتكدر عليهم بسبب غيبتك عنهم؛ فما هذا؟ فقال: يا سيدي! إنني اليوم حفظت هذا الكتاب؛ لكتاب معه، فقال: حفظته؟! كالمنكر المتعجب من قوله.

فقال له: استعرضه عليّ، فاستعرضه؛ فإذا به قد حفظه جميعه، فأخذه وقبّله بين عينيه، وقال: يا بني لا تخبر أحداً بما قد فعلت؛ خوفاً عليه من العين، أو كما قال^(١).

وقال الحافظ الذهبي رحمته الله - متحدثاً عن نشأة ابن تيمية - : «نشأ في تصون تام، وعفاف، وتألّه، وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس، والمحافل في صغره، ويناظر، ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه

1 - الرد الوافر لابن ناصر الدين ص ٢١٨-٢١٩.

أعيان البلد في العلم؛ فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقلّ، وشرع في الجمع، والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال ومات والده، وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم، فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره، وبعُدَ صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس، ولا يتلعثم، وكذا كان الدرس بتؤدة، وصوت جهوري فصيح»^(١).

وقال ابن عبد الهادي رحمته الله متحدثاً عن نشأة ابن تيمية: «وقال بعض قدماء أصحاب شيخنا - وقد ذكر نبذة من سيرته - : أما مبدأ أمره ونشأته فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء راشفاً كؤوس الفهم، راتعاً في رياض التفقه، ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة، والاشتغال، والأخذ بمعالي الأمور خصوصاً علم الكتاب العزيز، والسنة النبوية ولوازمها.

ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً سلفياً متأهلاً عن الدنيا صيئناً تقياً، براً بأمه، ورعاً عفيفاً، عابداً ناسكاً، صواماً قواماً، ذاكراً لله - تعالى - في كل أمر، وعلى كل حال، رجاعاً إلى الله - تعالى - في سائر الأحوال والقضايا، وقافاً عند حدود الله - تعالى - وأوامره ونواهيه، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم؛ فلا تروى من المطالعة، ولا تمل من

الاشتغال، ولا تكل من البحث، وقلَّ أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله، مقصوده الكتاب والسنة.

ولقد سمعته في مبادئ أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء، أو الحالة التي تشكل عليّ، فأستغفر الله -تعالى- ألف مرة أو أكثر أو أقل؛ حتى ينشرح الصدر، وينحل إشكال ما أشكل.

قال: وأكون إذ ذاك في السوق، أو المسجد، أو الدرب، أو المدرسة لا يمنعني ذلك من الذكر، والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي.

قال هذا الصاحب: ولقد كنت في تلك المدة، وأول النشأة إذا اجتمعت به في ختم، أو مجلس ذكر خاص مع أحد المشايخ المذكورين، وتذاكروا، وتكلم مع حداثة سنه أجد لكلامه صولة على القلوب، وتأثيراً في النفوس، وهيبة مقبولة، ونفعاً يظهر أثره، وتنفع له النفوس التي سمعته أياماً كثيرة بعقبه حتى كان مقاله بلسان حاله وحاله ظاهر له في مقاله شهدت ذلك منه غير مرة.

قلت: ثم لم يبرح شيخنا رحمته الله في ازدياد من العلوم، وملازمة الاشتغال، والإشغال، وبث العلم ونشره، والاجتهاد في سبل الخير حتى انتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والإنابة، والجلالة، والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الجهاد مع الصدق، والعفة، والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتغال إلى الله، وكثرة الخوف منه، وكثرة المراقبة

له، وشدة التمسك بالأثر، والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، والصبر على من آذاه، والصفح عنه، والدعاء له، وسائر أنواع الخير.

وكان ﷺ سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجى في حلوق أهل الأهواء المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق، ونصرة الدين، وكان بجرأ لا تكدره الدلاء، وجرأ يقتدي به الأخيار الألباء، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار»^(١).

« علم ابن تيمية »

فإذا أتيت إلى العلم وجدت العباب الزاخر، والبحر المتلاطم، وذلك لما وهبه الله من سعة العلم وغزارته، وقد مر شيء من ذلك.

قال عنه الإمام الحافظ الذهبي رحمته الله: «قرأ القرآن، والفقه، وناظر، واستدل وهو دون البلوغ، وبرع في العلم والتفسير، وأفتى، ودرس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله من المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله - تعالى - مدة سنتين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاءً، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه، ومذاهب الصحابة والتابعين فضلاً عن المذاهب الأربعة، فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل، والنحل، والأصول، والكلام، فلا أعلم له فيه نظيراً، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جداً، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب»^(١).

وقال في موضع آخر: «كان آية في الذكاء، وسرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بجرأً في النقليات، هو في زمانه فريد عصره، علماً وزهداً، وشجاعة وسخاء، وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وكثرة تصانيف. وقرأ وحصل وبرع في الحديث، والفقه، وتأهل للتدريس، والفتوى وهو ابن

1 - العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادي ص ٢١-٢٢.

سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير، والأصول، وجميع علوم الإسلام أصولها، وفروعها، ودقها، وجلها سوى علم القراءات؛ فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون فهو فردهم، وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلسهم وتيسهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم.

وله يد طولى في معرفة العربية، والصرف، واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي؛ فإن سيرته، وعلومه، ومعارفه، ومحنه، وتنقلاته تحتمل أن ترصع في مجلدين.

وهو بشر من البشر له ذنوب، فالله - تعالى - يغفر له، ويسكنه أعلى جنته؛ فإنه كان رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأساً في العلم يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد، ولا لحظتها من فقيه»^(١).

وقال في مكان آخر: «وله خبرة تامة بالرجال، وجرحهم، وتعديليهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالى والنازل، وبالصحيح والسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب

السته ، والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، ولكن الإحاطة لله غير أنه يغترف من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي .

وأما التفسير فمُسَلَّم إليه ، وله في استحضار الآيات من القرآن وقت إقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة ، وإذ آراه المقرئ تحير فيه .
ولفرط إمامته في التفسير ، وعظمة اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويوهي أقوالاً عديدة ، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث»^(١) .

وقال عنه الحافظ البزار رحمته الله : «أما غزارة علومه فمنها ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد ، واستنباطه لدقائقه ، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره ، واستشهاده بدلائله ، وما أودعه الله - تعالى - فيه من عجائبه ، وفنون حكمه ، وغرائب نوادره ، وباهر فصاحته ، وظاهر ملاحظته؛ فإنه فيه الغاية التي ينتهى إليها ، والنهاية التي يُعَوَّل عليها .

ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات من القرآن يشرع في تفسيرها ، فينقضي المجلس بجملته ، والدرس برُمَّته ، وهو في تفسير بعض آية منها .
وكان مجلسه مُقَدَّرًا بقدر ربيع النهار ، يفعل ذلك بديهته من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئاً معيناً بيّته؛ ليستعد لتفسيره .

بل كان كل من حضر يقرأ ما تيسر له ، ويأخذ هو في القول على تفسيره .

وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء أخرى في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين. ولقد أملى في تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١، مجلداً كبيراً. وقوله -تعالى-: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥ نحو خمس وثلاثين كراساً^(١).

ثم قال البزار رحمته الله: «وأما معرفته، وبصره بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقواله، وأفعاله، وقضاياه، ووقائعه، وغزواته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية المنقول عن الصحابة - رضي الله عنهم - في أقوالهم، وأفعالهم، وفتاويهم، وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خصوا به من بين الأمة؛ فإنه كان صلى الله عليه وسلم من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريد منه؛ فإنه قل أن ذكر حديثاً في مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدل به إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن، أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة.

وقل أن يسأل عن أثر إلا ويين في الحال حاله، وحال أمره، وذاكره^(٢). وقال - أيضاً -: «ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته الأولى بمصر لما أخذ وسجن، وحيل بينه وبين كتبه صنف عدة كتبٍ صغاراً وكباراً، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار، وأقوال العلماء، وأسماء المحدثين،

1- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزار ص ٢٢-٢٣.

2- الأعلام العلية ص ٢٣-٢٤.

والمؤلفين ، ومؤلفاتهم ، وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقله وقائليه بأسمائهم ، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها ، وأي موضع هو منها كل ذلك بديهة من حفظه ؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه .

وُنُقِبَتْ ، واخْتُبِرَتْ ، واعتبرت فلم يوجد فيها - بحمد الله - خلل ولا تغيير^(١) .

وقال البزار - أيضاً - : « حكى من يوثق بنقله أنه كان يوماً بمجلس ، ومحدثٌ يقرأ عليه بعض الكتب الحديثية ، وكان سريع القراءة ، فعارضه الشيخ في اسم رجل عن سند الحديث ، وقد ذكره القارئ بسرعة ، فذكر الشيخ أن اسمه فلان بخلاف ما قرأ ، فاعتبروه فوجدوه كما قال الشيخ »^(٢) .

« ولقد سئل يوماً عن الحديث « لعن الله المحلل والمحلل له »^(٣) فلم يزل يورد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلداً كبيراً »^(٤) .

وقال ابن عبد الهادي رحمته الله : « وقال العلامة كمال الدين بن الزمكاني كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف ، إذا جلسوا معه

1- الأعلام العلية ص ٢٤ .

2- الأعلام العلية ص ٣٢ .

3- أخرجه أحمد ٤٤٨/١ ، ٤٦٢ ، والدارمي باب في وجوب نفقة الرجل على أهله (٢٣٠٥) ، والترمذي ٤٢٨/٣ (١١٢٠) ، وقال : « حسن صحيح » .

4- الأعلام العلية ص ٣٣ .

استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع، أم غيرها إلا فاق فيه أهله، والمنسوين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب، والتقسيم والتبيين.

ووقعت مسألة فرعية في قسمة جرى فيها اختلاف بين المفتين في العصر، فكتب فيها مجلدة كبيرة.

وكذلك وقعت مسألة في حد من الحدود، فكتب فيها مجلدة كبيرة، ولم يخرج في كل واحدة عن المسألة، ولا طول بتخليط الكلام، والدخول في شيء والخروج من شيء، وأتى في كل واحدة بما لم يكن يجري في الأوهام، والخواطر، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها^(١).

وقال ابن عبد الهادي: «وقال الشيخ الحافظ فتح الدين أبو الفتح بن سيد الناس اليعمري المصري بعد أن ذكر ترجمة شيخنا الحافظ جمال الدين أبي الحجاج المزني، وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن الحلیم بن عبد السلام بن تيمية؛ فألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاکر بالحديث فهو صاحب علمه، وذو رايته، أو حاضر بالنحل والملل لم يُرَ أوسع من نخلته في ذلك، ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم ترَ عينٌ من رآه مثله، ولا

رأت عينه مثل نفسه ، كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجم الغفير ، ويردون من بحر علمه العذب النمير ، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير»^(١) .

وقال عنه الأستاذ محمد كرد علي رحمته الله : «ومع ما حاول أعداؤه أن ينجسوا عيشه دأب في كل زمان على التأليف ، فألف ثلاثمائة مجلد ، وكلها في الشرع ، وفي حل مسائل عويصة من الدين تُقرأ فيما وصلنا منها مثلاً من علمه النفيس ، وعمله الذي عقت القرون أن يأتي رجل بما يماثله .

كثرت تأليفه؛ لأنه كان يؤلف من صدره ، حفظ الكتاب والسنة ، وما دون في شروحهما ، وما قاله العلماء في تفسيرهما ، وقد ساعدته كثرة محفوظه ، وفيض خاطره ، وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه ، ولو لم يكن له إلا منهاج السنة؛ لكفاه على الأيام فخراً لا يبلى؛ ففيه مثال من علمه ، وقوة حجته ، ومعرفته بالملل والنحل .

وإذا قلنا: إنه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة لصدقتنا كل منصف من أهل القبلة .

وكتاب منهاج السنة من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه ، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به ، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها ، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام ، وتاريخ الملل والنحل .

ولو ادعينا أنه لم يأت عالم^(١) يعرف ما طرأ على الدين، ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة، ويوماً يوماً ما قدر أحد على ردِّ دعوانا.

رد على المعتزلة، وعلى الجهمية، وعلى الشيعة، وعلى الفلاسفة، وعلى غيرهم، فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة، واستنبطها ببعده نظره، وشدة بحثه، فما كتب لإمام من الأئمة في عصره، وبعد عصره أن يناقضه، ويرد أقواله.

وعلى كثرة ما حرص الشافعية للتفوق على هذا الحنبلي، وإقناع العلماء بفتاويهم، وتزييف فتاويه - ما كانوا معه إلا كالأطفال أمام الرجال، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي، وما كان لهم في دولة مصر، والشام من السلطان، اعتقلوه في القاهرة والإسكندرية أشهراً لم تمنعه عن التأليف، والتدريس، والوعظ، وما حالوا دون إعجاب المنصفين من العلماء به، وقول الحق فيه، ولادون تقديس الأمة له يوم موته، وهي التي عرفته سباقاً إلى كل خير، يقصد منه صلاح دنياها ودينها.

وكان له في انتصار دولة المماليك على التتار اليد الطولى التي لا تنكر، ودل أنه في السياسة كما هو في الدين إمام عظيم، وأن الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره^(٢).

1 - كأن في الكلام سقطاً وربما كان: لم يأت عالم مثله، أو بعده...

2 - كنوز الأجداد لمحمد كرد علي ص ٣٦٥-٣٦٦.

« مؤلفات ابن تيمية »

أما مؤلفاته ومصنفاته وفتاويه فيقصر دونها العد والإحصاء، والبحث والاستقصاء، وقد مرت الإشارة إلى كثرة تصانيفه.

ولهذا قلَّ أن تجد باحثاً منذ عصر ابن تيمية إلى عصرنا هذا إلا ويعول على ابن تيمية، ويأخذ بأقواله، سواء كان ذلك في العقائد أو الفقه، أو الحديث، أو الفلسفة، أو المنطق، أو التربية، أو السلوك، أو السياسة، أو الاقتصاد أو غيرها. قال ابن عبد الهادي نقلاً عن الذهبي: « ويكتب في اليوم واللييلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصولين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل، نحواً من أربعة كراريس، أو أزيد، وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة، وله في غير المسألة مصنف مفرد في مجلد، ثم ذكر بعض تصانيفه، وقال: ومنها كتاب في الموافقة بين المعقول والمنقول في مجلدين.

قلت^(١): هذا الكتاب، وهو كتاب (درء تعارض العقل والنقل) في أربع مجلدات كبار، وبعض النسخ به في أكثر من أربع مجلدات، وهو كتاب حافل عظيم المقدار، رد الشيخ فيه على الفلاسفة والمتكلمين.

وله كتاب في نحو مجلد أجاب فيه عما أورده كمال الدين بن الشريسي على هذا الكتاب.

وللشيخ رحمته الله من المصنفات، والفتاوى، والقواعد، والأجوبة، والرسائل، وغير ذلك من الفوائد، مالا ينضب، ولا أعلم أحداً من متقدمي الأمة، ولا

1 - القائل هو ابن عبد الهادي.

متأخريها جمع مثل ما جمع ، ولا صنف نحو ما صنف ، ولا قريباً من ذلك ، مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه ، وكثير منها صنفه في الحبس ، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب»^(١).

وبعد ذلك شرع ابن عبد الهادي في ذكر مصنفات ابن تيمية^(٢).

وقال ابن عبد الهادي رحمته الله في أثناء سرده لكتب ابن تيمية: «وله أجوبة في أحاديث يسأل عنها من صحيح شرحه ، وضعيف بين ضعفه ، وباطل بين بطلانه.

وله من الأجوبة والقواعد شيء كثير غير ما تقدم ذكره يشق ضبطه وإحصاؤه ، ويعسر حصره واستقصاؤه.

وسأجتهد إن شاء الله - تعالى - في ضبط ما يمكنني من ضبط مؤلفاته في موضع آخر غير هذا ، وأبين ما صنفه منها بمصر ، وما ألفه منها بدمشق ، وما جمعه وهو في السجن ، وأرتبه ترتيباً حسناً غير هذا الترتيب بعون الله - تعالى - وقوته ومشيتته»^(٣).

إلى أن قال: «قال الشيخ أبو عبدالله^(٤): لو أراد الشيخ تقي الدين رحمته الله أو

1 - العقود الدرية ص ٢٣-٢٤.

2 - انظر العقود الدرية ص ٢٤-١٩٢.

3 - العقود الدرية ص ٧٢.

4 - يعني به ابن رشيق وهو من أخص أصحاب ابن تيمية ، وأكثرهم كتابة لكلامه ، وحرصاً على جمعه. انظر العقود ص ٢٥.

غيره حصرها - يعني مؤلفات الشيخ - لما قدروا؛ لأنه ما زال يكتب، وقد من الله عليه بسرعة الكتابة، ويكتب من حفظه من غير نقل.

وأخبرني غير واحد أنه كتب مجلداً لطيفاً في يوم، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر، وأحصيت ما كتبه وبَيَّضه في يوم، فكان ثمان كراريس في مسألة من أشكال المسائل، وكان يكتب على السؤال الواحد مجلداً.

وأما جواب يكتب فيه خمسين ورقة وستين وأربعين وعشرين - فكثير.

وكان يكتب الجواب؛ فإن حضر من يبيّضه وإلا أخذ السائل خطه وذهب.

ويكتب قواعد كثيرة في فنون من العلم في الأصول، والفروع، والتفسير، وغير ذلك، فإن وجد من نقله من خطه، وإلا لم يشتهر، ولم يعرف، وربما أخذه بعض أصحابه، فلا يقدر على نقله، ولا يردّه إليه؛ فيذهب.

وكان كثيراً ما يقول: قد كتبت في كذا وفي كذا.

ويُسأل عن الشيء فيقول: قد كتبت في هذا، فلا يدري أين هو، فيلتفت إلى أصحابه، ويقول: ردوا خطي وأظهروه؛ لينقل، فمن حرصهم عليه لا يردونه، ومن عجزهم لا ينقلونه، فيذهب، ولا يعرف اسمه.

فلهذه الأسباب وغيرها تعذر إحصاء ما كتبه وما صنّفه.

وما كفى هذا إلا أنه لما حبس تفرق أتباعه، وتفرقت كتبه، وخوفوا أصحابه من أن يظهروا كتبه، ذهب كل أحد بما عنده، وأخفاه، ولم يظهروا كتبه؛ فبقي هذا يهرب بما عنده، وهذا يبيعه أو يهبه، وهذا يخفيه ويودعه، حتى إن منهم من تسرق كتبه أو تجحد؛ فلا يستطيع أن يطلبها، ولا يقدر على تخليصها، فبدون

هذا تتمزق الكتب، والتصانيف.

ولولا أن الله - تعالى - لطف، وأعان، ومَنَّ، وأنعم، وجرت العادة في حفظ أعيان كتبه، وتصانيفه - لما أمكن لأحد أن يجمعها.

ولقد رأيت من خرق العادة في حفظ كتبه، وجمعها، وإصلاح ما فسد منها، ورد ما ذهب منها - ما لو ذكرته لكان عجباً يعلم به كل منصف أن الله عنايةً به وبكلامه؛ لأنه يذب عن سنة نبيه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(١).

«تعبد ابن تيممة»

أما عبادته وأحواله رحمته فكان عجباً من العجاب ، وذلك لما آتاه الله من جلد باهر ، ورغبة ومحبة للعبادة ، وقد مر شيء من ذلك .

قال تلميذه ابن القيم رحمته : « وحضرت شيخ الإسلام ابن تيممة مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله - تعالى - إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ وقال : هذه غدوتي ، ولو لم أتغدّ سقطت قوتي ، أو كلاماً قريباً من هذا .
وقال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها ؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاماً هذا معناه »^(١) .

وقال البزار رحمته : « أما عن تعبد رحمته فإنه قلّ أن سُمعَ بمثله ؛ لأنه قد قطع جُلّ وقته وزمانه فيه ، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله - تعالى - ما يراد له لا من أهل ، ولا من مال .

وكان في ليله متفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه - عز وجل - ضارعاً ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية .
وكان إذا ذهب الليل ، وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بستتها قبل إتيانه إليهم .

وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب ؛ لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام .
فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه ، حتى يميله يمنة ويسرة »^(٢) .

1- الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص ٦٣ .

2- الأعلام العلية ص ٣٨ .

وقال الذهبي رحمته الله في أثناء كلامه في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية :
«بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكرة، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، والتعظيم لحرمة الله، فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقائع شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله؛ فإنه دائم الابتهاال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أورد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية.

وله من الطرف الآخر محبوبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة، تحبه؛ لأنه منتصب؛ لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه، وقلمه»^(١).

« سمته وهديه وخلقه »

أما عن سمته وهديه وحسن خلقه فكان ضرباً من الخيال ، وقد مر شيء من ذلك.

قال ابن القيم في معرض حديث له عن حسن الخلق ، والعمو ، ومقابلة الإساءة بالإحسان : « وما رأيت أحداً أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام - قدس الله روحه - .

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه . وما رأيتَه يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم ، وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه ، وأشدهم عداوةً وأذىً له ، فنهرني ، وتكر لي ، واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله ، فعزأهم ، وقال : إني لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجونه فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه ، ونحو هذا الكلام ، فسروا به ، ودعوا له ، وعظموا هذه الحال منه ، فرحمه الله ورضي عنه »^(١) .

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله : « وسمعت الشيخ تقي الدين رحمه الله يذكر أن السلطان لما جلسا بالشباك أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله ، واستفتاه في قتل بعضهم .

قال^(٢) : ففهمت مقصوده ، وأن عنده حنقاً شديداً عليهم ؛ لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ؛ فشرعت في مدحهم ، والثناء عليهم ،

1- مدارج السالكين ٢/٣٢٨-٣٢٩ .

2- القائل هو ابن تيمية .

وشكرهم ، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، أما أنا فهم في حل من حقي ، ومن جهتي ، وسكنت ما عنده عليهم .

قال : فكان القاضي زيد الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك : ما رأينا أتقى من ابن تيمية ؛ لم تُبقِ ممكناً في السعي فيه ، ولما قدر علينا عفا عنا .

ثم إن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة ، وسكن بالقرب من مشهد الحسين ، وعاد إلى بث العلم ، ونشره ، والخلق يشتغلون عليه ، ويقرأون ، ويستفتونه ، ويجيبهم بالكلام ، والكتابة ، والأمراء ، والأكابر ، والناسُ يترددون إليه ، وفيهم من يعتذر إليه ويتنصل مما وقع .

فقال : قد جعلت الكل في حل مما جرى»^(١) .

وقال البزار عن زهده : « ولقد اتفق كل من رآه خصوصاً من أطال ملازمته أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا ، حتى لقد صار ذلك مشهوراً ؛ بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها .

بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ : من كان أزهد أهل هذا العصر ، وأكملهم في رفض فضول الدنيا ، وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال : ما سمعت بمثل ابن تيمية - رحمة الله عليه -»^(٢) .

وقال عن تواضعه : « أما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك ؛ كان يتواضع للكبير ، والصغير ، والجليل ، والحقير ، والغني

1 - العقود الدرية ص ٢٢١ .

2 - الأعلام العلية ص ٤٧-٤٨ .

الصالح، والفقير.

وكان يدني الفقير الصالح، ويكرمه، ويؤنسه، ويبسطه بحديثه المُسْتَحْلَى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته؛ جبراً لقلبه، وتقرباً بذلك إلى ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه، أو يسأله، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عريكة، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، حُرّاً أو عبداً، عالماً أو عامياً، حاضراً أو بادياً.

ولا يجبهه، ولا يخرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه، بل يجيبه، ويفهمه، ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانسباط»^(١).

وقال عن كرمه: «كان ﷺ محبوباً على الكرم، لا يتطبعه ولا يتصنعه؛ بل هو له سجية، وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار ولا درهم قط، بل كان مهما قدر على شيء من ذلك يجود به كله.

وكان لا يرد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير، ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك، بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئاً من النفقة، فإن كان حينئذ متعذراً لا يدعه يذهب بلا شيء، بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه، وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله»^(٢).

وقال: «وحدثني من أثق به: أن الشيخ ﷺ كان لا يرد أحداً يسأله شيئاً

1- الأعلام العلية ص ٥٢.

2- الأعلام العلية ص ٦٥.

كَتَبَهُ ، بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها.
 وأُخْبِرْنَا أَنَّهُ جَاءَهُ يَوْمًا إِنْسَانٌ يَسْأَلُهُ كِتَابًا يَنْتَفِعُ بِهِ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ كِتَابًا يَخْتَارُهُ ،
 فَرَأَى ذَلِكَ الرَّجُلَ بَيْنَ كِتَابِ الشَّيْخِ مَصْحَفًا قَدْ اشْتَرَى بِدِرَاهِمٍ كَثِيرَةٍ ، فَأَخَذَهُ
 وَمَضَى ، فَلَامَ بَعْضَ الْجَمَاعَةِ الشَّيْخَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَيَحْسَنُ بِي أَنْ أَمْنَعَهُ بَعْدَمَا
 سَأَلَهُ ؟ دَعَهُ فَلِيَنْتَفِعَ بِهِ .

وكان الشيخ رحمته الله ينكر إنكاراً شديداً على من يُسأل شيئاً من كتب العلم
 ويمنعها من السائل ، ويقول : ما ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه ^(١) .
 أما عن خشوعه ، ومسكنه ، وتذله ، وافتقاره إلى الله - عز وجل - فكان
 يقضى منه العجب ، وتقدم شيء من ذلك .

يقول تلميذه العلامة ابن القيم رحمته الله في معرض حديث له في منزلة الخشوع
 في كتابه الماتع مدارج السالكين : « فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة ،
 والفاقة والذل ، وأنه لا شيء ، وأنه ممن لم يصحَّ له بعدُ الإسلام حتى يدَّعي
 الشرف فيه .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمراً
 لم أشاهده من غيره ، وكان يقول كثيراً : مالي شيء ، ولا مني شيء ، ولا في
 شيء ، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :
 أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إنني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه ، وعلى ظهرها آيات بخطه من نظمه :

أنا الفقير إلى رب البريات	أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلومُ لنفسي وهي ظالمتي	والخيرُ إن يأتنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلبَ منفعةٍ	ولا عن النفس لي دفع المضراتِ
وليس لي دونه ربٌّ يدبرني	ولا شفيعٌ إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا	إلى الشفيع كما قد جا في الآياتِ
ولست أملك شيئاً دونه أبداً	ولا شريكٌ أنا في بعض ذراتِ
ولا ظهير له كي يستعين به	كما يكون لأرباب الولاياتِ
والفقر لي وصفٌ ذاتٍ لازمٌ أبداً	كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي
وهذه الحالُ حال الخلقِ أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلباً من غير خالقه	فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملء الكون أجمعه	ما كان منه وما مِن بَعْدُ قد ياتي ^(١)

«شجاعته»

أما عن شجاعته، وقوة قلبه، ورباطة جأشه فحدث ولا حرج. قال الحافظ الذهبي رحمته الله في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله متحدثاً عن شجاعته: «وأما شجاعته فيها تضرب الأمثال، وبيعضها يتشبه أكابر الأبطال؛ فلقد أقامه الله في نوبة غازان، والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد، وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين، وبخطلوشاه، وبيولاي، وكان قبجق يتعجب من إقدامه وجرأته على المغول، وله حدة قوية تعتريه في البحث؛ حتى كأنه ليث حرب، وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته؛ فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم»^(١).

قال ابن القيم رحمته الله: «وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضائق بنا الأرض - أتيناها، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً، وقوة، ويقيناً، وطمانينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل،

1 - العقود الدرية ص ١٠٩-١١٠.

فأتاهم من رَوْحها، ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها»^(١).

وقال ابن عبد الهادي رحمه الله: «وفي أول شهر رمضان من سنة اثنتين وسبعمائة، كانت وقعة شقحب المشهورة، وحصل للناس شدة عظيمة، وظهر فيها من كرامات الشيخ، وإجابة دعائه، وعظيم جهاده، وقوة إيمانه، وشدة نصحه للإسلام، وفرط شجاعته، ونهاية كرمه، وغير ذلك من صفاته ما يفوق النعت، ويتجاوز الوصف.

ولقد قرأت بخط بعض أصحابه، وقد ذكر هذه الواقعة وكثرة مَنْ حضرها مِنْ جيوش المسلمين قال: وافقت كلمة إجماعهم على تعظيم الشيخ تقي الدين ومحبه، وسماع كلامه، ونصيحته، واتعظوا بمواعظه، وسأله بعضهم مسائل في أمر الدين، ولم يبق من ملوك الشام تركي ولا عربي إلا واجتمع بالشيخ في تلك المدة، واعتقد خيره، وصلاحه، ونُصِّحَهُ اللهُ ولرسوله وللمؤمنين»^(٢).

وقال البزار رحمه الله: «كان عليه السلام من أشجع الناس، وأقواهم قلباً. ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءاً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وأخبر غير واحدٍ أن الشيخ عليه السلام كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم، وقطبَ ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعاً، أو رِقَّةً، أو

1- الوابل الصيب ص ٧٠.

2- العقود الدرية ص ١٤٦.

جبانةً - شَجَّعَهُ، وثَبَّتَهُ، وبشَّره، ووعدَه بالنصر والظفر والغنيمة، وبيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة.

وكان إذا ركب الخيل يَتَحَنَّنُ^(١)، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أموراً عظيمة يعجز الواصف عن وصفها. قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله، ومشورته، وحسن نظره^(٢).

وقال ابن عبد الهادي رحمته الله: «ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين -أمير من أمرائهم- ذو دين متين، وصدق لهجة معروف في الدولة، قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصفر، وقد تراءى الجمعان: يا فلان، أوقفني موقف الموت، قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم.

ثم قلت له: يا سيدي، هذا موقف الموت، وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفثيه طويلاً، ثم انبعث، وأقدم على القتال، وأما أنا فخيَّل إلي أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في

1- التحنيك: هو وضع العمامة تحت الذقن، ولف طرفيها على الرأس.

2- الأعلام العلية ص ٦٩-٧٠.

تلك الساعة.

قال : ثم حال القتال بيننا والالتحام ، وما عدت رأيته؛ حتى فتح الله ونصر ،
وانحاز التتار إلى جبل صغير؛ عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك
الساعة ، وكان آخر النهار.

قال : وإذا أنا بالشيخ ، وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما؛ تحريضاً على
القتال ، وتخويفاً للناس من الفرار.

فقلت : يا سيدي ، لك البشارة بالنصر؛ فإنه قد فتح الله ، ونصر ، وهاهم
التتار محصورون بهذا السفح ، وفي غد - إن شاء الله تعالى - يؤخذون عن
آخرهم.

قال : فحمد الله - تعالى - وأثنى عليه بما هو أهله ، ودعا لي في ذلك الموطن
دعاءً وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده.

هذا كلام الأمير الحاجب»^(١).

وكما أنه ضرب أروع الأمثلة في الشجاعة في ميادين الوغى؛ فقد ضرب
أروعها في الشجاعة الأدبية ، وذلك في إنكار المنكر ، والرد على المخالفين بقوة
علم وبيان ، وسعة صدر وسلامة برهان ، وقوة احتمال وصبر على معاناة
الأهوال؛ فكان لذلك أبلغ الأثر في تجديد الدين ، ونفي ما ألصق به من تحريف
الغالين ، وزيف المبطلين.

يقول الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية: «وما سُمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته في إحقاق الحق، ونصرة سلطان الإسلام»^(١).

وقال: «إن استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء، والأولياء، والصالحين وفي غير ذلك من البدع التي أقروها، والشريعة تنكرها إنكاراً ظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز، وهدى الصحابة، والتابعين، والعلماء العاملين، واغتباطهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة - قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين، وبقيت الأمة على إقرار الخرافات، والبدع إلى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة، وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام، ومزجوها بالشريعة الأصلية رغم أنوف الخواص؛ فركبوا عار الأبد، ولعنوا بما بدلوا وحرفوا، هو لم يأت ببدع، وهو سلموا بكل البدع، فكان العالمُ العاملُ حقاً، وكانوا عبدة أوهام وضلالات.

أراد شرعاً نقياً من الأدران، وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية؛ لأنهم يقصدون بمناقشاتهم الظهور، وكسب قلوب الغوغاء على أي حال. لو عمت دعوة ابن تيمية - ولدعوته ما يمثّلها في المذاهب الإسلامية، ولكنها عنده كانت حارة، وعند غيره فاترة - لسلم هذا الدين من تخريف

المخرفين على الدهر، ولما سمعنا أحداً في الديار الإسلامية يدعو لغير الله، ولا ضريحاً تشد إليه الرحال بما يخالف الشرع، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال»^(١).

«فراسته الصادقة»

الفراصة هي التأمل، والثبت، وصحة النظر. وسببها - كما يقول ابن القيم - نور يقذفه الله في قلب عبده، يفرق بين الحق والباطل، والحالي والعاطل، والصادق والكاذب. وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده، يثب على القلب وثوب الأسد على الفريسة. وهذه الفراصة على حسب قوة الإيمان؛ فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدهُ فراصة^(١).

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله قِدْحٌ معلى، ونصيب أوفى من الفراصة، وله أخبار في ذلك يطول ذكرها.

ولندع الكلام لتلميذه العلامة ابن القيم رحمته الله يتحدث عن ذلك، يقول: «ولقد شاهدت من فراصة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله أموراً عجيبة، وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سفراً ضخماً. أخبر أصحابه بدخول التتار الشام سنة تسع وتسعين وستمئة، وأن جيوش المسلمين تُكسّر، وأن دمشق لا يكون بها قتلٌ عامٌ ولا سبِّي عام، وأن كلب الجيش وحدته في الأموال، وهذا قبل أن يهجم التتار بالحركة.

ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنتين وسبعمئة لما تحرك التتار وقصدوا الشام: أن الدائرة والهزيمة عليهم، وأن الظفر والنصر للمسلمين، وأقسم على ذلك

1 - انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٤٥٣-٤٥٤.

أكثر من سبعين يمينا، فيقال له: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وسمعتة يقول ذلك، قال: فلما أكثروا علي، قلت: لا تكثروا، كتب الله -تعالى- في اللوح المحفوظ: أنهم مهزومون في هذه الكرّة، وأن النصر لجيوش الإسلام، قال: وأطعمتُ بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو.

وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الواقعتين مثل المطر. ولما طُلبَ إلى الديار المصرية، وأريد قتله - بعدما أنضجت له القدور، وقُلبت له الأمور - اجتمع أصحابه لوداعه، وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك، فقال: والله لا يَصِلُون إلى ذلك أبداً، قالوا: أفتحبس؟ قال: نعم، ويطول حبسي، ثم أخرج، وأتكلم بالسنة على رؤوس الناس، سمعتة يقول ذلك.

ولما تولى عدوه الملقب بالجاشنكير المملك أخبروه بذلك، وقالوا: الآن بلغ مراده منك، فسجد لله شكراً وأطال، فقيل له: ما سبب هذه السجدة؟ فقال: هذا بداية ذُله، ومفارقة عزه من الآن، وقرب زوال أمره، فقيل: متى هذا؟ فقال: لا تربط خيول الجند على القرط حتى تُغلب دولته، فوقع الأمر مثل ما أخبر به، سمعت ذلك منه.

وقال مرة: يدخل عليّ أصحابي وغيرهم، فأرى في وجوههم وأعينهم أموراً لا أذكرها لهم.

فقلت له - أو غيري - لو أخبرتهم؟ فقال: أتريدون أن أكون معرّفاً كمعرف

الولاية؟

وقلت له يوماً: لو عاملتنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح، فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة، أو قال: شهراً. وأخبرني غير مرة بأمر باطنة تختص بي مما عزمت عليه، ولم ينطق به لساني. وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل، ولم يعين أوقاتها، وقد رأيت بعضها، وأنا أنتظر بقيتها. وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته، والله أعلم»^(١).

1 - انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٤٥٨-٤٥٩.

« ابن تيمية والشعر »

لم يكن ابن تيمية رحمته الله متمحماً للشعر؛ وإنما كان يستروح له ، ويستشهد به ، ويقوله إذا احتاج إلى ذلك إما جواباً لسؤال جاء شعراً ، أو يبتدئ ذلك في بعض الأحيان.

ومن الأبيات التي كان يستشهد بها قول أبي تمام:

من لم يقدر فيطير في خيشومه رهج الخميس فلن يقود خميسا

وكذلك قول المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وكان - كما يقول الصفدي - كثيراً ما ينشد:

تموت النفوس بأوصابها ولم تدر عوادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي إلى غير أحبابها ما بها

وأما شعره فله قصائد ، وقد مضى ذكر لقصيدته التائية في الافتقار إلى الله - عز

وجل - .

ومن أشهر ما يثبت من الشعر الذي قاله ما يلي:

القصيدة الأولى: قصيدته التائية في القدر: وهي التي أجاب بها عن السؤال

الذي أُورد على لسان أحد علماء الذمة^(١)؛ حيث سأل شيخ الإسلام ابن تيمية سؤالاً في القدر على مذهب الجبرية، ونظم ذلك السؤال شعراً في ثمانية أبيات؛ فلما وقف عليها شيخ الإسلام رحمته الله فكر لحظة يسيرة، ثم أنشأ يكتب جوابها نظماً على بحر الأبيات الواردة وقافيتها.

وجوابه هذا من الأمور العظيمة الدالة على ذكاء وفطنة خارقين للعادة.

ويكمنُ حُسْنُ هذه القصيدة في شرف موضوعها، ودقة معانيها، وإصابتها للغرض، واحتوائها على علوم عظيمة.

فكيف إذا كانت من إمام جليل كابن تيمية؟ وكيف إذا كان قد نظمها على البديهة؟

هذا وقد كان مقصدُ السائلِ الطعنَ في الشريعة.

ولما ورد هذا السؤال على علماء الإسلام، واشتهر بين الناس - انتدب غير واحد من الأعلام غير شيخ الإسلام من أكابر علماء مصر والشام،

1 - اختلف في اسم السائل على أقوال، فقيل: إنه محمد بن أبي بكر بن أبي القسم الهمداني السكاكيني الشيعي ٦٣٥-٧٣١هـ، وقيل: هو فتح الدين أحمد بن محمد البقعي ٦٦٠-٧٠١هـ، وقيل: هو بعض المعتزلة، وكنم اسمه، وقيل هو رجل من أهل الذمة. والأرجح القول الأول. انظر القصيدة التائية في القدر دراسة وتحقيق وشرح للكاتب.

والأندلس لجواب ذلك السؤال نظماً.^(١)

قال ابن حجر رحمته الله في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان من أذكيا العالم، وله في ذلك أمور عظيمة، منها أن محمد ابن بكر السكاكيني عمل أبياتاً على لسان ذمي في إنكار القدر وأولها - فذكر البيتين - ثم قال:

فوقف عليها ابن تيمية، فثنى إحدى رجليه على الأخرى، وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً، أولها:

سؤالك يا هذا سؤال معاند يخاصم رب العرش باري البرية^(٢)

وإليك نص السؤال الذي أُورد على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله ثم جواب الشيخ عليه^(٣).

قال السائل:

- ١- أيا علماء الدين ذمي دينكم تحير دلوه بأوضح حجة
- ٢- إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

1- انظر المنظومة التائية لشيخ الإسلام ابن تيمية وشرحها للطوفي للأخ الشيخ محمد نور الإحسان علي يعقوب، ص ٣٣٨ وهذا الكتاب لم يطبع بعد.

2- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ١٦٦/١، وانظر البدر الطالع للشوكاني ١٧/١.

3- الأبيات التالية مقابلة على عشر من عشر نسخ، ولم أورد أن أثقل الكتاب بالفروق بين النسخ، وإذا أردت ذلك فانظر إلى القصيدة التائية دراسة وتحقيق وشرح للكاتب.

- ٣- دعاني وسدَّ البابَ عني فهل إلى
 ٤- قضى بضلالي ثم قال: ارضَ
 ٥- فإن كنت بالمقضي -ياقومُ- راضياً
 ٦- وهل لي رضا ما ليس يرضاه
 ٧- إذا شاء ربي الكفرَ مني مشيئةً
 ٨- وهل لي اختيارٌ أن أخالف حكمه
 دخولي سبيلٌ بينوا لي قضيتي
 فما أنا راضٍ بالذي فيه شقوتي
 فرأي لا يرضى بشؤمِ بليتي
 فقد حرت دلوني على كشف حيرتي
 فهل أنا عاصٍ في اتباع المشيئة
 فبالله فاشفوا بالبراهين غلتي

فأجابه شيخ الإسلام رحمته الله على البديهة بهذه الأبيات التي يبلغ عددها ١٢٥ بيتاً، فقال:

- ١- سؤالك يا هذا سؤال معاند
 ٢- فهذا سؤالٌ خاصم الملائع العلى
 ٣- ومن يك خصماً للمهيمن يرجعن
 ٤- ويدعى خصومُ الله يومَ معادهم
 ٥- سواءً نضوه أو سعوا ليخاصموا
 ٦- وأصل ضلالِ الخلقِ من كل فرقةٍ
 ٧- فإنهموا لم يفهموا حكمةً له
 ٨- فإن جميعَ الكونِ أوجب فعله
 ٩- وذات إله الخلق واجبة بما
 ١٠- مشيئته مع علمه ثم قدرة
 ١١- وإبداعه ما شاء من مبدعاته
 مخاصم ربَّ العرش باري البرية
 قديماً به إبليس أصلُ البلية
 على أم رأس هاوياً في الحفيرة
 إلى النار طُراً معشرَ القديرة
 به الله أو ماروا به للشريعة
 هو الخوض في فعل الإله بعلة
 فصاروا على نوع من الجاهلية
 مشيئة ربِّ الخلق باري الخليفة
 لها من صفات واجبات قديمة
 لوازم ذات الله قاضي القضية
 بها حكمةً فيه وأنواع رحمة

- ١٢- ولسنا وإن قلنا جرت بمشيئة
 ١٣- بل الحق أن الحكم لله وحده
 ١٤- هو الملك المحمود في كل حالة
 ١٥- فما شاء مولانا الإله فإنه
 ١٦- وقدرته لا نقص فيها وحكمه
 ١٧- أريدُ بذنا أن الحوادث كلها
 ١٨- ومالكنا في كل ما قد أراده
 ١٩- فإن له في الخلق من نعم سرت
 ٢٠- أموراً يحار العقل فيها إذا رأى
 ٢١- فنؤمن أن الله عز بقدرة
 ٢٢- فنثبت هذا كله لإلهنا
 ٢٣- وهذا مقام طالما عجز الأئى
 ٢٤- وتحقيق ما فيه بتبيين غوره
 ٢٥- هو المطلب الأقصى لوراد بحره
 ٢٦- لحاجته تبين علم محقق
 ٢٧- وأسمائه الحسنى وأحكام دينه
 ٢٨- وهذا - بحمد الله - قد بان ظاهراً
 ٢٩- وقد قيل في هذا وخط كتابه
 ٣٠- فقولك: "لم قد شاء؟" مثل سؤال
- من المنكري آياته المستقيمة
 له الخلق والأمر الذي في الشريعة
 له الملك من غير انتقاص بشركة
 يكون وما لا لا يكون بحيلة
 يعم فلا تخصيص في ذي القضية
 بقدرته كانت ومحض المشيئة
 له الحمد حمداً يعتلي كل مدحة
 ومن حكم فوق العقول الحكيمة
 من الحكم العليا وكل عجيبة
 وخلق وإبرام لحكم المشيئة
 ونثبت ما في ذاك من كل حكمة
 نفوه وكرروا راجعين بحيرة
 وتحرير حق الحق في ذي الحقيقة
 وذا عسر في نظم هذي القصيدة
 لأوصاف مولانا الإله الكريمة
 وأفعاله في كل هذي الخليفة
 وإلهامه للخلق أفضل نعمة
 بيان شفاءً للنفوس المريضة
 يقول: فلم قد كان في الأزلية

- ٣١- وذاك سؤال يبطل العقل وجهه
 ٣٢- وفي الكون تخصيص كثير يدل
 ٣٣- وإصداره عن واحد بعد واحد
 ٣٤- ولا ريب في تعليق كل مسبب
 ٣٥- بل الشأن في الأسباب أسباب ما
 ٣٦- وقولك: لم شاء الإله هو الذي
 ٣٧- فإن المجوس القائلين بخالق
 ٣٨- سألهم عن علة السر أوقعت
 ٣٩- وأن ملاحيد الفلاسفة الأئى
 ٤٠- بغوا علة في الكون بعد انعدامه
 ٤١- وإن مبادي الشر في كل أمة
 ٤٢- بخوضهم في ذاك صار
 ٤٣- ويكفيك نقضاً أن ما قد سألته
 ٤٤- فأنت تعيب الطاعنين جميعهم
 ٤٥- وتتحل من والاك صفو مودة
 ٤٦- وحالهم في كل قول وفعلة
 ٤٧- وهبك كفت اللوم عن كل
 ٤٨- فيلزمك الإعراض عن كل ظالم
 ٤٩- فلا تغضبن يوماً على سافك دماً
- وتحريمه قد جاء في كل شرعة
 له نوع عقل أنه بإرادة
 أو القول بالتجويز رمية حيرة
 بما قبله من علة موجبية
 وإصدارها عن حكم محض المشيئة
 أزل عقول الخلق في قعر حفرة
 لنفع ورب مبدع للمضرة
 أوائلهم في شبهة التثوية
 يقولون بالفعل القديم بعلة
 فلم يجدوا ذاكم فضلوا بضلة
 ذوي ملية ميمونة نبوية
 وجاء دروس البينات بفترة
 من العذر مردود لدى كل فطرة
 عليك وترميهم بكل مذمة
 وتبغض من ناواك من كل فرقة
 كحالك - يا هذا - بأرجح حجة
 وكل غوي خارج عن محجة
 على الناس في نفس ومال وحرمة
 ولا سارق مالاً لصاحب فاقة

- ٥٠- ولا شاتمٍ عرُضاً مصوناً وإن علا
٥١- ولا قاطعٍ للناس نهجٍ سبيلهم
٥٢- ولا شاهدٍ بالزور إفكاً وفريئةً
٥٣- ولا مهلكٍ للحرث والنسل عامداً
٥٤- وكُفَّ لسان اللوم عن كل مفسدٍ
٥٥- وسهّل سبيل الكاذبين تعمداً
٥٦- وإن قصدوا إضلال من يستجيبهم
٥٧- وجادل عن الملعونِ فرعونَ إذ طغى
٥٨- وكلُّ كفورٍ مشركٍ بإلهه
٥٩- كعادٍ ونمرودٍ وقومٍ لصالح
٦٠- وخاصمٍ لموسى ثم سائر من أتى
٦١- على كونهم قد جاهدوا الناس إذ
٦٢- وإلا فكلُّ الخلقِ في كلِّ لفظَةٍ
٦٣- وبطشةٍ كفٌّ أو تخطي قديمةٍ
٦٤- هم تحت أقدار الإله وحكمه
٦٥- وهبَّكَ رفعت اللومَ عن كل فاعلٍ
٦٦- فهل يُمكنُ رفعُ الملامِ جميعه
٦٧- وتركُ عقوبات الذين قد اعتدوا
٦٨- فلا تُضمننَّ نفسٌ ومالٌ بمثله
ولا ناكح فرجاً على وجه غيبة
ولا مفسد في الأرض من كل وجهة
ولا قاذف للمحصنات بزنية
ولا حاكمٍ للعالمين برشوة
ولا تأخذنَّ ذا جرمةٍ بعقوبةٍ
على ربهم من كلِّ جاءٍ بفريئةٍ
برومٍ فسادِ النوع ثم الرياسةِ
فأغرِق في اليم انتقاماً بغضبةٍ
وأخر طاغٍ كافرٍ بنبوةٍ
وقوم لنوح ثم أصحاب الأيكةِ
من الأنبياء محيياً للشريعة
ونالوا من العاصي بليغ العقوبة
ولحظةٍ عينٍ أو تحرك شعرةٍ
وكلُّ حراكٍ بل وكل سكينةٍ
فما أنت فيما قد أتيت بحجةٍ
فعالٍ ردئٍ طرداً لهذي المقيسةِ
عن الناس طراً عند كل قبيحةٍ
وترك الورى الإنصاف بين الرعيةِ
ولا يعقبن عادٍ بمثل الجريمةِ

- ٦٩- وهل في عقول الناس أو في طباعهم
 ٧٠- ويكفيك نقضاً ما بجسم ابن آدم
 ٧١- من الألم المقضي من غير حيلة
 ٧٢- إذا كان في هذا له حكمة فما
 ٧٣- فكيف ومن هذا عذاب مؤلّد
 ٧٤- كأكل سم أوجب الموت أكله
 ٧٥- فكفرُك يا هذا كسم أكلته
 ٧٦- ألسنت ترى في هذه الدار من جنى
 ٧٧- ولا عُذْر للجاني بتقدير خالق
 ٧٨- وتقدير ربّ الخلق للذنب موجب
 ٧٩- وما كان من جنس المتاب لرفعه
 ٨٠- كخير به ثمحى الذنوب ودعوة
 ٨١- وقول حليف الشر: إني مقدر
 ٨٢- وتقديره للفاعل يجلب نقمة
 ٨٣- فهل ينفعن عُذْر الملووم بأنه
 ٨٤- أم الذم والتعذيب أوكد للذي
 ٨٥- فإن كنت ترجو أن تجاب بما
 ٨٦- فدونك ربّ الخلق فاقصده ضارعاً
 ٨٧- وذلل قياد النفس للحق واسمعن
- قبول لقول النذل: ما وجه حيلتي
 صبي ومجنون وكل بهيمة
 وفيما يشاء الله أكمل حكمة
 يُظن بخلق الفعل ثم العقوبة
 عن الفعل فعل العبد عند الطبيعة
 وكل بتقدير لرب البرية
 وتعذيب نار مثل جرعة غصة
 يعاقب إما بالقضا أو بشرعة
 كذلك في الأخرى بلا مثنوية
 لتقدير عقبى الذنب إلا بتوبة
 عواقب أفعال العباد الخبيثة
 تُجاب من الجاني ورب شفاعه
 علي كقول الذئب: هذي طبيعتي
 كتقديره الأشياء طراً بعلّة
 كذا طبعه أم هل يقال لعثرة
 طبيعته فعل الشرور الشنيعة
 ينجيك من نار الإله العظيمة
 مريداً لأن يهديك نحو الحقيقة
 ولا تعرضن عن فكرة مستقيمة

- ٨٨- وما بان من حق فلا تتركه
 ٨٩- ودع دين ذي العادات لا تتبعه
 ٩٠- ومن ضل عن حق فلا تقفوه
 ٩١- هنالك تبدو طالعاً من الهدى
 ٩٢- بملء إبراهيم ذاك إمامنا
 ٩٣- فلا يقبل الرحمن ديناً سوى الذي
 ٩٤- وقد جاء هذا الحاشر الخاتم الذي
 ٩٥- وأخبر عن رب العباد بأن مَنْ
 ٩٦- فهذه دلالات العباد لحائر
 ٩٧- وفقد الهدى عند الورى لا يفيد
 ٩٨- وحجة محتج بتقدير ربّه
 ٩٩- وأما رضانا بالقضاء فإنما
 ١٠٠- كسقم وفقر ثم ذلّ وغربة
 ١٠١- فأما الأفاعيل التي كرهت لنا
 ١٠٢- وقد قال قوم من أولي العلم: لا
 ١٠٣- فإن إله الخلق لم يرضها لنا
 ١٠٤- وقال فريق: نرتضي بقضائه
 ١٠٥- وقال فريق: نرتضي بإضافة
 ١٠٦- كما أنها للرب خلق وأنها
- ولا تعص من يدعو لأقوم شرعة
 وعج عن سبيل الأمة الغضبية
 وزن ما عليه الناس بالمعدلية
 بتبشير من قد جاء بالحنفية
 ودين رسول الله خير البرية
 به جاءت الرسل الكرام السجية
 حوى كل خير في عموم الرسالة
 غدا عنه في الأخرى بأقبح خيبة
 وأما هداه فهو فعل الربوبية
 غدا عنه بل يجري بلا وجه حجة
 تزيد عذاباً كاحتجاج مريضة
 أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة
 وما كان من مؤذ بدون جريمة
 فلا نص يأتي في رضاها بطاعة
 بفعل المعاصي والذنوب الكبيرة
 فلا نرتضي مسخوطةً لمشيئة
 ولا نرتضي المقضي أقبح خصلة
 إليه وما فينا فنلقى بسخطة
 لمخلوقه كسب كفضل الغريزة

- ١٠٧- فنرضى من الوجه الذي هو خلقه
 ١٠٨- ومعصية العبد المكلف تركه
 ١٠٩- فإن إله الخلق حقّ مقالته
 ١١٠- كما أنهم في هذه الدار هكذا
 ١١١- وحكمته العليا اقتضت ما
 ١١٢- يسوق أولى التعذيب بالسبب
 ١١٣- ويهدي أولى التنعيم نحو
 ١١٤- وأمر إله الخلق بيّن ما به
 ١١٥- فمن كان من أهل السعادة أثرت
 ١١٦- ومن كان من أهل الشقاوة لم
 ١١٧- ولا مخرج للعبد عما به قضى
 ١١٨- فليس بمجبورٍ عديمٍ إرادةً
 ١١٩- ومن أعجب الأشياء خلق مشيئةٍ
 ١٢٠- فقولك: هل أختار تركاً لحكمه
 ١٢١- وأختار لا أختار فعل ضلالة
 ١٢٢- وإذا ممكن لكنه متوقف
 ١٢٣- فدونك فافهم ما به قد أُجبت من
 ١٢٤- أشارت إلى أصل يشير إلى الهدى
 ١٢٥- وصلى إله الخلق جل جلاله
- ونسخط من وجه اكتساب الخطيئة
 لما أمر المولى وإن بمشيئة
 بأن عبّادي في جحيم وجنة
 بل البهم في الآلام - أيضاً - ونعمة
 ففروق بعلم ثم أيدٍ ورحمة
 يقدره نحو العذاب بعزة
 بأعمال صدق في رجاءٍ وخشية
 يسوق أولى التنعيم نحو السعادة
 أو أمره فيه بتيسير صنعة
 بأمر ولا نهى بتيسير شقوة
 ولكنه مختارٌ حُسنٍ وسوأة
 ولكنه شاءٍ بخلق الإرادة
 بها صار مختار الهدى والضلالة
 كقولك: هل أختار ترك المشيئة
 ولو نلت هذا الترك فزت بتوبة
 على ما يشاء الله من ذي المشيئة
 معانٍ إذا انحلت بفهم غريزة
 ولله رب الخلق أكمل مدحة
 على المصطفى المختار خير البرية

القصيدة الثانية: قصيدته اللامية في العقيدة، قال ﷺ:

يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي	يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي
اسمع كلام محقق في قوله	اسمع كلام محقق في قوله
حُبُّ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ لِي مَذْهَبٌ	حُبُّ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ لِي مَذْهَبٌ
وَلِكُلِّهِمْ قَدْرٌ وَفَضْلٌ سَاطِعٌ	وَلِكُلِّهِمْ قَدْرٌ وَفَضْلٌ سَاطِعٌ
وَأَقْرَبُ الْقُرْآنِ مَا جَاءَتْ بِهِ	وَأَقْرَبُ الْقُرْآنِ مَا جَاءَتْ بِهِ
وَجَمِيعُ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَمْرُهَا	وَجَمِيعُ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَمْرُهَا
وَأَرْدُ عُقْبَتِهَا إِلَى ثِقَالِهَا	وَأَرْدُ عُقْبَتِهَا إِلَى ثِقَالِهَا
قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ وَرَاءَهُ	قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ وَرَاءَهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقًّا رَبَّهُمْ	وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ حَقًّا رَبَّهُمْ
وَأَقْرَبُ بِالْمِيزَانِ وَالْحَوْضِ الَّذِي	وَأَقْرَبُ بِالْمِيزَانِ وَالْحَوْضِ الَّذِي
وَكَذَا الصِّرَاطُ يَمُدُّ فَوْقَ جَهَنَّمَ	وَكَذَا الصِّرَاطُ يَمُدُّ فَوْقَ جَهَنَّمَ
وَالنَّارُ يَصْلَاهَا الشَّقِيُّ بِحِكْمَةٍ	وَالنَّارُ يَصْلَاهَا الشَّقِيُّ بِحِكْمَةٍ
وَلِكُلِّ حَيٍّ عَاقِلٍ فِي قَبْرِهِ	وَلِكُلِّ حَيٍّ عَاقِلٍ فِي قَبْرِهِ
هَذَا اعْتِقَادُ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكِ	هَذَا اعْتِقَادُ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكِ
فَإِنْ اتَّبَعْتَ سَبِيلَهُمْ فَمَوْحِدٌ	فَإِنْ اتَّبَعْتَ سَبِيلَهُمْ فَمَوْحِدٌ

القصيدة الثالثة: وهي القصيدة العينية التي أجب فيها عن لغز العلامة

الفارقي، وكان ابن تيمية في مقتبل عمره.

وهذه القصيدة أوردها الحافظ ابن عبد الهادي في كتابه العقود الدرية.

قال رحمته الله نقلاً عن الحافظ البرزالي رحمته الله : « كان - يعني ابن تيمية - قد نظم شيئاً يسيراً في صغره ، وكتبت عنه إذ ذاك ، ثم إنه ترك ذلك ، وأعرض عنه ، وسئل عن مسألة القدر بنظم ؛ فأجاب فيها بنظم ، وقد قرىء عليه ، وسمع منه ، وحل لغز الرشيد الفارقي بأبيات تشتمل على نحو مائة بيت على وزن اللغز ، وذلك في حياة والده - رحمه الله تعالى - وله نحو العشرين من العمر ، وكان حله في أسرع وقت .

قلت^(١) : هذا اللغز الذي أشار إليه الشيخ علم الدين نظمه الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن اسماعيل بن مسعود الفارقي في اسم الغزه بوصف أبرزه في لفظ أوجزه لفهم أعجزه .

ما اسمٌ ثلاثيُّ الحروفِ فثُلُّهُ	مِثْلُ لُهُ وَالثَّلْثُ ضِعْفُ جَمِيعِهِ
وَالثَّلْثُ الْآخِرُ جَوْهَرٌ حَلَّتْ بِهِ الدُّ	أَعْرَاضٌ جَمْعاً فَأَعْجَبُوا لِبَدِيعِهِ
وَهُوَ الْمُثَلَّثُ جَنْدَرُهُ مِثْلُ لُهُ	وَإِذَا يُرَبِّعُ بَانَ فِي تَرْبِيعِهِ
جِزءٌ مِنَ الْفَلَكَ الْعَلِيِّ وَإِنَّمَا	بَاقِيَهُ خَوْفٌ أَوْ أَمَانٌ مَرْوَعِهِ
حَيٌّ جَمَادٌ سَاكِنٌ مَتَحَرِّكٌ	إِنْ كُنْتَ ذَا نَظَرٍ إِلَى تَنْوِيعِهِ
وَتَرَاهُ مَعَ خُمْسِيَّةٍ عِلَّةٌ كَوْنِهِ	مَعْلُولُهُ سِرّاً بِغَيْرِ مَذِيعِهِ
وَبِغَيْرِ خُمْسِيَّةٍ جَمِيعُ النُّحُوْمِ	جَوْدٌ وَمَحْمُولٌ عَلَى مَوْضُوعِهِ
وَبِحَالِهِ فِعْلٌ مَضَى مُسْتَقْبِلاً	حُمِدَتْ صِنَاعَتُهُ لِحَمْدِ صَنِيعِهِ

زيداً تُفردُه على مجموعِه	قيداً تُطلقُه خصوصاً عمومِه
كالاستحيل بطيئُه كسريعِه	شيءٌ مقيمٌ في الرحيل وممكنٌ
ومضافُه بأصولِه وفروعِه	وأهم ما في الشرع والدين اسمُه
علمَ الخليل وليس من تقطيعِه	ودقيقٌ معناه الجليل مناسبٌ
ألفاه في المفروق أو مجموعِه	وإذا عروضي تطلب حلاًه
عقداً يزين الدرّ في ترصيعِه	وإذا ترصّعه بدرّ فريده
وعلاجُه بذهابه ورجوعِه	للمنطقي وللحكيم نتاجُه
دُ حنباي فاعجبوا لوقوعِه	وله شعارٌ شعريٌ واعتقا
ما حافظٌ للعهد مثل مضيعِه	وتمامُه في قول شاعر كندةٍ
ويريك في ظلم هدى بطلوعِه	يُرويك في ظمأ ندى بوورودِه
تفصيله تفصيل روض ربيعِه	ولقد حلّت اللغز إجمالاً وفي
تهدي لكفاء الفضل بين ربوعِه	فاستجّل بكراً من ولي بالحلّ
فأجاب العبد الفقير إلى ربه أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية حلاً	
لمعضله، وفصلاً لمجمله، وفتحاً لمقفله، وشرحاً لمشكله ^(١) .	
بفنونُه وبيانُه وبديعِه	يا عالماً قد فاق أهل زمانه
يهدى الهداة إلى منير ربوعِه	وغدا لأعلام العلوم منارهم

1 - هذه القصيدة لو شرحت لجاءت في مجلد كبير أو أكثر، ولاحتاجت إلى مجموعة من المتخصصين في الشريعة، واللغة، والأدب، وعلم الرياضيات، والمنطق وغيرها من العلوم.

وأجاد نظماً عقداً جيداً عقيلةً
 وجملاً المعارف في عوارف لفظه
 وأبان عمماً قد حوى من كل فن
 ببيان السحر الحلال ولفظه
 بغزير علم وافتنان واسع
 حليته بدقيق وصف صننته
 ووصفته بحلى العلوم وأهلها
 وجمعت في أوصافه الأضداد حنن
 والعبء لما أن تأمل نظمكم
 أن الذي أغزتم علم وما
 لكنه أمسى يحلي به ما
 حتى تجلى الحق من ظلماته
 فإذا الذي قد عن أول مرة
 ورأيت فيه الوصف إما بادياً
 لدقيق مغزاه ولفظ إشارة
 فغدوت أكشف عنه كشافاً موجزاً
 فاسمع لحل حلاه في تفصيله
 العلم لفظ ذو ثلاثة أحرف
 فإذا يكون مركباً من تسعة

من در بحر العلم في ترصيعه
 أخذاً لعرف العلم من ينبوعه
 ن قد أحاط بأصله وفروعه
 العذب الزلال ولفظ حسن صنيعه
 أغزت علماً في فنون وسيعه
 بجليل لفظ ناء عن موضوعه
 ونعته بضروبه وضروعه
 استيأس الطلاب من تتبعه
 بنظامه ألقى له في روعه
 يجعل المظنون من مقطوعه
 حليته ويغوص في توقيعه
 في ليلة من قبل وقت هجوعه
 حق تبليج فجره بطلوعه
 أو خافياً معناه في مسموعه
 فيه وبعد حلاه عن موضوعه
 بإشارة تهدي لشطر بقيعه
 واشهد بقلب مقبل بهطوعه
 وهجاء كل مثل ما مجموعه
 جذراً لها فانظر إلى تربيعه

ومثلثاً بحدوده وضلوعه
هو لامة إن خُضتَ في توزيعه
هو أربعون بقول أهل ربيعته
عشرون هذا الثلث ضعف جميعه
هو جوهر والوصف في موضوعه
أعراضُ جمعاً فافطنوا لجموعه
من بين جنس الحرف في تنويجه
ويُّ منه تسعةً برقيعه
وات الطباق فالاسم جزء رفيجه
عنه كنى لعلو شأن ضليجه
فيه المخافة أو أمانُ مرُوعه
يسري كنور ضاء حين سطوعه
أحياء فرع حياة رب صنيعه
لوحاً تنقله بذهن قريعته
هو جامدٌ هو ساكنٌ بربوعه
عَرَضٌ يقوم بمستوى موضوعه
تصان شخصاً جوهرًا ببقيعته
عرضٌ بآخر مثله وتبيعه
وصفان في المعنى له بربيعته

ومُرْبِعاً ساواه جَدْرُ حسابيه
ويكون أثلاثاً فَتُلُتْ مثله
والميم في الجُمَلِ الكبيرِ حسابيه
والعلم في الجمل الصغير حسابيه
والثلث عَيْنٌ عَيْنٌ كُلُّ ذاته
إذ كانت الأعيان قائمة بها الـ
حكمٌ يخص العين حرفاً واحداً
هو تسعةً في أصله والعالمُ العـ
العرش والكرسي والسبع السم
من عالم الملكوت أعني الغيب إذ
لم يبق إلا جنّةً أو جاحمٌ
بالعلم يحيى الله قلباً ميتاً
فلأنه يحيى اسمه حي إذ الـ
ولأنه يسري اسمه متحرك
ذا الوصفُ عقليٌّ وفي حسيّه
إذ كان نوعُ العلمِ معنى جنسه
والحيُّ والمتحركُ الوصفان يخـ
إذ كان في المحسوس ليس بقائم
أما إذا ما جُرِدَ المعقولُ فالـ

في اللفظ من عدم وفي تنويجه
وأضفت خُمُسيه إلى مجموعته
مع أربع عشرًا لذي تربيعه
من حيث ما هو علة لوقوعه
معلوله فافهم مداررجيعه
قد صار معلولاً له برجوعه
ذا إن ترد حملاً على موضوعه
لذا الجمع علة نفسه وجميعه
علماً وعلماً النحو بعض فروعته
فعالاً مضى لغةً وفي موضوعه
لعمومه متعلقاً وذيوعه
ل محققٍ مع سبقه لوقوعه
حُمِدَتْ صناعته بحمد صنيعه
وضعاً وملزومٌ لرب صنيعه
لعموم جنس العلم في تنويجه
فإذا تركيب خَصٌّ في تجميعه
قد زاد مفردة على مجموعته
ذو عزة صَعْبٌ على مُسْطِيعه
وإذا يقال بطيئته كسريره

ثلثاه حرفا العين والميم هما
لو إذ جمعت حسابه في أكثر
فمربعاً يضحى ويضحى جذره
فالجذرُ علته ومعلولٌ له
فالجذر معلولٌ لجذر كائن
فلكونه معلولٌ معلولٌ له
ويقول إن العلم منه النحو هـ
فإذا يكون الضمُّ علة كونه هـ
وبغير خُمُسيه يعود لأصله
وإذا اعتبرت حروفه ألفيته
حكمٌ على المُسْتَقْبَلَاتِ وغيرها
إذ من خصائصه تعلقه بكـ
أكرم به أمراً عظيماً نفعه
والفعل فيه مصدرٌ وزمائه
فلذا كان مقيداً ومخصصاً
هو مفرداً نوعٌ حوى أشخاصه
فيصح حينئذ مقالةٌ قائلٍ
هو ثابتٌ في كلِّ حالٍ ممكن
حتى يُنال فيحمد القوم السرى

بل في الطريق وفي اقتناص منيعه
وأهمُّ فرض الله في مشروعه
أبداً ولما يُنْهيه بقطوعه
فقر الغذاء لعلم حكم صنيعه
يحتاجه في وقت شدة جوعه
والصالحات فَسَوَاءٌ لمُضيّعه
بل فارغ بأصوله وفروعه
للعلم كان مناسباً لبديعه
ضُ كذاك ميزانٌ لدى تقطيعه
والفعل بالتسكين من مجموعته
وبه يزان الحليُّ في ترصيعه
بمقدمات نتاجه ويُنوعه
وحقائق التحقيق في مشروعه
لعقائد المعقول في مسموعه
ما حافظ للعهد مثل مضيّعه
من ذا الكلام الحظُّ في تبضيّعه
ظمأن تحقيقاً إلى ينبوعه
حيرانٌ تدقيقٍ طلوع سطيّعه
قصد السبيل لحل عقد بديعه
مع قرب مقفله وقرب مسوعه
ولروضة الأُنثى ارتعى برتوعه

فالبطءُ والإسراع ليس بنفسه
والعلمُ بالرحمن أولُّ صاحب
وأخو الديانة طالبٌ لمزيده
والمرء فاقته إليه أشد من
في كل وقت والطعام فإنما
وهو السبيل إلى المحاسن كلها
وإليه يسند كلُّ فنٍّ نافع
لجلالة المعلوم واللطف الذي
فالعلمُ ميزانُ الحقائق والعرو
والإسمُ بالتحريك من مفروقه
هو واسطُ عقد الفضائلِ كلها
وعلاجه بالجد في تحصيله
ولكل قومٍ منه حظٌّ وافرٌ
بشعائرٍ لشاعرٍ وقواعدي
وجميعه متفرقٌ في قوله
فإعيّنه ولامه وليمه
يُروى بماء حياته في ورده
ويرى بنور هداه في تبينه
بطلوعه لما أبان بنوره
جلى المجلي بعد بُعد بُدوه
وأبان مجملَه وفصلَ عقده

فافتضها كفوؤ ثوت بربوعه
ب ملخصاً في نظمه لسميعة
لكمال مغزاه وشرح جميعه
لم يمعن التفكير في مرجوعه
كلا ولا الفضلات من مصنوعه
دار القرار جميلاه وقطيعه
ما يلفت المعقول عن تضييعه
نفت يريح فؤاده بنخوعه
غر بحكم اللفظ في تسجيعة
في حال مبداه وحال رجوعه
ثم استكان له بذل خضوعه
حقاً برفق الوصف في توقيعه
شكراً على محمود حُسن صنيعة
والخير منه جميعه بهموعه
لم أستطع متناً أولاً لرفيعة
إن كان يعرف نفسه بنخوعه
رأودود بعبداه ومطيعه
من بعد منعتاه وبُعده منيعة
والمصطفين من الأنام جميعه
ما اهتز وجه الأرض بعد

وحلى جمال البكر في حلي الحلوى
فخذ الجواب مخلصاً فيه اللبا
مع أن نظم الشعر غير محصل
من خاطر مستعجل مُستوفز
لم يجعل التحليل من مصنوعه
إذ كان مخلوقاً لأكبر غاية
وعليه من أمر الإله ونهيه
لكنه لا بد للمصدر من
مع أنه مُرجى البضاعة نظمه
عبدٌ ذليل عاجز متضعف
لكنه لما استعان بربه
فأعانه يسر الجواب فإن يكن
فالحمد والفضل العظيم لربنا
إذ ما بنا من نعمة فمئة
أو إن يكن خطأ فمني حيث إن
فالنقص للإنسان وصف لازم
والحمد لله الرحيم بخلقه الب
وميسر الخطب العسير بلطفه
ثم الصلاة على النبي وآله
وعليهم التسليم منا دائماً

«نموذجان من مكاتبات ابن تيمية في سجنه»

لما كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في السجن كان يكتب ويؤلف، ويجب عن الأسئلة.

ومن ضمن ما أنشأه مكاتبات كتبها إلى والدته، وإخوانه، وأحبابه. وهذه المكاتبات تكشف عن جوانب البر، والمحبة، والصلة، والعفو، والصفح، والرضا، والحرص على تأليف القلوب، وجمع الكلمة إلى غير ذلك من المعاني السامية التي تنم عن نفس راضية، وهمة عالية، وديانة صادقة. وفيما يلي نموذجان لتلك المكاتبات.

الأول: كتاب من الشيخ إلى والدته وغيرها:

يقول المحافظ ابن عبد الهادي رحمته الله: «وقد وقفت على عدة كتب بخط الشيخ، بعثها من مصر إلى والدته، وإلى أخيه لأمه: بدر الدين، وإلى غيرهما. منها كتاب إلى والدته يقول فيه: من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة، أقر الله عينها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة نشكر الله

عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلّت عن التعداد.

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمر ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا - والله - مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم - والله الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخير، فנסأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخير في خير وعافية.

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة، ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخبرون الله - سبحانه وتعالى - فلا يظن الظان أننا نُؤثّر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط، بل ولا نُؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه، ولكن ثمّ أمورٌ كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

والمطلوب كثرة الدعاء بالخير، فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب، وقد قال النبي ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ورضاه بما يقسم الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما يقسم الله له».

والتاجر يكون مسافراً؛ فيخاف ضياع بعض ماله، فيحتاج أن يقيم حتى

يستوفيه ، وما نحن فيه أمر يجِلُّ عن الوصف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كثيراً كثيراً ، وعلى سائر من في البيت
من الكبار والصغار ، وسائر الجيران ، والأهل والأصحاب واحداً ، واحداً .
والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً^(١) .

الثاني : كتاب بعثه الشيخ من مصر إلى دمشق :

قال فيه : « بعد حمد الله - تعالى - والصلاة على نبيه ﷺ .
أما بعد : فإن الله - وله الحمد - قد أنعم عليّ من نعمه العظيمة ، ومننه
الجسيمة ، وآلائه الكريمة ، ما هو مستوجب لعظيم الشكر ، والثبات على
الطاعة ، واعتياد حسن الصبر على فعل المأمور ، والعبد مأمور بالصبر في السراء
أعظم من الصبر في الضراء ، قال - تعالى - : ﴿ وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ
نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُتُّوسٌ كَفُورٌ ﴾ (٩) وَلَئِن أَدَقْنَا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ دَهَبَ
السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١١) هود .

وتعلمون أن الله - سبحانه - منّ في هذه القضية من المنن التي فيها من أسباب
نصر دينه ، وعلو كلمته ، ونصر جنده ، وعزة أوليائه ، وقوة أهل السنة والجماعة ،
وذل أهل البدعة والفرقة ، وتقدير ما قرر عندكم من السنة ، وزيادات على ذلك
بانفتاح أبواب من الهدى والنصر ، والدلائل ، وظهور الحق للأمم لا يحصي عددهم
إلا الله - تعالى - وإقبال الخلائق إلى سبيل السنة والجماعة ، وغير ذلك من المنن ما

لا بدَّ معه من عظيم الشكر، ومن الصبر وإن كان صبراً في سراء.
وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب،
 واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال: ١، ويقول: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا
 تفرقوا﴾ آل عمران: ١٠٣، ويقول: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا
 من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ آل عمران: ١٠٥.
 وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة، والاتلاف وتنهى عن الفرقة
 والاختلاف.

وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة.
 وجماع السنة: طاعة الرسول، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي
 رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا
 تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من
 ولاة الله أموركم».

وفي السنن من حديث زيد بن ثابت، وابن مسعود - فقيهي الصحابة - عن
 النبي ﷺ أنه قال: «نضّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب
 حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن
 قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛
 فإن دعوتهم تحيط من وراءهم».

وقوله: «لا يغل»: أي لا يحقد عليهن، فلا يبغض هذه الخصال قلب المسلم،

بل يجبهن ويرضاهن.

وأول ما أبدأ به من هذا الأصل : ما يتعلق بي ، فتعلمون -رضي الله عنكم- أنني لا أحب أن يُؤدَى أحد من عموم المسلمين - فضلاً عن أصحابنا - بشيء أصلاً ، لا باطناً ولا ظاهراً ، ولا عندي عتب على أحد منهم ، ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة ، والإجلال والمحبة ، والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان ، كل بحسبه ، ولا يخلو لرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً ، أو مخطئاً ، أو مذنباً ، فالأول : مأجور مشكور ، والثاني : مع أجره على الاجتهاد : فمعفو عنه ، مغفور له ، والثالث : فالله يغفر لنا وله ، ولسائر المؤمنين ؛ فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل .

كقول القائل : فلان قصر ، فلان ما عمل ، فلان أوزي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب هذه القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان ، ونحو هذه الكلمات التي فيها مذمة لبعض الأصحاب ، والإخوان ؛ فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

بل مثل هذا يعود على قائله باللام ، إلا أن يكون له من حسنة ، ومن يغفر الله له إن شاء ، وقد عفا الله عما سلف .

وتعلمون -أيضاً- : أن ما يجري من نوع تغليظ ، أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان ما كان يجري بدمشق ، ومما جرى الآن بمصر ، فليس ذلك غضاظة ولا نقصاً في حق صاحبه ، ولا حصل بسبب ذلك تغيرٌ منا ، ولا بغض ، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدراً ، وأنبه ذكراً ، وأحب وأعظم ، وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين ، التي يصلح الله بها بعضهم

ببعض؛ فإن المؤمن للمؤمن كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع
الوسخ إلا بنوع من الحشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة، ما نحمد
معه ذلك التخشين.

وتعلمون أنا جميعاً متعاونون على البر والتقوى، واجب علينا نصر بعضنا
بعضاً أعظم مما كان وأشد؛ فمن رام أن يؤذي بضع الأصحاب، أو الإخوان؛ لما
قد يظنه من نوع تخشين عومل به بدمشق، أو بمصر الساعة، أو غير ذلك - فهو
الغالط.

وكذلك من ظن أن المؤمنين ييخلون عما أمروا به من التعاون والتناصر - فقد
ظن سوءاً و﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾.

وما غاب عنا أحد من الجماعة، أو قدم إلينا الساعة، إلا ومنزلته عندنا اليوم
أعظم مما كانت، وأجل، وأرفع.

وتعلمون - رضي الله عنكم - أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها
من اجتهاد الآراء، واختلاف الأهواء، وتنوع أحوال أهل الإيمان، وما لا بد منه
من نزغات الشيطان - مالا يتصور أن يعتري عنه نوع الإنسان، وقد قال - تعالى -:
﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا (٧٣) ﴿ الأحزاب.

بل أنا أقول ما هو أبلغ من ذلك؛ تنبيهاً بالأدنى على الأعلى، وبالأقصى على
الأدنى فأقول:

تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب المفتراة، والأغاليط المظنونة، والأهواء الفاسدة، وأن ذلك أمر يجل عن الوصف، وكل ما قيل: من كذب وزور فهو في حقنا خير ونعمة، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾ النور.

وقد أظهر الله من نور الحق وبرهانه ما رد به إفك الكاذب وبهتانه.

فلا أحب أن يُتَّصِرَ من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه وعدوانه؛ فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسه.

والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي.

وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم، وإلا فحكم الله نافذ فيهم؛ فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سبباً في هذه القضية؛ لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه، وآلائه، وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له.

وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم.

وأنتم تعلمون هذا من خلقي، والأمر أزيد مما كان، وأؤكد لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض، وحقوق الله عليهم هم فيها تحت حكم الله.

وأنتم تعلمون أن الصديق الأكبر في قضية الإفك التي أنزل الله فيها القرآن،

حلف لا يصلح مسطح بن أثاثه؛ لأنه كان من الخائضين في الإفك، فأنزل الله -تعالى-: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢) النور، فلما نزلت، قال أبو بكر: بلى، أحب أن يغفر الله لي، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق.

ومع ما ذكر من العفو والإحسان، وأمثاله، وأضعافه، والجهاد على ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة أمر لا بد منه، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) المائدة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً^(١).

« وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية »

قال ابن عبد الهادي رحمته الله في معرض حديثه عن وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: « ثم إن الشيخ - رحمه الله تعالى - بقي مقيماً بالقلعة سنتين وثلاثة أشهر وأياماً ، ثم توفي إلى رحمة الله ورضوانه ، وما برح في هذه المدة مكباً على العبادة ، والتلاوة ، وتصنيف الكتب ، والرد على المخالفين . وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كثيرة ، تشتمل نفائس جليلة ، ونكت دقيقة ، ومعان لطيفة ، وبين في ذلك مواضع كثيرة أشكلت على خلق من علماء أهل التفسير .

وكتب في المسألة التي حُبس بسببها عدة مجلدات :

منها: كتاب في الرد على ابن الإخنائي قاضي المالكية بمصر ، تُعرف بالإخنائية ، ومنها كتاب كبير حافل في الرد على بعض قضاة الشافعية ، وأشياء كثيرة في هذا المعنى أيضاً^(١) .

إلى أن قال ابن عبد الهادي : « وما زال الشيخ تقي الدين رحمته الله في هذه المدة معظماً مكرماً ، يكرمه نقيب القلعة ، ونائبها إكراماً كثيراً ، ويستعرضان حوائجه ، ويبالغان في قضائها .

وكان ما صنفه في هذه المدة قد خرج بعضه من عنده ، وكتبه بعض أصحابه ، واشتهر ، وظهر .

فلما كان قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ، ولم

1 - العقود الدرية ص ٢٨٤ .

يبقى عنده كتاب، ولا ورقة، ولا دواة، ولا قلم، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم، وقد رأيت أوراقاً عدة بعثها إلى أصحابه، وبعضها مكتوب بفحم»^(١).

ثم أورد ابن عبد الهادي بعض هذه الأوراق التي كتبها ابن تيمية وفيها: «ونحن والله الحمد والشكر في نعم عظيمة، تتزايد كل يوم، ويجدد الله - تعالى - من نعمه نعماً أخرى، وخروج الكتب كان من أعظم النعم؛ فإني كنت حربصاً على خروج شيء منها؛ لتقفوا عليه، وهم كرهوا خروج الإخائية؛ فاستعملهم الله - تعالى - في إخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق؛ فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس، فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله، واستحق أن يذله الله ويخزيه.

وما كتبت شيئاً من هذا؛ ليكتنم عن أحد، ولو كان مبغضاً، والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت.

وأنا طيب، وعيناى طيبتان أطيب ما كانتا.

ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه».

ثم ذكر كلاماً وقال:

«كل ما يقضيه الله - تعالى - فيه الخير والرحمة والحكمة، إن ربي لطيف لما

يشاء، إنه هو القوي العزيز العليم الحكيم، ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه، ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ النساء: ٧٩، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والاستغفار يدفع النقم، ولا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له.

وهذه الورقة كتبها الشيخ وأرسلها بعد خروج الكتب من عنده بأكثر من ثلاثة أشهر: في شهر شوال، قبل وفاته بنحو شهر ونصف. ولما أخرج ما عنده من الكتب والأوراق، حمل إلى القاضي علاء الدين القونوي، وجعل تحت يده في المدرسة العادلية. وأقبل الشيخ بعد إخراجها على العبادة، والتلاوة، والتذكر، والتهجد؛ حتى أتاه اليقين.

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين، أو إحدى وثمانين ختمة، انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ القمر، ثم كملت عليه بعد وفاته، وهو مسجى.

كان كل يوم يقرأ ثلاثة أجزاء، يختتم في عشرة أيام، هكذا أخبرني أخوه زين الدين.

وكانت مدة مرضه بضعة وعشرين يوماً، وأكثر الناس ما علموا بمرضه، فلم

يفجأ الخلق إلا نعيه، فاشتد التأسف عليه، وكثر البكاء والحزن، ودخل إليه أقاربه، وأصحابه، وازدحم الخلق على باب القلعة، والطرقات، وامتلاً جامع دمشق، وصلوا عليه، وحمل على الرؤوس، رحمه الله ورضي عنه»^(١).
وبعد وفاته رثي بقصائد كثيرة قالها جمع من أكابر علماء عصره وأدبائه، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الشيخ العلامة محمد الخضر حسين

الشيخ العلامة محمد الخضر حسين

«معالم موجزة في سيرة الشيخ محمد الخضر حسين»

- فيما يلي معالم موجزة تبين سيرة الشيخ محمد الخضر حسين رحمته الله ، وقد استخلصت من كثير من الكتب التي ترجمت له.
- ١- ولد رحمته الله في بلدة (نفطة) بتونس عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٣م من أسرة علم، وصلاح، وتقوى.
 - ٢- يتصل نسبه بالنبي صلى الله عليه وسلم وجده للأب علي بن عمر، وجده لأمه مصطفى ابن عزوز، وخاله العلامة الشيخ محمد المكي بن عزوز، وشقيقاه العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين، والعلامة زين العابدين بن الحسين.
 - ٣- لما بلغ الثانية عشرة من عمره انتقل مع والده إلى العاصمة تونس، والتحق بطلاب العلم بجامعة الزيتونة أرقى المعاهد الدينية وأعظمها شأنًا في المغرب، وحصل منها على الشهادة العالمية في العلوم الدينية والعربية.
 - ٤- أوتي بيانًا ساحرًا، وقلمًا سيالًا قلما يوجد له نظير في العصور المتأخرة، بل إنه يضارع أرباب البيان الأوائل.
 - ٥- كان ذا قريحة وقادة، وخيال واسع يتبين ذلك من خلال شعره الذي تضمنه ديوانه (خواطر الحياة).
 - ٦- كان ذا هممة عالية، ونفس كريمة، وغيره إسلامية صادقة.
 - ٧- كان هادئ الطبع، حسن المعشر، ليين العريكة، جم التواضع، ذا زهد

وقناعة.

- ٨- كان متفنناً في علوم الشريعة من أصول، وتفسير، وفقه، ونحو ذلك.
 - ٩- كان إماماً من أئمة العربية في العصور المتأخرة، وفذاً من أفذاذ علماء الإسلام كما قال عنه العلامة محمد الطاهر بن عاشور - رحمهما الله - .
 - ١٠- أصدر مجلة (السعادة العظمى) عام ١٣٢١ هـ، وهي أول مجلة ظهرت في المغرب، ثم أغلقتها سلطات الاستعمار الفرنسي.
 - ١١- تولى القضاء في مدينة بنزرت عام ١٩٠٦ م، ولم يرقه ميدان القضاء؛ إذ حال بينه وبين الدعوة إلى الإصلاح والجهاد، فتركه إلى التدريس في جامع الزيتونة أستاذاً للعلوم الشرعية والعربية، كما تولى التدريس في مدرسة الصادقية بتونس.
 - ١٢- حكم عليه بالإعدام - إبان الاستعمار الفرنسي لتونس - لاشتغاله بالسياسة ودعوته إلى التحرير، فهاجر إلى دمشق مع أسرته عام ١٣٣١ هـ، وأقام فيها مدة طويلة تولى في مطلعها التدريس، وأعاض الله به أهل الشام بعد رحيل علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي رحمته الله فكان الخضر من أسباب النهضة العلمية في بلاد الشام.
 - ١٣- رحل رحلات عديدة، حيث رحل إلى الآستانة، وألمانيا، وقد أتقن اللغة الألمانية وكتب عن مشاهداته في برلين.
- وبعد ذلك عاد إلى دمشق، فلحقته سلطات الاحتلال الفرنسي، فرحل إلى مصر لاجئاً سياسياً عام ١٩٢٠ م، والتقى كبار علمائها ورجالها.

- ١٤- قام بتأسيس جمعية الهداية الإسلامية، وأصدر مجلة تحمل نفس الاسم، واشترك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين، واستلم رئاسة تحرير مجلة (نور الإسلام) التي يصدرها الأزهر، والمعروفة اليوم باسم مجلة (الأزهر).
- ١٥- انضم إلى علماء الأزهر، وعين مدرساً للفقهاء في كلية أصول الدين، ثم أستاذاً في التخصص.
- ١٦- عين عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة أول إنشائه، كما عين عضواً في المجمع العلمي بدمشق، واختير عضواً في جماعة كبار العلماء بعد أن قدم رسالته العلمية (القياس في اللغة العربية).
- ١٧- استلم رئاسة تحرير مجلة (لواء الإسلام) كما ترأس جمعية (جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية).
- ١٨- اختير عام ١٩٥٢م إماماً لمشيخة الأزهر، فقام بالأزهر خير قيام، وهو آخر عالم تولى الأزهر بترشيح العلماء، ثم أصبح بعد ذلك يعين من قبل الدولة.
- ١٩- توفي عام ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م، ودفن في المقبرة التيمورية إلى جانب صديقه العلامة أحمد تيمور باشا - رحمهما الله - بناءً على وصيته.
- ٢٠- خلف آثاراً علمية عديدة منها الحرية في الإسلام، ورسائل الإصلاح، والسعادة العظمى، والهداية الإسلامية، ومحاضرات إسلامية، والدعوة إلى الإصلاح، ونقض كتاب الشعر الجاهلي، ونقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، والرحلات، وتراجم الرجال، وأسرار التنزيل، والخيال في الشعر، ودراسات في الشريعة الإسلامية، وبلاغة القرآن، وله ديوان شعر جمعه بعض

محبية واسمه (خواطر الحياة).

وقد اعتنى ابن أخيه الأستاذ علي الرضا الحسيني بتلك الكتب، وبالترجمة للشيخ الخضر.

٢١- لقد كان لتلك الآثار أثرها البالغ في حياة الشيخ، وبعد وفاته، ولا زال الناس يفيدون منها، ويقبسون من نورها.

ولا زالت حياته، وآراؤه، ومؤلفاته، موضع الدراسة، والتحليل.

ولازال العلماء يتلقون كتبه بالعناية، والقبول، والثناء.

وإليك بعض ما قاله الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي رحمته الله في بيان رأيه في

كتب ستة قرأها للشيخ الخضر، وهي: تونس وجامعة الزيتونة، وبلاغة القرآن، ورسائل الإصلاح، والشريعة صالحة لكل زمان ومكان، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، والخيال في الشعر الجاهلي.

قال الشيخ عبد الرزاق رحمته الله :

«بيان عن هذه الكتب جملة في أمور مشتركة بينها:

أ- تشترك هذه الكتب الستة في قوة الأسلوب، وعلوه، مع سلاسة العبارة، ووضوحها، وسمو المعاني، ودقتها، وإصابة الهدف من قرب بلا تكلف فيها، ولا غموض، ولا حشو، ولا تكرار.

ب- تشترك في الدلالة على سعة علم المؤلف، وتضلعه في العلوم العربية، والاجتماعية، والدينية، واستقصائه في بحثه، وفي نقاشه لآراء مخالفيه، وأدلتهم، واعتداله في حكمه، وفتاويه.

ج- يتمثل فيها نزاهة قلم المؤلف، وحسن أدبه، ونبيل أخلاقه. لكن لم يمنعه ذلك أن ينقد الملحددين، ومَنْ انحرفَ به هواه عن الجادة، والصراط المستقيم نقداً لا ذعاً لا يخرج به عن الإنصاف، ولا يتجاوز حد الأدب في المناقشة؛ رعاية لحق مخالفه، وصيانة لعلمه ولسانه عما يشينه، وسيراً مع الكتاب والسنة وآدابهما في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فلا جهل، ولا سفاهة، إنما يقابل سيئة خَصْمِهِ وَسَبَّهُ بالحسنة، وغض الطرف عنها.

د- ويتمثل فيها الصدع بالحق، والكفاح عنه بحسن البيان، وقوة الحججة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لا يخشى في ذلك لومة لائم، عماده في ذلك كتاب الله، وسنة رسوله، ودليل العقل، وشاهد الحس، والواقع مع ذكر الشواهد من اللغة، والقضايا التي جرت في العالم»^(١).

ثم شرع الشيخ عبدالرزاق رحمته الله في الأمر الثاني، وهو بيان ما جاء في تلك الكتب على وجه التفصيل.

وقال عنه تلميذه علامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار رحمته الله :

«أستاذنا الجليل الشيخ محمد الخضر حسين، عَلِمُ من أعلام الإسلام هاجر إلى دمشق في عهد علامتي الشام المرحومين: جدي عبدالرزاق البيطار، وأستاذي الشيخ جمال الدين القاسمي؛ فاغتبنا بلقائه، واغتبنا بلقائهما، وكنا نلقاه، ونزوره معهما، ونحضر مجالسه عندهما، فأحْكَمَتْ بيننا روابط الصحبة والألفة

1 - انظر: الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي - حياته - وجهوده العلمية والدعوية وآثاره الحميدة،

تأليف محمد بن أحمد سيد أحمد ١/٢٤٥ - ٢٥٣

والود من ذلك العهد.

ولما توفي شيخنا القاسمي - تغمده المولى برضوانه - أوائل سنة ١٣٣٢ هـ لم نجد نحن معشر تلاميذه مَنْ نقرأ عليه أحب إلينا ولا آثر عندنا من الأستاذ الخضر؛ لما هو متصف به من الرسوخ في العلم، والتواضع في الخلق، واللطف في الحديث، والرقّة في الطبع، والإخلاص في المحبة، والبر بالإخوان، والإحسان إلى الناس، فكان مصداق قول الشاعر:

كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ الطَّبَاعِ مَرْكَبٌ فَأَنْتَ إِلَى كُلِّ النَّفُوسِ مَحَبَّبٌ

وأخذنا من ذلك الحين نقتطف ثمار العلوم والآداب من تلکم الروضة الأُنْفُ، ونرتشف كؤوس الأخلاق من سلسيل الهدى والتقوى، ولم يكن طلاب المدارس العالية في دمشق بأقل رغبة في دروسه، وإجلالاً لمقامه، وإعجاباً بأخلاقه من إخوانهم طلاب العلوم الشرعية، بل كانوا كلهم مغتبتين في هذه المحبة والصحبة، مجتمعين حول هذا البدر المنير.

وقد قرأنا عليه في المعقول والمنقول، والفروع والأصول، طائفة من أفضل ما صنف في موضوعه، وهي لعمر الحق دالة على حسن اختياره، وسلامة ذوقه، وقوة علمه، وشدة حرصه على النهوض بطلابه، وإعدادهم للنهوض بأمّتهم. وقد كنت نظمت أبياتاً جمعت فيها بين ذكر هذه الكتب، ووصف دروس الأستاذ، وجعلتها ذكراً لنفسي ولمن شاركوني في الطلب والتحصيل، عند أستاذنا الجليل، فقلت:

يَا سَائِلِي عَن دَرَسِ رِ بَ الْفَضْلِ مَوْلَانَا الْإِمَامِ

ابن الحسين التونسي	محمد الخضر الهمام
سَلْ عَنْهُ مُسْتَصْفَى الْأَصْدِ	ول لليت معترك الزحام
أعني الغزاليّ الحكيم	م رئيس أعلام الكلام
وكذاك في فن الخلا	ف بداية العالي المقام
أعني ابن رُشدٍ مَنْ غدا	بطل الفلاسفة العظام
وكذا صحيح أبي حسي	من مسلم حَبْرِ الْأَنام
وكذلك المغني إلى	شيخ النحاة ابن الهشام
وكذا كتاب أبي يزي	د ابن المبرد في الختام
تلك الدروس كما الشمو	س تنير أفلاك الظلام
يدني إليك بها حقا	ثق كل علم بانسجام
فتكون منك دقائق الـ	معنى على طرف الثمام
فالحق عوضنا به	من شيخنا شيخ الشّام

أبقى الله - تعالى - أستاذنا الخضر الجليل للدين والعلم والأدب ركناً ركيناً،
وحصناً حصيناً»^(١).

1- مجلة (الهداية الإسلامية) الجزء الثاني من المجلد العاشر الصادر في شعبان ١٣٥٦ هـ وهي كلمة المؤلف ألقاها عقب محاضرة الإمام محمد الخضر حسين في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية حالياً) في دمشق في جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦ هـ تحت عنوان (أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية) وانظر محمد بهجة البيطار إعداد علي الرضا الحسيني.

« نماذج من كتابات الشيخ محمد الخضر »

إليك فيما يلي نماذج من نثر الشيخ رحمه الله لتقف على مدى تمكنه، وجزالة أسلوبه، وذلك من خلال إيراد بعض المقاطع من كتاباته:

أولاً: مقاطع من كتابه: (الحرية في الإسلام): الذي ألفه في مقتبل عمره؛ حيث كان أصل هذا الكتاب محاضرة ألقاها الشيخ في ١٧ / ٤ / ١٣٢٤ هـ وكان يومئذٍ القاضي بمدينة بنزرت بتونس.

وهذا الكتاب قل أن تظفر بمثله في بابه.

وإليك مقاطع مما قاله في كتابه المذكور:

١- وإذا علمت نفسٌ طاب عنصرها، وشرف وجدانها أن مطمح الهمم إنما هي غاية، وحياة وراء حياتها الطبيعية - لم تقف بسعيها عند حد غذاء يقوتها، وكساء يسترها، ومسكن تأوي إليه.

بل لا تستفيق جهدها، ويطمئن بها قرارها إلا إذا بلغت مجداً شامخاً يصعد بها إلى أن تختلط بكواكب الجوزاء. ص ١٠

٢- يقوم فسطاط الحرية على قاعدتين عظيمتين هما: المشورة، والمساواة؛ فبالمشورة تتميز الحقوق، وبالمساواة ينتظم إجراءاتها، ويترد نفاذها.

وكل واحدة من هاتين القاعدتين رفع الإسلام سمكها، وسواها. ص ١٨

٣- وهكذا ما ساد الأدب، وانتشرت الفضيلة بين أمة إلا اتبعوا شرعة الإنصاف من عند أنفسهم، والتحفوا برداء الصدق والأمانة بمجرد بث النصيحة، والموعظة الحسنة، فيخفت ضجيج الضارعين، وصخب المبطلين، ولا تكاد تسمع لهما في أجواف المحاكم حسيساً. ص ٢٠

- ٤- أذن الله له ﷺ بالاستشارة وهو غني عنها بما يأتيه من وحي السماء؛ تطيباً
لنفوس أصحابه ، وتقريراً لسنة المشاورة للأمة من بعده. ص ٢١
- ٥- وكان أبو بكر الصديق ﷺ من العلم بقوانين الشريعة ، والخبرة بوجوه
السياسة في منزلة لا تطاولها سماء. (١)
- ومع هذا لا يبرم حكماً في حادثة إلا بعد أن تتداولها آراء جماعة من الصحابة.
وإذا نُقلَ له أحدهم نصاً صريحاً ينطبق على الحادثة قال: « الحمد لله الذي
جعل فينا من يحفظ عن نبينا ». ص ٢١
- ٦- لا تكون قاعدة الشورى من نواصر الحرية وأعوانها إلا إذا وضع حجرها
الأول على قصد الحنان والرأفة بالرعية.
- وأما المشاركة في الرأي وحدها - ولا سيما رأي من لا يطاع - فلا تكفي في
قطع دابر الاستبداد. ص ٢٥
- ٧- وأهم فوائد المشورة تخليص الحق من احتمالات الآراء.
وذهب الحكماء من الأدباء في تصوير هذا المغزى وتمثيله في النفوس إلى
مذاهب شتى ، قال بعضهم:
- إذا عن أمر فاستشرف فيه صاحباً وإن كنت ذا رأي تشير على الصحب

1- هذا تضمين لبنت البوصيري:

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

والشيخ محمد الخضر ﷺ من أرباب البيان ، خصوصاً في باب الاقتباس و التضمين؛ فهو فارس لا
يشق له غبار في هذا الميدان ، وسترى نماذج لذلك فيما سيأتي.

فإني رأيت العين تجهل نفسها وتدرک ما قد حلّ في موضع الشهب
وقال آخر:

اقرن برأیک رأي غيرک واستشر والمرءُ مرأةً تريه وجهه
فالحق لا يخفى على الأثنين ويرى قفاه بجمع مرأتين
وقال آخر:

الرأي كالليل مسوداً جوانبه والرأي كالليل لا ينجلي إلا بإصباح
فاضم مصابيح آراء الرجال إلى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

ص ٢٥

- ٨- ومن فوائد الشورى استطلاع أفكار الرجال، ومعرفة مقاديرها؛ فإن الرأي
يمثل لك عقل صاحبه كما تمثل لك المرأة صورة شخصه إذا استقبلها. ص ٢٦
- ٩- الحرية في الأموال هي إطلاق التصرف لأصحابها يذهبون في اكتسابها،
والتمتع بها على الطريق الوسط دون أن تلم بها فاجعة الاغتصاب، أو تخطفها
خائنة كيد واحتيال. ص ٣١
- ١٠- فلا حرج في جمع الدنيا من الوجوه المباحة ما لم يكن صاحبها عن
الواجبات في شغل شاغل.

وقد ذكر الله - تعالى - التجارة في معرض الخط من شأنها حيث شغلت عن طاعة
في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ
اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ . الجمعة: ص ١١
ولما رجعوا عن صنيعهم، وأخذوا بأدب الشريعة في إثارة الواجبات الدينية،

وعدم الانقطاع عنها إلى الاشتغال بالتجارة ونحوها - ذكرها ، ولم يهضم من حقها شيئاً ، فقال - تعالى - : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .
النور : ٣٧ .

فأثبت لهؤلاء الكُمَّل أنهم تجار وباعة ، ولكنهم لم يشتغلوا بضروب منافع التجارة عن فرائض الله ، وهذا قول المحققين في الآية . ص ٣٢

١١- بيد أن الشريعة أمرت العامل بأن يكون قلبه حال عمله مطوباً على سراج من التوكل والتفويض؛ فإن اعتماد القلب على قدرة الله وكرمه يستأصل جراثيم اليأس ، ومنابت الكسل ، ويشد ظهر الأمل الذي يلج به الساعي أغوار البحار العميقة ، ويقارع به السباع الضارية في فلواتها . ص ٣٣

١٢- لم تغادر الشريعة صغيرة ولا كبيرة من وجوه التصرفات في الأموال إلا أحصتها ، وعلقت عليها حكماً عادلاً . ص ٣٤

١٣- كما أذن الإسلام في اكتساب الأموال ، واستثمار أرباحها من وجوهها المعتدلة أذن في الاستمتاع بها ، وترويح خاطر بنعيمها؛ شريطة الاقتصاد . ص ٣٧

١٤- وأما الآيات الواردة في سياق التزهيد ، والحط من متاع الحياة الدنيا فلا يقصد منها ترغيب الإنسان؛ ليعيش مجانباً للزينة ، ميت الإرادة عن التعلق بشهواته على الإطلاق .

وإنما يقصد منها - فيما نفهمه - حكم أخرى كتسلية الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، وَمَنْ قَصُرَتْ أَيْدِيهِمْ عَنْ تَنَاوُلِهَا؛ لئلا تضيق صدورهم على آثارها أسفاً .

ومنها تعديل الأنفس الشاردة، وانتزاعُ ما في طبيعتها من الشرِّه، والطمع؛ لئلا يخرجها بها عن قصد السبيل، ويتطوَّحاً بها في الاكتساب إلى طرق غير لائقة. فاستصغارُ متاع الدنيا، وتحقيرُ لذائذها في نفوس الناس يرفعهم عن الاستغراق فيها، ويكبرُ بهمهمهم عن جعلها قبلةً يولون وجوههم شطرها حيثما كانوا. وقد بين لنا العيان أن الإنسان متى عكف على ملاذِّ الحياة، ولم يصحَّ فؤاده عن اللهو بزخارفها ماتت عواطفه، ونسي، أوتناسى من أين تؤتى المكارم، والمروءة، ودخل مع الأنعام في حياتهم السافلة. ص ٣٨

١٥- وأما ما ثبت عن بعض السلف من نبذ الزينة، والإعراض عن العيش الناعم عند القدرة عليه، أو في حال وجوده - فلا يريدونه قربة بنفسه، ولكن يبتغون به الوسيلة إلى رياضة النفس، وتدريبها على مخالفة الشهوات؛ لتستقر تحت طوع العقل بسهولة، وتتمكن من طرح أهوائها الزائغة بدون كلفة؛ فلو وثق الإنسان من نفسه بحسن الطاعة لم تكن في مجانبته للطيبات مزية ولا مؤاخذة. ص ٣٩

١٦- ولا نسى أن كثيراً من الشعراء قد طغى بهم الإبداع في المقال إلى أن نسقوا في مديح الخمر صفات الجمال، وضربوا للتنويه بشأنها الأمثال؛ فاستهوا لمعاقرتها عبید الخيال، والشعراء يتبعهم الغاؤون. ص ٤١

١٧- فالإسلام - وإن عني بتزكية الأرواح، وترقيتها في مراقي الفلاح - لم يبخص الحواس حقها، وقضى لبانتها من الزينة، واللذة بالقسطاس المستقيم. ص ٤١

١٨- وروي أن عبد الله بن أبي السمط أنشد بين يدي المأمون أبياتاً يمتدحه

بها، فلما انتهى عند قوله :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

قال له المأمون: ما زدت على أن جعلتني عجوزاً في محراب، ويدها سبحة!!

أعجزت أن تقول كما قال جرير في عمر بن عبد العزيز:

فلا هو في الدنيا مُضِيعٌ نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ص ٤١

١٩- هذا الباعث - حب المال - يقذفه الله في نفوس قوم؛ فيدعوهم إلى تسوية

طرائق العمران، وتشبيد أركانه، ويسلكه في قلوب آخرين فيترامى بهم إلى بث

الفساد على وجه البسيطة، وإثارة غبار التوحش في أرجائها. ص ٤٣

٢٠- حب المال هو الذي ينزع من فؤاد الرجل الرأفة، ويجعل مكانها القسوة

والفظاظة، حتى إذا أظلم الأفق، واسودّ جناح الليل^(١) تأبط خنجراً، أو تقلد سيفاً،

وذهب يخطو خطأ خفافاً؛ ليأتي البيوت من ظهورها، ويمد بسبب إلى أمتعتها، فإذا

دافعه صاحبها أذاقه طعم المنون، وانصرف ثملاً بلذة الانتصار. ص ٤٣ - ٤٤

٢١- ولهذا افتقرت داعية حب المال إلى وازع يسدّد طيشها، ويكسر من

كعوبها إلى أن تستقيم قناتها.^(٢)

والوازع ما ورد في مجمل الشريعة ومفصلها من الأصول القابضة على أيدي

1- هذا تضمين من المؤلف ﷺ لقول عمر بن أبي ربيعة:

إذا اسود جناح الليل فلتأت وتكن خطاك خفافاً إن حراسنا أسدا

2- هذا تضمين للشاهد النحوي في باب نصب المضارع:

وكننت إذا غمرت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

الهداجين حول اختلاسها، والعاملين على اغتصابها، أو التصرف فيها بغير ما يأذن به صاحبها. ص ٤٤

٢٢- الرشوة أخت السرقة، وابنة عم الاغتصاب، وإن شئت فقل: تزوج الاغتصاب بالسرقة، فتولدت بينهما الرشوة؛ لأنها عبارة عن أخذ مال معصوم خفية، ولكنه بسلطة على حين علم من صاحبه. ص ٤٥

٢٣- ولما كانت الرشوة عقبة كؤوداً في سبيل الحرية - أخذت الشريعة في تحريمها بالتي هي أحوط؛ فلا يسوغ للقاضي قبول الهدية إلا من خواص قرابته؛ لئلا تنزل به مدرجاتها إلى أكل الرشوة، أو يتخذ اسم الهدية غطاءً للرشوة يسترها به عن أعين المراقبين لأحواله السرية. ص ٤٥

٢٤- فمن تحيز عن أمته، وطفق يرمي في وجوههم بعبارات الازدراء، وينفث في كأس حياتهم سمّاً ناقعاً - لا نَصِفُه بصفة الغيرة، والوطنية، وإن شَغَفَ بحب ديارهم، وقَبَّلَهَا جداراً بعد جدار. (١) ص ٤٩

٢٥- يريد كل امرئ أومضت فيه بارقةٌ من العقل أن يكون عِرْضُهُ محلَّ التمجيدِ والثناء، وحرماً مصوناً لا يرتع حوله اللامزون.

1- هذا تضمين لقول الشاعر:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ولو تتبع أحد هذا الفن - أعني الاقتباس والتضمين - في مؤلفات الشيخ رحمته الله لخرج بمادة علمية

كبيرة.

وهاته الإرادة هي التي تبعته على أن يبدد فريقاً من ماله في حل عقال السنة؛ لتكسوه من نسج آدابها حلة المديح، أو يسد بها أفواهاً يخشى أن تصب عليه مرائر أهدوثتها علقماً، قال أحدهم:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بآرك الله بعد العرض بالمال

وقد تقوى هذه الداعية فتبلغ به أن يخاطر بحياته، وينصب جنبه لسهام الرزايا عندما يرجم بشتيمة تلوث وجه كرامته، ويتجهم بها منظر حياته، يقول أبو الطيب المتنبي:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

ولا يتفاضل الناس في مراقبي الشرف والمجادة، أو تسفل همهم إلى هاوية الرذالة إلا بمقدار ما تجد بينهم من التفاوت في عقد هذه الإرادة قوة وانحلالاً؛ فبقوة هذه الإرادة يتجلى لنا في مظاهر الإنسانية مطبوعاً على أجمل صورة من الكمال، وبسبب ضعفها تنزل به شهواته من سماء الإنسانية إلى أن يكون حيواناً مهملًا. ص ٥٣

٢٦- لا يحق للطاعن أن يتخطى المصائب التي يجهر بها صاحبها إلى النقائص

التي يحرزها بغطاء الستر والكتمان. ص ٥٤

٢٧- في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ

لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ الحجرات: ١٢.

وفي هذا التشبيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه، وهو من باب

القياس الظاهر؛ لأن عرض المرء أشرف من بدنه؛ فإذا قبح من العاقل أكل لحوم

الناس لم يحسن منه قرض أعراضهم بالطريق الأولى؛ فاللذام التي تلتصق بالشخص خُفِيَةً لا يسوغ لآخر تَكَشَّفَ عليها أن يحرك بها لسانه، ويتمضمض بإذاعتها في الجامع إلا في مواضع يدور حكم الاستباحة فيها على درء مفسدة تنشأ عن عدم التعريف بها. ٥٤

٢٨- ولما تجاسر كثير من أهل الأهواء على اختلاق أحاديث يفترونها كذباً، ويسندونها إلى رسول الله ﷺ ليؤيدوا بها مزاعمهم، أو يقضوا بها حاجة في نفوسهم - قام العلماء بحق الوراثة المنوطة بعهدتهم من قبل صاحب الشريعة، وأخذوا في نقد ما يروى من الأحاديث؛ حتى يتميز الخبيثُ من الطيب، والصحيح من غير الصحيح؛ فاحتاجوا إلى التعرض لحالة الرواة، وإذا علموا من أحد سوءاً بادروا إلى الجهر به، وتعيين اسمه؛ ليحذروا الناس، ولا يتلقون روايته بالقبول. ص ٥٥

٢٩- وقد دارت هذه الكلمة - كلمة الحربة - على أفواه الخطباء، ولهجت بها أقلام الكاتبين ينشدون ضالتها عند أبواب الحكومات، ويقفون عند مكانها، وتمكين الراحة من مصافحتها - وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه. ^(١) ص ١٦

ثانياً: خواطر كتبها الشيخ رحمه الله وقد نشرت هذه الخواطر على حلقتين في مجلة «البدر» الصادرة باسم «العرب» الجزء الرابع من المجلد الثالث في شهر ربيع

1 - هذا تضمن لقول أبي الطيب المتنبى:

وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

بَلَيْتُ بِلى الأطلال إن لم أقف بها

الثاني عام ١٣٤٢ ، والجزء السابع من المجلد الثالث الصادر في شهر رجب ١٣٤٣ هـ.

يقول رحمه الله :

١- إن كبر عقلك ، فأصبح يعلمك ما لم تعلم ، واتسع خيالك ، فبات يلقي عليك من الصور البديعة ما يلذه ذوقك ، فأنت ما بين أستاذ يحض نصيحته ، ونديم لا تمل صحبته.

٢- يعلمك الأستاذ كيف تغوص في عميق البحار ، ويريك نموذجاً من الدر يتميز بينه وبين الأحجار ، وهمتك تخلد بك إلى الإملاق ، أو تجعلك المجلي في حلبة السباق.

٣- سميت الاستخفاف بالشرع حرية ، فقلت : برع في فن المجاز ، وتهكم بمن أصبح عبداً للهوى ، وسميت النفاق كياسة ، فقلت : خان الفضيلة في اسمها ، أو خانه النظر في فهمها.

٤- تنظر النفس في سيرة الرجل العظيم كما تنظر العين في الزجاجاة النقية ، فتدرك مساويها ، أفلا تصنع بمأثرك الحميدة مرآة يبصر بها الناشئ بعدك صورته الروحية فيصلحها.

٥- سرت والنورُ أمامك ، فانطلق ظلك على أترك ، ثم وليته قفاك ، فكان الظل يسعى وأنت على أثره ، وهكذا العقل ، يتقبل فيتبعه الخيال ، فإذا أدبر عنها انقلب الخيال إلى الأمام ، وقاده في شعب الباطل بغير لجام.

٦- تبسط لسانك بالنكير على من يقلد في الدين ، ولولا أنك تتلقى قول

الفيلسوف على غير هدى ، لقلت : باكورة الاجتهاد قد أينعت.

٧- هذه الدنيا كالعدسة الزجاجية في الآلة المصورة، تضع الرأس بموطئ القدم، وترفع القدم إلى مكان الرأس؛ فزنوا الرجل بمآثره لا بما يبدو لكم من مظاهره.

٨- يبسط الشجر ظله للمقييل، ويقف بعد موته بقناديل الكهرباء على سواء السبيل؛ أفأنت تجير من البؤس وهو أحر من الرمضاء، وتوقد سراج حكمة يهدي بعد موتك إلى المحجة البيضاء.

٩- يصنع الصانع الحلي، وتضع ما تتجمل به النفوس في محافل العلى، فإن ظلت تتهافت على صانع الخواتم والسلاسل فاعلم أنها ما برحت لاهية عن هذه المحافل.

١٠- حسبت العلم ضلالاً فناديت إلى الجهل، وآخر يزعم التقوى بلهاً فكان داعية الفجور، ولولا ما تلقيناه في سبيلنا من هذه الأرجاس، لكنا خير أمة أخرجت للناس.

١١- ربما كان صانعُ الأسنّة أرقَّ عاطفةً من الطبيب، والسفيه أحفظ للحكم البالغة من الأديب، ولكنني أطلب نفس الرجل حثيثاً، وأناجيها فلا تكتمني حديثاً.

١٢- كان هذا الغصن رطيباً، وعيش البلبل به خصيباً، ولكنه سحب عليه ذيل الخيلاء، فأصبح يتقلب في ذلك البلاء، ويرتجف كما ترتجف اليد الشّلاء.

١٣- كل جوهرة من عقد حياة محمد - عليه السلام - معجزة؛ فإن أساليب دعوته ومظاهر حكمته، لا يربطها بحال الأمية إلا قدرة تتصرف في الكائنات

بحكمة أبلغ مما تستدعيه طبائعها.

١٤- العفاف نور تستمده النفس من مطلع العقل، فإن ضرب عليها الهوى بخيمته السوداء، خسفت كما يخسف القمر إذا حجزت الأرض بينه وبين الشمس.

١٥- ينزوي البحر فتضع السفينة صدرها على التراب، وينبسط فتمر على الماء مرّ السحاب.

والعقل يظل في موقعه من النفس طريحاً؛ فإن فاضت عليه الحكمة سار في سبيل النظر عنقاً فسيحاً.

١٦- إن تخبطك السفه أهانوك، وإن قعد بك البله أعانوك؛ لأنك تستطيع أن تكون تقياً، وليس في يدك أن تكون ألعياً.

١٧- تتجلى فضيلتك فتسج في هذه النفس عاطفة أرق من النسيم، وتوقد في أخرى حسداً أحر من الجحيم، وكذلك المزن ينسكب على أرض، فتبتسم بثغر الأُقحوان، وينزل على أخرى، فتقطّب بوجهة من حسك السعدان.

١٨- جنيت وردةً لأخلصها من الشوك الذي يساورها من كل جانب، فما لبث أن طفئت بهجتها، وسكنت أنفاسها؛ فعلمت أن النفوس الزاكية لا تتخلص من النوائب إلا يوم تموت.

١٩- الشر نار كامنة في قلوب تحملها صدور المستبدين، فإن قدحتها بنقد سياستهم كنت لها قوتاً، إلا أن تكون بإخلاصك وحكمتك البالغة ياقوتاً.

٢٠- إذا قلت في السياسة ما لا تفعل، أوهمت في واد لا تعرج فيه على حقيقة- فانفض ثوبك من غبارها؛ فإنه ليس من الغبار الذي يصيبك في سبيل الله.

- ٢١- إنما يقطف الفيلسوف من المنافع ما تتفتق عنه أكمام الحقيقة ، ولا يعرج السياسي بنظره على الحقائق إلا إذا أطلت عليه المنفعة من ورائها.
- ٢٢- لا تجادل المعاند قبل أن يأخذ الاستهزاء به في نفسك مكان الغضب عليه؛ فالغضب دخان يتجهم به وجه الحجة المستنيرة ، وابتسام التهكم برقه يخطف البصر قبل أن تقع صاعقة البرهان على البصيرة.
- ٢٣- لا يمنعك من وضع المقال على محك النظر أن تتلقاه ممن هو أصفى منك ذهناً أو أرجح وزناً؛ فإن الورق لا يقبل ما يرسم في الزجاج من الصور إلا بعد إصلاح خطئها ، وإعادته الألوان إلى مبدئها.
- ٢٤- أرى موقع الليل من هذه البسيطة لا يفوت مقدار نهارها ، فرجوت أن لا يكون الباطل أوسع مجالاً من الحقيقة ، ولكن الشمس ترمز بكسوفها إلى أن أخطأت في القياس ، وبنيت رجائي على غير أساس.
- ٢٥- العالم بستان ، تجوّل فيه الفيلسوف فقال: كيف نشأت هذه الأزهار والثمار؟ ولماذا اختلفت في النعوت والآثار؟ وطاف فيه السياسي فقال: متى يقطف هذا الثمر؟ وتؤتي تلك الشجرة أكلها؟
- ٢٦- سكبت ماءً حاراً في زجاجة فتأثر أحد شطريها بالحرارة ، واستمر الآخر على طبيعة البرودة ، فتصدع جدارها.
- وكذلك النفوس الناشئة على طبائع مختلفة لا يمكن التثامها.
- ٢٧- كان لسان الدين بن الخطيب جنة أدب تجري تحتها أنهار المعارف فأتت أكلها ضعفين ، ولكن تنفست عليه السياسة ببخار سام فخنقته ، وشب نار الحسد

في القلوب القاسية فأحرقته.

٢٨- تلهج بأن الشيخ لا يسوس المصلحة بحزم، فإن بلي برد شبابك ولم تُلَقِ زمامها من تلقاء نفسك، فقد فندت رأيك، أو أضمرت العيب في السياسة.

٢٩- في الناس من لا يلاقيك بثغر باسم إلا أن تدخل عليه من باب البله، أو تلطخ لسانك بحمأة التملق؛ فاحتفظ بالمعيتك وطهارة منطقتك، فإنما يأسف على طلاقة وجهه قوم لا يعقلون.

٣٠- بين جناحك قوة تجذب إلى جوارك العمل وهي الإرادة؛ فاستعد بالله أن تكون كالجاذبية الأرضية تستهوي الصخرة الصماء إلى النفس المطمئنة، فتمحقها.

٣١- شددت وصلك إلى سوق العرفان؛ ليقتنني ما يلدُّ ذوقك من درر حسان؛ فإذا اغبرت لؤلؤة إيمانك بوسواس المفتون فقد خسرت تجارتك ولو أصبحت تتهمك على آراء أفلاطون، وكشف لك من الكيمياء والزراعة عن كنوز قارون.

٣٢- لا ترسل فكرك وراء البحث عن حقيقة قبل أن ينفخ فيه روح الاستقلال؛ فإن التقليد موت، وما كان لجثث الموتى أن تغوص الأبحر العميقة.

٣٣- لا عجب أن يتفجر بين أيديهم ينبوع الآداب صافياً، وتهوى أنفسهم أن تغترف غُرْفَةً من مستنقعها الأقصى؛ فإن من الأبصار المعتلة ما لا يقع نظره إلا على شبح بعيد.

٣٤- النفس راحلةٌ تحمل أثقالك إلى بلد السعادة؛ فإن لم تسر بها إثر الشريعة القيمة، أوجت بك في مهامه مُغْبَرَّةً، وإن بلغت في الفلسفة ما بلغ شاعر المعرفة.

٣٥- سيروا في تهذيب الفتاة على صراط الله المستقيم؛ فإن منزلتها من الفتى

منزلة عَجَزَ البيت من صدره ، ولا يحسن في البيت أن يكون أحدُ شطريه محكماً
والآخر متخاذلاً.

٣٦- لا يدرك أعشى البصيرة من الحقائق المتناسقة غير أشجار ذات أفنان ،
وثمار ذات ألوان ، وإنما ينقب عن منابتها وأطوار نشأتها ذو فكرة متيقظة.

٣٧- لا تدهنوا المولع بقتل حريتككم؛ فأبخس الناس قيمة من تصرعه الخمر ،
كالذي يتخبطه الشيطان من المس ، ثم لا يلبث أن يلبسها من تسييح مدحه حللاً
ضافية.

٣٨- إن من الجهال من يرمي به الزمن على مقام وجيه ، فعلمه بسير تلك
القيمة أن الجهالة لا ترجح على العلم وزناً وإن وضع بإزائها السلطة الغالبة أو
الثروة الطائلة.

٣٩- بذرت أيام الشباب آمالاً لم تقطف ثمرها إلا حين أقبل المشيب ، وهل
يتمنى الحاصد للثمار أن يعود إلى أيام الحراثة والزراعة والانتظار؟!

٤٠- يكفي الذي يسير في سبيل مصلحة الأمة ، وهو يرقب من ورائها منفعة
لنفسه أن يكون في حل من وخزات أقلامها ، وإنما يحمد الذي يجاهد لسعادتها ،
وهو لا يرجو نعماء ينفرد بها في هذه الحياة.

٤١- لا تنقل حديث الذي يفضي به إليك عن ثقة بأمانتك ، ويمكنك - متى
كان يرمي إلى غاية سيئة - أن تجعل مساعيك عرضة في سبيله؛ فتحفظ للمروءة
عهدا ، وتقضي للمصلحة العامة حقها.

٤٢- لو فكرت في لسانك حين يتعرض لإطراء نفسك لم تميزه عن السنة تقع

في ذمها إلا بأنه يلصق بك نقيصة ، لا يحتاج في إثباتها إلى بينة.

- ٤٣- ألا ترى الماء الذي تقع في مجاريه الأقدار، كيف يتهجم منظره، ويخبث طعمه؛ فاطرد عن قلبك خواطر السوء، فإنه المنبع الذي يصدر عنه عملك المشهود.
- ٤٥- قد يقف لك الأجنبي على طرف المساواة، حتى إذا حل وطنك متغلباً، طرحك في وهدة الاستعباد، واتخذ من عنقك الحر موطئاً.
- ٤٦- لا يحق للرجل أن يكثر بمن يتقلد رأيه على غير بينة، إلا إذا وازنه وقارنه بالصحف المطوية على آثارهم في نسخ متعددة.

« نماذج من شعره »

للشيخ رحمه الله ديوان شعري كبير مليء بالحكم والمقطعات الجميلة الرائعة،
وإليك شيئاً مما قاله فيه :

١- قال رحمه الله :

إن هذا الزجاج يصنع كأساً ليصير الحلِيمَ فينا سفيها
ويصوغ الدواة تلقاء هذا ليُرى خامل الشعور نبيها
مثل الفيلسوف ينفض غياً ثم يأتي لما يروق الفقيهها

٢- وقال في الجرس :

جرس يصيحُ كحاجب طلق اللسان معربداً
حيناً ينوح كموجع من لطمة المتعمد
والآن زنَّ كمزهر جسسته أنمل معبد
زار الصديق فهزّة من بعد ضغطة جلمد
فحدا كما يحدو الهزا رعلى الغصون الميّد
والود يسكن في الحشا لكن يحس من اليد

٣- وقال رحمه الله في مقطوعة عنوانها (رقة الطبع تزيد المودة صفاءً) :

جفا الصديق فناجيت الفؤاد بأن يبيت في جفوة تلقاء جفوته
أبى وقال أصون العهد متئداً فَرُبَّ ودِّ صفا من بعد غبرته^(١)

1 - الضمير في قوله (أبى) يعود إلى الفؤاد.

عاد الصديق فأصفى وده فإذا
 إن تلق طبعاً رقيقاً فاغرسن به
 حديث نجواي منسوخ برُمته
 مودّة يُسقيها من ماء رفته

٤- وقال في مقطوعة عنوانها (زهرة الدنيا أخلائي) ، وقد قالها في مصر عقب وداع بعض أصدقائه من تونس :

يومُ بَيْنٍ لم أذُق من قبله
 ودّعوا والصبح يحدو بالدجى
 لوعةً كالنار حراً وهياجا
 وامتطوا سابحةً في الجوّ لا
 حاملاً من بين جنبيه سراجا
 جـيرة أصـفـيتهم ودي ولا
 لقيت من أختها الريح لجاجا^(١)
 يجد المذقّ من الود رواجا^(٢)
 أفراتاً كان وردي أم أجاجا
 لا أبالي إن أنا جاورتهم
 شفني البين وأعياني علاجا
 زهرة الدنيا أخلائي ولو

٥- وهذه مقطوعة بعنوان (رفقاً بها) ، وقد قالها في تونس مداعباً أستاذه الشيخ سالم أبو حاجب بعد درس تعرض فيه إلى حكم التضحية بالطباء :

مدّ في وجرة الحباله يبغي
 صادها ظبيّة وهم بأن يص
 قنصاً والطبّاء ترتع مرحى^(٣)
 رعتها كالخروف في عيد أضحي
 قلت: رفقاً بها ولا تُرهنّها
 وهي ترنو إليك صرعاً وذبحا
 ما أظن السكّين ترضى وفيها
 جدّة أن تخط في الجيد جرحا

1 - يعني بقوله : ساجحة في الجو : الطائرة.

2 - المذق : الود غير الصافي.

3 - وجرة : مرتع للوحش ، والحباله : المصيدة ، والقنص : الصيد.

خلّ عنها فعَيْنُها أذكرتنا عین أسماء وهي بالبشر طفحى

٦- وقال في مقطوعة عنوانها (الصداقة والعزلة):

أريد أماً كالماء يجري على الصفا
وأرسلت لحظ الفكر في القوم ناقداً
فلا ضير في ودّ تغاضيت فيه عن
فعاد وكم لاقى لساناً مماذقاً
ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى
نقياً فيصفو لي على القرب والبعد
وأوصيته ألا يبالغ في النقد
لوادع يأتيها الصديق بلا عمد
ومن خلفه قلبٌ خليٌّ من الود
لفتشت عن وادٍ أعيش به وحدي

٧- وقال في مقطوعة عنوانها (المحبة الصادقة)، تصويراً للصداقة الصحيحة:

نبئت أنك موجعٌ
ما ضر لو كنت المريد
وجع القلوب أشد من
لا خلّ إلا من يبيد
فارتاع قلبي وانتفض
ض وزال عن خلي المرض
وجع الجسوم إذا عرض
ت إذا مرضت على مريض

٨- وقال في مقطوعة عنوانها (الدعاء للميت خير من تأبينه) وقد قالها في مستشفى

فؤاد الأول بالقاهرة في ربيع الآخر سنة ١٣٦٨هـ، وفي ضمنها معنى من معاني
الوفاء، ألا وهو الدعاء للميت؛ فهو خير ما يقدمه الصاحب لصاحبه بعد موته.

وهذه المقطوعة من أجمل ما قيل في هذا المعنى من شعر؛ يقول ﷺ:

تسألني هل في صحابك شاعرٌ
فقلت لها: لا هم لي بعد موتتي
إذا مت قال الشعر وهو حزينٌ
سوى أن أرى أخراي كيف تكون
يلاقى جزاءً والجزاءُ مهين

وإن أخطأ بالرُحْمى فمالي من هوى
فَحَلُّ فَعولُنْ فاعلاتنُ تقال في
وإن شئت تأبيني فدعوةُ ساجدٍ
سواها وأهواء النفوسِ شجون
أناس لهم فوق التراب شؤون
لها بين أحناء الضلوع حنينٌ^(١)

٩- وقال في قصيدة عنون لها ب: «حياة اللغة العربية»، وجعلها في أسلوب رواية خيالية، فقال^(٢):

بصري يسبحُ في وادي النظرِ
وسبيل الرشيد مهود لمن
إنما الكون سِجِلٌ رُسمتْ
وإذا أرخى الدجى أستاره
لست أنسى جُنح ليل خَفقت
لجَّ بي التسهيدُ حتى أوشكت
قمت أسعى لتقاضِي سَلوَةٍ
قمتُ أخطو فجرى حادي الصبَا
وانثنى بي نحو نادٍ نشبوا
لا تعي من بينهم إلا وغي
وإذا الخصمان لم يهتديا
يتقصى أثراً بعد أثرٍ
يتجافى الغمضَ ما استطاع السهرُ
فيه للأفكار آيٌ وعِبَرُ
هبَّ سمعي كاشفاً عما استترُ
فيه بالأحشاء أنفاسُ الضَجْرُ
غرَّةُ الإصباح أن تغشى السحرُ
ومطايا السعي مرقاة الوَطْرُ
بحسيسٍ من أحاديثِ السمرِ
في لِحاءٍ ولججاجٍ منتشرِ
في مزيجٍ مثل ضغثٍ معتكرِ
سنةً البحث عن الحق غَبْرُ

1 - التأبين: الثناء على الميت.

2- القصيدة موجودة في ديوان الشيخ (خواطر الحياة) ص ١١١-١١٤، وفي كتابه (حياة اللغة العربية) ص ٧٨-٨٤.

في لسان العُربِ من فضلٍ ظهرُ
شأنه والجهلُ مدعاةُ الهدرِ
حكماً بينهم فيما شَجَرَ
لهجةٍ فصحي وجأشٍ مستقر^(١)
من قوانين الهدى أبهى دررُ
زهر آداب وأخلاقٍ غررُ
ولآلي البحر ليست تنحصرُ
فصحاء العرب سيل منهمرُ
كخصيب الأرض يحييه المطرُ
في مجال القول جلى وبهرُ
صيغ شأن الغني المقتدرُ
وضعها في كل معنى مُبتكرُ
أنجبت أرض قريشٍ ومضرُ
مُفلقٍ يسحب أذيال الفخر^(٢)
من فنون الحسن بالسهم الأغرُ
يذهل الأسماع عن نغم الوترُ

هذه طائفة تحادو بما
وجفثته فئمة فاهتضموا
وتراضوا بعد ذا أن نصبوا
فانبرى فيهم خطيباً بصدى
لغة أودع في أصداها
لغة نهصر من أعضائها
ضاق طوق الحصر عن بسطتها
فاض من نهر مبانيتها على
فسرت روح بيان في اللهى
وابنها المنطيق إن زج به
يسبك المعنى متى شاء على
ثم لا يعوزه السير على
فاسأل التاريخ ينبيئك بما
من خطيب مصقع أو شاعر
ضربت في كل شرب ينتحي
أرشفت من شنب الرقة ما

1- الجأش: القلب.

2- المصقع: البليغ، ومن لا يرتج عليه - أي لا يقفل عليه - والمفلق: الذي يأتي بالعجائب في شعره.

ولطيف اللفظ يسري في الحشا
وتذيب القلب رعباً بجزا
والكلام الجزلُ وضعاً واقعُ
ضلَّ قوم سلكوا في حفظها
ألقت في نطق قومي أحرفاً
بعض من لم يفقهوا أسرارها
نفرروا عنها لـواذاً وإذا
ما زكا تفاح لبنان على
هكذا في نظر الأعشى استوى
لغة قد عقد الدين لها
أو لم ينسج على منوالها
يا لقومي لوفاء إن من
فأقيموا الوجه في إحيائها

ما سرت نظرة ظبي ذي حور
لـة أسلوب لديها محتكر
موقع السيف إذا السيف خطر
سبباً أوهن من جبل القمر
من لغى أخرى فأضناها الخدر
قذفوها بمواتٍ مستمر
جفاً طبع المرء لم تغن النذر
حسك السعدان في ذوق منذر^(١)
زهر روض وهشيم المحتظر^(٢)
ذمة يكلؤها كل البشر^(٣)
كلم التنزيل في أرقى سور
نكت العهد أتى إحدى الكبر
وتلافوا عقد ما كان انتشر

١٠- وقال في قصيدة له عنوانها «القطار في غوطة دمشق» قالها عندما دخل في القطار بساتين دمشق لأول مرة سنة ١٣٣٠ هـ:

- 1- حسك السعدان: نبت من أفضل مراعي الإبل، وله شوك تشبه به حلمة الثدي، فيقال لها: السعدانة، والمذر: الخبيث، والفاسد.
- 2- الهشيم: النبات اليابس المتكسر.
- 3- هكذا في الأصل، ولعل الصحيح: يكلؤها رب البشر.

لجَّ القطار بنا والنار تسحبه ما بين رائق أشجارٍ وأنهار
ومن عجائب ما تدريه في سفر قوم يقادون للجناتِ بالنار

١١- وقال في قصيدة له عنوانها «مناجاة الفكر» :

أسهر الليل وإن طال ومن يعشق المجد يلد السهرا
لست ممن يفقد الأنس إذا أصبح الروض كئيباً أغبراً
لست آسى إن مضى ليل وما صاحب زار ولا طيف سرى
هوذا الفكر يناجيني متى رمت أنساً ضحوةً أو سحرا
يتسامى بي إلى أفق أرى في معاليه السها والقمرأ
لي يراع كلما استهديته جال في الطرس وأهدي دررا
فليكن في الناس بخل إنني لست ممن يشتكي بخل الورى

١٢- وقال في قصيدة عنوانها: «القلب كالرحى» :

لا تخل نفسك من فكر تجول به في الصالحات فحبس الفكر يضيها
والقلب إن لم يدر يوماً على رشد دارت عليه هموم عزراقها
مثل الرحى إن تُدرها وهي خاويةٌ من الطعام فإن الطحن يريها

هذا وسيأتي مزيد بيان لشعره عند ترجمة الشيخ ابن عاشور.

رحم الله الشيخ الخضر، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عن الإسلام
والمسلمين خير الجزاء.

العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

هو العلامة الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، ولد في ضاحية المرسى في تونس سنة ١٢٩٦هـ وقيل ١٢٩٧هـ بقصر جده للأم الصدر الوزير محمد العزيز بو عتور.

وقد شب في أحضان أسرة علمية، ونشأ بين أحضان والد يأمل أن يكون على مثال جده في العلم والنبوغ والعبقرية، وفي رعاية جده لأمه الوزير الذي كان يحرص على أن يكون خليفة في العلم والسلطان والجاه.

تلقى العلم كأبناء جيله، حيث حفظ القرآن، واتجه إلى حفظ المتون السائدة في وقته، ولما بلغ الرابعة عشرة التحق بجامعة الزيتونة سنة ١٣١٠، وشرع ينهل من معينه في تعطش وحب للمعرفة، ثم برز ونبغ في شتى العلوم سواء في علوم الشريعة، أو اللغة، أو الآداب أو غيرها، بل والطب، وإتقان الفرنسية؛ فكان آية في ذلك كله.

له مؤلفات عديدة في شتى الفنون، منها تفسيره المسمى بالتحريير والتنوير، ومقاصد الشريعة، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وكشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، وردُّ على كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، وأصول التقدم في الإسلام، وأصول الإنشاء والخطابة، وأليس الصبح بقريب، وغيرها كثير كثير سواء كان مطبوعاً أو محفوظاً.

وكان ذا عقل جبار، وذا تدقق وتدفع في العلم؛ فكانه إذا كتب في أي فن أو

موضوع - يغرف من بحر، وينحت من صخر؛ فإذا رأيت عنوان الموضوع الذي يريد الكتابة فيه قلت: ماذا سيقول؟ فإذا قرأت ما تحته رأيت العجب العجاب؛ لهذا فإنك تحتاج وأنت تقرأ له أن تُحضر ذهنك، ولا تتشاغل عنه.

وكان ذا أسلوب محكم النسيج، شديد الأسر، يذكر بأرباب البيان الأوائل.

وكان إذا كتب استجمع مواهبه العلمية، واللغوية، والأدبية، والاجتماعية، والتاريخية، والتربوية وغيرها لخدمة غرضه الذي يرمي إليه. ولهذا فلا غرو أن تجد في كتاباته عن أي موضوع: القصة، والحادثة التاريخية، والنكتة البلاغية، والمسألة النحوية، والأبيات الشعرية، والمقاصد الشرعية، والمناقشة الحرة، والترجيح والموازنة.

كل ذلك بأدب عالٍ، وأسلوب راق، ونفسٍ مستريضة؛ فتشعر إذا قرأت له أن هذا البحث كتبه مجموعة من المتخصصين في فنون شتى.

يقول الأستاذ محمد الطاهر الميساوي - حفظه الله - في مقدمة كتاب مقاصد الشريعة لابن عاشور:

«ومن ثم فلا غرابة أن جاءت هذه السيرة وارفة الأفتان، متنوعة العطاء، دانية القطوف، وكأنما أنت في حضرة مجمع من العلماء ضم في صعيد واحد: اللغوي، والأديب، والمفسر، والمحدث، والأصولي، والفقهاء، والمربي، والمؤرخ، والفيلسوف، والمنطقي، بل وحتى العالم بأمور الطب. ويكفي لمعرفة مكانة ابن عاشور في التفسير الإحالة على موسوعته تفسير التحرير والتنوير.

أما في الحديث فهو حافظ حجة له إسناد جامع لصحيح البخاري ومسلم، وله كذلك إسناد عزيز روى به أحاديث البخاري يعرف بسند المحمدين، وقد أجاز بذلك عدداً من العلماء من تونس والجزائر والمغرب.

هذا إلى تحقيقاته وشروحه على مرويات الإمامين مالك بن أنس (كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ) وأبي عبدالله البخاري (النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح) التي استدرك فيها على الكثيرين من سابقيه.

أما رسوخ قدمه في الفقه وأصوله فيكفي شاهداً له كتاب (المقاصد) الذي بين أيدينا، وشرحه المسهب وتحقيقاته المتينة على كتاب تنقيح الفصول في الأصول للقرافي^(١).

وابن عاشور إلى هذا وذاك لغوي محقق بالمعنى الواسع لعلوم اللغة، سلّمت له بالإمامة في ذلك الجامع العلمي كمجمعي دمشق والقاهرة اللذين اعتمدها عضواً مراسلاً بهما، وما تزال مداخلاته وأنظاره على صفحات مجلتيهما تنتظر الجمع والتحقيق والنشر.

ذلك فضلاً عن العدد الكبير من كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر التي

1 - يقول الميساوي: «العنوان الكامل لهذا الكتاب المهم هو: حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول، وقد نشرته في أربعة أجزاء مطبوعة النهضة بتونس سنة ١٣٤١هـ.

وسنقوم بإعداده للنشر في القريب العاجل بعون الله - تعالى - .

حققها ، فمنها ما نشر ، ومنها ما لا يزال مخطوطاً .

وللفلسفة والمنطق عند ابن عاشور مكانة وتقدير؛ فقد كان يدرّس المنطق والحكمة ، وكان كتاب النجاة للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا من جملة الكتب التي درّسها بجامع الزيتونة ، جنباً إلى جنب مع المقدمة لابن خلدون ، ودلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني ، والموافقات للشاطبي . إلخ .

وهو كثيراً ما يستشهد بأقوال الفلاسفة وينوه بأرائهم ، ويوظف مناهجهم في استدلالاته وتحليلاته ، ويدراً ما حاق بأنظارهم من سوء فهم وسوء تأويل .
أما ما قد يثير الاستغراب حقاً فهو صلته بالطب التي تحتاج إلى تحقيق ، خاصة وأن له في هذا كتاباً مخطوطاً بعنوان تصحيح وتعليق على كتاب الانتصار لجالينوس للحكيم ابن زهر .

أما التاريخ فله فيه كذلك آثار ما تزال مخطوطة منها كتاب (تاريخ العرب) وكتابات في السير والتراجم» .^(١)

وقال الميساوي : «ولكن على الرغم من سمات الغزارة والتنوع والشمول والأصالة التي طبعت شخصيته فاصطبغت بها آثاره وأعماله - فإن ما صُرف له من عناية الباحثين وجهود الدارسين لا يكاد يفي بمعشار ما يستحق ، بل إن طوائف كبيرة من المهتمين بحركة الفكر الإسلامي ومصائره في العصر الحديث لا يكادون يعرفون عنه شيئاً ذا بال ، ناهيك عن عامة المثقفين وسائر جمهور

1 - مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور ، تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي

المسلمين.

فمن العسير العثور على دراسة علمية ضافية تترجم لشخصيته ترجمة موثقة ووافية، وتعرف بترائه العلمي تعريفاً دقيقاً، فضلاً عن أن تحيط بذلك التراث تحليلاً لمكوناته وأبعاده، واستجلاءً لمواطن الأصالة والابتكار فيه، وتقديراً وتقويماً لمكانته في سياق حركة الفكر والثقافة الإسلاميين في موطن نشأته -تونس- على وجه الخصوص، وفي العالم الإسلامي بوجه العموم.

بل إن آثاره العلمية لم يتح لها من الانتشار والتداول ما يجعلها في متناول الدارسين والباحثين، فضلاً عن سواهم من طلاب المعرفة والمثقفين. فكثيرٌ مما طُبِع منها قد تطاول عليه العهد ونفذ من المكتبات، ولم يجد من أهل العزم من المحققين والناشرين من يتولّى نفضَ الغبار عنه، وإخراجه للناس إخراجاً جديداً.

أما ما لم يُطبع - وهو غزير - فلا يزال طيَّ النسيان يقبع مخطوطاً على رفوف المكتبة العاشورية بالمرسى في تونس، ويتراكم عليه غبارُ السنين، وتتهدهه آفاتها بالإتلاف، وكأنما تواطأت صروفُ الزمان، وإهمال الإنسان أو تديره على تغييب معلّمٍ مهم من معالم الحياة الفكرية والعلمية للمسلمين في القرن العشرين! فالرجل «لم يلق حظه» كما قال بحق المرحوم الشيخ محمد الغزالي.

إن ابن عاشور ليس اسماً عادياً في محيط الثقافة الإسلامية، بل إن اسمه وجهاده قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بواحدة من أهم مؤسسات هذه الثقافة وبرمز من أبرز رموزها في النصف الأول من القرن العشرين، ألا وهي جامعة الزيتونة.

وهو - بدون شك - آخر العمالقة الذين عرفهم التاريخ المديد لهذه المؤسسة العريقة، قبل أن يتم الإجهازُ عليها، وطمسُها في ظل عهود الاستقلال الموهوم، والتحديث المزيف.

لقد عرفت الزيتونةُ محمداً الطاهر بن عاشور طالباً نابهاً متميزاً في تحصيله العلمي، وخبرتهُ أروقتها مدرساً متحمساً مقتدرًا، وعِهدَه طلابُها وأساتيذُها داعيةً لإصلاح التعليم الزيتوني، وحاملاً للوائه، وعاملاً في سبيله من مواقع مختلفة، كما عرفت تونس ابن عاشور شيخاً لجامعها الأعظم - الزيتونة - وخبرته قاضياً ومفتياً يتوخى تحقيق العدل والالتزام بالحق في أقضيته وفتاويه مهما كان في ذلك من معارضة لرغبات المتقاضين، أو مناقضة لأهواء المستفتين»^(١).

هذا وقد تولى مناصب علمية وإدارية بارزة كالتدريس، والقضاء، والإفتاء، وعضويات الجامعات العلمية، وغيرها.

أوليات ابن عاشور^(٢): اعتنى الأولون بالتصنيف بالأوائل، مثل أبي هلال العسكري، والجراعي، والسيوطي.

وللشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أوليات تستحق الوقوف عندها، والإشارة إليها، وهي مظهر من مظاهر تميز المترجم له ﷺ وفيما يلي شيء من ذلك :

١- أنه أول من فسّر القرآن كاملاً في إفريقية، وذلك في كتابه العظيم (التحرير

1 - المرجع السابق ص ١٧-١٩.

2 - انظر شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره د. بلقاسم الغالي ص ٥٦-٦٢، ومحمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه للأستاذ خالد الطباع ص ٧٨-٨٠.

والتنوير).

وإفريقيّة اسم يشمل البلاد التونسية وما حولها ، وتحديداً ما بين برقة وطنجة ، وقد يطلقها البعض على القيروان كونها كانت مقرّ الإمارة.

وقد سبقه إلى ذلك يحيى بن سلام القيرواني (ت ٢٠٠هـ - ٨١٥م) ، الذي صنّف كتاب (التصاريّف) وهو تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرّفت معانيه ، أي في الوجوه والنظائر ، غير أنّ التفسير الكامل للقرآن الكريم كان على يد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، فقد ادّخر الله هذا الفضل له؛ ليتوجّه به ، وقد أخبر بذلك السيد الحبيب الجلولي ، ابن أخت الشيخ محمد الطاهر ، أحد وجهاء الحاضرة التونسية ، الحافظين لتراثها وتاريخها.

٢- وهو أوّل مَنْ جمع بين منصب شيخ الإسلام المالكي ، وشيخ الجامع الأعظم (الزيتونة).

٣- وهو أوّل مَنْ سُمّي شيخاً للجامع الأعظم سنة (١٣٥١هـ - ١٩٣٢م) ليتولّى الإصلاحات العلمية والتعليمية ، فكان أوّل شيخ لإدارة التعليم بجامع الزيتونة عوضاً عن النظارة^(١) التي كانت هي المسيرة للتعليم به.

٤- وأوّل مَنْ لُقّب بشيخ الإسلام ، وهو لقب تفخيمي تداولته الرئاسة الشرعية الحنفية بتونس منذ القرن العاشر الهجري ، ولم يكن لدى المالكية بتونس هذا اللقب.

وقد أُطلق على رئيس المجلس الشرعي الأعلى للمالكية بصفة رسمية عليه.

1- النظارة: هي الهيئة المشرفة على التعليم.

٥- وهو أول من تقلد جائزة الدولة التقديرية للدولة التونسية ونال وسام الاستحقاق الثقافي سنة (١٩٦٨م) وهو أعلى وسام ثقافي قررت الدولة التونسية إسناده إلى كل مفكر امتاز بإنتاجه الوافر ومؤلفاته العميقة الأبحاث، ودعوته الإصلاحية ذات الأثر البعيد المدى في مختلف الأوساط الفكرية. وحصل على جائزة رئيس الجمهورية في الإسلاميات عامي ١٩٧٢م - ١٩٧٣م.

٦- وهو أول من أحيا التصنيف في مقاصد الشريعة في عصرنا الحالي بعد العز ابن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) والشاطبي (٧٩٠هـ).

٧- وهو أول من أدخل إصلاحات تعليمية وتنظيمية في الجامع الزيتوني في إطار منظومة تربوية فكرية، صاغها في كتابه: (أليس الصبح بقريب) الذي ألفه في بواكير حياته، والذي يدل على عقلية تربوية فذة، والذي كان شاهداً على الإصلاح التربوي والتعليمي الشرعي المنشود.

فأضاف إلى الدراسة موادّ جديدة كالكيمياء والفيزياء والجبر وغيرها، وأكثر من دروس الصرف، ومن دروس أدب اللغة، وشرع بنفسه في تدريس ديوان الحماسة، ولعله أول من درس ذلك في الزيتونة.

أخلاق ابن عاشور وشمائله: كان الشيخ رحمته الله تزينه أخلاق رضية، وتواضع جم، فلم يكن على سعة اطلاعه وغزارة معارفه مغروراً كشأن بعض الأعداء ممن لم يبلغ مستواه.

كان مترفعاً عن صغائر الأمور، إن نظرت إليه - كما يقول مترجموه - لم تقل

إلا إنه رجل من النبلاء جمع بين النبيل في الحسب والنسب، والنبيل في العلم والأخلاق حتى قال فيه الشيخ محمد الخضر حسين: «ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم»^(١).

وقد اشتهر **بِصَبْرِهِ** وقوة الاحتمال، وعلو الهمة، والاعتزاز بالنفس، والصمود أمام الكوارث، والترفع عن الدنيا، تراه في كتاباته عفيف القلم، حلو المحاضرة، طيب المعاشرة مع تلاميذه حتى إنك لا تجد بين كتاباته رداً على أحد ممن وقف ضده موقف الخصم، بل أسبغ على كتاباته طابع العلم الذي يجب أن يُبلَّغ، لا مظهر الردود التي تضيع أوقات طالب العلم، وتقود إلى الأحقاد والتعصب.

بل إن أشهر ما عُرف به الشيخُ رحابة صدره مع منتقدي فتاويه، ومخالفيه في الرأي؛ فهو لا يغلظ لهم القول، ولا ينقدهم النقد اللاذع، بل يُلمح باحترام وتقدير ولطف دون أن يتعدى دائرة النطاق العلمي النزيه.

وما عَرَفَ لسأته ولا قلمه نابيَ الكلام؛ فإذا احتاج إلى الرد على أحد - عَكَت ردوده مسحة من الأدب الجُم، واحترام آراء الآخرين، وترك الاستخفاف أو الاستنقاص للمخالفين كيفما كانت شخصياتهم، ومهما كانت آراؤهم.

ولذلك لم ينزل طيلة حياته إلى الإسفاف في القول كما هو الشأن في المناقشات التي ظهرت في عصره، والمعارك الأدبية والعلمية التي كانت يومئذ محط أنظار

1 - تونس وجامع الزيتونة ص ٨١، وانظر محمد الطاهر بن عاشور للطباع ص ٨١.

الناس^(١).

يقول فيه صديقه في الطلب الشيخ محمد الخضر حسين متحدثاً عن شيء من أخلاقه: «شب الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعية وقادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم»^(٢).

ويقول فيه: «وللأستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارة العلم، وقوة النظر صفاء الذوق، وسعة الاطلاع في آداب اللغة. وأذكر أنه كان يوماً في ناحية من جامع الزيتونة ومعه أديبان من خيرة أدبائنا، وكنت أقرأ درساً في ناحية أخرى من الجامع، فبعث إلي بورقة بها هذان البيتان:

تألفت الآداب كالبدر في السحر وقد لفظ البحران موجهما الدرر
فما لي أرى منطيقها الآن غائباً وفي مجمع البحرين لا يُفقد

وقد وصف ابن عاشور نفسه بقوله: «ولا آنسُ برفقة ولا حديث أنسي بمسامرة الأساتيد والإخوان في دقائق العلم ورقائق الأدب، ولا حُبب إلي شيء ما حُببت إلي الخلوّة إلى الكتاب والقرطاس متنكباً كل ما يجري من مشاغل تكاليف الحياة الخاصة، ولا أعباء الأمانات العامة التي حُمّلتها فاحتملتها في القضاء وإدارة التعليم حالت بيني وبين أنسي في دروس تضيء منها بروق البحث الذكي، والفهم الصائب بيني وبين أبنائي الذين ما كانوا إلا قرّة عين وعدة فخر،

1 - انظر شيخ الجامع الأعظم ص ١٥٠، ومحمد الطاهر بن عاشور للطباع ص ٨١.

2 - تونس وجامع الزيتونة ص ١٢٥-١٢٦.

3 - انظر شيخ الجامع الأعظم ص ٦٣، ومحمد الطاهر بن عاشور ص ٨٢.

ومنهم اليوم علماء بارزون، أو في مطالعة تحارير أخلص فيها نجياً إلى الماضي من العلماء والأدباء الذين خلفوا لنا آثارهم الجليلة ميادين فسيحة ركضنا فيها الأفهام والأقلام مرامي بعيدة سدّنا إليها صائب المهام»^(١).
ووصفه أحدهم فقال: «رأيتُ فيه شيخاً مهيباً يمثّل امتداداً للسلف الصالح في سمته، ودخل في عقده العاشر ولم تنل منه السنون شيئاً..

قامة سمهرية خفيفة اللحم، وعقلية شابة ثرية بمحصيلتها، وقلب حافظ أصاب من علوم القدماء والمحدثين، ولسان لافظ يقدر على الخوض في كلّ شيء من المعارف، وذهن متفتح يشقق الحديث روافد مع وقار يزيّنه، وفضل يبيّنه، وأخلاق وشمائل حسنة تهش للأضياف، وترحب بالوارد، وتعطي في عمق لمن يريد الاعتراف من بحر كثرت مياهه، وقد ازدحمت العلوم فيه»^(٢).

ووصفه الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة فقال: «كان فريداً مع تقدّم السنّ في حضور واستحضار ما يسأل عنه من مسائل؛ أذكر أنّي طلبتُ منه ذات يوم من شهر أوت (أغسطس - آب) (١٩٦٣م) بعد أن جلستُ إليه في زيارتي له بعد العصر عن وجه إعراب خفي عليّ، فإذا الإمام - رحمة الله عليه - يفيض في بيان ذلك، ويشرح الوجوه المختلفة، فيستشهد بما أورده ابن هشام في (المغني) وفي (التصريح)، وكأنه يقرأ في كتاب.

وكذلك كان شأنه في كلّ ما يُسأل عنه من قضايا العلم اللغوي أو الشرعي،

1 - محمد الطاهر بن عاشور ص ٨٢.

2 - مجلة جوهر الإسلام عدد ١، السنة ١٩٦٣م ص ٥٦، وانظر شيخ الجامع الأعظم ص ٦٣.

كان خزانة علم تتنقل يجد لديه كل طالب بغيته ، أعانه على حصول ذلك وبلوغ
المرتبة العالية العجيبة في اشتغاله المتواصل بالمراجعة والتدريس والتحقيق
والتأليف ، مع صحة ذهن ، وجوده طبع ، وقوة عارضة ، وطلاقة لسان .
والشيخ صبور على المحن ، فلم يشك من أحد؛ رغم الحملات التي أُثرت
ضده ، ولم أعثر في نقده العلمي على ما يمسُّ الذوق ، أو يخدش الكرامة ، عَفَّ
اللسان ، كريم ، مُحِبٌّ لأهل العلم ولطلبته ، ولمن كان أهلاً للمحبة .
وكان في مناقشاته العلمية لا يجرح أحداً ، ولا يحطُّ من قدره ، فإذا لاحظ
تهافتاً في الفكر لَمَحَ إلى ذلك تلميحاً .

ولم أجد في خصوماته الفكرية ما يمسُّ شخصية أحد قط ، ورغم الحملات
التي شنتَّ ضده في فتوى التجنس وغيرها لم ينزل عن المستوى الخُلقي الذي
يتصف به العلماء ، بل لم يُشِرْ إلى خصومه ، ولم يشك منهم قط .
وأما عاداته ومعاملاته فكان الشيخ كثير الإحسان إلى مساعديه من المستكئين
والعملة ، ومن عاداته عدم تناول وجبة العشاء ، فإذا حضر مأدبة تظاهر بالأكل
مجاملةً^(١) .

قال داغر: « امتاز إلى جانب علمه ودأبه ومعرفته الواسعة وتحرره الفكري ،
بالتواضع ، والنفس الخيرة ، والعقل الراجح ، والتدبير القويم »^(٢) .
ويقول فيه الدكتور محمد الحبيب بلخوجة: « هو نمطٌ فريد من الأشياخ لم

1 - شيخ الجامع الأعظم ص ٦٣-٧٤ .

2 - محمد الطاهر بن عاشور ص ٨٤ .

نعرف مثله بين معاصريه أو طلابه أو من كان في درجتهم من أهل العلم؛ إذ كان انكبابه على الدرس متميزاً، واشتغاله بالمطالعة غير منقطع، مع عناية دائمة مستمرة بالتدوين والكتابة، وتقديم ما يحتاج إليه الناس من معارف وعلوم، وأذواق وآداب، وملاحظات وتأمّلات؛ فلا بدع إذا اطّردت جهوده، واستمرّ عطاؤه في مختلف مجالات الدرس والثقافة: في حقول المعرفة الشرعية الدينية، وفي الدراسات اللغوية، وفي معالجة أوضاع التعليم في الزيتونة، والعمل على إصلاحها، مع ذبّه عن الإسلام أصوله وآدابه، وتطلعه كل يوم إلى مزيدٍ من المعرفة بكلّ ما يمكن أن يقع تحت يده من كتب فريدة، ومخطوطات ومصنفات في شتى العلوم والفنون.

وقد وهبه الله متانة علم، وسعة ثقافة، وعمق نظر، وقدرة لا تفتقر على التدوين والنشر، وملكات نقدية يتضح أثرها في طريقة الجمع بين الأصول والتعريفات، وما يلحق بها من ابتداعات وتصرفات.

وهكذا صدرت مقالاته وتحقيقاته، وبحوثه وتآليفه متدفقة متوالية من غير انقطاع أو ضعف، فنُشر ما نُشر، وبقي الكثير منها محفوظاً بجزالة آل عاشور ينتظر من يتولى نشره وطبعه وتحقيقه»^(١).

ومن لطائف ذكائه ما ذكره تلميذه أبو الحسن بن شعبان الأديب الشاعر حيث حكى عن نفسه أنه كان يحضر دروس العلامة الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في (الموطأ) وهو إذ ذاك شيخ الزيتونة، وشيخ الإسلام المالكي حوالي

1 - محمد الطاهر بن عاشور ص ٨٤-٨٥.

عام (١٩٣٣م) وفي ذات مرة ناقش الشيخ ابن عاشور في مدلول لفظة لغوية، والشيخ ابن عاشور متمكّن في مادة اللغة، مثبت في نقله، مع سمو ذوق وقدرة على الترجيح بين الأقوال، في أسلوب علمي وحسن عرض، ولما طالت المناقشة أراد المترجم أن يفحم الشيخ ابن عاشور؛ فاخترع لوقته شاهداً شعرياً على صحّة زعمه، فأجابه الشيخ ابن عاشور بديهةً ومن الوزن والرويّ نفسه:

يروون من الشعر ما لا يوجد

فغفر فاه مبهوراً من شدة ذكاء الشيخ، وسرعة بديهته.

منزلة كتاب (التحرير والتنوير) عند ابن عاشور:

لئن كانت كتب الشيخ ابن عاشور رحمه الله وأبحاثه كثيرة متنوعة فإن أعظمها وأشهرها وأحبها إلى قلبه تفسيره التحرير والتنوير الذي مكث في تأليفه تسعاً وثلاثين سنة؛ حيث بدأ فيه سنة ١٣٤١ وانتهى منه عام ١٣٨٠هـ وختمه بكلمة عظيمة مؤثرة قال فيها: «وإن كلام رب الناس حقيق بأن يُخدم سعياً على الرأس، وما أدّى هذا الحق إلا قلم مفسر يسعى على القرطاس، وإنّ قلمي استنّ بشوط فسيح، وكم زُجِرَ عند الكلال والإعياء زجر المنيح، وإذ قد أتى على التمام فقد حقّ له أن يستريح.

وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف، فكانت مدة تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر، وهي حقبة لم تخلُ من أشغال صارفة، ومؤلفات أخرى أفنانها وارفة، ومنازع بقريحة شاربة طوراً، وطوراً غارفة، وما خلال ذلك من تشتت بال، وتطور

أحوال، مما لم تخلُ عن الشكاية منه الأجيال، ولا كُفران لله فإن نعمه أوفى،
ومكايل فضله عليّ لا تُطَفَّفُ ولا تُكْفَأُ.

وأرجو منه - تعالى - لهذا التفسير أن يُنجد ويغور، وأن ينفع به الخاصة
والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارةً لن تبور.
وكان تمامه بمنزلي ببلد المرسى شرقيّ مدينة تونس، وكتبَ محمد الطاهر ابن
عاشور^(١).

صداقة ابن عاشور للشيخ محمد الخضر حسين:

لقد انعقدت بين الشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ العلامة
محمد الخضر حسين صداقة عظيمة تعد مثلاً رائعاً في صدق المودة، ورعاية
الحقوق، ورقة الشعور، وحسن التذمم والوفاء، وحرارة الأشواق، ونحو ذلك
من المعاني الجميلة؛ فلقد كانا قرينين في طلب العلم بجامع الزيتونة، وبينهما من
العمر أربع أو ثلاث سنوات حيث ولد الخضر عام ١٢٩٣هـ، وولد الطاهر عام
١٢٩٧ أو ١٢٩٦هـ.

ولقد تعرفا على بعض في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، واستمرت
صداقتهما إلى أن فارق الخضر الدنيا عام ١٣٧٧هـ..

وأما الطاهر فعاش إلى عام ١٣٩٣هـ حيث عمّر سبعاً أو ثمانياً وتسعين سنة.
ولقد فرّق الاستعمار بينهما، حيث حكم على الشيخ الخضر بالإعدام

1 - تفسير التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٦-٦٣٧.

والجلاء، فخرج من تونس عام ١٣٣١ هـ وتقلّب في عدد من البلاد، ومات في مصر.

وكان كثيراً ما يكاتب الطاهر، ويرد على كتاباته، ويبعث إليه أشواقه، وتحاياها، وتهانيه إذا ما تقلد منصباً.

وهذه نماذج مختارة مما كان بينهما من مودة ومكاتبات.

١- قصيدة بعنوان (عواطف الصداقة):

بعد هجرة الشيخ الخضر من تونس عام ١٣٣١ هـ بعث إليه صديقه محمد الطاهر بن عاشور وهو كبير القضاة بتونس رسالة مصدرة بالأبيات التالية:

بَعُدْتُ وَنَفْسِي فِي لِقَاكَ تَصِيدُ	فَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا فِي الْحَنَانِ قَصِيدُ
وَحَلَّفْتَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ غَصَّةَ	لَهَا بَيْنَ أَحْشَاءِ الضُّلُوعِ وَقُودُ
وَأَضَحْتَ أَمَانِي الْقُرْبِ مِنْكَ ضَنْبِيلاً	وَمَرُّ اللَّيَالِي ضَعْفَهَا سَيِّزِيدُ
أَتَذَكِّرُ إِذْ وَدَعْتَنَا صَبْحَ لَيْلَةٍ	يَمُوجُ بِهَا أَنْسُ لَنَا وَبِرُودُ
وَهَلْ كَانَ ذَا رَمَزاً لِتَوْدِيْعِ أَنْسِنَا	وَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْبَيْنِ سَوْفَ يَعُودُ
أَلَمْ تَرَهُذَا الدَّهْرَ كَيْفَ تَلَاعَبْتَ	أَصَابِعَهُ بِالْدَّرِّ وَهُوَ نَضِيدُ
إِذَا ذَكَرُوا لِلْوَدِّ شَخْصاً مُحَافِظاً	تَجَلَّى لَنَا مَرَاكٌ وَهُوَ بَعِيدُ
إِذَا قِيلَ: مَنْ لِلْعِلْمِ وَالْفِكْرِ وَالتَّقَى	ذَكَرْتُكَ إِيقَاناً بِأَنَّكَ فَرِيدُ
فَقُلْ لِّلَّيَالِي: جَدِّدِي مِنْ نِظَامِنَا	فَحَسْبُكَ مَا قَدْ كَانَ فَهُوَ شَدِيدُ

ثم كتب تحت هذه الأبيات: « هذه كلمات جاشت بها النفس الآن عند إرادة الكتابة إليكم، فأبثها على علاتها، وهي - وإن لم يكن لها رونق البلاغة

والفصاحة - فإن الود والإخاء والوجدان النفسي يتفرق في أعماقها». .
ولما وصلت تلك الرسالة إلى الشيخ محمد الخضر حسين أجاب بالأبيات
التالية :

أينعم لي بالّ وأنت بعيد	وأسلو بطيف والمنام شريد
إذا أججت ذكراك شوقي أخضلت	لعمري بدمع المقلتين حدود
بعدت وأماذ الحياة كثيرة	وللأمد الأسمى عليّ عهد ^(١)
بعدت بجثمانى وروحي رهينة	لديك وللود الصميم قيود
عرفتك إذ زرت الوزير وقد حنا	عليّ بإقبال وأنت شهيد ^(٢)
فكان غروب الشمس فجر صداقة	لها بين أحناء الضلوع خلود
لقيت الوداد الحرّ من قلب ماجد	وأصدق من يُصفي الوداد مجيد
ألم ترم للإصلاح عن قوس نافذ	درى كيف يُرعى طارف وتليد
وقمت على الآداب تحمي قديمها	مخافة أن يطغى عليه جديد
أتذكر إذ كنا نباكر معهداً	حمياًه علم والسقاة أسود ^(٣)
أتذكر إذ كنا قرينين عندما	يحين صدوراً أو يحين ورود

1- يعني بالأمد الأسمى : خدمة الدين ، والقيام بالدعوة ، ومحاربة الاستعمار.

2 - الوزير: هو محمد العزيز بو عتور (١٣٤٠ - ١٣٢٥) جد ابن عاشور لأمه، من كبار رجال السياسة والعلم في تونس ، والبيت إشارة إلى أول لقاء بين الخضر وابن عاشور.

3- نباكر: نأتي مبكرين ، والمعهد: جامع الزيتونة ، والحميا: شدة الغضب وأوله، ويعني به هنا: النشاط ، ويريد بالسقاة: أساتذة المعهد وما كان لهم من مهابة وإجلال في قلوب المتعلمين.

فأين ليالينا وأسمارها التي تُبلُّ بها عند الظماء كبودُ
ليالٍ قضيناها بتونسَ ليتها تعود وجيش الغاصبين طريد

٢- وهذه مقطوعة عنونها (الوفاء بعهد الصداقة)، وقد قالها الشيخ الخضر
عندما سأله بعض الأدباء: كيف كانت صلتكم بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور في
تونس؛ فأجابه بهذه الأبيات:

أحبيته ملء الفؤاد وإنما أحببت من ملأ الوداد فؤادهُ
فظفرتُ منه بصاحبٍ إن يدر ما أشكوه جافى ما شكوتُ رقاده
ودريت منه كما درى مني فتىً عرف الوفاء نجاهه ووهاده^(١)

٣- وهذه مقطوعة عنونها (برقية الشوق)، قالها الشيخ محمد الخضر أثناء
رجوعه من الآستانة إلى تونس سنة ١٣٣٠ هـ، وقد مرت به الباخرة بالقرب من
شاطئ (المرسى) حيث كان يقيم صديقه العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:
قلبي يحييك إذ مرت سفينتنا تُجاه واديك والأمواج تلتطم
تحيةً أبرق الشوق الشديد بها في سلكٍ ودُّ بأقصى الروح ينتظم

٤- وهذه قصيدة عنونها (تهنئة بالقضاء) قالها وهو في دمشق؛ لتهنئة صديقه
الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عند ولايته القضاء بتونس:

بَسَطَ الهناءَ على القلوب جناحا فأعاد مسودَّ الحياة صباحا
إيه محيا الدهر إنك مؤنسٌ ما افتر ثغرك باسمًا وضاحا

1 - النجاد: ما ارتفع من الأرض، والوهاد: ما انخفض منها.

وتعدُّ ما أوحشتنا في غابر
لولا سواد الليل ما ابتهج الفتى
يا ظاهر الهمم احتمت بك خُطَّةُ
سحبت رداء الفخر واثقة بما
ستشد بالحزم الحكيم إزارها
وتذود بالعدل القذى عن حوضها
في الناس من ألقى قِلاذتها إلى
فأدر قضاياها بفكرك إنه
أنسى ولا أنسى إخاءك إذ رمى
أسلو ولا أسلو علاك ولو أتت
أو لم تكن كالفرقدين تقارنا

خالاً بوجنتك المضيئة لاحاً
إن أنس المصباح والإصباحا
تبغي هدىً ومروءةً وسماحاً
لك من فؤاد يعشق الإصلاحا
والحزم أنفس ما يكون وشاحا
والعدل أقوى ما يكون سلاحا
خلف فحرم ما ابتغى وأباحا
فكر يرد من العويص جماحاً
صرف الليالي بالنوى أشباحا
لبنان تهدي نرجساً فياحا
والصفو يمالأ بيننا أقداحاً

٥- وهذه مقطوعة قالها الشيخ محمد الخضر حسين في صديقيه العلامة أحمد
تيمور باشا، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مبيناً عظيم محبته لهما، حيث
قالها بعد موت أحمد تيمور، وفي وقت بعده عن ابن عاشور:

تقاسم قلبي صاحبان وددت لو
وعللت نفسي بالمنى فإذا النوى
فأحمد في مصر قضى ومحمد
تَمَلَّتْهُمَا عيناى طول حياتي
تُعَلُّ الحشا طعناً بغير قنائة
بتونس لا تحظى به لحظاتي

أعيش وملء الصدرِ وحشةً مُتَرَفِّ رَمَتْهُ يَدُ الْأَقْدَارِ فِي فَلَوَاتٍ^(١)
 ٦- وهذه قصيدة عنوانها (مساعي الوري شتى)، قالها مهنتاً صديقه العلامة

ابن عاشور عند ولايته التدريس في جامع الزيتونة بتونس سنة ١٣٢٣ هـ:

ومسعى ابن عاشور له الأمد الأسمى	مساعي الوري شتى وكلُّ له مرمى
فكانت له رُوحاً وكان لها جسماً	فتى أنس الآداب أول نشئه
تخط له في لوح إحساسه رسماً	وما أدب الإنسان إلا عوائد
زخارفه من عزمه المنتضى ثلماً ^(٢)	فتى شب في مهد النعيم ولم تنل
غرور لباعي المجد إن لم يفتق حزماً	وفي بهجة الدنيا وخضرة عيشها
فما استطاع أعداء النبوغ له هضماً	وشاد على التحقيق صرح علومه
ومد شباك الجد صاد بها النجماً	ومن شد بالتفويض لله أزره
نراه وقسطاس الحقوق به يحمى ^(٣)	وذي خطة التدريس توطئة لأن

- 1 - معنى البيت يقول: إن حالي في بعدي عن هذين الصاحبين كحال رجل عاش في نعيم، ثم تحول عنه إلى صحراء جرداء لا نعيم فيها ولا خصب؛ فماذا ستكون حاله؟ إنها حال بؤس وشقاء. ولو أنه عاش في أول أمره في شظف عيش لهان عليه الأمر؛ فحال هذا المترف الذي تقلب في النعيم ثم تحول عنه إلى الشقاء كحالي مع صاحبي؛ فبينما أنا أعيش في أنس وسرور ونعيم بسبب قربي منهما، وأنسى بهما إذا بي بعيد عنهما، حزين لفرأقهما. وهذا تشبيه بديع رائع.
- 2- يعني أن ابن عاشور عاش في بيت غنى وعزٍّ، ولم يثلم ذلك من عزيمته، ولم ينل من همته، وهذا دليل كمال ومروءة.
- 3- يعني أن توليه للتدريس مؤذنة لأن يتولى القضاء.

رجاءٌ كَرَأَى العَيْنَ عندَ أولي
بلونا حُلَى الألفاظِ في سلكِ نطقه
وفي الناسِ مهذارِ تراه يلوكها
بطانةُ صدري صورت من إخائكم
وإني أرى باب المداجاة ضيقاً
وإن شِمت في نسج القريض تخاذلاً
فزهرة فكري لا تَطيبُ عُصارةً
ألم تر أزهار الربى حينما نأت
يوافيه كالمعطوف بالفاء لا تُمَّا^(١)
فلم يَلْفِ صافي الذوق في عقدها
بلهجته لوك المسومة اللجما
وجاء بنان الخلد يرقمها رقما
فلا يسعُ النفس التي كَبُرَتْ همًّا
وأنست في مغزى فواصله وصمًّا
إذا نثت الإيحاش في أضلعي سمًّا
أفانينها كان الذبول لها وسمًّا^(٢)

نموذج تعريفي بأحد مؤلفات ابن عاشور: مضى الحديث عن بعض مؤلفات ابن عاشور، وعن مدى تمكنه من العلم، وتفننه فيه.

وإليك فيما يلي نموذج تعريفي بمؤلف من مؤلفاته ألا وهو كتاب (أليس الصبح بقريب).

ولا يغيب عن بالك أن هذا الكتاب قد ألفه في بواكير حياته؛ حيث كتبه عام ١٣٢١ وعمره أربع وعشرون سنة؛ فما بالك -إذاً- بمؤلفاته الأخرى التي كتبها في بقية عمره العامر الذي استمر ثماناً وتسعين سنة؟!

1- يعني أن هذا الرجاء قريب كالمعطوف بأداة العطف (الفاء) التي تفيد التعقيب لا بـ: (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي.

2- معنى الأبيات الثلاثة الأخيرة يقول: إذا لحظت في أبياتي هذه ضعفاً فلا تلمني؛ فالفرقة لها أثرها على القرينة.

وقد قصد من كتابه إصلاح التعليم العربي والإسلامي ، وتكلم من خلاله على أحوال العلوم الإسلامية ، وطرائق تعليمها ، وأسباب النهوض والانحطاط العارضين لها.

ويمكن إجمال ما تكلم عليه في ذلك الكتاب الماتع بما يلي :

- ١- أطوار التعليم في الأمة العربية قبل الإسلام ، وفي أشهر الأمم المعاصرة للعرب.
- ٢- أطوار التعليم العربي عند ظهور الإسلام وبعد ظهوره.
- ٣- نقل العلوم الفارسية والهندية واليونانية.
- ٤- وصف التعليم الإسلامي وأساليبه ، ومناهجه.
- ٥- الطريقة في معرفة أهلية المتصدي للعلم.
- ٦- صفة الدروس ، ومواضع التعليم.
- ٧- الكتابات وأوليتها في الإسلام.
- ٨- معاهد تعليم المرأة.
- ٩- تعليم المرأة.
- ١٠- انبثات العلوم الإسلامية في الأقطار: في مصر وأفريقية ، والأندلس ، وبلاد الفرس ، والمغرب الأقصى.
- ١١- مواضع التعليم فيها ، وأسلوب التعليم.
- ١٢- طور التفكير العلمي والمشاركة في العلوم.
- ١٣- الكتب التي كانت تزاوّل.

- ١٤- تفصيل لمواضع التعليم في تونس ، وأسماء علماء تونس .
- ١٥- حديث التأليف ، وتاريخ أطوارها ، ووجوه إصلاحها .
- ١٦- حديث عن العلوم ، وتفصيل في تقسيمها .
- ١٧- تفصيل عن علوم الشريعة ، وعلوم اللغة ، والمنطق والتاريخ ، والفلسفة والرياضيات .
- ١٨- حديث عن المعلمين ومراتبهم .
- ١٩- حديث عن الامتحانات .
- ٢٠- تطرق الانتقاد للنظام التدريسي .
- إلى غير ذلك من المباحث الرصينة ، والتحريرات العالية ، والتحقيقات الرائعة الماتعة التي قل أن توجد في غير هذا الكتاب .
- ولقد أودع المؤلف رحمته الله هذا الكتاب نظراته الفاحصة ، وانتقاداته الموفقة ، وآراءه السديدة ، ومقترحاته الدقيقة ، وملاحظاته القيمة التي كانت سبباً للنهوض بالتعليم في بلاده وغيرها .
- كل ذلك بأسلوب أخاذ ، ولغة عالية ، ونفس مستريضة .
- وما أجدد دعاة إصلاح التعليم أن يدرسوا هذا الكتاب ، ويفيدوا مما فيه من العلم ، والتجارب .
- والكتاب يقع في ٢٧٦ صفحة ، توزيع الشركة التونسية للتوزيع .
- نُقولُ مختارة من كتاب : (أليس الصبح بقريب) :** مما قاله الشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور في كتابه المذكور :

١- قد كان حدا بي حادي الآمال، وأملى عليّ ضميري، من عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكر في طرق إصلاح تعليمنا العربي الإسلامي الذي أشعرتني مدة مزاولته متعلماً ومعلماً بوافر حاجته إلى الإصلاح الواسع النطاق؛ فعقدت عزمي على تحرير كتاب في الدعوة إلى ذلك وبيان أسبابه، ولم أنشأ أن أزوجيت بقلمي في ابتداء التحرير فإذا هو يسابقي كأنه من مطايا أبي العلاء القائل:

ولو أن المطي لها عقول وجَدَّك لم نَشُدَّ لها رحالا

ص ٥

٢- وصادفت أيام عطلة التدريس الصيفية في ذلك العام، فقضيتُ هواجرها الطويلة، وبكرها الجميلة، في هذا العمل، مشتغلاً به عن محادثة الأحاب، وعن دعة التنعم بمغتسلٍ بارد وشراب، حتى وقف بي القلم عند انتهاء الاستراحة في مدة شهرين إلى تحرير جملة كانت مشجعتي على مراجعة عملي هذا في ثلاثة أصياف وعنوانته (أليس الصبح بقريب).

وكان من العزم تهذيبه وإصداره، فحالت دون ذلك موانع جمّة، لم تزل تطفو وتركد، وتغفو وتسهد، غير أنني لم أدع فرصة إلا سعيت إلى إصلاح التعليم فيها بما ينطبق على كثير بحسب ما سمحت به الظروف، وما تيسر من مقاومة صانع منكر ومانع معروف، ما حرك سواكني إلى إبراز هاته الآراء التي كنت أملتيتها، ونشر الأوراق التي خشيت عليها عواصف الأهواء فطويتها. ص ٥

٣- وهأنذا متقدم إلى خوض بحر أرى هول أمواجه قد حاد بعقول كثير من

ذوي الأبواب فولوا عنه مدبرين، وتكلموا في إصلاحات نافعة من مصالح المسلمين، لكنها كلها كانت متوقفة على هذا المقصد الجليل المغفول عنه «مبدأ إصلاح التعليم».

ولطالما كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، وأعلم أن نور عقلي هو دون إضاءة هاته المجهل التي صفدت عليها منافذ الأنوار والأهوية الخالصة، فامتلات بالحوامض الرديئة منذ أزمان.

وإذ قد كان من المعلومات المسلمة أن الله - تعالى - استخلفنا في الأرض ومنّ علينا بنور العقول ونبهنا باختلاف النظام في الدنيا إلى أحوال الرقي والانحطاط، وقال: ﴿ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فما طَمَاعِيَّتُنَا من هذا السكوت الطويل، وما إغراقنا في هذا السبات العميق؟ ص ٦

٤- إذاً قد كان واجباً علينا خدمةً للملة، وتهيئةً للنشأة العلمية التي تزيّن مستقبلنا وتمجّد ماضيها أن ندخل تلك المجهل نرفع بإحدى يدينا مشاعل النور، ونقطع بالأخرى ما يمانع من حجرات العثور، فإن لم نصل بعدُ إلى غاياتها فعسى أن لا نبعد، وإن سلمنا من أن نشقى باللثام فما ضرنا أن لا نسعد، ولنا في ذلك كله معذرة العارفين، وشهادة أو تزكية المنصفين. ص ٦

٥- نحن نشغل في هذا العالم لنحصل السعادة حيثما توجهنا وذلك يجلب المنافع واتقاء المضار.

فنحن - إذاً - في أشد الاحتياج إلى العلم بوجوه استقامة الأشغال وهي المراد من التعليم؛ ليكون المتعلم بذلك راضياً عن نفسه واثقاً بحصول مبتغاه من عمله،

ترى ذلك في كل العلوم، فكما ترى الرضا عن نفسك في معاشرتك بما اكتسبته من علم تهذيب الأخلاق، ترى الرضا عنها في صنائعك إن كنت تصنع وفي سائر أكوانك التي تدخل تحت سلطان إرادتك، فلا يسوء ظنك بشيء ما، ولا تكون مكدوداً من القصور عندما ترى نفوساً يسمو بها الارتقاء في أوج المعالي بل إما أن تسابق معها بجناح، أو تَعَلِّم بالأقل أن للطيران فرصاً استكمال قوة أو مساعدة رياح، كما قال الزمخشري:

يا من يحاول بالأمانى رتبتي كم بين منخضٍ وآخر راقبي
أبيت ليلى ساهراً وتضييعه نوماً وتأملُ بعد ذاك لحاقي

ناهيك بما يجده المتعلم إن بلغ حدّاً أن يكون معلماً من الابتهاج بما يبين للمتعلمين من الحقائق، وما يعالجه من إنشاء أمة مستقلة. هاته منافع العلوم الحاجية التي تدعو إلى معرفتها حاجة الحياة الاجتماعية، وهي تختلف أعدادها باختلاف الحاجات الداعية ولا يُقدَّر أن يحدد عددها أحد، لكن لا شك أن تقدم الحضارة يوفر كثرتها.

لأجل هذا كان من واجب كل داعٍ إلى التعليم أن يوضح لطالبيه الغايات التي يحصلونها من مزاوله ذلك التعليم سواء كانت غاية دنيوية أو أخروية؛ لأن لكلتا الغايتين طُلاباً، فتلك الغاية هي التي يجتني منها المحصل على نهاية ذلك التعليم نفعاً لنفسه دنيوياً وأخروبياً، ووراء هاتين غاية هي أسمى وأعظم مما يبدو منها وهي إنتاج قادة للأمة في دينها ودنياها، وهداية هم مصابيح إرشادها، ومحاصد قتادها، ومهدتوا نفوسها إذا أقلقها اضطراب مهأدها. ص ٧ - ٨

٦- فالتعليم الصحيح - إذاً - يرمي إلى إنشاء أرقى أصناف الناس من كل من تدرس بالأشغال والأعمال، أو رزق المواهب الحسنة، ورغب في سلوك خير السبل وشغف بالمعرفة وامتاز بحب الواجب والتعقل. ص ٩

٧- إني على يقين أنني لو أتيت لي في فجر الشباب التشبع من قواعد نظام التعليم والتوجيه - لاقتصدت كثيراً من مواهبي ولاكتسبت جمّاً من المعرفة، ولسلمت من التطوح في طرائق تبين لي بعد حين الارتداد عنها، مع أنني أشكر ما منحت به من إرشاد قيم من الوالد والجد ومن نصحاء الأساتذة، ولا غنى عن الاستزادة من الخير. ص ٩

٨- نبحت عن تعليم يفيد ترقية المدارك البشرية، وصقل الفطر الطيبة لإضاءة الإنسانية، وإظهارها في أجمل مظاهرها؛ فيخرج صاحبها عن وصف الحيوانية البسيط وهو الشعور بحاجة نفسه خاصة، إلى ما يفكر به في جلب مصلحته ومصلحة غيره بالتحرز من الخلل والخطأ بقدر الطاقة، وبحسب منتهى المدنية في وقته. ص ١٢

٩- كان العرب في الجاهلية يلقبون أبناءهم وبناتهم ما هم في احتياج إليه من المعارف يُعدّونهم بها إلى الكمال المعروف عندهم. ص ١٧

١٠- وسبب اشتهاار الشعراء هو أن الشعر ضرب مستحدث من الكلام وأسلوب من المعنى غريب، وهو بجودة وزنه، والتزام قوافيه ينتزل منزلة التوقيعات الموسيقية، فكان يستفز الحليم، ويجرئ الجبان. ص ٢١

١١- حفظ العرب لغتهم من التغيير؛ فعدّوا الخطأ فيها عيباً يُتعبّر به، وشهروا

بأصحاب الفهامة واللثغة، وأعلنوا بدائع شعرهم وخطبهم في أسواقهم المشهورة أيام مواسم الحج، فكان عِلْمُهُمُ الحَقُّ هو أدبٌ لُغَتِهِم، وهو علمهم العقلي الوحيد.

ولهم معارف وتقاليد حافظوا عليها كانوا يعدون العلم بها من صفات الكمال، أهمها معرفة أنسابهم واتصال قبائلهم بعضها ببعض. ص ٢١

١٢- وكان لنسائهم عناية بتعليم البنات تدير البيت، وحسن التبعل للأزواج، والشفقة في تربية صغار إخوتهن. ص ٢١

١٣- وأما علم البلاغة فلم يدون ويُفرد بالتسمية والتأليف إلا في القرن الخامس؛ لأنه كان مندرجاً في جملة علم الأدب.

ويقول بعض الناس إن الجاحظ أول من ألف فيه لكنني أرى ما ألفه الجاحظ كان غير مصنف، وإنما كانت مسائل البلاغة شعبةً من شعب النحو والأدب. ص ٣٢

١٤- ولكن الذي خص علم البلاغة بالتدوين هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت سنة ٤٧١هـ) في كتابه: كتاب دلائل الإعجاز، وكتاب أسرار البلاغة، فهو أعطى ألقاباً للمسائل، وأخرج الكلام في الإعجاز عن الصفة الجزئية إلى قواعد كلية مسهبة مبرهنة.

على أن علم البلاغة لم يصير فناً مهذباً إلا منذ صنف فيه الإمام يوسف السكّاكي (ت سنة ٦٢٦هـ) القسم الثالث من كتابه مفتاح علوم العربية. ص ٣٣

١٥- وكان معاذ هذا - يعني الهراء - يدعى أنه يرى الجن، ووضّع في أخبارهم

كتباً أدبية أثبت فيها شعرهم ومُلحهم يريد بذلك الطريقة الروائية والمقامات غير أنه يظهره في صورة جد، فقال له الرشيد: «إن كنت رأيت ما ذكرت لقد رأيت عجباً، وإن كنت ما رأيت لقد وضعت أدباً». ص ٣٣

١٦- ومما تقدم إلى هنا: تعلم أن العلوم التي كانت تدرس وتدون يومئذ تنتهي إلى اثنين وثلاثين علماً هي: التفسير، الحديث، السيرة، اللغة، النحو، الصرف، التصوف، العروض، الفقه، أصوله، التاريخ، الطب، آداب العرب، البلاغة، الفلك، المنطق، الفلسفة، الهندسة، الحساب، الهيئة، الجغرافيا، الموسيقى، علم الحيوان، الطبيعة، الرواية والقصص، الكلام، الصيدلة، الكيمياء، الفلاحة، المساحة، الجبر، جر الأثقال والتحرك، وتتبعها علوم تنفرع عن بعضها مثل مصطلح الحديث، والجدل، وآداب البحث، ونقد الشعر. ص ٣٩

١٧- تثبت أهلية القارئ لأن يؤخذ عنه القرآن، والعالم لبث العلوم الإسلامية، بالاشتهار بين أهل ذلك العلم بأن فلاناً عالم ضابط حافظ. ص ٥٢

١٨- وكان من الآداب أن تكون بين الحلقة القرية من الأستاذ وبين أستاذهم مسافة قوس، ويعدون القرب من الأستاذ أكثر من ذلك من سوء التربية. ص ٥٤

١٩- كان العلم الإسلامي في مصر قد استقر منذ الفتح الإسلامي سنة ١٦ إذ سكن في مصر كثير من الصحابة مثل عمرو بن العاص، وابنه عبد الله بن عمرو، وقيس بن عباد، وعبيد الله بن محمد المعافري - وهو أول من قرأ القرآن بمصر - ص ٦٢

٢٠- السبب الرابع من أسباب تأخر التعليم: عُرُوُّ التعليم عن مادة الآداب

وتهذيب الأخلاق، وشرح العوائد النافعة، وغيرها.

وهو السبب الذي قضى على المسلمين بالانحطاط في الأخلاق والعوائد. وقد اعتنى المسلمون في صدر الإسلام بذلك فتلقوا آداب القرآن وهدى الرسول ثم عززوه في عصور نهضتهم بعلوم آداب الشريعة والمواعظ. أما إهماله بعد ذلك فسيبه تأخر المسلمين وقصور أنظارهم واعتقادهم أن العلم منحصر فيما تتضمنه القواعد العلمية كالنحو، والفقه وبعبارة أخرى ميل طائفة العلماء إلى الحفظ والاستكثار من فروع المسائل ومن عدد العلوم. ومن العار الكبير أن ترى كثيراً ممن ينتصب لتعليم النشأة تعجبك أجسامهم، وتبهجك بزئهم، وتعظم صورهم، ولكن ما بينك وبين أن ترمقهم بضد ذلك إلا أن تُحَاكِّمهم وتعاشرهم أو تجادلهم؛ فترى تلك الهياكل العظيمة فارغة من الفضيلة ومكارم الأخلاق والمروءة، وبذلك رزئت الأمة أنفع عنصر في حياة الأمم وكمالها وهو الأخلاق.

وإذا كانت تلك حالة خاصة الناس فما ظنك بعامتهم؟ وإذا ذهب وقت التعليم عن الطلبة ولم يتلقوا فيه فضائل الأخلاق فمن العسير أو المتعذر تلقينها لهم من بعد؛ لأن فيما يدخل فيه المحصل على الشهادة أو نحوه من معترك الحياة شغلاً شاغلاً عن ذلك. ص ١٢٤

٢١- والواجب من حيث خطتنا التي نريد أن تسير فيها أبنائنا وتلامذتنا هو التدريب على ضروب الحكمة، ونقد مقتضيات الزمان، وعلو الهمة، والغيرة للحق، والترفع عن سخائف المطامع، وعن ضيق الصدر الذي ينشأ عنه الحسد

والظلم والخصام، والتلطي من كل ما يخالف المقصد، والإقدام، والحزم وأصالة الرأي، وحب النظام في جميع أحوال الحياة، والعمل، وحب التناسب في المظاهر كلها، وإدراك الأشياء على ما هي عليه، والتباعد عن الخفة والطيش، وعن الجمود والكسل، وسوء الاعتقاد والأمور الوهمية بحيث يكون العدل في جميع الأشياء صفة ذاتية لهم. ص ١٢٥

٢٢- نعم نحن نرى أن لا يقع النقد إلا في الدروس العالية، أما التلامذة المبتدئون والمتوسطون في أول الرتبة فإننا نلقي إليهم القواعد، وما كان من رأي فيه نظر ننقحه ونلقيه لهم من غير إشعار بما كان فيه من الخلل وكيف وقع تنقيحه، حتى أنني كنت أصرفهم عن سرد الشرح مثلاً متى علمت أن في ذلك الموضوع ما لا يصلح تلقيه. ص ١٢٧

٢٣- والمشائخ المدرسون - وإن بلغوا ما بلغوا من الاجتهاد في التعليم - فإن ثمرة اجتهادهم لا تظهر إلا بمقدار نجابة تلامذتهم. ص ١٤١

٢٤- ونسبة النباهة والتحصيل في التلامذة قليل بسبب إهمال التمرين وترك مراجعة ما يقرؤونه قبل الدرس وبعده، وترك مطالبتهم باستذكار ما تعلموه، وترك تكليفهم بحفظ المتون حفظاً جيداً، وترك تعويدهم على فهم معنى المتن الذي يحفظونه؛ فإنك لتسأل التلميذ عن المسألة فيعجز عن الجواب ويتذكر عبارة المتن، ولكنه يبقى يلوكها ولا يكاد يبين عن المراد منها. ص ١٥٨

٢٥- يؤلف في علم من كان قوي الساعد فيه؛ ليتمكن أن يأتي في تأليفه بغرض من أغراض التأليف السبعة التي جمعت في أبيات:

ألا فاعلمن أن التآليف سبعة لكل لبيب في النصيحة خالص
 فشرح لإغلاق وتصحيح مخطئ وإبداع حبرٍ مقدّم غير ناكص
 وترتيب منشورٍ وجمعٍ مفرقٍ وتقصيرٌ تطويلٍ وتتميمٌ ناقصٍ

ص ١٧٠

٢٦- التفسير شرح مراد الله - تعالى - من القرآن ليفهمه من لم يصل ذوقه
 وإدراكه إلى فهم دقائق العربية، وليعتاد بممارسة ذلك فهمَ كلام العرب،
 وأساليبيهم من تلقاء نفسه. ص ١٨٤

٢٧- يُقصد من علم الأصول ضبط القواعد التي يستطيع العالم بها فهم أدلة
 الشريعة؛ ليأخذ منها الأحكام التفريعية.

أرادوا أن يجمعوا فيه ما تتفق فيه الآراء ليرتفع الخلاف في الفقه بعد أن كانت
 هاته القواعد متفرقة وموكولة لنباهة المجتهدين. ص ٢٠٣

٢٨- في طبع الإنسان كراهية الرجوع إلى من يجترئ عليه، والخلاف بين
 العقلاء نادر لو رامو التقارب. ص ٢١٠

٢٩- وللغة المضرية شبه بالعبرائية والبابلية وسائر اللغات السامية. ص ٢١٢

٣٠- هل نرجو من تلامذتنا اليوم أن يكونوا فصحاء بلغاء وهم لا يقرع سمعهم
 إلا سقط الكلام، ورعونة التعبير، ولا يعرفون معنى الإنشاء والفصاحة؟
 ص ٢١٥

٣١- لا عدة لنا اليوم في الفصاحة إلا القرآن، وناهيك به عدة، ولكن قراءة
 الناس إياه في الصغر، وإهمال التذكير بمعانيه في المكاتب، والشغل عن درسه في

الكبر- أرزا الناس فائدة عظيمة يبلغون بها رتبة مكينة من علم اللسان. ص ٢١٥
 ٣٢- فإن كتاب سيبويه اشتمل على مسائل من التقديم، والتأخير، ومعاني
 الحروف، ومحاسن العطف، ونحوها؛ فكان عمدة علماء البلاغة من بعده وقد
 قال فيه الزمخشري:

ألا صَلَّى إِلَهَ صَلَاةٍ صَدَقَ عَلَى عَمْرٍو بْنِ عَثْمَانَ بْنِ قُنْبَرٍ
 فَإِنْ كَتَابَهُ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ بِنُوقَلَمٍ وَلَا أَعْوَادٍ مِنْبَرٍ

٣٣- علم البلاغة المعاني والبيان والبديع: تكاثرت الأسماء له فمن الناس من
 سماه علم البديع؛ لأنه مبدع، ومنهم من سماه البيان؛ لأنه يبين عن المراد،
 والمتأخرون هم الذين قسموه إلى ثلاثة أقسام:

المعاني: وهو ما يبحث فيه عن مطابقة الكلام لمقتضى حال التعبير.
 والبيان: وهو كاسمه يعرف به إيراد المعنى بطرق مختلفة في وضوح الدلالة من
 حقيقة أو مجاز.

والبديع: وهو تحسين المعاني أو الألفاظ بما يجعلها مستظرفة للسامع.

ص ٢٢٢ - ٢٣٢

٣٤- يريدون من المنطق علماً يعصم الأفكار عن الخطأ في المطلوب التصوري
 الذي تتعرف منه حقيقة شيء، وفي المطلوب التصديقي الذي يُتَعرف منه العلمُ
 مع دليل ما، وهو من جملة العلوم التي نقلها العرب من اليونانية في عصر
 النهضة العلمية، وختمه بالصناعات الخمس: «البرهان، والجدل، والخطابة،
 والشعر، والسفسطة». ص ٢٢٥

٣٥- من أخص واجبات الأساتذة أن يكونوا قدوة لتلاميذهم؛ فمن الواجب أن يعرفوهم حب العمل، والسعي لإصلاح أنفسهم وأمتهم، وأن ينشئوهم على خلال المصابرة والشجاعة، والحرية والمروءة، واحترام الحق والعدالة، والعفاف وكرم الأخلاق؛ حتى يكونوا كلهم أعضاء نافعةً عاملةً سواءً منهم من بقي في صناعة العلم أو من انصرف إلى الأشغال الأخرى وعساهم أن لا يكونوا بعداء عن هذا في مقبل الزمان؛ فإن علماء الأمة زينتها في كل أوان. ص ٢٣٥

٣٦- ليس العلم رموزاً تُحل، ولا كلمات تُحفظ، ولا انقباضاً وتكلفاً، ولكنه نور العقل، واعتداله، وصلاحيته لاستعمال الأشياء فيما يحتاج إليه منها؛ فهو استكمال النفس، والتطهر من الغفلة، والتأهل للاستفادة والإفادة، وما كانت العلوم المتداولة بين الناس إلا خادمةً لهذين الغرضين وهما ارتقاء العقل لإدراك الحقائق، واقتدار صاحبه على إفادة غيره بما أدركه هو. ص ٢٣٩

٣٧- هذا ما عن إثباته من أحوال العلوم الإسلامية وطرائق تعليمها وأسباب النهوض والانحطاط العارضين لها في عديد الأعصر، وقد مضى بعد تقييده زمنٌ غيرٌ قصيرٍ تطورت فيه الأحوال إلى أحسن تارةً وإلى أسوأ أخرى، وفي العيان غنيةٌ عن الإبانة لمن كانت له زكاة.

وقد تحقق العمل بكثير من الملاحظات والمقترحات التي اشتمل عليها هذا الكتاب، فأسفر بها وجه الصبح الذي رجوت له قرباً، ولم أفتيء كلما وجدت فجوةً أن أرتقي بالتعليم مرتقىً وإن كان صعباً، حتى قلتُ إن الصبح أعقب بضحاها، ورأيت كثيراً من الناصحين توخى سبيلنا وانتحاه، والليب لا يعوزه

تنظير الأحوال ، وفي الخبر أن ابن آدم لا ينتهي ما له من آمال ، ونسأل الله عون المسلمين على إصلاح الأحوال. ص ٢٦٠

ولقد توفي الشيخ ابن عاشور يوم الأحد ١٣/٧/١٣٩٣ هـ.

هذه نبذة يسيرة عن سيرة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمته الله ومن أراد المزيد فليرجع إلى الكتب التي ترجمت له ، ومنها: كتاب شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور - حياته وآثاره ، تأليف د. بلقاسم الغالي.

ومقدمة الأستاذ محمد الطاهر الميساوي لكتاب مقاصد الشريعة لابن عاشور.

وكتاب محمد الطاهر بن عاشور: علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه ، تأليف الأستاذ إياد خالد الطباع ، وكتاب الصداقة بين العلماء ، وكتاب مقالات لكبار الكتاب العربية في العصر الحديث ، وهما لكاتب هذه السطور.

الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

معالم بارزة في سيرته:

لقد كُتِبَ العديد من الدراسات والأبحاث في سيرة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزائري.

والأجزاء الخمسة التي جمعها وقدم لها نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي وسماها (آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي) حافلة بالمقالات التي رَقَمَتَهَا يراعة الشيخ، والتي تصور شخصيته، وأطوار حياته.

كما أن تلك الأجزاء - وخصوصاً مقدماتها - قد تضمنت عدداً من الكتابات التي تناولت سيرة الشيخ بالدراسة والتحليل.

بل إن الشيخ محمد البشير رحمته الله كتب عن سيرته الذاتية؛ حيث جاء في الجزء الخامس من (الآثار) ترجمتين كتبهما الشيخ عن نفسه.

أما الترجمة الأولى فهي في ١٦٣/٥ - ١٧٠

وقد جاءت بعنوان (من أنا) وهي في أصلها جواب عن أسئلة مجلة المصور المصرية، ونشرت في ١٩٥٥م.

وأما الثانية فهي في ٢٦٢/٥ - ٢٩١ من الآثار، وعنوانها: (خلاصة تاريخ حياتي العلمية والعملية).

وقد كتب هذه الترجمة بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦١م عندما عين عضواً عاماً فيها.

كما تحدث بشيء من سيرته في مقابلة مع مجلة الشبان المسلمين ١٩٦٢م وهذه المقابلة في الآثار ٥ / ٢٩٨ - ٣٠٢.

وفيما يلي خلاصة موجزة لبعض ما جاء في تلك الكتابات حول سيرة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي :

١- ولد عند طلوع الشمس من يوم الخميس الثالث عشر من شهر شوال عام ١٣٠٦هـ، الموافق للرابع عشر من شهر يونيو سنة ١٨٨٩م في ولاية سطيف في الجزائر.

٢- وهبه الله حافظة خارقة، وذاكرة عجيبة تشهدان بصدق ما يحكى عن السلف، وكانتا معينتين له في العلم في سن مبكرة - كما سيأتي نماذج من ذلك -.

٣- تلقى تعليمه في بيت أسرته، وقام على تربيته عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي الذي كان علامة زمانه في العربية.

يقول الشيخ محمد البشير رحمته الله : عن نشأته، وبداية طلبه للعلم، ومحفوظاته :
«نشأت في بيت والدي كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأت التعلم وحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمري على التقليد المتبع في بيتنا، الشائع في بلدنا. وكان الذي يعلمنا الكتابة، ويلقننا حفظ القرآن جماعة من أقاربنا من حفاظ القرآن، ويشرف علينا إشرافاً كلياً عالم البيت، بل الوطن كله في ذلك الزمان عمي شقيق والدي الأصغر الشيخ محمد المكي الإبراهيمي رحمته الله. وكان حامل لواء الفنون العربية غير مدافع؛ من نحوها، وصرفها، واشتقاقها، ولغتها.

أخذ كل ذلك عن البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بإقليمنا»^(١).

ويقول رحمه الله: «فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلمي القرآن، وتولى تربيتي وتعليمي بنفسه، فكنت لا أفارقه لحظة، حتى في ساعات النوم؛ فكان هو الذي يأمرني بالنوم، وهو الذي يوقظني على نظام مطرد في النوم، والأكل، والدراسة.

وكان لا يخليني من تلقين حتى حين أخرج معه، وأماشيهِ للفسحة، فحفظت فنون العلم المهمة في ذلك السن مع استمراري في حفظ القرآن؛ فما بلغت تسع سنين من عمري حتى كنت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه.

وكنت أحفظ معه ألفية ابن مالك، ومعظم الكافية له، وألفية ابن معطي الجزائري، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، وأحفظ جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني، ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب، وأحفظ الكثير من شعر أبي عبدالله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة، وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن شهيد، وابن برد، وابن أبي الخصال، وأبي المطرف ابن أبي عميرة، وابن الخطيب.

ثم لفتني عمي إلى دواوين فحول المشاركة، ورسائل بلغائهم، فحفظت صدراً من شعر المتنبي، ثم استوعبته بعد رحلتي إلى المشرق، وصدراً من شعر الطائيين، وحفظت ديوان الحماسة، وحفظت كثيراً من رسائل سهل ابن

هارون، وبديع الزمان.

وفي عنفوان هذه الفترة حفظت بإرشاد عمي كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني، وكتاب الفصيح ل: ثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب بن السكيت.

وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكتي اللغوية. ولم يزل عمي رحمته الله يتدرج بي من كتاب إلى كتاب تلقيناً وحفظاً ومدارسة للمتون والكتب التي حفظتها حتى بلغت الحادية عشرة، فبدأ لي في درس ألفية ابن مالك دراسة بحث، وتدقيق، وكان قبلها أقرأني كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهيم وبحث، وكان يقرئني مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك، ويقرئني وحدي، ويقرئني وأنا أماشيته في المزارع، ويقرئني على ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت في الظلمة حتى يغلبني النوم.

ولم يكن شيء من ذلك يرهقني؛ لأن الله - تعالى - وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيرة، وذهناً صبوراً للمعاني ولو كانت بعيدة.

ولما بلغت أربع عشرة سنة مرض عمي مرض الموت، فكان لا يخليني من تلقين وإفادة وهو على فراش الموت؛ بحيث إني ختمت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه وهو على تلك الحالة»^(١).

ويقول في موضع آخر: «ولقد حفظت وأنا في تلك السن -الرابعة عشرة-

أسماء الرجال الذين تُرجم لهم نفع الطيب ، وأخبارهم ، وكثيراً من أشعارهم؛ إذ كان كتاب نفع الطيب - طبعة بولاق - هو الكتاب الذي تقع عليه عيني في كل لحظة منذ فتحت عيني على الكتب.

وما زلت أذكر^(١) إلى الآن مواقع الكلمات من الصفحات ، وأذكر أرقام الصفحات من تلك الطبعة.

وكنت أحفظ عشرات الأبيات من سماع واحد ، مما يحقق ما نقرؤه عن سلفنا من غرائب الحفظ.

وكان عمي يشغلني في ساعات النهار بالدروس المرتبة في كتب القواعد وحدي أو مع الطلبة ، ويمتحنني ساعة من آخر كل يوم في فهم ما قرأت ، فيطرب لصحة فهمي.

فإذا جاء الليل أملى علي من حفظه - وكان وسطاً - أو من كتاب ما يختار لي من الأبيات المفردة ، أو من المقاطيع حتى أحفظ مائة بيت ، فإذا طلبت المزيد انتهرني ، وقال لي : إن ذهنك يتعب من كثرة المحفوظ كما يتعب بدنك من حمل الأثقال ، ثم يشرح لي ظواهر المعاني الشعرية ، ثم يأمرني بالنوم ﷺ^(٢).

ثم يقول ﷺ بصدق وصراحة : « مات عمي سنة ١٩٠٣ م ولي من العمر أربع عشرة سنة ، ولقد ختمت عليه دراسة بعض الكتب وهو على فراش المرض الذي مات فيه وأجازني الإجازة المعروفة عامة ، وأمرني أن أخلفه في التدريس

1- يقول هذا الكلام وعمره ٦٦ عاماً.

2- الآثار ١٦٥/٥.

لزملائي الطلبة الذين كان حريصاً على نفعهم، ففعلت، ووفق الله، وأمدتني تلك الحافظة العجيبة بمستودعاتها، فتصدرت دون سن التصدر، وأرادت لي الأقدار أن أكون شيخاً في سن الصبا.

وما أشرفت على الشباب حتى أصبت بشرّ آفة يصاب بها مثلي، وهي آفة الغرور والإعجاب بالنفس؛ فكنت لا أرى نفسي تقصّر عن غاية حفظ اللغة وغريبها، وحفاظ الأنساب والشعر، وكدت أهلك بهذه الآفة لولا طبع أدبي كريم، ورحلة إلى الشرق كان فيها شفائي من تلك الآفة»^(١).

هذا وقد أشار رحمته الله في بعض المواضع إلى أنه كان يحفظ المعلقات، والمفضليات، وكثيراً من شعر الرضي، وابن الرومي، وأبي تمام، والبحثري. وأشار إلى أنه يحفظ موطأ مالك وغيره من الكتب^(٢).

٤- بعد موت عمه خلفه في الدروس على تلامذته، وغيرهم، واستمر على ذلك إلى أن جاوز العشرين من عمره.

٥- بيته عريق في العلم، خرج منه جماعة أفذاذ في علوم الدين والعربية في الخمسة قرون الأخيرة بعد انحطاط عواصم العلم الشهيرة في المغرب.

٦- رحل إلى المدينة هو ووالده، مهاجرين فراراً من الاستعمار الفرنسي، فكان من مدرسي الحرم النبوي الشريف، وتلقى فيها علم التفسير، وعلم الحديث رواية ودراية، وعلم الرجال، وأنساب العرب، والمنطق، ومكث في

1- الآثار ١٦٥/٥.

2- انظر الآثار ١٦٥/٥، و ٢٧٥/٥.

المدينة قريباً من ست سنين ، ثم انتقل إلى دمشق في أثناء الحرب العالمية الأولى؛ فكان من أساتذة العربية في المدرسة السلطانية مدة سنتين في عهد حكومة الاستقلال العربي.

٧- بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رجع إلى بلده الجزائر، وبقي فيها ينشر العلم في فترات منقطعة إلى سنة ١٩٣١م.

٨- يرجع الفضل - بعد الله - إليه وإلى الشيخ عبد الحميد بن باديس في تكوين جمعية العلماء في الجزائر.

٩- وكان في طليعة العاملين على إحياء العلوم الدينية والعربية في الجزائر من الابتدائية إلى العالية.

١٠- وكان أبرز المشيدين لأربعمائة مدرسة في مدن الجزائر وقراها.

١١- وكان في طليعة المجاهدين في سبيل الإصلاح الديني، ومحاربة الدجل، والبدع، والخرافات، والشركيات.

١٢- كان من الشجعان الحكماء الذين يحسب لهم ألف حساب، ومواقفه في ذلك لا تكاد تحصر، ومنها على سبيل المثال ما حدث له عام ١٩٤٠م إبان الاستعمار الفرنسي للجزائر عند ما أصدر الوالي العام أمر اعتقال الإبراهيمي في ساعة مختارة طبقاً للإجراءات المقررة؛ حتى لا يقع تجمع في الشوارع.

وقبيل اعتقال الإمام الإبراهيمي جرب الفرنسيون وسيلة كانوا يستنزلون بها الهمم، ويشترون الذمم، وهي وسيلة الترغيب التي تعودوا استعمالها مع الذين أخذوا إلى الأرض، وأتبعهم الشيطان؛ فلم يعيشوا لمبدأ، وقضوا حياتهم

يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام.

فبعثوا إليه القاضي ابن حورة يعرض عليه منصب شيخ الإسلام الذي سيحدث لأول مرة في الجزائر في مقابل تصريح يؤيد فيه فرنسا التي كانت طرفاً في الحرب العالمية الثانية، والمشاركة في تحرير صحف أنشأوها، وفي كتابة محاضرات تسجل للإذاعة مقابل منح مغرية، فخبب ظنهم، ورفض كل تعاون معهم. وكرر الفرنسيون المحاولة، واستدعت إدارة تلمسان الشيخ، وحاولت إقناعه بسداد طلب الحكومة، فرفض، فقيل له: ارجع إلى أهلك، وودعهم، وأحضر حقيبتك - يعني أنك ذاهب إلى السجن -.

فقال لهم: قد ودعتهم، وها هي حقيبتني جاهزة.

ولما علم الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بموقف أخيه الإمام الإبراهيمي ازداد إكباراً له، وإعجاباً به، وكتب إليه رسالة عام ١٩٤٠ قبيلاً وفاته - أي ابن باديس - بثلاثة أيام، ما نصه:

«الأخ الكريم الأستاذ البشير الإبراهيمي - سلمه الله -.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد بلغني موقفكم الشريف الجليل العادل فأقول لكم: «الآن يا عمر»^(١). فقد صنت العلم والدين، صانك الله وحفظك، وتركتك، وعظمتها عظم الله قدرك في الدنيا والآخرة، وأعززتهما أعزك الله أمام التاريخ الصادق،

1- كلمة قالها النبي ﷺ لعمر بن الخطاب ؓ عندما قال له: «إنك أحب إليّ من نفسي» والحديث في صحيح البخاري.

وبيضت مَحْيَاهُما بيض الله محياك يوم لقاءه، وثبتك على الصراط المستقيم،
وجب أن تطالعني برغباتك، والله المستعان.

والسلام من أخيك عبد الحميد بن باديس»^(١).

كما أنه قد زج به في السجن بعد أحداث مايو ١٩٤٥، وبقي فيه عاماً كاملاً
ذاق الأمرين في زنزانه تحت الأرض؛ حيث الظلمة، والرطوبة مما استدعى نقله
إلى المستشفى العسكري بقسنطينة؛ فتحمل هذه المحنة بصبر المجاهد، ويقين
المؤمن^(٢).

١٣- كان ذا شخصية فذة، فقد أوتي مواهب عديدة، فكان خطيباً مصقلاً،
وشاعراً مُفْلِحاً، وكاتباً لا يكاد أحد يدانيه في وقته، يشهد له بذلك كل من عرفه،
وقرأ له.

كما أنه ذو نفس مرهفة، وذو خلق عال، وأدب جم، ووفاء منقطع النظير.
يقول ابنه الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي: «لقد سمعت الشيخ العربي
التبسي - نائب البشير في جمعية العلماء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يردد كثيراً في مجالسه: إن
الإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان، وأن العظمة أصل في طبعه».

ثم يواصل الدكتور أحمد قائلاً: «والعظمة في رأيي تكمن في القلب،
والحقيقة أن الإبراهيمي كان عظيماً بعقله، ووجدانه، وبقلبه ولسانه؛ فكل من
تقلب في أعطافه نال من أطفاه؛ فالقريب، والرفيق، والسائل والمحروم، والمريد

1- انظر الآثار ١/٣٨-٣٩.

2- انظر الآثار ١/١٢.

والتلميذ يجد فيه الأب الشفيق، والأخ الصديق الذي لا يبخل بجهده، وجاهه وماله - وإن قل - لتفريج الكروب، وتهوين الخطوب.

وما تقرّبَ منه إلا ملك قلبك بحلمه، وغمر نفسك بكرمه قبل أن يشغل عقلك بعلمه، ويسحر لبك بقلمه.

وكانت الخصال البارزة فيه الإيثار، والحلم، والوفاء». (١)

١٤- وكان عالماً بالحديث وروايته؛ حتى إنه كان يعطي الإجازات في ذلك.

١٥- وكان مفسراً للقرآن في دروس عمومية، ودروس للطلبة الخواص، أتى

فيها بإبداعات سجلتها عنه ذاكرة الرجال، وإن لم تجمعها المكتوبات.

١٦- وكان معلماً للتاريخ الإسلامي في براعة وتحليل، وسعة نظر؛ حيث

تطرق إلى فلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، والأخلاق؛ لينير التاريخ بمنظار الإسلام.

١٧- وكان - مع هذا كله - قدوة في سهولة المعاملة، والاتصال، بشوشاً،

مرحاً في مجلسه، واسع الصدر في ممارسة المسؤوليات، متدفق الحيوية في الأنشطة الثقافية.

١٨- وكان - أيضاً - متميزاً بثقافة عصرية عالية.

يقول ابنه الدكتور أحمد: «سألني في إحدى ليالي عام ١٩٤٨م وأنا بقسم

الفلسفة في خاتمة تعليمي الثانوي عن آخر درس تلقيته في علم النفس، فأخذ

رأس الموضوع، وشرح لي آراء (وليم جامس) أحد مؤسسي المذهب العملي

(البراجماتي)، وتحدث عن كثير من مفكري الغرب ممن لم أكن أسمع بهم قبل ذلك اليوم مثل: داروين، وجون لوك، وجون ستيوارات.

كما أوضح لي مساهمة العلماء المسلمين في كثير من الجوانب»^(١).

١٩- وكان على جانب كبير من عزة النفس، والترفع عن الدنيا.

٢٠- وكان شديد العناية بقضايا المسلمين في شتى البلدان، وعلى رأسها قضية فلسطين، وكذلك قضية كشمير، وقضايا المسلمين عموماً؛ فلقد كان يتابع تلك القضايا بدقة، ويكتب عنها، ويسبرها.

ولم تشغله قضيته الأساس، وهي قضية تحرير الجزائر عن بقية قضايا المسلمين في كل مكان.

٢١- وخلاصة القول أن الله - عز وجل - قد فتح عليه أبواباً عظيمة من الخير من علم نافع، وعمل صالح، وخلق كريم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وإليك - في خاتمة الحديث عن سيرته - هذه الكلمة التي تبين كثيراً من صفات الإبراهيمي مما قد مر منها ومما لم يمر.

وهي كلمة قالها أحد رفاقه، وهو الأستاذ أحمد توفيق المدني رحمته الله وذلك عندما تبوأ الإبراهيمي كرسية في مجمع اللغة العربية في القاهرة، يقول الأستاذ أحمد: «فتقدم الإبراهيمي الأمين يحمل الراية باليمين، لا يأبه للمكائد والسجون، ولا يبالي بالمنافي في الفيافي.

بل دخل المعمة بقلب أسد، وفكر أسد، ووضع في ميزان القوى المتشاكسة

يومئذ تلك الصفات التي أودعها الله فيه :

- علماً عزيزاً فياضاً متعدد النواحي ، عميق الجذور.
- واطلاعاً واسعاً عريضاً يخيّل إليك أن معلومات الدنيا قد جمعت عنده.
- وحافظة نادرة عز نظيرها.
- وذاكرة مرنة طيعة جعلت صاحبها أشبه ما يكون بالعقل الالكتروني.
- كدائرة معارف جامعة سهلة التناول من علوم الدين التي بلغ فيها مرتبة الاجتهاد بحق ، إلى علوم الدنيا مهما تباينت واختلفت ، إلى شتى أنواع الأدبين القديم والحديث بين منظوم ومنثور ، إلى أفكار الفلاسفة والحكماء من كل عصر ومصر ، إلى بدائع الملح والطرائف والنكت.
- كل ذلك انسجم مع ذكاء وقاد ونظرات نافذة ، تخترق أعماق النفوس ، وأعماق الأشياء.
- وفصاحة في اللسان ، وروعة في البيان ، وإمام شامل بلغة العرب لا تخفى عليه منها خافية.
- ومملكة في التعبير مدهشة جعلته يستطيع معالجة أي موضوع ارتجالاً على البديهة إما نثراً أو منظماً.
- ودراية كاملة بجميع ما في الوطن الجزائري ، يحدثك حديث العليم الخبير عن أصول سكانه وقبائله ، وأنسابه ، ولهجاته ، وعادات كل ناحية منه ، وأخلاقها ، وتقاليدها ، وأساطيرها الشعبية ، وأمثالها ، وإمكاناتها الاقتصادية ، وثرواتها الطبيعية.

- كل ذلك قد تُوجَّج بإيمان صادق، وعزيمة لا تلين، وذهن جبار، منظم، يخطط عن وعي، وينفذ عن حكمة، وقوة دائبة على العمل لا تعرف الكلل ولا الملل.

هذا هو البطل الذي اندفعنا تحت قيادته الموفقة الملهممة، نخوض معركة الحياة التي أعادت لشعبنا بعد كفاح طويل لسانه الفصيح، ودينه الصحيح، وقوميته الهادفة»^(١).

- نموذج من نثره: يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي آية من آيات البيان والكتابة في العصور المتأخرة - كما مر- والأجزاء الخمسة من الآثار شاهدة بذلك سواء كتب في مجال السياسة، أو الاجتماع، أو الرسائل الإخوانية، أو غير ذلك. وفيما يلي نموذج من نثره، وهو عبارة عن مقامة كتبها البشير في رثاء رفيق دربه الشيخ عبد الحميد باديس رحمته الله وعنوانها «مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة».

وقد قدم لهذه المقامة تلميذ البشير الأستاذ محمد الغسيري؛ فإليك شيئاً من مقدمة الغسيري، ثم مقامة البشير:

يقول الغسيري:

الوفاء قليل في البشر، وأوفى الأوفياء من يفي للأموات؛ لأن النسيان غالباً ما يباعد بين الأحياء وبينهم، فيغمطون حقوقهم، ويحددون فضائلهم.

وما رأينا في حياتنا رفيقين جمع بينهما العلم والعمل في الحياة، وجمع بينهما

الوفاء حين استأثر الموت بأحدهما - مثلما رأينا إمامي النهضة الجزائرية عبد الحميد ابن باديس ، ومحمد البشير الإبراهيمي ، رحم الله الميت ، وأمد في عمر الحي حتى يحقق للجزائر أمنيتها.

من أعلى ما امتاز به أستاذنا الجليل ، ورئيسنا الأكبر ، محمد البشير الإبراهيمي من شرف الخلال نكران الذات؛ فهو لا يزال يعمل الأعمال التي تعجز عنها الجماعات وتنوءُ بها العُصَب ، وهو مع ذلك لا ينسب الفضل إلا لإخوانه ورفقائه الأموات والأحياء.

يصرح بذلك في خطبه الدينية ، ومحاضراته الجامعة ، ويقول : إن كل فضل في هذه الحركة العلمية النامية يرجع إلى جمعية العلماء ، وإنه لولا جمعية العلماء لما كان هو.

ونحن - أبناؤه - نشهد ، وإخوانه يشهدون أنه لولا علمه ، ولسانه ، وصبره وتأثيره الذي يشبه السحر - لما كانت جمعية العلماء ، ولولا براعته في التصريف والتسيير لما سار لجمعية العلماء شرع في هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن.

مات ابن باديس ، في حين كان رفيقه في الجهاد وقسيمه في العلم والعمل محمد البشير الإبراهيمي منفياً في قرية (أفلو) من الجنوب الوهراني ، بحيث لم يحضر دفنه ، ولم يؤبَّنه بكلمة ، فعوض ذلك برسائل تعزية كتبها إلى إخوانه بثَّ فيها حزنه للمصيبة ، وصوّر فيها آثارها ، ولم تنسه الفجيعة ما يجب من النصائح بالثبات ، واستمرار السير ، فجاءت رسائل من ذلك الطراز الساحر الذي لا يحسنه إلا الإبراهيمي ، ولا أدري أحتفظ إخواني بتلك الرسائل الفنية أم

ضيّعوها؟!

ولما مضت على موت الأستاذ سنة، ورفيقه لا يزال في المنفى، أرسل الرئيس الجليل من منفاه هذه المقامة؛ فأبكت العيون، وجدّدت الأسى.
 رغبتنا إلى أستاذنا أن ننشر هذه المقامة فأذن - أبقاه الله - بعد امتناع؛ لأن أستاذنا - حفظه الله - لا يرى السجع معبراً عن النوازع العميقة، وإن كان هو إمامَ العصر بلا منازع في هذه الطريقة الأندلسية البديعة التي لا يحسنها إلا من جمع بين الطبع والصنعة، وملك أزمة اللغة والغريب...

وحلّت في الأخير رغبتنا منه محلّ القبول؛ حرصاً على هذه المقامة أن تضيع إن لم تسجل، وكم نفائس مثل هذه المقامة، وكم من رسائل، وكم من تحف فنية من أدب الهزل والنكتة، وكم من ملاحم شعرية، بلغت الآلاف من الأبيات ما زالت مطمورة في أوراق الأستاذ، وفي حافظته العجيبة.
 وإذا لم يحرص أمثالنا من تلامذة الأستاذ على استخراجها ونشرها ضاعت، وخسر الأدب والعلم خسارة لا تعوّض، وهاهي ذي المقامة الباديسية، وننبّه إلى أن الأستاذ حذف منها كثيراً مما لا تسمح الظروف بنشره.

تلمسان

محمد الغسييري

وإليك أيها القارئ الكريم نص المقامة :

«مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة»^(١)

سلام يتنفس عنه الأفاحُ بإزهاره وإيراقه، ويتبسم عنه الصباحُ بنوره وإشراقه.

وثناءً يتوهج به من عنبر الشجر عيبره، ويتبلج به من بدر التمام على الركب الخابط في الظلام منيره.

وصلوات من الله طهورها الروح والريحان وأركانها النعيم والرضوان، وتحيات زكيات تنزل بها - من الملاء الأعلى - الملائكة والروح، ونفحات ذكيات تغدو بها رسل الرحمة وتروح، وخيرات مباركات يصدق برهان الحق قولها الشارح بفعلها المشروح.

وسلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صوادق الوعود، لا صواعق الرعود لا تخلف ولا تمين،^(٢) وسحائب من الرحمات تنهل سواكبها، وكتائب من المبشرات تزجي مواكبها، وسوافح من العبرات تنحلّ عزاليها، ولوافح من الزفرات تسابق أواخرها أواليها - على الجذث الذي التأمّت حافّته على العلم الجم والفضل العد، ووارى ترابّه جواهر الحجا والذكاء والعزم والجد، وطوى

1 - قد لا يستغني القارئ الكريم عن اصطحاب أحد المعاجم إذا أراد قراءة هذه المقامة؛ لما فيها من كثرة الغريب، وإحكام التركيب، كما لا يستغني عن الإلمام بأمهات الكتب في الشريعة، والأدب، والدواوين الشعرية، والتواريخ، والعقائد؛ لما في تلك المقامة من كثرة التضمين، والبديع، ونحو ذلك من الألوان البلاغية، والإشارات التاريخية، وما جرى مجرى ذلك.

ولو شُرحت ألفاظ تلك المقامة، وعُزيت إشاراتها - لبلغت مجلداً ضخماً.

2 - لا تمين: المين هو الكذب.

البحرَ الزخار في عدة أشبار، فأوقف ما لا حدَّ له عند حد، واستأثر بالفضائل الغُزْر،^(١) والمساعي الغرّ،^(٢) والخلال الزُّهر، فلم يكن له في الأجداث ند، وأصبح من بينها المفردَ العلم كما كان صاحبه في الرجال العلمَ الفرد.

وسلام على مشاهدَ كانت بوجوده مشهودة، وعلى معاهد كانت تحت ظلال رعايته وتعهده عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلومه ومواعظه معمورة، وعلى مدارس كانت بفيضه الزاخر، ونوره الزاهر مغمورة، وعلى جمعيات كان شملها بوجوده مجموعاً، وكان صوته الجهير كصوت الحق الشهير مدوياً في جنباتها مسموعاً.

مشاهد كان يراوحها للخير والنفع، وكانت آفاقها بأنواره مسفرة، ومعاهد كان حادي زُمرها إلى السلم، وهادي نَزاعها إلى الإحسان والعلم؛ فأصبحت بعده مقفرة.

ومدارس، ما مدارس؟ مهّدها للعلم والإصلاح مغارس، ونَصَبَها في نخور المبطلين حصوناً ومتارس، وشيّدَها للحق والفضيلة مرابطاً ومحارس.

وسلام على شيخه الذي غدّى وربّى، وأجاب داعيَ العلم فيه ولبّى، وآثر في توجيهه خير الإسلام، فقلّد الإسلام منه صارماً عضباً، وفجر منه للمسلمين معيناً عذباً، فلئن ضايقته الأيامُ في حدود عمره فقد أبقت له منه الصيت العريض، والذكر المستفيض، ولئن سلبتة الحلية الفانية فقد ألبسته من مآثر حُلل

1 - الغزر: الكثيرة.

2 - الغرّ: الأفعال الكريمة.

التاريخ الضافية، ولئن أذاقته مرارة فقدته فقد متعته بقلوب أمة كاملة، ولئن حرمته لذة ساعات معدودة فقد أسعدته به سعادة غير محدودة.

وسلام على إخوان كانوا زينة ناديه، وبشاشة واديه، وكانوا عمّار سامره، والطيب المتضوع^(١) من مجامره، والجوارح الماضية في تنفيذ أوامره.

وسلام على أعوان كانوا معه بناء الصرح، وحماة السرح، وكانوا سيوف الحق التي بها يصول، وألسنة الصدق التي بها يقول.

أبت لهم عزة الإسلام أن يضرعوا أو يذلّوا، وأبت لهم هداية القرآن أن يزيغوا عن منهاجه أو يضلّوا، تشابهت السبل على الناس فاتخذوا سبيل الله سبيلاً، وافترق الناس شيعاً فجعلوا محمداً وحزبه قبلاً.

ولقد أقول على عادة الشعراء - وما أنا بشاعر - لصاحبين من تصوير الخيال أو من تكييف الخبال تُمثّلهما الخواطر تمثيل صفاء، وتقيمهما في ذهني تمثال وفاء: بكرًا صاحبي فالنجاح في التبكير^(٢) وما على طالب النجح بأسبابه من نكير، تنجحا لصاحبكما طية^(٣) لا تبلغ إلاّ بشد الرحل وتقريب المطية، فقد خُتِمَت - كما بُدِئَت - الأطوار، بدولة الرحال والأكوار، فادفعا بالمهرية القود^(٤) في نحر الوديقة

1 - المتضوع: المنتشر، والمنبعث.

2 - هذا تضمن بيت بشار بن برد، يقول فيه:

بكرًا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

3 - الطية: الحاجة والوطر.

4 - المهرية القود: هي الفرس الطويلة الظهر والعنق، والمهرية منسوبة إلى مهرة بن حيدان بطن من قضاة، والقود الطوال، ومفردها قوداء وأقود، وهذا مضمن بيت المتنبي الذي يقول فيه:

ويُدِّمها خطة ويلمّ قابلها
لمثلها خُلق المهرية القود

الصيخود،^(١) ولا تخشيا لذع الهواجر،^(٢) وإن كنتما في شهري ناجر،^(٣) ولا يهولنكما بُعد الشُّقَّة، وخيال المشقَّة، ولا الفلوات يُصمِّ صداها، ويقصر الطرف عن مداها، ولا السراب يترجرج رقرأقه، ويخدع الظامئ المحرور مُراقه.

سيرا - على اسم الله - في نهار ضاح، وفضاء منساح، ضاحك الأسرة وضاح، وتخللاً الأحياء؛ فستجدان لاسم من تَتَجَعَانِه ذكراً ذائعاً في الأفواه، وثناءً شائعاً على الشفاه، وأثراً أذكى نماءً وأبقى بركةً على الأرض من أثر الغمام المنهل، فإذا مسَّكما الملال، أو غشى مطيِّكما الكلال فاحدوا بذكراه ينبعث النشاط، وينتشر الاغتباط، وتغنيا بها عن حمل الزاد، وملء الزاد، وتأمنا غول الغوائل، من أفناء دارج ونائل.^(٤)

سيرا - روعي فدائكما من رضيعي همة، وسليلي منجبة من هذه الأمة - حتى

-
- 1 - الوديقة الصيخود : الوديقة: هي حر نصف النهار، والصيخود: الشديدة، والمعنى: إدفعا بالفرس الطويلة في عز الهاجرة والحر الشديد.
 - والوديقة الصيخود: شدة الحر، أو الحر الشديد.
 - 2 - لذع الهواجر: حرها الشديد.
 - 3 - شهري ناجر: قيل: صفر، وقيل: رجب، وقيل: كل شهر في صميم الحر فاسمه ناجر؛ لأن الإبل تنجر فيه، أي يشتد عطشها حتى تيبس جلودها.
 - 4 - دارج ونائل: أولاد دارج مجموعة قبائل ترجع أصولها إلى هلال بن عاصم جد القبائل العربية التي أغارت على شمال أفريقيا.
 - وأولاد نائل مثلهم، ولكنهم أكثر عدداً.
 - وسكناهم ما بين المسيلة (المحمدية) وطنبة في مقاطعة قسنطينة.

تدفعنا في مَسِيٍّ خامسٍ، له يوم الترحل خامس،^(١) إلى الوادي الذي طرّز جوانبه آذار، وخلع عليه الصانع البديع من حَلِيّ الترصيع، وحلل التفويف^(٢) والتوشيع ما تاه به على الأودية فخلع العذار.

وإتيا العُدوة الدنيا فثمّ المنتجع والمراد، وثمّ المطلب والمراد، وثمّ محلة الصدق التي لا يصدر عنها الوراد، وثمّ مناخ المطايا على حلال الحق، وجيرة الصدق، وعُشراء الخلود، الذين محا الموت ما بينهم من حدود، اهتفا فيها بسكان المقابر عني:

ما للمقابر لا تُجيب الداعي أو ما استقلّت بالسميع الواعي

وخصّما القبر الذي تضمّن الواعي السميع، والواحد الذي بدّ الجميع، فقولا

له عني:

يا قبر، عزّ على دفينك الصبر، وتعاصى كسر القلوب الحزينة على من فيك أن يُقابل بالجبر، ورجع الجدال إلى الاعتدال بين القائلين بالاختيار والقائلين بالجبر.

يا قبر، ما أقدر الله أن يطويَ علماً ملاً الدنيا في شبر!

يا قبر، ما عهدنا قبلك رمساً، وارى شمساً، ولا مساحة، تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلماً دائراً، وتحبس كوكباً سائراً.

1 - هذا تضمين لبيت أبي نواس:

أقمنا بها يوماً ويوماً ثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس

2 - التفويف: من الفوف وهو الزهر.

يا قبر، قد فصل بيننا وبينك خط التواء لا خط استواء، فالقريب منك والبعيد على السواء.

يا قبر، أتدري من حويت؟ وعلى أي الجواهر احتويت؟ إنك احتويت على أمة، في رمة، وعلى عالم في واحد.

يا قبر، أيدي من خطك، وقارب شطك، أي بحر ستضم حافتك؟ وأي معدن ستزن كفتاك؟ وأي ضرغام غاب ستحتبل كفتاك؟ وأي شيخ كشيخك؟ وأي فتى كفتاك؟ فويح الحافرين ماذا أودعوا فيك حين أودعوا؟ وويح المشيعين ماذا شيعوا إليك يوم شيعوا؟ ومن ذا ودّعوا منك إذ ودّعوا؟ إنهم لا يدرون أنهم أودعوا بئاء أجيال في حفرة، وودّعوا عامر أعمال بقفرة، وشيعوا خدن أسفار، وطليلة استنفار إلى آخر سفرة.

يا قبر، لا نستسقي لك كل وطفاء سكوب، تهمي على تربتك الزكية وتصوب، ولا نخذو في الدعاء لك حذو الشريف الرضي، فنستعير للنبت جنيناً ترضعه المراضع، من السحب الهوامع، تلك أودية هامت فيها أخيلة الشعراء، فنبذتهم بالعراء، وزاغوا بها عن أدب الإسلام ومنهاجه، وراغوا عن طينته ومزاجه، بل تلك بقية من بقايا الجهل، ما أنت ولا صاحبك لها بأهل.

قولا لصاحب القبر عني: يا ساكن الضريح، نجوى نضو طليح، صادرة عن جفن قريح، وخافق بين الضلوع جريح، يتأوبه في كل لحظة خيالك وذكراك، فيحملان إليه على أجنحة الخيال من مسراك اللهب والريح، وتؤدي عنهما شؤونه المنسربة، وشجونه الملتهبة، وعليهما شهادة التجريح.

إن من تركت وراءك ، لم يحمد الكرى فهل حمدت كراك؟ وهيهات ، ما عان
كمستريح!

يا ساكن الضريح ، أأكني؟ أم أنت كعهدي بك تؤثر التصريح؟ إن بُعدك ،
أتعب من بُعدك.

لقد كانوا يلوذون من حياتك الحية بكنف حماية؛ ويستندون من كفاءتك
للمهمات بحسن كفاية ، ويستدفعون العظائم منك بعظيم؛ وأيم الله لقد تَلَفَّتْ
بعذك الأعناق ، واشربَّتْ ، وماجت الجموع واتلأَّتْ ، تبحث عن إمام لصفوف
الأمة ، يملأ الفراغ ويسد الثلمة ، فما عادت إلا بالخيبة ، وصِفِرَ العيبة^(١).

يا ساكنَ الضريح؛ مِتَّ فمات اللسان القوَال ، والعزم الصوَال ، والفكر
الجوَال ، ومات الشخص الذي كان يصطرع حوله النقد ، ويتطايرُ عليه شرر
الحقد؛ ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعقع به البرد ، وتتحلَّى به القوافي
الشُّرد ، ولا الذكرُ الذي كانت تطنطن به الأنباء ، وتتجاوب به الأصداء ، ولا
الجلال الذي كانت تعنوله الرقاب ، وتنخفض لمجلاه العقاب ، ولا الدوي الذي
كان يملأ سمعَ الزمان ، ولا يبيت منه إلا الحق في أمان.

مات الرسم ، وبقي الاسم ، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم.
وعزاء فيك لأمة أردت رشادها ، وأصلحت فسادها ، ونفقت كسادها ،
وقومت منادها ، وملكت بالاستحقاق قيادها ، وأحسنت تهيئتها للخير
وإعدادها ، وحملتها على المنهج الواضح ، والعلم اللائح ، حتى أبلغتها سدادها ،

1 - العيبة : هي الوعاء الذي يوضع فيه المتاع.

وبنيت عقائدها في الدين والحياة على صخرة الحق، ومثلك مَنْ بنى العقائد وشادها؛ أعليت اسمها بالعلم والتعليم، وصيّرت ذكرها محل تكريم وتعظيم، وأشربتها معاني الخير والرحمة والمحبة والصدق والإحسان والفضيلة فكنت لها نعم الراحم وكنت بها البر الرحيم.

ولقد حييتَ فما كانت لفضلك جاحدة، ومتّ فما حييتَ من آمالك إلا واحدة.^(١)

وهنيئاً لك ذخرك عند الله مما قدّمت يداك من باقيات صالحات، وعزاءاً لك فيمن كنت تستكفيهم، وتضعُ ثقتك الغالية فيهم، من إخوانك العلماء العاملين، الصالحين المصلحين.

فهم - كعهديك بهم - رُعاة لعهد الله في دينه، وفي كتابه، وفي سنّة نبيه، دعاة إلى الحق بين عباده، يلقون في سبيله القذى كُحلاً، والأذى من العسل أحلى. وسلام عليك في الأولين، وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك في العلماء العاملين، وسلام عليك في الحكماء الربّانيين، وسلام عليك إلى يوم الدين. آفلو^(٢)، ٢٢ ربيع أول ١٣٦٠ هـ / ٩ أفريل ١٩٤١.

1 - هي القيام بثورة جارفة تكتسح الاستعمار الفرنسي، وتنتزع بها منه حريتها واستقلالها، فهذه هي الأمنية التي كان أهل الجزائر يتناجون بها، ويسعون لتصحيح أصولها، وقد حققت الأمة الجزائرية الماجدة هذه الأمنية بعد نحو أربع عشرة سنة على أكمل وجه.

2 - آفلو: قرية نائية في جبل العمور من الجنوب الوهراني، وهذه القرية هي التي اختارتها السلطة العسكرية الفرنسية منفي لكاتب هذه الكلمات في أول الحرب العالمية الثانية ففضى فيها ثلاث سنوات.

نموذج من شعر الشيخ العلامة الإبراهيمي: إليك هذا المثال من شعره، وهو أرجوزة عنوانها: «إلى علماء نجد» وهي من بحر الرجز، وفي قافية صعبة، ومع ذلك أتى فيها بالعجب العجاب، وهذه القصيدة موجودة في الآثار ١٢٦/٤-١٣٠ وأبياتها ٧٣ بيتاً، وقد قالها الشيخ الإبراهيمي رحمه الله مخاطباً بعض علماء نجد وقد تضمنت ثناءً عاطراً على نجد، وعلى علمائه وأئمة الدعوة، ثم ثنى بالمعاصرين، وعلى رأسهم صديقه وأخوه سماحة الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وصاحب الفضيلة الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ - رئيس هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آنذاك - رحمهم الله - وحثهم فيها على القيام بالدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومما قاله في تلك القصيدة:

وغربت هذا الجواري خُنُسا ^(١)	إنَّا إذا ما ليلُ نجدٍ عسعا
قمنا نوُدِّي الواجب المقدسا	والصبح عن ضيائه تنفسا
وننتحي بعد العشاء مجلسا ^(٢)	ونقطع اليوم نناجي الطرسا
في شَيْخةٍ حديثهم يجلو الأسى ^(٣)	موطّداً على التقى مؤسسسا
خلائقٌ زهرٌ تنير الغلسا ^(٤)	وعلمهم غيث يغادي الجلسا

1 - عسعس الليل: مضى؛ أظلم، الجواري: الكواكب السيارة، الخنس: الرواجع، جمع خانس أي راجع.

2 - الطروس، جمع طرس: الصحيفة، والمراد بها الكتب، وحذف الواو للضرورة.

3 - الشَيْخة، جمع شيخ، والأسى: الحزن.

4 - الغلس: الظلمة آخر الليل.

وَدَمَّمْ طَهَّرْتَجَا فِي النَّجَسَا	وَهُمَّ غُرَّتَعَا فِ الدَّنَسَا
وَالْأَحْمَدِينَ وَالْإِمَامَ الْمُؤْتَسَا ^(١)	يُحْيُونَ فِينَا مَالِكًا وَأَنْسَا
ضَافٍ عَلَى الْعَقْلِ يَفُوقُ السَّنَدَسَا ^(٢)	قَدْ لَبَسُوا مِنْ هَدْيِ طَه مَلْبَسَا
وَعَلْمَهُمْ مِنْ وَحْيِهِ تَبَجَّسَا ^(٣)	فَسَمْتَهُمْ مِنْ سَمْتِهِ قَدْ قَبَسَا
وَأَمْنَتْ آثَارَهُ أَنْ تُدْرَسَا ^(٤)	بُورِكْتِ يَا أَرْضُ بِهَا الدِّينَ رَسَا
جَدَلَانِ يَتْلُو كُتُبَهُ مُدْرَسَا ^(٥)	وَالشَّرِكُ فِي كُلِّ الْبِلَادِ عَرَسَا
حَتَّى إِذَا مَا جَاءَ جَلَسًا جَلَسَا ^(٦)	مَصَاوِلًا مَوَاتِبًا مَفْتَرَسَا
مُبْصَبًا قِيلَ لَهُ اخْسَأْ فَخَسَا ^(٧)	مِنْكُمْ شَأْ مُنْخَذِلًا مُقْعَنَسَا
لَمَّا رَأَى إِبْلِيسَهُ قَدْ أَبْلَسَا ^(٨)	شَيْطَانَهُ بَعْدَ الْعُرَامِ خَنَسَا
وَقَامَ فِي أَتْبَاعِهِ مَبْتَسَا	وَنُكِّسَتْ رَايَاتُهُ فَاذْتَكَسَا

- 1 - يريد بالأحمديين: الإمام أحمد بن حنبل، والإمام شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، والإمام المؤتسى: هو الإمام محمد بن عبد الوهاب، المؤتسى: المقتدى به.
- 2 - السندس: نوع من الحرير.
- 3 - السميت: هيئة أهل الخير، تَبَجَّسَ: تفجر.
- 4 - يعني بها نجداً.
- 5 - عَرَسَ بِالْمَكَانِ: نزل به لاستراحة من السفر والمراد هنا أقام.
- 6 - جَلَسٌ: بلاد نجد (قاله في القاموس) يعني أن الشرك انكمش، وانخذل لما جاء إلى نجد.
- 7 - المقعنس: من خرج صدره ودخل ظهره، بصبص الكلب: حرَّك ذنبه، اخسأ: أذهب، وأبعد.
- 8 - العُرام: الشراسة والأذى، أبلس: يئس.

وقال إنَّ شيخكم قد يئسا ^(١)	مُخَافَتاً مِنْ صَوْتِهِ مُحْتَرَسَا
ومعلّمُ الشُّركِ بها قد طُمِسا	من بلد فيها الهدى قد رأسا
ومنهلُ التَّوحيدِ فيها انبجسا ^(٢)	ومعهدُ العلمِ بها قد أسسا
شُهباً على آفاقِهِ وحَرَسَا	إني رأيتُ = والحجى لن يبجسا+
وجاذبوهم إنَّ ألانوا الملمسا ^(٣)	فطاولوا الخلفَ ومدوا المرَسَا
أنَّ تبلغوا بالحيلة الملمَسا	لا تياسوا: وإن يئستُ: فعسى
ومنَّ يجدُ تُرباً وماءً غَرَسَا ^(٤)	وفيهمُ حظُّ لكم ما وُكِّسا
تتَّبَعُ الخطوَ وأحصى النفسا	تجسسوا عنهم فمن تجسَّسا
دَانَ لَهُ الحظُّ القصيُّ مُسلسا ^(٥)	تدسَّسوا فيهم فمن تدسَّسا
واختلسوا فَمَنْ أضع الخلسا ^(٦)	وأوضِعُوا خِلالَهُمْ زَكىَّ خَسَا
أفدي بروحي التَّيِّهانَ الشُّكسا ^(٧)	تلقونهُ في الأخيريات مُقلسا
ومن يرى المسجدَ فيهم مَحْبِسا ^(٨)	يغدو بكل حمأة مرتكسا

1 - قوله: (وقال): الضمير يعود إلى الشيطان، والكلام الآتي على لسانه.

2 - انبجس: انفجر.

3 - المرَسُ: جمع مَرَسَةٍ: الحبل - فالمرس: الحبال.

4 - الوكس: النقص، ما وكس: ما نقص.

5 - دسَّ عليه وتدسَّس: اعمل المكر فيه.

6 - أوضع: أسرع، الزكا: العَدَدُ الزَّوْج، الخَسَا: العدد الفرد.

7 - التيهان: المتكبر، الشكس: الصعب الخلق.

8 - الحمأة: الطين الأسود، والمراد هنا: الرذائل والأوساخ، المرتكس: المنتكس المنغمس.

ومَن يَعْْبُ الخمر حَتَّى يخرسا ^(١)	ومَن يَدِيل بالأذان الجرسا
ومَن يَخُبُّ في المعاصي مُوعِسا ^(٢)	ومَن يُجِبُّ الزَّمْرَ صباحاً ومسا
ومَن يُقِيمُ للمخازي عُرُسا ^(٣)	ومَن يَشِبُّ طِرْمِذَاناً شرسا
ولا لقيت - ما بقيت - الأَنْحُسا ^(٤)	يا عمر الحَقُّ وقيت الأبؤسا
وانتابه داءٌ يحاكي الهوسا ^(٥)	لك الرضى إنَّ الشباب انتكسا
وفُتحت له الكُوى فأسلسا ^(٦)	وانعكست أفكاره فانعكسا
فاقسُ على أشرارهم كما قسا ^(٧)	فإن أبت نجدُ فلا تَأبى الحسا

1 - يَعْْبُ: يشرب بلا تنفس.

2 - يَخُبُّ: يهرول، مُوعِس: سار في الرمل.

3 - الطِّرْمِذَان: المباهي؛ المفاخر، وهنا انتهى الكلام الذي على لسان الشيطان، الذي يوصي أتباعه بالبحث عن الأوصاف الماضية.

4 - يعني به الشيخ عمر بن حسن - رئيس هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آنذاك، الأبؤس، جمع بؤس: الشدة والفقر، الأنحس، جمع نحس: ضد السعد.

5 - الهوسُ: ضرب من الجنون.

6 - أسلس: انقاد.

7 - الحسا: بلد بنجد.

سَمِيكَ الْفَارُوقَ «فَالدِّينَ أُسَى»	نَصْرُ بْنُ حَجَّاجِ الْفَتَى وَمَا أُسَا ^(١)
غَرَبَهُ إِذْ هَتَفَتْ بِهِ النُّسَا	وَلَا تُبَالِ عَاتِبًا تَغَطَّرَسَا
أَوْ ذَا حَبَالٍ لِلْحَنَا تَحَمَّسَا	أَوْ ذَا سُعَارٍ بِالزَّنَى تَمَرَّسَا ^(٢)
شَيْطَانَهُ بِالْمُنْدِيَاتِ وَسُوسَا	وَلَا تَشَمَّتْ مِنْهُمْ مَنْ عَطَّسَا ^(٣)
وَلَا تَقْفِ بِقَبْرِهِ إِنْ رُمَّسَا	وَلَا تَثِقْ بِفَاسِقٍ تَطْيَأَسَا
فَإِنْ فِي بُرْدِيهِ ذَنْبًا أَطَّلَسَا	وَإِنْ تَرَاءَى مُحْفِيًا مُقْلَنَسَا
فَسَلْ بِهِ ذَا الطُّفَيْتَيْنِ الْأَمَلَسَا	تَأْمَرَكَ الْمَلْعُونُ أَوْ تَفَرَّنَسَا ^(٤)

1 - الأسي، جمع أسوة: وهي القدوة، ونصر بن حجاج الخ... يشير إلى قصة عمر مع هذا الشاب الجميل الذي فتن النساء بجماله، فقد روي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ذات ليلة يعسُّ بالمدينة فسمع امرأة تقول:

أَلَا سَبِيلٌ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرِبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَّا نَصْرُ بْنُ حَجَّاجٍ

فلما أصبح استدعاه، فإذا هو أصبحُ الناسُ وجهاً، وأحسنهم شعراً؛ فأمر بقص شعره، فبدأ حسنه، فأمر أن يُعتمَّ فازداد حسناً، فقال عمر: «والله لا يقيم بأرض أنا فيها، وأمر له بما يصلحه وسيِّره إلى البصرة».

يقول الشاعر: اقس على الأشرار كما قسى عمر بن الخطاب؛ فالدين تأسُّ واقتداء؛ فلك في عمر قدوة فهو سميكَ، لأنه يخاطب عمر بن حسن.

ويقول: إن نصر بن حجاج غربه عمر وما أساء نصر...

2 - الخبال: الفساد، والحنأ: الفحش، السُّعار: الحرُّ؛ شدة الجوع والعطش.

3 - المُنديَات، جمع مُنْدِيَّة: وهي الكلمة القبيحة التي يندى لها الجبين حياءً.

4 - ذو الطفيتين: نوع من الحيات الخبيثة، وقوله: تأمرك: صار أمريكياً، وتفرنس: صار فرنسياً.

وَوَاحِدَ الْعَصْرِ الْهَمَامَ الْكَيْسَا ^(١)	يَا شَيْبَةَ الْحَمْدِ رَيْسَ الرُّؤْسَا
حَسِبْتَ فِي بُرْدَتِهِ شَيْخَ نَسَا ^(٢)	وَمَفْتَى الدِّينِ الَّذِي إِنْ نَبَسَا
غُرّاً إِذَا الرَّاوِي افْتَرَى أَوْ دَلَّسَا	رَاوِي الْأَحَادِيثِ مُتُوناً سُلَّسَا
وَمُوقِنَ الظَّنِّ إِذَا تَفَرَّسَا	وَصَادِقَ الْحَدْسِ إِذَا مَا حَدَّسَا
بِهِ الْمُرِيبُ خَائِضاً مُخْتَلِسَا	وَصَادِعاً بِالْحَقِّ حِينَ هَمَّسَا
غَرَائِباً مِنْهَا إِيَّاسَ أَيَّسَا ^(٣)	وَفَارِساً بِالْمَعْنِيِّينَ اقْتَبَسَا
وَكَانَ قَبْلُ مَوْحِشاً مَعْبُوسَا	بِكَ اغْتَدَى رَبْعُ الْعُلُومِ مُؤَنَسَا
فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ الزُّلَالِ الْمُحْتَسَا ^(٤)	ذَلَّلَتْهَا قَسراً وَكَانَتْ شُمُوسَا
وَكَانَ جَدُّ الْعِلْمِ جَدّاً تَعَسَا ^(٥)	فَتَحَّتْ بِالْعِلْمِ عَيُوناً نُعَسَا
وَكَانَ دَاءُ الْجَهْلِ دَاءً نَجَسَا ^(٦)	وَسُقَّتْ لِلْجَهْلِ الْأُسَاةَ النُّطَسَا
وَوَتَّرَتْ يَدَ الْإِلَهِ الْأَقُوسَا ^(٧)	رَمَى بِكَ الْإِلْحَادَ رَامٍ قَرَطَسَا

1 - يعني بشيبة الحمد: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله وهذا شروع في الثناء عليه.

2 - يريد الإمام النسائي صاحب السنن (٢١٥ - ٣٠٣ هـ).

3 - يعني إياس بن معاوية.

4 - قسراً: قهراً، الشُّمُسُ: بضم الشين والميم، جمع شمس، بفتح الشين: وهو الفرس الصعب الذي لا يُمكن من الركوب.

5 - الجد: بالفتح: الحظ.

6 - الأساة: جمع آس: الطبيب، النُّطَسُ: الحُدَّاق الماهر.

7 - قرطس: أصاب المرمى. وتر القوس: جعل لها وترًا؛ شد وترها. الأقوس: جمع قوس.

وَجَدُّكَ الْأَعْلَى اقْتَرَى وَأَسَّسَا	وترك التوحيد مرعي الوسأ ^(١)
حَتَّى إِذَا الشَّرْكَ دَجَا وَاسْتَحْلَسَا	لُحْتَا فَكُنْتَ فِي الدِّيَاجِي الْقَبَسَا ^(٢)
وَلَمْ تَزَلْ تَفْرِي الْفَرِي سَائِسَا	حتى غدا الليل نهاراً مُشْمِسَا ^(٣)
يَا دَاعِيَا مُنَاجِيَا مُغَلَّسَا	لَمْ تَعُدْ نَهَجَ الْقَوْمِ بَرًّا وَائْتِسَا ^(٤)
إِذْ يُصْبِحُ الشَّهْمُ نَشِيطًا مُسَلِّسَا	وَيُصْبِحُ الْفَدْمُ كَسولًا لَقِسَا ^(٥)
كَانَ الثَّرَى بَيْنَ الْجُمُوعِ مُوْبِسَا	فَجئْتَهُ بِالغَيْثِ حَتَّى أَوْعَسَا ^(٦)
قُلْ لِلأُلَى قَادُوا الصَّفُوفِ سُوْسَا	خَلُّوا الطَّرِيقَ لِفَتَى مَا سُوْسَا ^(٧)

- 1 - جدك الأعلى: يريد به الشيخ محمد بن عبد الوهاب، اقترى البلاد: تتبعها وطاف فيها. وقوله: وترك التوحيد مرعي الوسأ: أي تركه محفوظ الجنب؛ حيث سد الذرائع المفضية إلى الشرك، والوسأ في البيت: هي الوسائل، وإنما حذف آخرها ترخيماً؛ للضرورة الشعرية.
- 2 - دجا الليل: أظلم، استحلس: اشتد ظلامه.
- 3 - يقال فلان يفري: أي يأتي بالعجب في عمله؛ ومنه قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ جئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾: أي شيئاً يُتَحِيرُ فِيهِ، وَيُتَعَجَّبُ مِنْهُ.
- 4 - الغلس: ظلمة الليل؛ أي داعياً مناجياً بالأسحار، البر: الخير والصلاح، الائتساء: الاقتداء.
- 5 - الشهم: السيد الذكي الفؤاد، المسلس: اللين السهل، القدم: البليد العيى، واللقس: الغث النفس خبيثها.
- 6 - أوعس: صار سهلاً ليناً، والوعس: الرمل اللين الذي تسوخ فيه الأقدام.
- 7 - الألى: الذين، سوسا: جمع سائس، وسوس الأخير: فعل ماضٍ يقال سوس الطعام: وقع فيه السوس، وتسويس الشخص: كناية عن كبره وهرمه، يقول: خلوا الطريق لفتى لا يزال جلدًا قويا لم يبلغ من الكبر عتياً ولم ينخر السوس عظمه من الهرم، وقد يراد بذلك أنه لم يخلط في أمره، ولم يلبس حقه بباطل.

وَمَا أَطِئُوا هَامَ لَهُ وَالْأَرْؤُسَا إِنَّ النَّفِيسَ لَا يُجَارِي الْأَنْفَسَا

هذا وسترده أرجوزه أخرى له عند الحديث عن ترجمة سماحة الشيخ محمد

ابن إبراهيم آل الشيخ رحمته الله عنوانها «إلى علماء نجد».

وهي لا تقل عن القصيدة السابقة جودةً وإتقاناً.

رحم الله الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي ، وأسكنه الفردوس الأعلى.

سماحة الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي

سماحة الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي

«أولاً: نبذة موجزة عن سيرته»

١- نسبه، ومولده، ونشأته: هو الشيخ العلامة الزاهد الورع الفقيه الأصولي المفسر عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي من نواصر بني تميم.

ولد في مدينة عنيزة في الثاني عشر من شهر الله المحرم سنة ألف وثلثمائة وسبع للهجرة النبوية الشريفة.

وتوفيت أمه سنة ١٣١٠هـ، وتوفي والده سنة ١٣١٣هـ فعاش يتيم الأبوين. وكان والده من أهل العلم والصلاح، وكان إماماً في مسجد المسوكف في عنيزة.

ولما توفي والده عطف عليه زوجته والده، وأحبه أكثر من حبه لأولادها، فكان عندها موضع العناية؛ فلما شبَّ عن الطوق صار في بيت أخيه الأكبر حمد؛ فنشأ نشأة صالحة كريمة، واعتنى به أخوه حمد عناية فائقة، وكان يجله، ويناديه باسم الشيخ، وكان الشيخ عبدالرحمن يخاطب أخاه باسم الوالد، ويقول له باللهجة العامية: «بيه» - كما أفاد بذلك ابن أخيه عبدالرحمن بن حمد -.

وقد أقر الله عين حمد بأخيه الشيخ عبدالرحمن؛ حيث رأى أخاه والأنظار ترنو إليه بعين التجلة، والإكبار؛ لعلمه، وفضله، ومكانته.

وقد امتد العمر ب: حمد؛ فتجاوز المائة، وعاش بعد أخيه الشيخ عبدالرحمن

اثنتي عشرة سنة؛ حيث توفي سنة ١٣٨٨هـ، وهو يكبر الشيخ بما يزيد على عشرين سنة تقريباً - كما أفاد بذلك عبدالرحمن بن حمد -.

وكان الشيخ عبدالرحمن معروفاً منذ نشأته بالصلاح، والمحافظة على الصلاة مع الجماعة، كما اشتهر بفطنته، وذكائه، ورغبته الشديدة في العلم.

٢- **شيوخه:** تلقى الشيخ عبدالرحمن رحمته الله العلم على عدد من العلماء الكبار الأفاضل الذين أخذوا العلم من مصادر ومشارب مختلفة، ومن أقطار متعدد؛ فمن هؤلاء:

أ- الشيخ علي بن محمد السناني ١٢٦٣-١٣٣٩هـ وكان لهذا الشيخ يد طولى في التفسير، والحديث، وكان رحمته الله ذا خط جميل جداً.

ب- الشيخ علي بن ناصر بن وادي ١٢٧٣-١٣٦١هـ علم بحر في علم الحديث الذي أخذه عن علماء الحديث في الهند ومنهم الشيخ نذير حسين، والشيخ صديق حسن، وكان ذا خلق وعبادة، وقد أجاز الشيخ عبد الرحمن في مروياته.

ج- الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر ١٢٤١-١٣٣٨هـ كان - يرحمه الله - يحفظ الصحيحين، وقال عن الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمته الله: «إنه يستحضر شرح النووي عن مسلم».

وقد تلقى الشيخ إبراهيم العلم عن علماء الشام، وفي صالحة دمشق، ولازم علماء الحنابلة في نابلس.

د- الشيخ المؤرخ إبراهيم بن صالح بن عيسى ١٢٧٠-١٣٤٣هـ درس رحمته الله على علماء العراق، والهند، وأجاز الشيخ عبدالرحمن في مروياته من كتب الحديث.

هـ - الشيخ العابد المقرئ المجود عبدالله بن عائض ١٢٤٩-١٣٢٢هـ.

وقد كان رحمته الله حسن الخط، جميل الصوت، إمام مسجد الجوز في عنيزة. وقد تلقى العلم على مشايخ كبار في مكة، ومصر، وكذلك تلقى على كبار علماء نجد كالشيخ عبدالله أبابطين رحمته الله. وكان له مواقف عجيبة، ومنها أن وفاته كانت في مقبرة عنيزة، وذلك لما انتهى من دفن أحد الموتى.

و- الشيخ صالح بن عثمان القاضي ١٢٨٢-١٣٥١هـ وقد لازمه الشيخ عبدالرحمن، وجلس بعده للتدريس.

وقد رحل الشيخ صالح إلى مكة، ومصر لطلب العلم.

ز - الشيخ محمد بن عبدالكريم الشبل ١٢٥٧-١٣٤٣هـ وتلقى العلم عن علماء الحرمين الشريفين، ورحل إلى مصر، والشام، والعراق، والكويت، فحصل على علم غزير.

ح - الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع ١٣٠٠-١٣٨٥هـ وقد كان مدير عام المعارف سنة ١٣٦٥هـ، وصاحب المؤلفات المشهورة، وقد أخذ عن علماء بغداد والبصرة، ومصر، ودمشق.

ط - الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وقد تأثر به الشيخ في طريقته في التدريس، وأسلوبه في التعليم، وهو ليس صاحب أضواء البيان - رحم الله الجميع -.

ي - الشيخ صعب بن عبدالله التويجري ١٢٥٣ - ١٣٣٩ هـ وقد كان من العباد المعروفين بكثرة قراءة القرآن، وقيل: إنه كان يقرأ القرآن وهو نائم^(١).

٣- وصفه الخُلقي: كان ذا قامة متوسطة، شعره كثيف، ووجهه مستدير ممتلئ طلق، ولحيته كثة، ولونه أبيض مشرب بحمرة.

وكان شعره في شببته في غاية السواد، وبعدما كبر قليلاً صارت لحيته في غاية البياض؛ حيث ابيضت لحيته وهو في الثامنة والعشرين من عمره تقريباً - كما أفاد بذلك ابنه محمد -.

وكان على وجهه حسن، ونور، وصفاوة.

٤- أخلاقه: كان ﷺ آية باهرة في الأخلاق؛ فكان رحيماً بالناس، متودداً لهم، محباً لنفعهم، صبوراً عليهم.

وكان طلق الحيا، ذا دعابة ومرح، لا يُعرف الغضب في وجهه، وكان ينزل الناس منازلهم، ويحرص على القرب منهم، وإجابة دعواتهم، وزيارة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم.

وكان على جانب كبير من عفة اليد، ونزاهة العرض، وعزة النفس، وكان محباً لإصلاح ذات البين؛ فما من مشكلة تعرض عليه إلا ويسعى في حلها برضا

١- هذه الترجمة لشيوخ الشيخ مستفادة من حفيده الأستاذ مساعد السعدي.

من جميع الأطراف؛ لما ألقى الله عليه من محبة الخلق له ، وانقيادهم لمشورته .
ولقد كان محل التقدير والثناء عند الخاصة والعامة ، ولقد أثنى عليه كثير من
علماء عصره .

قال عنه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله : « ... كان رحمته الله كثير الفقه
والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل ، وكان عظيم العناية بكتب
شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم ، وكان يرجح ما قام عليه
الدليل ، وكان قليل الكلام إلا فيما ترتب عليه فائدة ، جالسته غير مرة في مكة
والرياض ، وكان كلامه قليلاً إلا في مسائل العلم ، وكان متواضعاً ، حسن
الخلق ، ومن قرأ كتبه عرف فضله وعلمه ، وعنايته بالدليل ، فرحمه الله رحمة
واسعة » .

وسئل سماحة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمته الله عن رأيه في كتاب تفسير
الشيخ عبدالرحمن بن سعدي فقال : « هو تفسير جيد ، وله أقوال جيدة ، مع أن
مراجعتي له قليلة ، لكن في حدود اطلاعي عليه تبين لي أنه متحرر الرأي والنظر
بضوابط الشرع ، وليس عنده جمود أو تعصب .

وقد التقيته في دمشق قبل أكثر من أربعين سنة ، وأنست منه علماً جماً ،
ورأيت فيه تواضع العلماء وهو - في هذا - كسائر علماء نجد ، يذكرنا بأخلاق
العلماء المتقدمين وتواضعهم ، وليس كغيرهم ممن جعلهم علمهم مغرورين
متكبرين ... » .

وقال عنه سماحة الشيخ عبدالرزاق عفيفي رحمته الله : « ... فإن من قرأ مصنفاته

-ابن سعدي- وتتبع مؤلفاته، وخالطه وسبر حاله أيام حياته - عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على حسن السيرة، وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر إلى شر، أو يفضي إلى نزاع أو شقاق، فرحمه الله رحمة واسعة...».

وقال عنه سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمته الله: «... إن الرجل قلَّ أن يوجد مثله في عصره في عبادته وعلمه وأخلاقه، حيث كان يعامل كلاً من الصغير والكبير بحسب ما يليق بحاله، ويتفقد الفقراء، فيوصل إليهم ما يسد حاجتهم بنفسه، وكان صبوراً على ما يُلْمُّ به من أذى الناس، وكان يحب العذر من حصلت له هفوة، حيث يوجهها توجيهاً يحصل به عذر من هفا...».

وقال عنه فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي رحمته الله: «... لقد عرفت الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة، فعرفت فيه العالم السلفي المدقق المحقق الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء...».

وقال: «... عرفت فيه العالم السلفي، الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرف فيه دعوته القوية الصادقة إلى الأخذ بكل أسباب الحياة العزيزة القوية الكريمة النقيّة...».

٥- أعماله: قام رحمته الله بأعمال جليلة أعظمها دروسه العلمية، وخطبه

المنبرية، وتأسيسه وتشجيعه لكثير من الأعمال والمشاريع الخيرية.

وكان مرجع بلدته عنيزة في جميع الأمور؛ فهو المدرس، والواعظ، وإمام

الجامع ، وخطيبه.

وهو المفتي ، وكاتب الوثائق ، ومحرم الوصايا ، وعاقداً الأنكحة ، ومستشار الناس فيما ينوبهم ، كل ذلك كان يؤديه حسبةً لله دون مقابل مادي .
وقد عرض عليه القضاء عام ١٣٦٠هـ فتأبى ، وتكدر كثيراً حتى إنه كان يغمى عليه في بعض الأوقات ، وكان لا يشتهي الطعام ، حتى يسر الله له التخلص منه .

وكان يشرف على المعهد العلمي في عنيزة عندما أسس عام ١٣٧٣هـ دون مقابل .

٦- مرضه ووفاته: أصيب عام ١٣٧١هـ قبل وفاته بخمس سنين بمرض ضغط الدم ، وتصلب الشرايين ، فكان يعتريه مرة بعد أخرى إلى أن توفاه الله قبل طلوع فجر يوم الخميس ٢٣ سنة ١٣٧٦هـ عن تسع وستين سنة .

٧- علمه: حرص الشيخ رحمته الله منذ نشأته على طلب العلم ، وأمضى حياته في العلم حفظاً ، ودراسة ، وتحصيلاً ، وتدريساً لا يصرفه عنه صارف .

وكانت له اليد الطولى ، والأثر العظيم في النهضة العلمية في بلده عنيزة خاصة ، وفي العالم الإسلامي عامة ، ولا زالت آثاره تتجدد إلى يومنا هذا .

وقد تخرج عليه أعداد كبيرة من الطلاب الذي صاروا بعد ذلك ممن يشار إليهم بالبنان ، ومن هؤلاء: الشيخ عبدالله بن عقيل - حفظه الله - والشيخ عبدالعزيز السلطان ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ عبدالله البسام - رحمهم الله - .

كما ترك ﷺ عدداً كبيراً من المؤلفات النافعة في التفسير، والحديث، والأصول، والعقيدة، والفقه، والآداب ونحو ذلك.

ومن هذه المؤلفات: خلاصة التفسير، والقواعد الحسان، والفتاوى، وبهجة قلوب الأبرار، وغيرها.

وأعظم كتبه، وأشهرها وأكثرها سيرورةً في الناس -تفسيره المعروف بـ: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) أو ما يسمى بـ: (تفسير السعدي). ذلك التفسير المبارك الذي لقي قبولاً منقطع النظير، وطبع طبعات كثيرة، بل لا تكاد تخلو مكتبة أو مسجد من ذلك التفسير العظيم.

ولقد كان له منهج منفرد متميز في ذلك التفسير؛ حيث عني عناية تامة بهداية القرآن، وأثره في صلاح القلوب، واستقامة أمر الدين والدنيا. كل ذلك بأسلوب جزل سهل واضح ميسور.

بل إنه يجمع عدداً من الأقوال في الآية الواحدة، ويصوغها بعبارات موجزة تؤلف بين الأقوال، وتجمع أطراف الموضوع.

كما كان معنياً باستخلاص الدروس والعبر من الآيات.

ولهذا صار محل الثناء، وموضع القبول لدى الخاصة والعامة.

ولقد أثنى عليه عدد من العلماء، قال عنه سماحة الشيخ عبدالله بن عجيل -حفظه الله-: «الحقيقة أن هذا التفسير قد وضع الله له القبول بين المسلمين، فهو يذاع من إذاعة القرآن الكريم بالملكة يومياً مرتين، ويُقرأ في المساجد على جماعة المصلين، ويُدرّس في حلقات المشايخ.

وقد طبع عدة طبعات ، لكنها مع الأسف لا تخلو من الأغلط وبعضها من تصرفات المعلقين.

وهذا التفسير من أنفع التفاسير وأقربها إلى الفهم لسهولة عباراتها؛ فهي سهلة المباني ، واضحة المعاني ، خالية من التعقيدات والإسرائيليات ومشاكل الإعراب ، وذكر الخلاف.

وأهم شيء سلامته من تأويل آيات الصفات؛ حيث يفسرها على منهج السلف ، إضافة إلى ما فيه من الاستنباطات الدقيقة ، وذكر ما يستفاد من كل آية يربها في موضعها دون الإحالة إلى موضع آخر.

وحسبك ما أرشد إليه من الأخلاق الإسلامية ، والحكم النبوية والآداب الشرعية ، كل هذا بعبارات سهلة واضحة ، يفهمها عامة الناس ويستفيد منه طلاب العلم.

فهو في الحقيقة من السهل الممتنع.

وطالما تمنيت ودعوت الله - تعالى - أن يهيا لهذا التفسير من يترجمه إلى إحدى اللغات الأجنبية لا سيما اللغة الإنجليزية ، لعل الله ينفع به هناك فهو أبلغ دعاية إلى الدين الإسلامي وبالله التوفيق» .

وقال سماحة الشيخ العلامة محمد بن عثيمين رحمته الله : « الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فإن تفسير شيخنا عبدالرحمن الناصر السعدي رحمته الله المسمى : (تيسير الكريم

الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:
منها: سهولة العبارة ووضوحها؛ حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.
ومنها: تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ،
وتبليبل فكره.

ومنها: تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره،
وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ؛ حيث يثبت فهمه على شيء واحد.
ومنها: السير على منهج السلف في آيات الصفات؛ فلا تحريف، ولا تأويل
يخالف مراد الله بكلامه؛ فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها: دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم وهذا
يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين
حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها: أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله
-تعالى- في سورة الأعراف: ﴿ خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
(١٩٩) ﴾.

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير ألا تخلو مكتبته من هذا
التفسير القيم.

وأسأل الله - تعالى - أن ينفع به مؤلفه وقارئه إنه كريم جواد وصلى الله على نبينا
محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان».

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ٢٢/٣/١٤٢١هـ

وقال عنه فضيلة الشيخ العلامة د. بكر بن عبدالله أبو زيد - حفظه الله - في مقدمة إحدى طبعات تفسير السعدي :

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته ، أما بعد

فإن ما أكتبه هنا ليس تقديمًا ولا تقريرًا ، لكن دلالة على الخير ، وتنويهًا ؛ فلا أكتفم القراء حديثًا إذا قلت : إنه في عام ١٣٨٠هـ تقريبًا سمعت من بعض الصالحين الوصية بتفسير الشيخ عبدالرحمن بن سعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ -رحمه الله تعالى- (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ، في ثمانية أجزاء ؛ لأنه يتميز بأمر أهم : أنه تفسير مأمون جارٍ على طريقة السلف يجمع خلاصة الأثر الصحيح والفهم السليم بسياق سهل مختصر ، فهو تذكرة للمنتهي ، وتبصرة للمبتدي ، ثم تتابع هذا السماع من آخرين من العلماء وطلبة العلم ، ثم بعد بضع سنين أهدى إليّ ابنه ذو الوجه الصبوح الشيخ عبدالله المتوفى سنة ١٤٠٥هـ -رحمه الله تعالى- بعض رسائل أبيه الشيخ عبدالرحمن ، ومنها : (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) و (القواعد الحسان لتفسير القرآن) و (فوائد مستنبطة من قصة يوسف -عليه السلام-) ، فقرأت هذه الرسائل الثلاث فوجدت فيها دافعًا قويًا إلى هذا التفسير ، فكنت أستفيد منه من وقت إلى آخر حتى إذا جاء عام ١٤١٨هـ كان لي شرف المراجعة الأخيرة لكتاب : (التفسير الميسر) الذي أعده نخبة من العلماء ، وطبع بمجمع الملك فهد

لطباعة المصحف الشريف بمدينة النبي ﷺ فوجدت أن هذا التفسير يعتمد كثيراً
تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، وتفسير ابن سعدي -رحمه الله
تعالى- فحصل لي من تفسير ابن سعدي نوع ارتواء، وصار لي به فضل اعتناء.
وظهر لي أنه - إضافة إلى تلك الميزات - كان لفائق عنايته بكتب الشيخين ابن
تيمية وابن القيم - رحمهما الله تعالى - ينتخب من فوائدهما ما طرز به هذا
التفسير.

من هذه المعارف وغيرها ضمن - رحمه الله تعالى - تفسيره كثيراً من جلائل
المعاني، ودقائق الاستنباط من آيات الذكر الحكيم والقرآن المجيد، منها على
سبيل المثال: ما ذكره عند تفسيره لقول الله - تعالى - : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
إِلَيْنَا ﴾ البقرة: ١٣٦.

وما استنبطه من الأحكام من آية الوضوء (٦) من سورة المائدة.
والفوائد الجليلة التي يذكرها عقب قصص الأنبياء وغيرهم...
وانظر إلى تلك الإشارة اللطيفة في تفسير لقوله - تعالى - في سورة الأحزاب
(١٣): ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ الآية.
فأبان - رحمه الله تعالى - بإشارته أن المناداة بالوطنية، وترك الأخوة الإيمانية
والرابطة الإسلامية من أعمال الجاهلية، وليست من الإسلام.
وهذه فائدة عزيزة لم أرَ من حام حولها، وهذه الآية تكمل ثلاث آيات
جاءت في أن (الرابطة الوطنية) ليست (رابطة إسلامية).

وإذا جاوزنا هذه المعارف والأهلية، ونظرنا في سيرته العطرة وجدناه على

جانب كبير من التأسى والافتداء، والخير والصلاح والهدى والفلاح.

ومما لم يقيد في سيرته ما حدثني به الشيخ محمد عبدالرحيم صديق المكي المتوفى سنة ١٤٠٨ هـ - رحمه الله تعالى - صاحب المكتبة الصديقية ضمن خزائن مكتبة الحرم المكي أنه شاهد من عبادة الشيخ في صلاته، ما يدل على الخشوع والتعلق بالله - تعالى - مما علمه عن مشاهدة كيفية الأداء لهذه العبادة العظيمة.

وهذا نظير ما يتناقله الأشياخ عن الشيخ محمد حامد الفقي المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ - رحمه الله تعالى - من قوله: إنه لم يعرف عن مشاهدة أداء الصلاة على وجهها بخشوع وخضوع لله - عز وجل - مثلما عرفه من الشيخ أحمد شاكر المتوفى سنة ١٣٧٧ هـ - رحمه الله تعالى -.

فنرجو أن يكون لهذا العلامة المفسر نصيب من قول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «وأما (العلم اللدني) فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين، وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه - ما لا يفتح به على غيرهم.

وهذا كما قال علي: إلا فهماً يؤتیه الله عبداً في كتابه، وفي علم الأثر (من عمل بما عمل ورثه الله علم ما لم يعلم).

وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٦٦) وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)﴾ النساء، فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به، يهديه الله صراطاً مستقيماً، وقال - تعالى -: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ المائدة: ١٦، وقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى

وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿ محمد: ١٧، وقال: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ الكهف: ١٣، وقال -تعالى-: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ٢، وقال -تعالى-: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ الجاثية: ٢٠، وقال -تعالى-: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠٣... » (الفتاوى ١٣/٢٤٥).

ويحضرني عند التنويه بتفسير هذا الشيخ الجواب البديع من العلامة المفسر الشيخ عبدالرحمن الدوسري المتوفى سنة ١٣٩٩هـ - رحمه الله تعالى - عندما سئل عن أهم شروط المفسر؟ فقال على البديهة: « أن تملأ قلبه الفرحه بالقرآن... ».

وأحسب أن الشيخ ابن سعدي ممن تحقق فيه هذا الأمر؛ فتفجرت أنهار المعاني بين يديه وذلك من فضل الله عليه، فرحمه الله وأجزل مثوبته.

وكما قيل: « إن معاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة وهي قلوب المتقين » (انظر: الفتاوى ١٣/٢٤٥).

نفع الله الشيخ ابن سعدي هذا السبق العلمي من عالم نجدي؛ فإني لا أعلم في النجديين من له تفسير كامل لكتاب الله - تعالى - بهذا السبك والجودة؛ فقد قضى الشيخ - رحمه الله تعالى - الدين عن من قبله، وسبق من بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد كتب الله لهذا التفسير من القبول والانتشار ما بلغ مبلغ الليل والنهار، فطبع عدة طبعات...

وكتب

بكر بن عبدالله أبو زيد

٨ شعبان ١٤٢١هـ

٨- الكتابات والدراسات حول الشيخ عبدالرحمن السعدي :

لقد ترجم للشيخ السعدي عدد كبير من العلماء والمؤلفين ، وقامت دراسات علمية تبحث في جوانب من سيرته وعلمه...

ومن ذلك ما كتبه الشيخ حمد القاضي في كتابه (روضة الناظرين) ، والشيخ عبدالله البسام في كتابه : (علماء نجد خلال ثمانية قرون) ، والشيخ عبدالله ابن سابع الطيار رحمته الله في كتابه : (الشيخ عبدالرحمن السعدي مفسراً) ، والشيخ أ.د. عبدالله بن محمد الطيار في كتابه : (صفحات من حياة علامة القصيم عبدالرحمن ابن سعدي) ، و (أثر علامة القصيم عبدالرحمن السعدي على الحركة العلمية المعاصرة) ، والشيخ د. عبدالرزاق البدر في كتابه : (جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في العقيدة).

وهناك الكثير من التراجم المختصرة في سيرة الشيخ عبدالرحمن رحمته الله ولعل من أجمل تلك التراجم ما كتبه فضيلة الدكتور عبدالرحمن العدوي؛ لكونه عاصر الشيخ السعدي ، وعاشه عن قرب إبان فترة تدريسه في معهد عنيزة. ولأن هذه الترجمة - على وجازتها - ألفت الضوء على جوانب عديدة من سيرة الشيخ ، وجمعت كثيراً مما تفرق منها.

ومع ذلك لم تأخذ هذه الترجمة حقها من الانتشار والذيعوع؛ فإلى تلك الترجمة المختصرة الماتعة.

يقول الشيخ الدكتور العدوي في ترجمته التي عنون لها بـ: الشيخ عبدالرحمن

السعدي :

«شيخ جليل مهيب، أخلص لله في تعليم المسلمين أمور دينهم، ونشر عقيدة الإسلام وأحكامه بينهم، وهو من أهالي بلدة عنيزة من أعمال القصيم في شمال نجد عاش فيها حياته، وكان فيها مقره الأخير.

كنا في عام ١٣٧٣هـ الموافق ١٩٥٣م اثنين من علماء الأزهر الشريف مبعوثين للتدريس في المملكة العربية السعودية، وكانت إدارة المعارف حينذاك في مكة في مواجهة المسجد الحرام، وكان على رئاستها الشيخ محمد بن مانع رحمته الله وقد رأى أن أسافر مع زميلي الشيخ محمد الجبة للتدريس في المدرسة الثانوية بعنيزة، وسافرنا وبدأنا عملنا في المدرسة التي كان بها فصلان في السنة الأولى فقط، ولم يمض شهر حتى صدر الأمر الملكي بنقلنا إلى المعاهد العلمية التابعة لآل الشيخ.

وكانت هذه هي الطريقة التي تستكمل بها المعاهد العلمية حاجتها من المدرسين، ولم يكن المعهد العلمي موجوداً بعد، فطلب منا أن نعلن عن افتتاحه ونستقبل طلبات الراغبين في الالتحاق به ونحدد مستواهم العلمي ونوزعهم على السنوات الدراسية وقد تم كل ذلك في فترة وجيزة وبدأت الدراسة في المعهد العلمي بعنيزة في شهر ربيع الثاني من عام ١٣٧٣هـ، وفي الوقت بلغنا أن الشيخ عبد الرحمن السعدي قد عين مشرفاً على المعهد من الناحية العلمية، وكان تعيينه براتب شهري قدره ألف ريال، ولكن الشيخ - رحمه الله تعالى - أرسل إلى رئاسة المعاهد العلمية أنه على استعداد للإشراف على المعهد حسبة لوجه الله - تعالى - وأنه لا يريد أن يكون له على ذلك أجر مادي وقبلة الرئاسة شاكرة له هذا الصنيع الذي لا يصدر إلا من عالم زاهد يتغني وجهه الله.

وبدأت صلتنا بالشيخ عبد الرحمن السعدي في المعهد أولاً ، ثم التقينا به كثيراً في المسجد الجامع؛ فقد كان شيخاً له ، وفي منزله المتواضع الذي رفع قدره وأعلى صرحه سلوكُ صاحبه ، وسيرته في الناس .

كان ﷺ يأتي إلى المعهد بانتظام يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وكان يخلع نعليه عند دخول الفصل أثناء الدرس مع أن في نجد لا يخلعون نعالهم عند دخول المسجد ، ولا عند الصلاة ، ولكنه الأدب الراقي ، واحترام العلم ومجلسه ، ثم يدخل آخر صف ، ويجلس فيه وكأنه أحد طلاب هذا الفصل ، ويكرر هذا العمل في أكثر من فصل ويستمتع إلى أكثر من مدرس ، ولم يكن في المعهد من المدرسين المصريين سواي وزميلي ، أما بقية المدرسين فكانوا من أبناء الشيخ علمهم في المسجد الجامع إلى درجة تسمح لهم بالقيام بتدريس المواد التي تعلموها على يديه .

وكان منهم حمد البسام ، وسليمان البسام ، وعبد الله البريكان ، ومحمد ابن عثيمين .

ومضت فترة بعد وصولنا عنيزة أحسنا فيها بالغرابة والوحشة ، وكنا نتأثر بجفاء بعض الناس في التعامل ، واللقاء ، وعدم رد التحية لا بأحسن منها ولا بمثلها .

وكان يحدث أحياناً ونحن وقوف للصلاة أن يأتي أحد البدو ولعله من غير أهل عنيزة ، فيقف بجوار أحدنا ، وينظر إليه نظرة استغراب ، ثم يخط بعصاه خطأً فاصلاً في الرمال يفصل بينه وبين من يجاوره منا ثم يقول بصوت مسموع : (أعوذ

بالله) وبعدها يكبر للصلاة.

وقال لي صاحبي: لماذا يتعوذ هؤلاء؟ فقلت لعلهم يعتقدون أننا لسنا من بلاد الإسلام، وما علينا إلا أن نزيل هذا الظن الخاطيء؛ فتستقيم الأمور، وتصح المعاملة، قال: ولكن كيف السبيل إلى ذلك ونحن مدرسون في المعهد لطلاب قد يتحدثون مع ذويهم عنا وقد لا يتحدثون؟

قلت: السبيل في رأيي أن نعطي الناس دروساً في التفسير والحديث والفقهاء بين المغرب والعشاء في المسجد الذي نصلي فيه، وبها نؤدي واجبنا، ونزيل التباساً. وعرضنا الفكرة على الشيخ عبد الرحمن السعدي، فاستحسن ذلك أيما استحسان، وشجعنا، وأوصانا بالألا تضيق صدورنا؛ فإن من خلق العلماء الصبر والاحتمال والحرص على تبليغ رسالة الله في كل الظروف.

وبدأنا التدريس في مسجد (السويطي) بين المغرب والعشاء، وزاد عدد الحاضرين يوماً بعد يوم حتى كاد المسجد على سعته أن يمتلئ بالمصلين. وبعد أسبوعين تقريباً حدث أمر شرح صدورنا، وأحسننا معه بالود والمحبة؛ فقد تقدم إلينا شيخ كبير، وأشار بيده إلى سجادتين مفروشتين خلف الإمام، وقال: هذا مكان صلاتكما؛ فأنتم أهل العلم والفضل، وعلينا أن نكرم العلماء، وكان لهذه اللفتة أثرها الطيب الحميد؛ فقد أحسننا صفاء قلوب القوم، وزالت العوارض التي كانت تؤثر تأثيراً متعباً؛ فما كانت إلا تصرفاً شخصياً من بعض الجهال لا يعبر عن السلوك العام، ثم زادت الصلة بيننا وبين الناس، وتوثقت، فدعينا إلى شرب القهوة بالعبارة النجدية الحلوة «نبغى

نقاهوبك يا أستاذ» وتكرر ذلك ، والموعد بعد صلاة العشاء الآخرة وكان معنا في المعهد سكرتير من أهل عنيزة اسمه (عبد الله) فكان يتولى تدوين المواعيد ، ويرشدنا إلى منازل ، وفي كل ليلة نجدُ صاحب المنزل قد دعا أكثر من عشرين شخصاً؛ مبالغة منه في الاحتفاء بنا ، ثم يدور الحديث حول مسائل من الدين ، والأخلاق ، وعادات الناس ، وتصير الجلسة ندوة علم وأدب ، وحديث نافع ، وتعبير عن المحبة والود والأخوة ، كما ارتضاها الله لعباده المؤمنين .

وكنا نزور الشيخ بين الحين والحين ، ويكاد يكون لقاءنا معه يوم الجمعة بانتظام نذهب إلى بيته قبل الصلاة بساعات ونجلس معه ثم ننزل معاً عندما يقرب موعد الصلاة .

وذات لقاء قلت له : يا فضيلة الشيخ لماذا لا تستخدم مكبر الصوت (الميكروفون) في الخطبة؛ فإن أكثر الناس لا يسمعون صوتك ، ولا يستفيدون مما تلقيه عليهم من المواعظ والأحكام؟

فابتسم الشيخ وكان له بسمة خفيفة جميلة تنم عن الرضا والسرور ، وقال : إن مكبر الصوت لم يدخل المساجد في بلاد نجد ، ولا أحب أن أكون أول من يستخدمه .

قلت : ولماذا؟ أأست الشيخ العلم القدوة؟ إذا لم تفعل أنت ما تراه نافعا فمن يفعله؟ أليس في استعماله خير وهو نشر تعاليم الدين وآدابه وإسماع أكبر عدد ممكن بواسطته؟ والنساء في بيوتهن حول المسجد يستمعن الخطبة عن طريق مكبر الصوت؛ فيكون الخير قد تجاوز حدود المسجد ، ومن سن سنة حسنة فله أجرها

وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ ذلك لأنه سيتعرض لجهل الجاهلين، ونقد الناقدين، وسيصيبه من أقوال الناس وإيذائهم واستنكارهم لما لم يألفوه شيء كثير؛ فيكون له من أجل ذلك الأجر الكثير، ثم إنك يا فضيلة الشيخ إذا لم تستخدم مكبر الصوت في خطبة الجمعة فلن يجرؤ أحد على استخدامه من بعدك، وسيقول الناس: لو كان فيه خير لاستخدمه الشيخ السعدي؛ فتكون قد منعت استخدامه مستقبلاً من حيث لا تدري ولا تريد؛ فاتسعت الابتسامة على شفطي الشيخ، وقد استمع لكلامي كله مصغياً ومتأملاً، وهز رأسه يميناً وشمالاً في هدوء رتيب وقال: ما شاء الله لقد حدثني في ذلك غيرك، وما شرح الله صدري لذلك مثل ما شرحه الآن، وأعدك أن يكون في المسجد (مكبر صوت) في الجمعة القادمة - إن شاء الله -.

وبر الشيخ بوعدده، وأمر بإحضار مكبر للصوت ذي ثلاث سماعات يعمل بواسطة البطارية؛ فلم تكن عنيزة قد عرفت الكهرباء بعد، وفرح الناس، وتحدثوا عن استماعهم للخطبة في غير جهد، وحرصت على أن أسمع رأيهم فلم أجد معارضاً وما سمعت إلا كلمات الاستحسان والسرور، وذهبت إلى الشيخ في بيته لأنقل إليه استحسان الناس وسرورهم؛ فإذا به ينقل إليّ بشرى سارة مؤدّها أن الشيخ عبد الله السليمان كان يصلي هذه الجمعة في مسجد عنيزة، وقد أعجبه أن يكون في المسجد مكبر للصوت، فقابل الشيخ بعد الصلاة، وأبلغه أنه تبرع بماكينه كهرباء للمسجد تضيء خمسين لمبة - مصباحاً كهربائياً - ويشغل عليها مكبر الصوت، فقلت: الحمد لله، ذلك فضل الله يؤتيه

من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

لقد كان الشيخ عبد الرحمن السعدي من الناحية الدينية هو كل شيء في عناية؛ فقد كان العالم، والمعلم، والإمام، والخطيب، والمفتي، والواعظ، والقاضي، وصاحب مدرسة دينية له فيها تلاميذ منتظمون.

كان يصلي الفجر بالناس، ثم يجلس لأداء الدرس حتى تطلع الشمس، ويذهب بعد ذلك إلى بيته حتى الضحوة الكبرى فيعود إلى المسجد يعلم أبناءه الفقه، والتفسير، والحديث، والعقيدة، والنحو، والصرف في دروس منتظمة، وكتب اختارها لطلابه، ويستمر معهم حتى صلاة الظهر، فيصلي بالناس، ويعود إلى بيته يستريح فيه إلى صلاة العصر، ثم يذهب إلى المسجد، فيصلي العصر بالناس ويعطيهم عقب الصلاة وهم جلوس بعض الأحكام الفقهية في دقائق لا تؤخرهم عن الانصراف سعيًا وراء أرزاقهم، وعندما تغرب الشمس يصلي بالناس المغرب، ويجلس للدرس حتى يصلي العشاء، ويتكرر ذلك في كل يوم.

وظلاب الشيخ الذين علمهم في المسجد هم الذين تولوا التدريس في المدارس والمعاهد التي فتحتها الدولة في بلدتهم، فكان الشيخ يكتب بيده شهادة يقول فيها: إن فلاناً درس علوم كذا وكذا في كتب كذا وكذا، وهو يصلح لتدريس هذه المواد في المستوى الابتدائي أو الإعدادي أو الثانوي، وتأخذ الدولة بشهادات الشيخ التي أثبتت التجربة فيما بعد أنها معبرة عن الحقيقة أصدق تعبير.

وكان من سيرته - عليه رحمة الله - أنه في موسم الحصاد تأتي إليه ثمار النخيل والبساتين التي وقفها أصحابها على المسجد الجامع ليؤدي رسالته الإسلامية العظيمة، فكان الشيخ يجمع كل هذه الثمار في المسجد، ويوزعها على الفقراء

والمساكين ، ولا يأخذ ثمرة واحدة يدخلها فاه ، أو ينقلها إلى بيته .
وسألت أحد الأبناء المقربين إليه : من أين ينفق الشيخ على حاجات معيشته؟
فأخبرني أن له ابنين يعملان بالتجارة في الرياض ، ويرسلان إليه ما يحتاج من
النفقة ، ولا مورد له غير هذا؛ فقلت : سبحان الله : إن خير ما يأكل المرء ما كان
من كسب يده ، وإن ولد الإنسان من كسبه ، وهكذا تكون سيرة العلماء في
الاكتفاء بالقليل ، والزهد فيما يزيد على ذلك مع الاجتهاد في أداء الواجب
والإخلاص فيه .

ومرت الأيام وفي نهاية عام ١٣٧٥هـ الموافق ١٩٥٦م بدأ العدوان الثلاثي
على مصر وهاجمت فرنسا وإنجلترا وإسرائيل أرض مصر ولكل دولة منهم
دوافعها الخاصة؛ فقد كانت فرنسا تريد أن تعاقب مصر على مساندة ثورة الجزائر
ضدها ، هذه المساندة التي وصلت إلى درجة تهريب الأسلحة والذخائر للثوار
المسلمين في الجزائر ، وقد وقعت الباخرة (عايدة) المصرية في يد الفرنسيين وهي
تحمل الأسلحة إلى ثوار الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي؛ فأضمرت لذلك شراً
وكان هجومها على مصر .

أما إنجلترا فكان هجومها من أجل أسهمها في قناة السويس التي أممتها مصر ،
وأعادتها إلى الشعب المصري الذي حفر القناة بجهود أبنائه ودمائهم ، وكانت مع
ذلك تراودها الرغبة في إعادة سيطرتها مرة أخرى على مصر ، ولم يكن جلاء
قواتها عن الأراضي المصرية قد جاوز العامين بعد .

وانتهزت إسرائيل رغبة الدولتين الكبيرتين في الهجوم على مصر ، واتفقت

معهما لخدمة أغراضها التوسعية العدوانية، ولضرب القوة العربية الإسلامية على أرض مصر.

وعرف الشيخ السعدي هذه الأبعاد كلها، وخطب الناس الجمعة في هذا الموضوع، ورفع الناس معه أكف الضراعة إلى الله أن يحمي القوة الإسلامية، وأن ينصر المسلمين، ويرد كيد الكافرين، وقد استجاب الله دعاءه، فخطب الشيخ في جمعة تالية مهنتاً ومبشراً ومذكراً بقول الله - تعالى - : ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ . وقد كان للشيخ اهتمامات ظاهرة بأحوال المسلمين في كل بلادهم، وكانت مقالاته في الصحف والمجلات في داخل المملكة وخارجها تظهر هذه الاهتمامات، وكان يسألنا كثيراً عن أخبار مصر وأحوال المسلمين فيها وجهود علمائها في إقامة السنة، وإزالة البدعة مع دعاء حار، وأمل كبير في أن يصلح الله أحوال المسلمين. ومع هذه الجهود المضنية التي كان يبذلها الشيخ كان كثير الكتابة والتأليف؛ فقد كتب تفسيراً للقرآن الكريم كله سماه (منحة اللطيف المنان في تفسير القرآن^(١)) وله كتاب في الخطب المنبرية، ورسائل في العقيدة وسؤال وجواب، وفي بعض الموضوعات والقضايا الإسلامية، وقد تبرع بكتبه كلها وطبعها أهل الخير المحبون للشيخ وعلمه، ووزعوها بالمجان على أهل العلم وطلبته.

وفي شهر ربيع الثاني من عام ١٣٧٦هـ توفي الشيخ عبد الرحمن السعدي - عليه رحمة الله ورضوانه - وحملت مع الناس نعشه، وكانوا يعرفون صلتى

1 - ليس هذا هو اسم تفسيره، وإنما هو - كما مر - (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان).

الوثيقة به فكانوا يفسحون لي كلما رغبت واقتربت ، قائلين : إنه كان يجبك .
وإني لا أجد ما أصف به فضل هذا الشيخ وجهاده ومنزلته بين العلماء أحسن
مما سمعته من عجوز جالسة على طريق الجنازة؛ فقد قالت ونحن نمر عليها نحمل
نعشه ، قالت العجوز في صدق وحرارة : «نجم هوى» .
رحم الله الشيخ عبد الرحمن السعدي ، وجعل سيرته الطيبة وأعماله الصالحة
في موازين حسناته ، وأكثر من أمثاله الذين يزهدون في الدنيا ويبتغون ما عند
الله» .

«ثانياً: نماذج من كتابات الشيخ عبدالرحمن السعدي»

للشيخ عبدالرحمن السعدي مؤلفات كثيرة، وذلك في موضوعات شتى - كما مر -.

وهذه المؤلفات مليئة بالنظرات الثاقبة، واللفتات البارعة، والاستنباطات الدقيقة التي تدل على ذكاء، وعبقريّة، وسعة في الأفق، وتدبر للعواقب، ونظر في المقاصد العليا، والمصالح العامة.

كما أنها مليئة بالفوائد التربوية، والوصايا النافعة، والتجارب الناضجة، التي ربما لا تجد أكثرها في غير مؤلفاته رحمته الله.

وفيما يلي أمثلة من كتابات من بعض كتبه.

١- قال رحمته الله في قوله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ النساء: ٧٧.

«كان المسلمون - إذ كانوا بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة، ذات النُصْب والشروط؛ فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري - تعالى - أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم؛ ويبدأ بالأهم، والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال - مع قلة عددهم وعددهم، وكثرة أعدائهم - لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام؛ فروعياً جانب المصلحة العظمى على ما دونها، ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها، القيام بما أمروا به في ذلك الوقت، من التوحيد، والصلاة، والزكاة ونحو ذلك كما قال - تعالى -: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴾ .

فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام، كتب عليهم القتال، في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفاً من الناس، وضعفاً وخوراً: ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾ .

وفي هذا تضجرهم، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال: التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره؛ فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا ﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي: هلا أخرت فرض القتال، مدة متأخرة عن الوقت الحاضر؟

وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين، واستعجل في الأمور قبل وقتها؛ فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر.

٢- وقال في قوله - تعالى -: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

الْمَعْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ ❖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ
صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ❖ محمد: ٢٠-٢١.

يقول - تعالى - : ❖ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ❖ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة :
❖ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ❖ أي : فيها الأمر بالقتال.

❖ فَإِذَا أَنْزَلْتُمْ سُورَةَ مُحْكَمَةً ❖ أي : ملزم العمل بها ، ❖ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ ❖
الذي هو أشق شيء على النفوس ، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه
الأوامر ، ولهذا قال : ❖ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ
الْمَعْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ❖ من كراحتهم لذلك ، وشدته عليهم.

وهذا كقوله - تعالى - : ❖ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ
كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ❖ .

ثم ندبهم - تعالى - إلى ما هو الأليق بحالهم ، فقال : ❖ فَأُولَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ
مَعْرُوفٌ ❖ أي : فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم ، ويجمعوا عليه
هممهم ، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم ، وليفرحوا بعافية الله
-تعالى- وعفوه.

❖ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ❖ أي : جاءهم الأمر جد ، وأمر محتم ، ففي هذه الحال لو
صدقوا الله بالاستعانة به ، وبذل الجهد في امتثاله ❖ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ❖ من حالهم
الأولى ، وذلك من وجوه :

منها : أن العبد ناقص من كل وجه ، لا قدرة له إلا إن أعانه الله ، فلا يطلب

زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ضعف عن العمل بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال؛ فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل؛ فإنه لا يجيء حتى تفتت الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

٣- وقال في قوله - تعالى - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٩ .

«هذه الآية جامعة، لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم؛ فالذي ينبغي أن يعامل به الناس أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول، وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم، ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع، باللطف، والمقابلة بما تقضيه الحال، وتنشرح له صدورهم.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد؛ فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حثاً على خير، من صلة رحم، أو برٍّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية، أو دنيوية.

ولما كان لا بد من أذية الجاهل أمر الله - تعالى - أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه، وعدم مقابله بجهله؛ فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرملك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه».

٤- وقال في قصة موسى - مع الخضر - عليهما السلام - التي وردت في سورة الكهف: «وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد، والأحكام، والقواعد، شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله.

فمنها: فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى - عليه السلام - رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم؛ فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل. ومنها: جواز أخذ الخادم في الخضر والسفر؛ لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه إذا اقتضت المصلحة الإخبار

بمطلبه ، وأين يريدُه فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له ، واتخاذ عدته ، وإتيان الأمر على بصيرة ، وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة ، كما قال موسى : ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ .
وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهته مع أن عادته التورية ، وذلك تبع للمصلحة .

ومنها : إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان ، على وجه التسويل والتزيين ، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره؛ لقول فتى موسى : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكَ إِلَّا الشَّيْطَانَ أَنْ أَدْكُرَهُ ﴾ .

ومنها : جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس ، من نصب وجوع ، أو عطش ، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً؛ لقول موسى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ .

ومنها : استحباب كون خادم الإنسان ، ذكياً فطناً كيساً ، ليتم له أمره الذي يريد .

ومنها : استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله ، وأكلهما جميعاً؛ لأن ظاهر قوله : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ إضافة إلى الجميع أنه أكل هو وهو جميعاً .

ومنها : أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به ، وأن الموافق لأمر الله يعان ما لا يعان غيره؛ لقوله : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين .

وأما الأول ، فلم يشتك منه التعب ، مع طوله؛ لأنه هو السفر على الحقيقة ،

وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أوا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقيه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً؛ لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً لذكر ذلك كما ذكره غيره.

وأما قوله في آخر القصة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال - تعالى - : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ .

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده؛ لقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ .

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب؛ لقول موسى - عليه السلام - : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنت هل تآذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذين لا يظهرون للمعلم افتقارهم إلى علمه، بل يدعون أنه يتعاونونهم وإياه، بل ربما ظن أحدهم أنه

يعلم معلمه ، وهو جاهل جداً؛ فالذل للمعلم ، وإظهار الحاجة إلى تعليمه ، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه؛ فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العلم الفاضل ، للعلم الذي لم يتمهر فيه ، ممن مهر فيه وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة؛ فإن موسى - عليه السلام - من أولي العزم من المرسلين ، الذين منحهم الله ، وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم ، ولكن في هذا العلم الخاص ، كان عند الخضر ، ما ليس عنده؛ فلهذا حرص على التعلم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقير المحدث إذا كان قاصراً في علم النحو ، أو الصرف ، أو نحوهما من العلوم أن لا يتعلمه ممن مهر فيه ، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله - تعالى - والإقرار بذلك ، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿ تَعَلَّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ ﴾ أي: مما علمك الله - تعالى -.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير؛ فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير ، وتحذير عن طريق الشر ، أو وسيلة لذلك - فإنه من العلم النافع ، وما سوى ذلك ، فإما أن يكون ضاراً ، أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿ أَنْ تَعَلَّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم ، وحسن الثبات على ذلك - أنه ليس بأهل لتلقي العلم؛ فمن لا صبر له لا يدرك العلم ، ومن

استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى فيه؛ لقول الخضر - يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبره، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدرى، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته - ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.

فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء؛ حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله؛ فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾.

فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة تُتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالاً لا يتعلق بموضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله، ولا في حقوق العباد؛

لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها،

وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق

عليهم، ويرهقهم؛ فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر؛

ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية

في الأموال، والدماء وغيرها؛ فإن موسى - عليه السلام - أنكر على الخضر خرقه

السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى - عليه

السلام - لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحبَ عليها الخضر؛

فاستعجل - عليه السلام - وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا

العارض الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر

الصغير، ويراعي أكبر المصلحتين، بتفويت أدناهما؛ فإن قتل الغلام شر، ولكن

بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه، وبقاء الغلام من دون قتل

وعصمته، وإن كان يظن أنه خير؛ فالخير بقاء دين أبويه، وإيمانهما خير من

ذلك؛ فلذلك قتله الخضر.

وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر؛ فتزاحم

المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة - أيضاً - وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة؛ لتعيب؛ فَتَسَلَّمَ من غضب الملك الظالم.

فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك؛ حفظاً لمال الغير.

وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال؛ افتداءً للباقي جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر؛ لقوله: ﴿بِعَيْرِ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم أفضل من غيرها؛ لأنه علل

استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما بأن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله - تعالى - في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيْبَهَا﴾.

وأما الخير، فأضافه إلى الله - تعالى - لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

كما قال إبراهيم - عليه السلام -: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾.
وقالت الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يُعْتَبَهُ، ويُعْذَرَ مِنْهُ، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة، وسبب لبقاء الصحبة، وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدرٌ محضٌ أجراها الله، وجعلها على يد هذا العبد الصالح؛ ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أفضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه؛ ليعرفوه، ويرضوا غاية الرضا بأقداره الكريمة».

٥- وقال ﷺ في تفسير سورة ص مبيناً الفوائد والحكم من قصة داود وسليمان - عليهما السلام -: « فمنها: أن الله - تعالى - يقص على نبيه محمد ﷺ

أخباراً من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة

صبرهم وإنابتهم ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه؛ ولهذا - في هذا الموضع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به - أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

ومنها: أن الله - تعالى - يمدح ويحب القوة في طاعته: قوة القلب والبدن؛ فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك؛ فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهما السالكون ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود - عليه السلام - من حسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهم يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود - عليه السلام -.

ومنها: اعتناء الله - تعالى - بأنبيائه وأصفياؤه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم، وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان - عليهما السلام -.

ومنها: أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - معصومون من الخطأ فيما

يبلغون عن الله - تعالى - لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادهم بلطفه.

ومنها: أن داود - عليه السلام - كان في أغلب أحواله ملازماً محرابه؛ لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود - عليه السلام - فإنه ما غضب عليهما حين جاءه بغير استئذان وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه: «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك، أو «باغ علي» لقولهما: ﴿ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القدر، جليل العلم إذا نصحه أحد، أو وعظه - لا يغضب، ولا يشمتز، بل يبادره بالقبول والشكر؛ فإن الخصمين نصحا داود، فلم يشمتز، ولم يغضب، ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية

موجبة للتعادي بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة خصوصاً الصلاة من مكفرات الذنوب؛ فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما مُنْقَصٌ لدرجتهما عند الله - تعالى - وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى؛ فأزال الله - تعالى - هذه الآثار، وما ذاك بعزير على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية تولاهما رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال؛ فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان - عليه السلام - من فضائل داود، ومن منن الله عليه؛

حيث وهبه له ، وأن من أكبر نعم الله على عبده أن يهب له ولداً صالحاً؛ فإن كان عالماً كان نوراً على نور.

ومنها: ثناء الله - تعالى - على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ .

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبيده؛ أن يمنّ عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق ، ثم يثني عليهم بها ، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله - تعالى - على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله؛ فإنه مشؤوم مذموم؛ فليُفَارِقْهُ وَلِيُقْبَلْ عَلَى ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه» فسليمان -عليه السلام- عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس؛ تقديماً لمحبة الله؛ فعوضه الله خيراً من ذلك بأن سخر له الريح الرخاء اللينة التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد ، غدوها شهر ، ورواحها شهر ، وسخر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان - عليه السلام - .

ومنها: أن سليمان -عليه السلام- كان ملكاً نبياً ، يفعل ما أراد ، ولكنه لا يريد إلا العدل ، بخلاف النبي العبد؛ فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله ، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر ، كحال نبينا محمد ﷺ وهذه الحال أكمل .

٦- وقال في قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُ بِهِ

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿النساء: ٨٣﴾.

«هذا تأديب من الله لعباده، عن فعلهم هذا، غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة، ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر؛ بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي، والعلم والنصح، والعقل، والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها؛ فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحزناً من أعدائهم، فعلوا ذلك، وإن رأوا ما فيه مصلحة، أنه ليس فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة، وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع، لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه، هل هو مصلحة؟ فيُقدِّم عليه الإنسان، أم لا؟ فيُحجِّمُ عنه».

٧- وقال ﷺ مبيناً بعض ما ينبغي للإنسان أن يتحلى به في المجالس:

«إياك أن تتصدى في مجالسك مع الناس للترؤس عليهم وأنت لست برئيس، وأن تكون ثرثاراً متصدراً بكل كلام.

وربما من جهلك وحمقك ملكت المجلس على الجلوس، وصرت أنت

الخطيب والمتكلم دون غيرك.

وإنما الآداب الشرعية والعرفية مطارحة الأحاديث، وكل من الحاضرين يكون له نصيبٌ من ذلك، اللهم إلا الصغار مع الكبار، فعليهم لزوم الأدب، وأن لا يتكلموا إلا جواباً لغيرهم»^(١).

٨- وقال ﷺ مبيناً بعض آداب الحديث مع الناس على اختلاف طبقاتهم:

«ومن الآداب الطيبة الكلام مع كل أحد بما يليق بحاله ومقامه؛ مع العلماء بالتعلم والاستفادة والاحترام، ومع الملوك والرؤساء بالاحترام والكلام اللطيف اللين المناسب لمقامهم، ومع الإخوان والنظراء بالكلام الطيب، ومطارحة الأحاديث الدينية والدينية والانبساط الباسط للقلوب، المزيل للوحشة، المزين للمجالس.

ويحسن المزاح أحياناً إذا كان صدقاً، ويحصل فيه هذه المقاصد.

ومع المستفيدين من الطلبة ونحوهم بالإفادة، ومع الصغار والسفهاء بالحكايات والمقالات اللائقة بهم بما يبسطهم ويؤنسهم، ومع الأهل والعيال بالتعليم للمصالح الدينية والدينية، والتربية البيئية، وتوجيههم للأعمال التي تنفعهم مع المباشرة والمفاكهة؛ فإنهم أحق الناس ببرك، ومن أعظم البر حسن المعاشرة.

ومع الفقراء والمساكين بالتواضع، وخفض الجناح، وعدم الترفع والتكبر عليهم.

فكم حصل بهذا من خيرات و بركات، وكم حصل بضده من شر وفوات

خير.

1- الرياض الناضرة ضمن المجموعة الكاملة لابن سعدي، الخامس ص ٥٤٩.

ومع من تعرف منه العداوة والبغضاء والحسد بالمجاملة، وعدم الخشونة، وإن أمكنك الوصول إلى أعلى الدرجات، وهي قوله-تعالى-: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت: ٣٤)-فما أكمله من مقام لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم»^(١).

٩- وقال - أيضاً -: «ومن الآداب الطيبة إذا حدثتك المحدث بأمر ديني أو دنيوي ألا تنازعه الحديث إذا كنت تعرفه، بل تصغي إليه إصغاء من لا يعرفه، ولم يمر عليه، وتريه أنك استفتدت منه، كما كان ألباء الرجال يفعلونه. وفيه من الفوائد تنشيط المحدث، وإدخال السرور عليه، وسلامتك من العجب بنفسك، وسلامتك من سوء الأدب؛ فإن منازعة المحدث في حديثه من سوء الأدب»^(٢).

١٠- وسئل عن الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب فأجاب إجابة عظيمة قد لا تظفر بها في غير هذا الجواب.

قال ﷺ: «الجواب وبالله التوفيق: أما مضاعفة العمل بالحسنة إلى عشر أمثالها - فهذا لا بد منه في كل عمل صالح، كما قال - تعالى -: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ الأنعام: ١٥٩

وأما المضاعفة بزيادة عن ذلك - وهي مراد السائل - فلها أسباب: إما متعلقة بالعامل، أو بالعمل نفسه، أو بزمانه، أو بمكانه، وآثاره.

1- الرياض الناضرة ص ٤٥٨-٤٤٩.

2- الرياض الناضرة ص ٥٤٨.

فمن أهم أسباب المضاعفة إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول؛ فالعمل إذا كان من الأعمال المشروعة، وقصد العبد به رضى ربه وثوابه، وحقق هذا القصد بأن يجعله هو الداعي له إلى العمل، وهو الغاية لعمله، بأن يكون عمله صادراً عن إيمان بالله ورسوله، وأن يكون الداعي له لأجل أمر الشارع، وأن يكون القصد منه وجه الله ورضاه، كما ورد في عدة آيات وأحاديث - هذا المعنى، كقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧.

أي المتقين الله في عملهم بتحقيق الإخلاص والمتابعة.
وكما في قوله ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .
وغيرها من النصوص.
والقليل من العمل مع الإخلاص الكامل يرجح بالكثير الذي لم يصل إلى مرتبته في قوة الإخلاص.
ولهذا كانت الأعمال الظاهرة تتفاضل عند الله بتفاضل ما يقوم بالقلوب من الإيمان والإخلاص.

ويدخل في الأعمال الصالحة التي تتفاضل بتفاضل الإخلاص - ترك ما تشتهيه النفوس من الشهوات المحرمة إذا تركها خالصاً من قلبه، ولم يكن لتركها من الدواعي غير الإخلاص، وقصة أصحاب الغار شاهدة بذلك.
ومن أسباب المضاعفة - وهو أصل وأساس لما تقدم - صحة العقيدة، وقوة

الإيمان بالله وصفاته، وقوة إرادة العبد، ورغبته في الخير؛ فإن أهل السنة والجماعة المحضة، وأهل العلم الكامل المفصل بأسماء الله وصفاته، وقوة لقاء الله - تُضاعفُ أعمالهم مضاعفةً كبيرةً لا يحصل مثلها، ولا قريبٌ منها لمن لم يشاركوهم في هذا الإيمان والعقيدة.

ولهذا كان السلف يقولون: أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عقائدهم، وأهل البدع إن كثرت أعمالهم قعدت بهم عقائدهم. ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون، ومعلوم الفرق بين من يمشي على الصراط المستقيم، وبين من هو منحرف عنه إلى طرق الجحيم، وغايته أن يكون ضالاً متأولاً.

ومن أسباب مضاعفة العمل أن يكون من الأعمال التي نفعها للإسلام والمسلمين له وقعٌ وأثرٌ وغناءٌ، ونفعٌ كبيرٌ، وذلك كالجهاد في سبيل الله: الجهاد البدني، والمالي، والقولي، ومجادلة المنحرفين، كما ذكر الله نفقة المجاهدين ومضاعفتها بسبعمئة ضعف.

ومن أعظم الجهاد سلوك طرق التعلم والتعليم؛ فإن الاشتغال بذلك لمن صحت نيته لا يوازنه عملٌ من الأعمال؛ لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه؛ «فمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة».

ومن ذلك المشاريع الخيرية التي فيها إعانة للمسلمين على أمور دينهم ودنياهم التي يستمر نفعها، ويتسلسل إحسانها، كما ورد في (الصحيح): «إذا مات العبد

انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به من بعده، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» .

ومن الأعمال المضاعفة العمل الذي إذا قام به العبدُ شاركه به غيره؛ فهذا -أيضاً- يضاعفُ بحسب مَنْ شاركه، ومن كان هو سبب قيام إخوانه المسلمين بذلك العمل؛ فهذا - لا ريب - يزيد أضعافاً مضاعفةً على عمل إذا عمله لم يشاركه فيه أحد، بل هو من الأعمال القاصرة على عاملها.

ولهذا فضل العلماء الأعمال المتعدية للغير على الأعمال القاصرة.

ومن الأعمال المضاعفة إذا كان العمل له وقع عظيم، ونفع كبير، كما إذا كان في إنجاء من مهلكة، وإزالة ضرر المتضررين، وكشف الكرب عن المكروبين؛ فكم من عمل من هذا النوع يكون أكبر سبب لنجاة العبد من العقاب، وفوزه بجزيل الثواب، حتى البهائم إذا أُزيل ما يضرُّها كان الأجر عظيماً؛ وقصة المرأة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش؛ فغُفِرَ لها بغيها - شاهدةً بذلك.

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العبدُ حسنَ الإسلام، حسنَ الطريقة، تاركاً للذنوب، غير مُصِرٍّ على شيء منها؛ فإن أعمال هذا مضاعفةٌ كما ورد بذلك الحديث الصحيح: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تُكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف...» الحديث.

ومن أسبابها رفعةُ العامل عند الله، ومقامه العالي في الإسلام؛ فإن الله -تعالى- شكورٌ حلِيمٌ؛ لهذا كان نساء النبي ﷺ أجرين مضاعفاً، قال -تعالى-: ﴿ وَمَنْ

يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴿ الْأَحْزَابُ: ٣١. وكذلك العالمُ الربانيُّ، وهو العالمُ العاملُ المَعْلَمُ تكون مضاعفةُ أعمالِه بحسب مقامه عند الله كما أن أمثال هؤلاء إذا وقع منهم الذنب كان أعظمَ من غيرهم؛ لما يجب عليهم من زيادة التحرز، ولما يجب عليهم من زيادة الشكر لله على ما خصهم به من النعم.

ومن الأسبابِ الصدقةُ من الكسب الطيب كما وردت بذلك النصوص. ومنها شرفُ الزمان، كرمضانَ وعشرِ ذي الحجة ونحوها، وشرفُ المكان كالعبادة في المساجد الثلاثة، والعبادة في الأوقات التي حثَّ الشارعُ على قصدها، كالصلاة في آخر الليل، وصيام الأيام الفاضلة ونحوها. وهذا راجع إلى تحقيق المتابعة للرسول المَكْمَلِ - مع الإخلاص - للأعمال، المنمي لثوابها عند الله.

ومن أسباب المضاعفة القيامُ بالأعمال الصالحة عند المعارضات النفسية، والمعارضات الخارجية؛ فكلما كانت المعارضات أقوى والدواعي للترك أكثر كان العمل أكمل، وأكثر مضاعفةً، وأمثلة هذا كثيرة جداً، ولكن هذا ضابطُها. ومن أهم ما يضاعف فيه العملُ: الاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان والمراقبة، وحضور القلب في العمل؛ فكلما كانت هذه الأمور أقوى كان الثواب أكثر. ولهذا ورد في الحديث: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها».

فالصلاة، ونحوها وإن كانت تجزئُ إذا أتى بصورتها الظاهرة، وواجباتها الظاهرة والباطنة - إلا أن كمالَ القبول، وكمالَ الثواب، وزيادة الحسنات،

ورفعة الدرجاتِ، وتكفير السيئاتِ، وزيادة نور الإيمان - بحسب حضور القلب في العبادة.

ولهذا كان من أسباب مضاعفة العمل حصول أثره الحسن في نفع العبد، وزيادة إيمانه، ورقة قلبه، وطمأنينته، وحصول المعاني المحمودة للقلب من آثار العمل؛ فإن الأعمال كلما كملت كانت آثارها في القلوب أحسن الآثار، وبالله التوفيق.

ومن لطائف المضاعفة أن إسرار العمل قد يكون سبباً لمضاعفة الثواب؛ فإن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ومنهم رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

كما أن إعلانها قد يكون سبباً للمضاعفة كالأعمال التي تحصل فيها الأسوة وال الاقتداء، وهذا مما يدخل في القاعدة المشهورة: قد يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصير أفضل من غيره.

ومما هو كالمتمفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في كل الأوقات بقوة الإخلاص لله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وغيرها من الأعمال تبع لها؛ فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون المقربون في جنات النعيم»^(١).

1 - الفتاوى السعدية ص ٣٥-٣٩، وقد يسر الله لي شرح هذا الجواب في كتاب يقع في ١٧٠

١١- وقال ﷺ **حائاً على العلم، مبيناً فضله:** «فالعلم عبادة تجمع عدة قربات: التقرب إلى الله بالاشتغال به؛ فإن أكثر الأئمة نصوا على تفضيله على أمهات العبادات - وذلك في أوقاته الزاهرة بالعلم، فكيف بهذه الأوقات التي تلاشى بها وكاد أن يضمحل، والاستكثار من ميراث النبي ﷺ وأن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، ونفعه واصل لصاحبه، ومتعداً إلى غيره، ونافع لصاحبه حياً وميتاً، وإذا انقطعت الأعمال بالموت، وطويت صحيفة العبد - فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما ائْتَفَع بِإِرْشَادِهِمْ، واهْتَدَى بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ؛ فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجواهر عمره، وأن يعده ليوم فقره، وفاقته»⁽¹⁾.

١٢- وقال ﷺ **في كتابه (وجوب التعاون بين المسلمين ص ٢٥-٢٦) في فقرة عنوانها (الاعتناء بالتربية والتعليم من أصول الجهاد):** «قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ التحريم: ٦، وذلك بالتعليم، والتأديب، والتربية.

وقال - تعالى -: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر: ٩. وذلك أن من أعظم أنواع الإصلاح، والجهاد - التربية الدينية، والاهتمام التام، والاعتناء الكامل بشباب الأمة؛ فإنهم محل رجائها، وموضع أملها، ومادة قوتها، وعزها.

وبإصلاح تربيتهم تصلح الأحوال؛ فيكون المستقبل خيراً مما قبله.

فعلیهم أن یربوهم تربية عالیة، ویثوا فیهم روح الدین، وأخلاقه الجملیة، والحزم، والعزم، وجمیع مبادئ الرجولة والفتوة والمروة، وأن یدربوهم علی الصبر، وتحمل المشاق الذی یفضی إلى النجاح، والمثابرة فی کل عمل نافع، ویحذروهم من الجبن، والکسل، والسیر وراء الطمع، والمادة، والانطلاق فی المجون، والهزل، والدعة؛ فإن ذلک مدعاة للتأخر الخطیر.

وشبابُ الحاضر هم رجالُ المستقبل، وبهم تعقد الآمال، وتدرک الأمور المهمة؛ فعلیهم أن یجتهدوا لیکونوا فی خصال الخیر والفضائل المثل الأعلى، وبأوصاف الحزم والمروة والکمال القدوة المثلی.

ومن أعظم أركان التربية العامة النافعة - إصلاح التعلیم، والاعتناء بالمدارس العلمیة، وأن یختار لها الأكفاء من المعلمین، والأساتذة الصالحین الذین یتعلم التلامیذ من أخلاقهم الفاضلة قبل ما یتلقون من معلوماتهم العالیة. ویختار لهم من فنون العلم الأهم فالأهم من العلوم النافعة الدینیة والدنیویة المؤیدة للدین.

وأن تكون العلوم الدینیة هی الأصل، والأساس الأقوم، ویكون غیرها تبعاً لها، ووسیلة إلیها.

وأن یکون الغرض الوحید من المتخرجین فی المدارس، الناجحین فی علومها - أن یکونوا صالحین فی أنفسهم، وأخلاقهم، وآدابهم، وأن یکونوا مصلحین لغيرهم، راشدین مرشدین، مهتمین بتربية الأمة».

وقال في موضع آخر ص ٨-٩ تحت فقرة عنوانها (الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتحاد الكلمة): «فإن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدنيوية في جميع أفرادهم وشعوبهم، وفي ربط الصداقة والمعاهدات بين حكوماتهم بكل وسيلة. ومن أنفع الأمور أن يتصدى لهذا الأمر جميع طبقات المسلمين من العلماء والأمراء والكبراء وسائر الأفراد منهم كل بحسب إمكانه».

١٣- وقال ﷺ في شرح حديث: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به من بعده، أو ولد صالح يدعو له»^(١).
قال: «دار الدنيا دار عمل، يتزود منها العباد من الخير، أو الشر للدار الأخرى، وهي دار الجزاء.

وسيندم المفرطون إذا انتقلوا من هذه الدار ولم يتزودوا لآخرتهم ما يسعدهم، وحينئذ لا يمكن الاستدراك، ولا يتمكن العبد أن يزيد حسناته مثقال ذرة، ولا يحو من حسناته كذلك.

وانقطع عمل العبد إلا هذه الأعمال الثلاثة التي هي من آثار عمله.

الأول: الصدقة الجارية: أي المستمر نفعها، وذلك كالوقف للعقارات التي ينتفع بمغلقها، أو الأواني التي ينتفع باستعمالها، أو الحيوانات التي ينتفع بركوبها ومنافعها، أو الكتب والمصاحف التي ينتفع باستعمالها والانتفاع بها،

1 - رواه مسلم (١٦١٣).

أو المساجد والمدارس والبيوت وغيرها التي ينتفع بها.
فكلها أجرها جارٍ على العبد ما دام يُنتفع بشيء منها.
وهذا من أعظم فضائل الوقف، وخصوصاً الأوقاف التي فيها الإعانة على
الأمر الدينية، كالعلم، والجهاد، والتفرغ للعبادة، ونحو ذلك.
ولهذا اشترط العلماء في الوقف أن يكون مصرفه على وجهه بر وقربة.
الثاني: العلم الذي ينتفع به من بعده: كالعلم الذي علمه الطلبة المستعدين
للعلم، والعلم الذي نشره بين الناس، والكتب التي صنفتها في أصناف العلوم
النافعة.

وهكذا كل ما تسلسل الانتفاع بتعليمه مباشرة، أو كتابة؛ فإن أجره جارٍ عليه.
فكم من علماء هداة ماتوا من مئات من السنين كتبهم مستعملة، وتلاميذهم
قد تسلسل خيرهم، وذلك فضل الله.

الثالث: الولد الصالح: ولدٌ صلب، أو ولدٌ ابنٍ أو بنتٍ ذكرٌ أو أنثى ينتفع
والده بصلاحه، ودعائه.

فهو في كل وقت يدعو لوالديه بالمغفرة والرحمة، ورفع الدرجات وحصول
المثوبات.

وهذه المذكورة في هذا الحديث هي مضمون قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ﴾ يس: ١٢.
ف: ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ هو ما بأشروه من الأعمال الحسنة، أو السيئة.

و ﴿آثَارُهُمْ﴾ ما ترتب على أعمالهم مما عمله غيرهم ، أو انتفع به غيرهم .
وجميع ما يصل إلى العبد من آثار عمله ثلاثة :

الأول: أمور عمل بها الغير بسببه ، وبدعايته ، وبتوجيهه .

الثاني: أمور انتفع بها الغير أي نفع كان على حسب ذلك النفع باقتدائه به في الخير .

الثالث: أمور عملها الغير وأهداها إليه ، أو صدقة تصدق بها عنه ، أو دعا له ، سواء أكان من أولاده الحسين أو من أولاده الروحانيين الذين تخرجوا بتعليمه ، وهدايته وإرشاده ، أو من أقاربه وأصحابه المحبين ، أو من عموم المسلمين بحسب مقاماته في الدين ، وبحسب ما أوصل إلى العباد من الخير ، أو تسبب به ، وبحسب ما جعل الله له في قلوب العباد من الود الذي لا بد أن تترتب عليه آثاره الكثيرة التي منها: دعاؤهم ، واستغفارهم له .
وكلها تدخل في هذا الحديث الشريف .

وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدة منافع ، كالولد الصالح العالم الذي سعى أبوه في تعليمه ، وكالكتب التي يقفها ، أو يهبها لمن ينتفع بها .
ويستدل بهذا الحديث على الترغيب في الزواج الذي من ثمراته حصول الأولاد الصالحين ، وغيرها من المصالح ، كصلاح الزوجة ، وتعليمها ما تنتفع به ، وتنفع غيرها ، والله أعلم»^(١) .

1- بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار ص ٩٤-٩٦ .

١٤- وقال ﷺ حائثاً على حفظ السر، محذراً من إفشائه: «كن حافظاً للسر، معروفاً عند الناس بحفظه؛ فإنهم إذا عرفوا منك هذه الحال أفضوا إليك بأسرارهم، وعذروك إذا طويت سر غيرك الذي هم عليه مشفقون، وخصوصاً إذا كان لك اتصال بكل واحد من المتعادين؛ فإن الوسائل لاستخراج ما عندك تكثر وتتعدد من كل من الطرفين، فإياك إياك أن يظفر أحد منهم بشيء من ذلك تصريحاً أو تعريضاً.

واعلم أن للناس في استخراج ما عند الإنسان طرقاً دقيقةً، ومسالكَ خفيةً؛ فاجعل كل احتمال- وإن بعد- على بالك، ولا تؤتَ من جهةٍ من جهاتك؛ فإن هذا من الحزم.

واجزم بأنك لا تندم على الكتمان، وإنما الضرر، والندم في العجلة، والتسرع، والوثوق بالناس ثقةً تحملك على ما يضر»^(١).

«ثالثاً: لطائف من سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدي»

سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدي وحياته ترجمة عملية لما يحمله ويدعو إليه من علم وخلق، وعبادة.

وإذا أنعمت النظر في سيرته، وسمعت ما يذكر من أخباره تجلت لك شخصية الشيخ رحمته الله في مظهر العالم العامل الذي يتمثل أخلاق الإسلام ببسر وسهولة. وفيما يلي من صفحات لُمع ونماذج من تلك السيرة الغراء، وقد أفدت فيها من رواية ابنه الأستاذ محمد بن عبدالرحمن السعدي، الذي أملى شيئاً من سيرة والده، ثم قام بكتابتها حفيد الشيخ الأستاذ مساعد بن عبدالله السعدي ابن ابنة الشيخ؛ حيث أخرج تلك الإملاءات وزاد عليها ما يعرفه عن سيرة جده في مذكرة أسماها: (مواقف اجتماعية من حياة الشيخ الوالد عبدالرحمن بن ناصر السعدي)، وقد بعث بها إليّ مشكوراً مأجوراً^(١).

كما أفدت من الروايات الشفوية التي سمعتها من بعض أقارب الشيخ، ومحبيه وتلامذته، وخصوصاً عبدالرحمن وعبدالعزيز ابني أخيه حمد^(٢)؛ فإلى

1 - بعض ما في تلك المذكرة مكتوب باللهجة العامية، فقامت بإعادة صياغتها من جديد، وربما نقلت الكلام بنصه.

2- حيث جلست مع كل واحد منهما على حدة أكثر من مرة في مدينة الدمام آخرها يوم الجمعة ١٤٢٧/٤/٧هـ، وهما ممن عاصر الشيخ، بل ممن عاش معه في المنزل إبان مكثه مع والدهما.

وعبدالرحمن بن حمد ولد سنة ١٣٣٣هـ تقريباً، ورضع مع عبدالله بن الشيخ عبدالرحمن السعدي، وعبدالعزيز بن حمد ولد سنة ١٣٤١هـ وهو في سن محمد بن الشيخ عبدالرحمن، وقد رضع معه.

وعلى هذا يكون الشيخ عبدالرحمن والداً من الرضاع لعبدالرحمن وعبدالعزيز ابني أخيه حمد.

تلك اللطائف التي تُبين عن حلم الشيخ وعلمه، وكرمه، وبساطته، ونبله، واستواء طرائقه، وحبه للناس، وحرصه على نفعهم، إلى غير ذلك من تلك السجايا الكريمة.

كان الشيخ عبدالرحمن رحمه الله حريصاً كل الحرص على تطبيق السنة، ويتجلى ذلك من أمور كثيرة.

منها أنه كان يقتصد في وضوئه؛ فلا يزيد على مقدار كأس أو كأس ونصف من الماء.

وكان يصوم أيام البيض من كل شهر، وكان مقتصدًا في مأكله ومشربه.

وكان لا يحرص على الأدوية؛ توكلًا على الله - عز وجل -.

وكان يحرص على قيام الليل وإحيائه بالذكر، والصلاة، والتلاوة.

بل يظهر أنه كان يطيل قيام الليل، وشاهد ذلك - كما يقول ابنه محمد - أنه

كان لديه دلة صغيرة يصنع فيها قهوة البن، ويقوم بتسخينها، وشربها بين التسليمات؛ لأجل أن يقوى، وينشط على قيام الليل، ولكيلا يغلبه النوم.

وكان رحمه الله سخياً جواداً في كل مراتب السخاء والجود، سواء كان ذلك في

العلم، أو المال، أو الوقت، أو الجاه، أو العفو، أو الخلق، أو الإكرام، أو البشاشة والبسطة أو غير ذلك من مراتب السخاء والجود.

ومن مظاهر ذلك أنه كان يهش للأضياف، ويقوم على خدمتهم، ويصنع

الشاي والقهوة لهم بنفسه، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

وكان عزيز النفس، ويتجلى ذلك المعنى في كثير من الأمور؛ ومن ذلك أنه

- كما يقول ابنه محمد- لا يجب أن يكلف أحداً بأي عمل ، ولا يرغب بأن يأمر أحداً من الناس.

وفي بعض فصول الشتاء يتجمد الماء ، ومع ذلك يتوضأ منه ، ولا يكلف أحداً من أهل بيته بتسخينه.

وكان يقوم بصيانة منزله بنفسه ، كفتح باب في الجدار ، أو عمل رفوف ، أو ترقيع المنزل ، أو سد الشقوق التي ينزل المطر من خلالها.

وكان يغسل ملابسه بنفسه؛ لأجل أن تفرغ زوجته لباقي أعمال المنزل.

بل كان يقوم على رعاية بهائمهم ، وكانت عنده بقرة ، وكان يوليها اهتمامه ، ولا ينام إلا وقد تأكد من وجود عشائها عندها ، وكونها في مكان دافئ خصوصاً في ليالي الشتاء الباردة.

وكان يحمل الأحجار الثقيلة إلى مكان حفظ التمر - أو ما يسمى ب: الجصة - دون طلب مساعدة من أحد ، مما كان له أثره في جسده.

وكان لا يطلب من أحد نسخ كتبه أو شيء من مؤلفاته ، بل كان يعطي بعض النساخ من طلبه العلم أجراً؛ لأجل ذلك.

وكان ورعاً ، ومن دلائل ذلك أنه لم يكن يأخذ شيئاً من حقوقه المقررة له من أوقاف الجامع ، بل يفرقها على المحتاجين.

وكان حريصاً على نفع الناس ، وكانت الصدقات والزكوات تُرسل إليه من قبل بعض الموسرين سواء من عنيزة أو من خارجها ، فيقوم بتسجيلها ، وضبطها ، وإرسالها بمعرفته إلى مستحقيها ، ثم يكتب إلى المحسنين يبين لهم كيفية

وصول صدقاتهم أو زكواتهم إلى أهلها.

وكان له برنامج ونظام يومي ، يبدؤه بقيام الليل - كما مر - وعند أذان الفجر يذهب إلى المسجد الجامع ، فيؤم المصلين.

ثم بعد ذلك يذهب إلى منزل صديقه الخاص الشيخ يوسف بن عبدالعزيز الشبل ، فيتناول عنده القهوة والحليب فحسب ، ثم يتدارسون ما تيسر من القرآن الكريم تلاوةً ، وحفظاً.

ويحضر مجلسهم ذلك عدد من الأصدقاء وطلبة العلم.

وبعد طلوع الشمس بما يقرب من نصف الساعة ينفذ ذلك المجلس ، وينصرف الشيخ إلى منزله ، أو إلى بيت من دُعاها إذا كان مدعواً عند أحد. وإذا دخل منزله سلم على أهل بيته ، وتحدث إليهم ، ثم بعد ذلك يذهب إلى المسجد الجامع لإلقاء دروسه.

وفي الساعة التاسعة والنصف يعود إلى منزله؛ ليتناول ما يتيسر من الطعام مع أولاده ، ثم يعود إلى المسجد لإلقاء الدروس.

وبعد ذلك يعود إلى منزله ، ويجلس للمطالعة والتأليف والكتابة ، والرد على الرسائل التي ترد إليه من الداخل والخارج.

وكانت أوقاته مليئة بالقراءة ، والكتابة ، والتأليف ، والعلم ، والتعليم ، والفتوى ، وقضاء حوائج الناس ، والقيام بمصالحهم ، وإجابة دعواتهم.

وكان له مكان بأعلى درج المنزل يجلس فيه للقراءة ، والكتابة ، والتأليف وهذا المكان منعزل ، هادئ يدخله النور والهواء ، ومساحته صغيرة تقع في متر ونصف

طولاً، ومتر ونصف عرضاً.

ويوجد فيه بساط يجلس عليه، ومتكأ يتكى عليه.

وكان في ذلك المكان كُوةً تطل على السوق؛ فيرى من خلالها الناس، ويسمع كلامهم، وهم لا يرونه ولا يسمعون كلامه.

يقول الأستاذ مساعد السعدي - حفيد الشيخ -: «وقد روت لي الوالدة -حفظها الله- وهي تتذكر تلك الأيام التي يجلس فيها والدها الشيخ رحمه الله في ذلك المكان الضيق الطيني الذي خرج منه المؤلفات العظيمة - أنها كانت تراه معظم أوقاته والقلم بيده، والدفاتر والأوراق بجانبه.

وتتذكر أنه كان يجاذبها الحديث، ويده تكتب، فلا يمل من الكتابة ولا التأليف، والنسخ، والرد على المستفتين، وتدوين صكوك الأوقاف القديمة والجديدة، وتثبيت المداينات بين الناس».

وكان قبل أذان الظهر بخمس وأربعين دقيقة يخلد إلى النوم، وقبيل الأذان يقوم، ويتوضأ، ويذهب إلى المسجد.

وبعد صلاة الظهر يذهب لمن استضافه على القهوة، وكان كثيراً ما يجيب دعوات الناس، ولا يزيد في تلك المجالس على نصف الساعة إلا في بعض الأحيان.

وبعد ذلك يذهب إلى منزله، ويتوضأ، ثم يتوجه إلى المسجد لإلقاء دروسه حتى أذان العصر، ثم يصلي، وبعد الصلاة يُقرأ عليه في كتب الحديث أو غيرها، ثم يقوم بالتعليق اليسير الذي لا يزيد على ربع الساعة.

وبعد ذلك يرجع إلى بيته، ويجلس في المكان الذي اعتاد فيه على المطالعة والتأليف، ثم يتناول طعام العشاء كما هي عادة كثير من أهل نجد في ذلك الزمان؛ حيث يتناولون العشاء في منتصف العصر.

يقول ابنه محمد: «وبعد أن يعد الطعام أنادي الوالد من أسفل الدرج - وأقول له بلهجة أهل نجد: ييه ييه: العشاء جاهز.

ومن لطفه ﷺ وتواضعه يرد قائلاً: سَمَّ سَمَّ.

وهي كلمة معروفة عند أهل نجد تفيد اللطف، والإجابة، والموافقة، والاحترام، وغالباً لا تصدر إلا من الصغير في حق الكبير. ولكن الشيخ؛ لفرط لطفه يقولها لولده.

وقبل غروب الشمس بمقدار نصف الساعة يذهب وحده، أو بصحبة صديقه الشيخ عبدالعزيز بن محمد البسام ﷺ ت ١٤١٣ هـ إلى مزرعة المنصور، وهي قريبة من المسجد فيتوضآن، ويستعدان للصلاة، ومع أذان المغرب يكون الشيخ في المسجد لإمامة الناس.

وبعد صلاة المغرب يجلس لدرس التفسير، ويحضر لديه جمع من طلاب العلم وغيرهم؛ فيستمر الدرس إلى أذان العشاء، وكان الشيخ يلقي الدرس بلغة قريبة مفهومة، ويجيب على أسئلة الحاضرين بأسلوب ميسر قريب للخاصة والعامّة.

وبعد ذلك يؤم الناس للصلاة، ويراعي أحوال المصلين، وكان له صوت جميل بالقرآن.

وبعد صلاة العشاء يذهب إلى منزل من يستضيفه على القهوة، ويجلس عنده نصف ساعة ثم يرجع إلى منزله.

وفيما بين الساعة التاسعة إلى العاشرة ليلاً بالتوقيت الزوالي يكون الشيخ قد أوى إلى فراشه؛ للنوم؛ فهذا هو نظامه اليومي على سبيل التقريب.

وكان ﷺ يكثر من تلاوة القرآن ومراجعته في شهر رمضان.

وكان ﷺ يجيب عن أسئلة النساء؛ اقتداءً بالنبي ﷺ حيث يحضر إلى منزل الشيخ نسوة كثيرات، فيجلسن، فيسألن الشيخ، وهو يجيب عن أسئلتهن.

وإذا كانت الأسئلة خاصة، أو فيها شيء من الحرج ألقت الواحدة منهن السؤال على أم عبدالله زوجة الشيخ - رحمها الله - ثم تقوم بإلقائه على الشيخ مباشرة والنسوة يستمعن، فيقوم الشيخ بالجواب عن السؤال.

وكان ﷺ يفسر الأحلام أحياناً؛ فإذا كان الحلم مزعجاً حث السائل على تقوى الله وأرشده إلى بعض الآداب الخاصة بالرؤيا.

وإذا كانت الرؤيا مبشرة هنا الرائي، وأوصاه بشكر الله.

وكان ﷺ حافظاً للسر؛ فلا يفشيهِ لأقرب الناس إليه؛ فتأتيه المرأة، وتخبره بما حدث لها مع زوجها، والزوج كذلك يخبره بما حدث بينه وبين زوجته؛ فيجدون العلاج الناجع، والطب النافع.

وهكذا كان الناس يستشيرونه، ويعرضون عليه مشكلاتهم.

يقول ابنه محمد: «وما كنا نعرف ما يدور بينه وبين أصحاب المشكلات حتى نسمع ذلك من أصحاب المشكلة أنفسهم.

أما الوالد فكان حافظاً لأسرار الناس.» .

وكان **رحيماً على جمع الكلمة**، مجتنباً كل سبب يفضي إلى الفرقة والشقاق؛ لذا فإنه لم يكن يحب الدخول في القضاء، وشؤون قاضي البلد. ومما يؤثر عنه في ذلك أنه كان يرى أن التلفظ بالطلاق بالثلاث في مجلس واحد أنها تقع طلقة واحدة.

لكنه لم يكن يفتي بذلك؛ لأن الفتوى السائدة آنذاك كانت بخلاف ما يراه؛ فإذا سئل في موضوع الطلاق أحال السائل إلى القاضي؛ لأنه يرى أن في ذلك مصلحة واجتماعاً، وبعداً عن سبل الشقاق.

وكان يطلع في الصحف، والمجلات الإسلامية التي تصدر في المملكة وخارجها، بل كان يشارك فيها، ويراسل أصحابها؛ فله مقالات - على سبيل المثال - في مجلة المنار التي يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا، كما في مقالة له في عددها الصادر سنة ١٣٤٦هـ وله عدة مقالات متسلسلة في العدد الثالث عام ١٣٦٧هـ، من مجلة المنار التي أسسها الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري **رحمته الله**. كما كان يشارك في الكتابة في مجلة اليمامة التي أسسها الشيخ حمد الجاسر **رحمته الله**.

وكان **يحرص على تطيب قلوب الناس**، وإدخال السرور عليهم؛ فكان يفاجئ المرضى، وكبار السن بالزيارة. وإذا علم أن أحداً من أصدقائه عنده مأدبة أتى إليهم ولو بدون موعد؛ لعلمه أن ذلك يسرهم.

وكان إذا أراد الدخول إليهم طرق الباب بالعصا حتى يشعرهم أنه قادم؛ وخشية أن يفجأهم؛ فيحرجهم.

ولقد أسر إلى بعض أصدقائه من طلبة العلم الذين يرافقونه في الدعوات - كما يقول ابنه محمد - أن إذا كنا في مناسبة، وكثر اللغظ من قبل الحاضرين فاسألني سؤالاً، أو اذكر مسألة علمية؛ حتى أجد مدخلاً أرفع فيه المجلس عن ذلك اللغظ.

وهذا من ذوقه، ولطفه، وحسن تأتبه؛ فإذا تكلم أنصت الحاضرون، وتحول مجلسهم إلى مجلس علم، وفائدة، ومرتعة حقة.

ولا تخلو مجالسه رحمته الله من الطرافة، والفكاهة، والمزاح اللطيف الخفيف الذي يدخل السرور والنشاط على الحاضرين.

وكان كثيراً ما يمازح الصغار، والكبار، والأغنياء، والفقراء كل بحسبه مع بُعد عن ساقط الكلام، ومرذوله.

وكان له مستشارون يطلعهم على بعض أموره، ويستنير بأرائهم.

ومن لطائف سيرته أن دوره لم يكن مقتصرًا على الدروس التي تلقى في الجامع، أو المساجد، أو الإشراف على المعهد العلمي فحسب.

بل كان له - مع ذلك - محاضرات ودروس مرتبة كل ثلاثاء في معهد عزيزة العلمي، والمدرسة التي أنشأها ابن صالح رحمته الله فيلتي هنالك المعلمين والطلاب، ويتحدث إليهم، ويحيب عن أسئلتهم، ويشجعهم على طلب العلم، ويحضر احتفالاتهم، ونواديهم التي يمارسون فيها أنشطتهم الطلابية.

ومن اللطائف في سيرته في التأليف أن أوائل مؤلفاته منظومة أصول الفقه التي انتهى منها في ١٨/١١/١٣٣١هـ وعمره أربع وعشرون سنة. وأنه جمع كتاب الإنصاف ونظم ابن عبدالقوي في ثمان مجلدات، وكان مبتداه في ٤/٩/١٣٣٧هـ وعمره ثلاثون سنة، وانتهى منه في جمادى الأول سنة ١٣٣٩هـ، وقد بلغت صفحاته ألفين وأربعمائة وستة وخمسين صفحة من القطع الكبير.

كما أن أغلب مؤلفاته المشهورة كتبت بين عامي ١٣٥٥ إلى ١٣٧٦هـ. ومن أواخر كتبه؛ كتاب (القواعد والأصول الجامعة والتقسيم البديعة النافعة) وقد انتهى منه في ٢٢/٣/١٣٧٥هـ، وكتاب (الدرة البهية في حل المشكلة القدرية) وقد فرغ من تأليفه في ٨/٢/١٣٧٤هـ، وكتاب (نور البصائر والألباب) وقد انتهى من تأليفه في ٢٧/٤/١٣٧٤هـ.

أما كتابه التفسير - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - فقد بدأ به في ٢٩/٣/١٣٤٣هـ وعمره سبع وثلاثون سنة، وفرغ منه في غرة ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ، واختصره في كتابه (تيسير اللطيف المنان) في ٣/١٠/١٣٦٨هـ.

ومن لطائف سيرته في التعليم - تنويحه في الأساليب، وحرصه على شحذ أذهان الطلاب؛ فلم يكن يتقيد بأسلوب واحد، أو طريقة معتادة؛ فمن الطرق التي كان يأخذ بها - كما يقول حفيده الأستاذ مساعد - أنه يقسم الطلاب إلى فرق، ومجموعات عمل؛ فكل فرقة تبحث في مسألة علمية واحدة، ولكل مجموعة رئيس تُسمى به.

وكان رحمته الله يجمع إجاباتهم في بحث واحد.

يقول حفيده الأستاذ مساعد: «وقد اطلعت على نموذج من هذه البحوث العلمية بعنوان (تذكرة أولي الأبواب في ذكر السؤال والجواب مرتب في الفقه على الأبواب من أجوبة أصحابنا الأنجاء).

وهو يحتوي على إجابات الطلاب، واستقصائهم لبعض المسائل الفقهية وأدلتها على ترتيب قراءتهم في مختصر المقنع.

وللشيخ الجدُّ دور في إكمال البحث؛ بحيث ينظر في الرأي الموافق للصواب، فينتصر له، ويثبته؛ لكي يكون تذكرة لهم ولغيرهم.

وفي مقدمة هذا الكتاب يقول رحمته الله: إذا قيل: الجواب ل: عيد وأصحابه فالمراد بهم: ١- عبدالله بن عبدالعزيز بن عيد التميمي ٢- إبراهيم بن صالح بن إبراهيم الجفال ٣- عبدالعزيز بن حمد بن إبراهيم المصيرع ٤- عبدالله بن عثمان الحماد الخويطر ٥- محمد بن عثمان الحماد الخويطر ٦- محمد بن منصور الزامل.

وإذا قيل: الجواب ل علي وأصحابه فالمراد بهم:

١- علي بن محمد بن عبدالله الخويطر ٢- صالح بن محمد بن حمد ابن عبدالعزيز البسام ٣- أحمد المرشد الزغبيني ٤- ناصر بن حمود العوهلي ٥- صالح ابن محمد بن ناصر العوهلي ٦- عبدالله بن محمد بن ناصر العوهلي ٧- عبدالعزيز ابن محمد بن ناصر العوهلي ٨- زامل بن إبراهيم الزامل ٩- علي بن حسن العلي البريكان ١٠- عبدالله بن حسن العلي البريكان».

ومن الأساليب التي كان ينتهجها في التدريس - كما يقول تلميذه العلامة الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله - إيراد بعض المسائل بصورة مغلوطة؛ حيث كان يختبر طلابه بذلك؛ فينظر هل يراجعونه في ذلك، ويدركون الخطأ أو لا؟ وكان يرتاح كثيراً إذا ردوا عليه، أو صححواله.

وكان له أسلوب جميل في حفز الطلاب، وتشجيعهم؛ فكان يعطي الجوائز الثمينة على حفظ المتن العلمية، والإجابة على الأسئلة التي يوردها.

وكان رحمته الله يبعث فيهم دوافع التعلم، والبحث في المعارف الجديدة.

ومن طرقة الرائعة في إلقاء الدروس ملائمة أسلوبه لجميع الطبقات - كما أشار إلى ذلك تلميذه الشيخ عبدالله بن بسام رحمته الله - فلا يرتفع على فهم المبتدئ، ولا يهبط عن مستوى إدراك المنتهي.

وكان رحمته الله يدرّب طلابه على التعليم، والدعوة إلى الله؛ فكان يرسل بعض نجباء الطلاب لإمامة الناس في المساجد خصوصاً في صلاة التراويح والتهجد من رمضان، وكان بعضهم يقرأ على المصلين ما حفظوه وأفادوه من دروس الشيخ عبدالرحمن.

ومن أساليبه التربوية أنه كان يكلف من يرى فيه التميز، والكفاءة، والقدرة العلمية من طلابه بتدريس صغار الطلبة.

ومن هؤلاء الذين يقع عليهم اختياره للقيام بذلك: الشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع، والشيخ علي الصالحي - رحمهما الله -.

ومن طلاب الشيخ علي الصالحي - الشيخ محمد بن عثيمين - والشيخ علي الزامل - رحمهم الله جميعاً -.

وكان **رحمته** ينوع في الكتب والفنون التي يدرسها؛ فيُدْرَس العقيدة، والفقهاء، والتفسير، والحديث، والمصطلح، والنحو، والأدب وما جرى مجرى ذلك.

ومن الكتب التي كان يدرسها - كما أشار إلى ذلك تلميذه الشيخ عبدالله ابن بسام -: كتاب التوحيد، والواسطية، والطحاوية، ونونية ابن القيم، وتفسير الجلالين، وصحيح البخاري، ومنتقى الأخبار وعمدة الحديث، وبلوغ المرام، ونظم البيقونية، ونخبة الفكر، وزاد المستقنع، والروض المربع، ومنتهى الإرادات، وكتابه منهج السالكين، والإرشاد إلى معرفة الأحكام، و متن الرحبية، و متن الورقات، ومختصر التحرير، وقطر الندى في النحو، وألفية ابن مالك، وكتاب الحماسة لأبي تمام، ومعلقة زهير وغيرها من كتب السلف، ومؤلفات أئمة الدعوة، وكتبه، ورسائله الكثيرة.

ومن لطائف سيرته أنه كان حريصاً على تدوين الفوائد واللطائف التي يسمعها أو يقرؤها، أو تمر بخاطره.

ومن اطلع على أوراقه ورسائله المخطوطة يجد مصداق ذلك - كما يقول حفيده الأستاذ مساعد -.

وكان يقوم بتقييد ذلك في أوراق قد يصل حجمها إلى أصغر من كف اليد.

ومن اللطائف في ذلك أنه كان يحرص على استخدام الدفاتر ذات الحجم الكبير، والغلاف السميك؛ التي تُشترى له من عنيزة، أو من مكة المكرمة، أو تهدي له من بعض أبنائه.

ومن أساليبه في التأليف أنه كان لا يطيل في مقدمات كتبه، بل كان يختصرها بما يفي بالغرض، ويشير إلى المقصود.

وفي بعض كتبه لا تتجاوز المقدمة عشر أسطر، وربما خمسة أسطر، وقد يثني على بعض كتبه في مقدماتها؛ لشد ذهن القارئ، وتشويقه، وحفزه.

ومن شواهد ذلك ما قاله في مقدمة كتابه: (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن) حيث قال: «فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم جليلة القدر، عظيمة النفع تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء بها.

ومَحْبَرُها أجل من وصفها؛ فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من البحوث النافعة».

يقول الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله معلقاً على ذلك الكلام أثناء شرحه للكتاب المذكور: «وثناء شيخنا عبدالرحمن بن سعدي على كتابه ليس بغريب؛ لأن ثناء أهل العلم على مؤلفاتهم لا يقصدون به الفخر والتفاخر على الخلق إنما يقصدون شد الناس إلى قراءتها، والالتفاف حولها.

وله من سلف الأمة قدوة يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (لو أعلم أن أحداً تناله الإبل أعلم بكتاب الله مني لرحلت إليه).

وكذلك ثناء ابن مالك على ألفيته اهـ.

ومن أساليب الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في التأليف والكتابة أنه يختم كتبه بقوله: «قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلى الله في كل أحواله عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين» أو يقول كلاماً نحو هذا، ثم يختم بذكر تاريخ الانتهاء من الكتاب.

ومن لطائف سيرته العلمية حصوله سنة ١٣٤٠هـ على إجازة في رواية الكتب الستة، ومسند الإمام أحمد، وموطأ الإمام مالك، ومشكاة المصابيح من شيخه أبي عبدالله علي بن ناصر أبو وادي الذي تلقاها من محدث الأقطار الهندية السيد محمد نذير حسين الحسيني الدهلوي سنة ١٢٩٩هـ.

وله إجازة من شيخه إبراهيم بن صالح بن إبراهيم بن عيسى النجدي الحنبلي سنة ١٣٤١هـ في رواية الكتب الستة وموطأ الإمام مالك وكتب الصحاح والمسانيد وكتب الفقه والأصول فقال فيها الشيخ إبراهيم رحمه الله: «هذا وإن ممن لاحظته العناية، وسبقت له منا الهدية، وألقت إليه المعارف والعلوم زمامها، وسلمت إليه البلاغة كمالها وتمامها - الطالب الراغب صاحب الفهم الثاقب الولد الصالح الذكي الفطن الورع التقي الطاهر القلب السليم المنتخب من أشرف قبيلة بني تميم الناشئ في طاعة الله المعيد المبدي عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي، أنار الله بوجوده حنادس المعارف، وأبدى بحقائق تحقيقه مكنونات اللطائف، وصرف المولى عنه صروف الردى، ولازال علماً يستضاء بنوره ويهتدى، قد قرأ علي وسمع أطرافاً من الكتب الستة، وفي مسند الإمام أحمد، ومن الموطأ، وغير ذلك من كتب الحديث والفقه.

وبعد ذلك طلب مني؛ لإحسانه وحسن ظنه بي أن أجزئه بمروياتي ، وأوشحه برواية مسموعاتي ، وكنت ممن نظمه الأئمة الأعلام في سلك الإسناد ، وأجازوه بما يجوز لهم وعنهم رواياته...»

وكان **رحمه الله** يستخدم في بادئ تأليفه للكتب القلم الذي يعبأ بالخبر من الدواة ويكتب بالخبير الأسود والأحمر.

وفي آخر عمره كان يكتب بالأقلام الحديثة - الباركر - . ويمكن معرفة كتبه التي أعاد نسخها مرة أخرى بدقة الخط وجماله. وأحياناً كان يكتب أو يعلق بالأقلام الملونة - الحمراء والزرقاء - وهي أقرب ما تكون بأقلام الرسم الخشبية - أشار إلى ذلك حفيده الأستاذ مساعد - .
ومن لطائف سيرته تنوع خطبه في الجمعة وملائمتها لحاجة الناس وواقعهم ، وربطها بواقع المسلمين ، وأحوالهم؛ فتارة تتسم خطبه بالوعظ والإرشاد ، وتارة تشتمل على التعليم والتنبيه على بعض الأمور ، وتارة يخطب عن المطر والسيول ، فيذكر نعمة الله ، ويحث على مساعدة المتضررين من جرائها ، ويوصيهم بالصبر والاحتساب ، وتارة يخطب عن الجراد الذي أهلك الحرث؛ فأضر بالمزارعين.

وفي جمعة خطب عن العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٣٧٥ هـ من قبل فرنسا وإنجلترا وإسرائيل ، وكشف عن مؤامرات أعداء الأمة.

كما كان يخطب بما يلائم المناسبة كرمضان ، والحج ونحو ذلك.

وله خطبة عن الأمراض المعدية وحثّ الناس على أخذ التطعيمات اللازمة الواقعة - بإذن الله - مع بيان أن ذلك لا ينافي القضاء والقدر، بل إن ذلك من فعل الأسباب التي هي تمام الإيمان بالقضاء والقدر.

وله خطبة في وفاة الملك عبدالعزيز رحمه الله يذكر فيها عظم المصاب في موته، ويعدد مناقبه، وأعماله الجليلة.

وقد ذيلها على غير عادته بوضع وقت إعدادها، باليوم والساعة، فقال: «الساعة الثالثة صباحاً ١٣٧٣/٣/٣هـ يوم الثلاثاء».

ولعله استروح لوجود المناسبة في تكرار الرقم ثلاثة؛ فيكون في ذلك نوع طرافة.

وله خطبة سنة ١٣٧٦هـ وهي من أواخر خطبه ضمنها شكر الوزير ابن سليمان، وحث الناس على معرفة فضله والدعاء له، وشكره ومن أعانه على ما قام به من إيصال المياه إلى بيوت عنيزة، فتيسر لهم بذلك الحصول على الماء بلا كلفة.

ومن لطائف سيرته - كما يقول حفيده مساعد - أنه أظهر عناية بالنظم والشعر في بواكير عمره، وكان النظم أسهل عليه؛ فقد نظم الدليل في الفقه الحنبلي في أربعمئة بيت من بحر الرجز، وله منظومة في الفقه في سبعة وأربعين بيتاً نظمها سنة ١٣٣١هـ، ومنظومة أخرى في السير إلى الله - عز وجل -.

وله نظم في معنى حديث «مثلي ومثل ما بعثت به كمثل غيث... الحديث».

وله نظم في طلب العلم، وله أشعار متنوعة من رثاء، واشتياق لأصحابه وطلابه، كتلك القصيدة التي كتبها لأحد طلابه النجباء الذين يحبهم وهو الشيخ محمد بن سليمان البسام المدرس بالحرم المكي الشريف؛ وذلك لما هم بالسفر إلى مكة لأداء الحج عام ١٣٦٣هـ؛ فناوله الشيخ عبدالرحمن رسالة مختومة، وقال له: لا تفتحها إلا بعد أن تسير مسافة كذا وكذا.

يقول الشيخ محمد البسام: فلما سرنا المسافة التي حددها الشيخ فتحت الرسالة، وإذا فيها أبيات من الشعر تقطر وجداً، ومحبة، وأسى على فراق التلميذ، ومما جاء فيها:

أذكرت ربعاً من خليطك أقضرا أرسلت دمعاً ذا رذاذ قطرا
أم هاجك الغادون عنه عشيةً لما مشوا وتيمموا أم القرى

إلى آخر ما قال، حتى إن الشيخ البسام تأثر لذلك كثيراً، وقال: وددت أني لم أسافر للحج إلا وأنا معه؛ لما لمستته من محبته وشفقته.

ومما يذكر في سيرة الشيخ السعدي رحمته الله أنه كان دائم التواصل مع العلماء والمشايخ والقضاة، وذلك عبر المكاتبات التي كانت وسيلة الاتصال في ذلك الوقت؛ فكانت المكاتبات، والأسئلة تترى عليه من مكة، والرياض، والدمام، والجبيل، وجيزان، ونحوها.

كما كانت تأتيه من مصر، والشام، والكويت، والبحرين.

وإذا أتته الرسائل بادر إلى الرد عليها، والإجابة عن الأسئلة الواردة فيها، وكان يضمنها الأشواق، والدعوات، والسؤال عن الأحوال، والأولاد، وسائر الأصحاب.

وقد خرج شيء من ذلك في كتب بعد وفاة الشيخ، ككتاب (الأجوبة النافعة عن الأسئلة الواقعة).

وهي مكاتبات جرت بينه وبين تلميذه الشيخ عبدالله بن عبد العزيز العقيل - حفظه الله - يوم أن كان قاضياً في منطقة جازان وفرسان جنوب المملكة. وقد قام على إخراجها، والعناية به الشيخ هيثم الحداد - حفظه الله - . وكذلك كتاب (الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية).

وهي مجموعة رسائل جرت بينه وبين بعض علماء الكويت في ذلك الوقت كالشيخ عبدالمحسن الدعيج، والشيخ عبدالرحمن بن محمد الدوسري، والشيخ محمد بن سليمان الجراح - رحمهم الله - . وقد اعتنى بها وحققها د. وليد المنيس. وكذلك كتاب (الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية).

وهي مجموعة رسائله التي جرت بينه وبين الشيخ عبدالرحمن بن محمد المقوشي، والشيخ ناصر بن باتل العبري، والشيخ صالح بن مرشد، والشيخ سليمان بن رويشد، والشيخ محمد بن سليمان البصيري، والشيخ سالم بن علي المحفوظ - رحمهم الله - .

أما الأصدقاء والأقرباء فهم لا ينقطعون عن مراسلته، وطلب الفتوى منه.

وقد تجرد في رسائل بعضهم طلب خدمة في أي أمر من الأمور الدنيوية، وبعضهم يُودِعُه أسراره الخاصة كالوصايا والأوقاف، وغيرها. وكان لا يتأخر عن خدمتهم، وقضاء حوائجهم. وللتجار نصيب من هذه المكاتبات خصوصاً من كانوا من أهل عنيزة سواء كانوا في مكة، أو الرياض، أو الدمام، أو الجبيل، أو البحرين، أو الهند؛ فهم يثقون بالشيخ، فيرسلون إليه صدقاتهم، وزكواتهم؛ ليقوم بنفسه بتوزيعها حسب ما يراه.

ومما تجدر الإشارة إليه في سيرة الشيخ رحمته الله أنه كان محل ثقة العلماء والمشايخ خاصة مفتي الديار السعودية آنذاك سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمته الله فقد عمّده الشيخ محمد باختيار مدرسي المعهد العلمي في عنيزة، وكان يستأنس برأيه، كما أنه أقره على المنهج الذي وضعه، وطلب منه الإشراف على المعهد مقابل مبلغ مالي لكن الشيخ عبدالرحمن راجعه في ذلك، وقال: أشرف عليه دون مقابل.

ومن لطائف سيرته وفاؤه المنقطع النظير، وقد مر شيء من هذا القبيل. ومن مظاهر ذلك أنه لا ينسى فضل ذوي الفضل، بل يحفظ لهم فضلهم، وسبقهم بالمعروف، بل كان ذلك يصل إلى أحفادهم؛ فقد ذكر الشيخ عبدالله ابن عبدالرحمن البسام رحمته الله في كتابه علماء نجد أنه لما تصدع المسجد الجامع الذي يؤمه الشيخ من جهة مقدمته سنة ١٣٦١هـ جعل محمد بن علي بن منصور الزامل مشرفاً على البناء خلفاً لجده منصور الذي وسّع المقدمة سنة ١٢٤٦هـ، ولما تصدعت

مؤخرة المسجد سنة ١٣٧٢هـ أسند الإشراف عليها إلى سليمان ابن صالح بن حمد البسام خلفاً لجده حمد الذي وسع المسجد من جهة الخلف سنة ١٢٤٦هـ. ومن لطائف سيرته دفته في عرض المسائل ، وأنه لم يكن يستنكر أو يستوحش من الاستفادة من المخترعات والتقنيات الحديثة كالبرقية ، ومكبرات الصوت ، وتبليغ الناس بدخول الشهر بالأصوات ، أو الرمي ، أو البرقية أو نحو ذلك. بل إن له كلاماً في مؤلفاته عن المخترعات الحديثة ، وبيان أنها من نعم الله ، وأنها دليل على قدرته - عز وجل - .

ويذكر حفيده الأستاذ مساعد أن الشيخ عبد الله العمري رحمته الله بعث إليه - أي إلى مساعد - برسالة عام ١٤٢٥هـ فحواها أن الشيخ العمري تذاكر مع الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله في بعض مجالسه سيرة شيخهم الشيخ عبدالرحمن السعدي ، فقال الشيخ محمد : « لو أتيت لشيخنا عبدالرحمن ما أتيت لكبار العلماء في هذا الوقت من وسائل الاتصال والإعلام الداخلي والعالمي لكان له شأن آخر ، ولفاقهم في حسن الذكر ومكارم الأخلاق » .

ومن لطائف سيرته وحلمه ، وتغاضيه وعفوه ، والتماسه العذر للناس - ما ذكره الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله في بعض دروسه ؛ حيث ذكر بأنه لما طبع كتاب (القواعد الحسان) للشيخ عبدالرحمن طبعته الأولى تحت إشراف الشيخ محمد حامد الفقي المصري سنة ١٣٦٦هـ ، جاءت تلك النسخة تحمل أغلاطاً من تصحيف ، ونقص ، وتقديم ، وتأخير ، وسقط ، وتصرف في العبارات ؛ فظهرت تلك النسخة معيبة كثيرة الخطأ .

وبعد وصولها إلى عنيزة، وتوزيعها على طلاب العلم، وقراءتها على الشيخ
تكلم بعض كبار الطلاب مع الشيخ عبدالرحمن بذلك وهم في مجلس الدرس،
وطلبوا من الشيخ أن يتكلم مع الناشر وأن يقيم عليه دعوى؛ خاصة وأن
تكاليف الكتاب مدفوعة الحساب مسبقاً؛ فاستمع الشيخ إليهم لكنه بعد مراجعته
للكتاب قال ملتماً العذر للناشر: ما دامت الزيادات أو السقط الحاصل ليس فيه
مضادة للمعنى، أو إفساد له - فاتركوه.

وهكذا تسامح مع الناشر، ولم يطالبه بشيء - ذكر ذلك حفيده مساعد - .
ولقد يسر الله لهذا الكتاب من قام على إصلاحه، والعناية به، حتى ظهر بحلة
قشبية تسر الناظرين، ألا وهو الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت - حفظه
الله - .

ومن آخر أخباره في التأليف - كما يقول حفيده الأستاذ مساعد - شروعه في
تأليف بعض الكتب، لكن الأجل وافاه، وحال بينه وبين إكمالها.
ومن تلك الكتب:

- شرح كتاب الإيمان (باب معرفة الله والإيمان به) للشيخ المجدد الإمام محمد
ابن عبد الوهاب رحمته الله .

- وشرح للقواعد الشرعية الأصولية من كتابه (الرياض الناضرة)، وذلك
عندما طلب منه أحد المحبين التعليق عليها وشرحها.

- وشرح أحاديث كتاب (بلوغ المرام).

كما أن للشيخ رحمته الله بعض الكتب المخطوطة التي تحتاج إلى عناية حتى تخرج.

ومن بديع ما يذكر في سيرته ﷺ ما ذكره حفيده مساعد في خاتمة المذكرة التي جمعها عن جده حيث قال: «في شهر رجب من عام ١٤٢٥ هـ دعاني الحال محمد ابن الشيخ عبدالرحمن السعدي إلى دكانه في الدمام، فلما سلمت عليه أخرج من درج مكتبه دفترًا أسود اللون^(١) صغيراً بحجم الكف سميك الغلاف، وقال لي: هذا الدفتر يا مساعد كان عند المرحوم مثل مفكرة الجيب يسجل فيه بعض المعلومات، وجدته عندي؛ فناولني إياه وقال: خذ هدية واطلع عليه؛ فشكرته على ذلك، وغمرتني الفرحة وازدادت لما قلبت صفحاته، فوجدت فيه ما لم أجد في مؤلفاته ورسائله الشخصية التي بحوزتي، فصورته صورة مكبرة؛ حتى أتمكن من قراءته، فكنت أطلعها من وقت لآخر، وفي كل مرة أقول: رحم الله الجد كان شعاره محاربة النسيان بالتسجيل والتدوين والكتابة.

وعندما تُقلب صفحات هذا الدفتر الصغير تجد التنوع في المعلومة، والدقة فيها، وسوف أذكر بعض ما فيها دون ترتيب:

١- معلومات وفوائد شرعية منثورة وإجابة على بعض الأسئلة، ومنها سؤال عن محاباة المريض في مرض الموت، وسؤال عن إذا مات المستأجر هل يلزم ورثته تعجيل الأجرة وغيرها من الأسئلة.

٢- كيف يستخدم ظل الشاخص في معرفة أوقات الصلوات الخمس.

٣- مصاريف وحسابات مشتريات البيت الشهرية والسنوية.

1 - رأيت هذا الدفتر لما زرت الأستاذ مساعد، ووجدت فيه أشياء عجيبة من الدقة، والتدوين، وما جرى مجرى ذلك، بل إن ذلك الدفتر يستحق أن يخرج مفرداً في مؤلف.

- ٤- الأماكن التي كان يحفظ فيها ﷺ نقوده ووصاياه.
- ٥- المداينات التي يطلب منه أقرباؤه من الرجال والنساء تسجيلها وإثباتها.
- ٦- حصر الزكوات التي تصل إليه من التجار أو أصحاب المزارع أو الطلاب الموسرين؛ ليقوم بتفريقها بنفسه، وبمعرفة.
- ٧- تواريخ بعض الأحداث المهمة كتاريخ الانتهاء من بناء المكتبة سنة ١٣٥٩هـ وترتيب الشيخ محمد عبدالعزيز المطوع مدرساً مبتدئ فيها لتعليم العقيدة والفقهاء في التاسع من شوال عام ١٣٥٩هـ.
- وكان يسجل تاريخ ميلاد بعض معارفه.
- ٨- تسجيل الأوقاف التي يوقفها أهل الخير على أعمال البر.
- ٩- توزيع بعض الموارث الخاصة ببعض الأسر.
- ١٠- الكتب التي استعارها من أبناء الرواف محمد وسليمان سنة ١٣٤٤هـ.
- ١١- المبالغ المالية التي تزيد عن حاجة المسجد والمكتبة والتي كان يعطيها بعض التجار الذين يثق بهم لشراء البسط أو أوعية الكيروسين لسرج المسجد، أو التي يطلب منهم المضاربة بها؛ لتعود أرباحها إعانة لطلاب العلم والفقراء من أهل عنيزه.
- وكان ﷺ يوصي التجار على حفظها، وجعلها في عقار ونحوه، وهو الناظر عليها في حياته، ولم يغفل عن أخذ توقيعهم على ذلك.
- ١٢- ما يستعيره من كتب وأدوات.
- ١٣- سجل في هذا الدفتر بعض أملاك أجداده - رحمهم الله -.

١٤- سجل في هذا الدفتر الأماكن التي وضع فيها وصيته ووصية الجد سليمان والوثائق المهمة.

١٥- دون فيه اسمه كاملاً في وسط الدفتر ودون مناسبة فكتب «عبدالرحمن ابن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد بن محمد بن حمد السعدي» وهذه هي المرة الأولى التي وُجد فيها اسمه كاملاً مدوناً.

ودون فيه أسماء بعض قرابته مثل حسين بن ناصر السعدي، وبنته نوره، وأبناء أخيه حمد القاضي، وأسماء أهل حائل مثل الشاعر شايح بن رباح ابن سعدي، ومطلق ابن سالم، وحمود بن عثمان السعدي.

١٦- سجل في هذا الدفتر أسماء بعض غرف البيت مثل «القهوة، روشن حصة، روشن برجس، وهكذا...».

١٧- راتب ومعاش من يكلفهم بالتدريس مثل راتب الشيخ محمد عبدالعزيز المطوع والذي كان معاشه ذلك الوقت ١٥ ريالاً.

١٨- طريقة علاج البثرة.

١٩- تجديد وكالة للشيخ من أحد المغتربين عن مدينة عنيزة؛ لتزويج ابنة له.

وفي هذا الدفتر بعض الأمور الأسرية الخاصة.

هذه لمع ولطائف من سيرة الشيخ، وسيأتي في الفقرة الآتية مزيد بيان،

وشواهد لما مضى، وذلك من خلال ذكر بعض المواقف الخاصة بالشيخ رحمه الله.

«رابعاً: مواقف من حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي»

للشيخ عبدالرحمن رحمه الله مواقف كثيرة يترواها الناس ، وتتناقلها الأجيال التي عاصرته حتى يومنا الحاضر.

ولا يزال الناس يسمعون بين الفينة والأخرى أطرافاً من سيرة الشيخ رحمه الله. ولعل من آخر ما دُوِّن في هذا الصدد تلك الأوراق المخطوطة التي أملاها ابنه محمد ، وأعدّها حفيده مساعد ، وزاد عليه ما يعلمه من سيرة جده.^(١) وقد مضى في الفقرة الماضية ذكر لها ، وفيما يلي من صفحاتٍ ذكرٌ لبعض تلك المواقف مع شيء من التعليق اليسير عليها ، فإلى تلك المواقف التي تُبين عن بعض المعالم العملية لسيرة الشيخ رحمه الله.

١- هذا موقف يبين أن الشيخ رحمه الله كان يمازح أصحابه - كما مر -.

يقول ابنه الأستاذ محمد: «كان للوالد الشيخ صديق عزيز اسمه: عبدالعزيز الدامغ ، ويلقب بـ: ضعيف الله. ومعنى هذا اللقب عند أهل نجد: المسكين ، الضعيف ، ولا يلزم أن يكون اللقب مطابقاً لحال من لُقّب به.

الحاصل أنه في يوم من الأيام كان الشيخ يمشي مع صاحبه عبدالعزيز الدامغ في جماعة من الناس ، وكانوا يتحدثون عن الأعمار كما هي عادة كثير من الناس ، وكان عُمرُ الدامغ المذكور آنذاك إحدى وستين سنة ، فقال له الشيخ

1 - المواقف الآتية مأخوذة من المذكرة المخطوطة ، وما سمعته من عبدالرحمن ، وعبدالعزیز ابني

حمد ابن ناصر السعدي.

عبدالرحمن: (يا أخ عبدالعزيز يكفيك عمر النبي ﷺ).
 يعني ثلاثاً وستين سنة ، ومعنى ذلك أنه بقي له سنتان فحسب.
 فقال عبدالعزيز الدامغ: (حَسَنًا ، ولكن نبتدئ يا شيخ من الآن).
 ومعنى ذلك أن يكون عمره أربعاً وعشرين ومائة سنة ، فضحك الشيخ ،
 وأعجب بسرعة بديهة صاحبه» .

٢- وهذا موقف يدل على ملاطفة الشيخ للناس :

يقول ابنه محمد: «كان الشيخ كثيراً ما يوافق على الدعوات التي توجه إليه؛ كي يتناول القهوة، وفي أواخر شهر ذي الحجة من إحدى السنوات دعاه أحد أصدقائه، ولكن الشيخ اعتذر مازحاً، وقال لمن دعاه: أنا عندي مواعيد كثيرة؛ فألح عليه صاحبه، وبدا منه الغضب لرد الشيخ؛ فقال له الشيخ: إذاً يكون موعدك أول السنة القادمة، فغضب صاحبه وقال: أنت لا تريد دخول منزلي.
 فقال له الشيخ: يا أخي يوم الثلاثاء القادم هو بداية السنة الجديدة أي بعد يومين، أما علمت أننا في آخر هذه السنة.

فظابت حينئذٍ نفس صاحبه ، وأدرك أن الشيخ يمازحه» .

٣- وهذا موقف يدل على حسن أخلاق الشيخ في السفر:

يقول ابنه محمد: «كان الشيخ حاجاً على الإبل، ومعه جماعة منهم إبراهيم ابن محمد البسام، وسليمان بن إبراهيم البسام.

وكان سليمان المذكور راكباً على الجمل الذي عليه قِربُ الماء.

ولما وصلوا مكة، وأدوا بعض المناسك، وحن وقت وصولهم إلى عرفات

تفرقوا، وأضاع بعضهم بعضاً، فصار الجماعة ينتظرون سليمان البسام؛ لأن الماء معه، وهم يريدون الوضوء، والشرب، وعمل الشاي والقهوة، وليس عندهم ماء.

ولم يلتقوا إلا في منى، وكان آخرهم وصولاً سليمان؛ فلما وصل قام إبراهيم البسام يعاتبه مازحاً، ويقول له: أين أنت، لماذا تأخرت؟ مؤكداً أنك ضائع؟ ولما علم سليمان أن الشيخ عبدالرحمن كان من ضمن الضائعين التفت إلى إبراهيم وقال: لماذا لا يقع اللوم إلا عليّ؟ هذا كبيرهم الذي علمهم السحر - ويعني به الشيخ - ضاع قبلي؛ فلماذا لا يعاتب؟

فقال له إبراهيم: نحن نريد الماء الذي معك؛ فضحك الشيخ لمقولة سليمان، فصار يرددها ويقول: هداك الله يا سليمان شبهتنا بسحرة فرعون، وقال الشيخ: باللهجة الدارجة: هذه تبي حق^(١).

٤- وهذا موقف يبين كيفية توزيعه للصدقات والزكوات.

يقول ابنه محمد: «في شهر رمضان يأتي للوالد زكوات، وصدقات من التجار والمحسنين؛ كي يفرقها على مستحقيها. وأذكر وأنا صغير أنه يعطيني صرة فيها أموال، ويقول لي: أعط فلاناً وغيره من المحتاجين، وقل له: هذه أموال لك عند والدي؛ فكنتُ أظنه ديناً لهذا الرجل عند والدي.

1 - هذه كلمة دارجة معناها: نريد أن تقدم لنا شيئاً إما وليمة أو غيرها؛ لأجل أن نرضينا بسبب خطئك علينا.

ولما كبرتُ علمتُ أنها تورية من الوالد؛ حيث كان أولئك المحتاجون متعطفين، ومن أسر كبيرة؛ فكان ﷺ بهذه الطريقة يستر عليهم، ويحفظ عليهم كرامتهم وعزتهم، وماء وجوههم، ويبعد عنهم الحرج.

أما عامة الناس فكان يعطيهم بنفسه، أو يعطي من يثق به كي يوصلها إليهم».

٥- وهذا موقف يدل على حكمته في الدعوة والإنكار.

يقول ابنه محمد: «في ذات يوم اشترى والدي حطباً، وكان من عادة الناس في عينة أن إذا اشترى الواحد منهم حطباً طلب من البائع أن يوصل الحطب إلى بيت المشتري، فيضع له أهل البيت ماءً وتراً.

وإذا أراد الخروج طرق باب البيت بقوة؛ يعلمهم بخروجه.

وفي يوم من الأيام خرج البائع بعد أن أنزل الحطب، فأراد الوالد الشيخ أن يغلق الباب؛ فوجد في فناء المنزل علبة، فعلم أنها علبة دخان قد سقطت من البائع، فقام وفتح الباب ونادى البائع، وقال له: هذه لك - يريد علبة الدخان -؟ فقال البائع: نعم، ولكن هل تعلم ما بها يا شيخ؟

قال الوالد: نعم بها دخان؟

قال البائع: ومع ذلك سوف تعطيني إياها؟

قال الوالد: نعم لأنك إذا لم تجدها سوف تشتري بقيمة الحطب علبة دخان

أخرى، وربما جاع عيالك بسبب ذلك؛ فخذه والله هو الهادي.

فما كان من البائع إلا أن أخذ علبة الدخان، وألقاها في الأرض، وقال: اللهم

إني تبت، ولن أعود إلى الدخان مرة أخرى».

فانظر إلى هذا اللطف، وتلك المعاملة والنظرة، كيف أثار في نفس البائع، وحمله على ترك الدخان؛ فالشيخ رحمته الله لم يكن ليُقره على شرب الدخان، كيف وقد ألف رسالة من أبدع ما ألف في حكم شرب الدخان وتحريمه؟ وما كان -أيضاً- ليدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الذي أبدى فيه وأعاد في كثير من مؤلفاته.

ولكنه رحمته الله رأى أن المصلحة والحكمة تقتضيان بأن يتعامل مع ذلك الموقف بتلك الصورة التي أدت الغرض، وكان سبباً في إقلاع ذلك الرجل عن التدخين.

٦- وهذا موقف يبين حب الشيخ للناس، وحرصه على نفعهم:

يقول ابنه محمد: «في يوم من الأيام كان الوالد رحمته الله يتناول طعام العشاء مع أخي أحمد رحمته الله فطرق الباب طارقاً من غير أهل البلد يريد الوالد الشيخ، ففتح له الأخ أحمد، وقال: الشيخ يكون موجوداً بعد قليل، وكان قصد أخي أحمد أن يكمل الوالد طعامه؛ فانصرف الطارق، ورجع الأخ أحمد، وأكمل عشاءه؛ فسأله الوالد: من كان عند الباب؟

فقال الأخ: رجل يسأل عنك، فصرفتُه، وقلت له: ارجع بعد قليل.

فتكدر الوالد، وعاتب أحمد وقال له: يا وليدي: إن قيامي، وإجابتي السائل أحب إليّ من جلستي على العشاء، ثم قام رحمته الله دون أن يكمل عشاءه، وقال لأخي أحمد: لا تعد لمثل هذا -أصلحك الله-».

٧- وهذا موقف يبين حلم الشيخ، وسعة صدره، ورحمته بالصغار، وبعده

عن التعنيف عليهم:

يقول ابنه محمد: «كانت الوالدة -رحمها الله- قادمة من الحج، وفي ذلك اليوم كان عند الوالد في المنزل ابنٌ صغيرٌ لأخي أحمد عمره ثلاث سنوات، وإذا

جاء الليل أرسلوه إلى أمه.

وفي الليلة الأولى لوصول الوالدة من الحج لعب الولد الصغير بساعة الوالد التي تنبهه للقيام في آخر الليل؛ فنام الوالد والساعة مقلقة، فلم يقم تلك الليلة، ولم يصل الفجر بالجماعة.

ولما صلى عصر ذلك اليوم بالجماعة - وكانوا كثيرين في ذلك الوقت؛ لقرب المسجد من السوق - شرع عبدالعزيز بن محمد البسام - أحد طلبة الوالد - يقرأ كالعادة، والوالد الشيخ يشرح.

وفي تلك الأثناء قام أحد الصغار وهو عبدالرحمن بن إبراهيم بن عبدالمحسن البسام وكان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة، فقال بصوت مرتفع يخاطب الشيخ وهو يشرح، والناس يستمعون له: هُنَّاكَ الأول^(١) يا أبا عبدالله - يعني الشيخ عبدالرحمن - قَرَّتْ عينك بأم عبدالله - يعني زوجة الشيخ - الحمد لله على السلامة، الفجر ما صليت بالجماعة الظاهر أن أم عبدالله نائمة على رأسك، لا تُعدُّ لذلك مرة أخرى.

فما كان من الشيخ إلا أن ضحك، ولم يستطع إكمال الدرس من الضحك، وهكذا الجماعة؛ من طرفة ذلك الموقف، ثم قام الشيخ الوالد عبدالرحمن من مكانه إلى الصبي عبدالرحمن البسام، وأعطاه ريالين عربي فضة؛ لأنه سرَّ من كلامه، وكان سبباً في سرور المصلين؛ فصارت تلك الحادثة مدار حديث المجالس في تلك الأيام.

1 - يعني أنا أول من يهنتك بوصول زوجتك أم عبدالله.

فانظر إلى هذا الحلم، وتلك الحكمة، وانظر إلى حسن التصرف؛ حيث جعل من ذلك الموقف سبباً للسرور، والبسط؛ فماذا لو عنف ذلك الصبي؟ وما أثر ذلك عليه، وعلى والديه، وعلى جماعة المسجد؟ ولكنه الخلق، والأخذ بالرفق، الذي ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

٨- وهذا موقف يدل على حكمة الشيخ، وتلطفه في النصيح والإنكار:

يقول ابنه محمد: «كان هناك رجل عرف عنه التهاون بصلاة الجماعة، ويحصل منه ظلم لنفسه وللآخرين؛ فعلم الشيخ بحال ذلك الشخص؛ فكان يتحرى الفرصة لمناصحته.

وفي يوم من الأيام تقابل معه الشيخ في الشارع دون موعد، فسلم عليه الشيخ، ورحب به، ولطفه، وقال له: إما أن تعزمي أو أعزمك^(١)؛ فقال الرجل: أنا أعزمك يا شيخ، فقال الوالد: دعنا نرى أيُّنا بيته أقرب من الآخر؛ فتكون القهوة عنده، فقال الرجل: سَمَّ - أي نعم - فلما نظر وجد أن بيت الوالد أقرب.

فقال الوالد: بيتنا أقرب من بيتكم، تفضّل معنا.

ولما دخل منزل الوالد قام الوالد بإشعال النار، وإصلاح القهوة والشاي، ثم شرع في الأحاديث الودية، ثم قال له الوالد: كثير من الناس يتكلمون،

1 - من معاني العزيمة عند أهل نجد: الدعوة إلى المنزل إما لوليمة طعام، أو لتناول قهوة أو شاي، أو

نحو ذلك.

ويقولون: إنك لا تحافظ على صلاة الجماعة، وإنه يحصل منك تعدييات، وأنا لم أُصدّق هذا الكلام؛ لأنك من أسرة كريمة معروفة.

ولكن يا ولدي تعرف الناس؛ فهم يتعرضون لكل أحد، ولو كان بريئاً. ولو أخطأ غيره لربما رموه بذلك الخطأ؛ فالأولى بك يا ولدي أن تترفع عن كل ما يقال في حقك، وأن تتجنب كل سبب يفضي بك إلى اللوم. فما كان من ذلك الرجل إلا أن اقتنع بكلام الشيخ، وتراجع عما كان يقوم به من ظلم وتعدٍّ، وصار يحافظ على الصلاة خصوصاً صلاة الفجر، ولم يعد يتعرض للناس بعد ذلك، وكان يقول: لقد أثر كلام الشيخ فيّ والله الحمد».

٩- وهذا موقف يتجلى به حكمة الشيخ في تغيير بعض العادات الشائعة؛ حيث كان من عادة الناس في نجد في وقت الشيخ أن الرجل إذا تزوج مكث في منزل والده؛ لأنهم يرون أن خروجه من المنزل عقوق، وأنه أمر لا يليق، لكن الشيخ رحمته الله سعى إلى تغيير ذلك المفهوم عملياً، وذلك من خلال الموقف الآتي. يقول محمد بن الشيخ عبدالرحمن السعدي: «تزوج الأخ عبدالله الابن الأكبر للشيخ عبدالرحمن في عنيزة، وكان من عادة أهل نجد أن من تزوج لم يخرج من بيت والده، وكنا - نحن أبناء الشيخ - نسكن والوالد في بيت واحد. ولما رزق الأخ عبدالله بأولاد طلب منه الوالد أن يسكن في بيت مستقل هو وأولاده.

وكان الوالد يهدف من وراء ذلك إلى أن يأخذ أخيه عبدالله راحته أكثر. لكن الأخ عبدالله عارض هذا الاقتراح في أول الأمر، وقال: أنا يا ولدي

مرتاح في السكن معكم، وأخشى أن يتحدث الناس عني، ويظنوا ذلك عقوقاً مني، أو يحسبوا أن بيني وبينك سوء تفاهم، وهذا ما لا أَرْضَاهُ.
فقال له الوالد: لا تهتم، دع هذا الأمر لي؛ فإذا كان هناك مناسبة أبلغتُ الناس بأن على الوالد إذا تزوج أولاده وهو مقتدر فعليه أن يأذن لهم في السكن في بيوت مستقلة.

وهكذا خرج الأخ عبدالله في بيت مستقل، ولم يتكلم الناس، بل صارت هذه الحادثة محل القدوة عند الناس، وأدركوا أن خروج الولد إذا تزوج عن منزل والده لا يعني شيئاً، وعلموا أن ذلك أفضل للمتزوج، بل ربما يكون أفضل للوالد - أيضاً - .

١٠- وهذا موقف يدل على روية الشيخ، وتركه الاستعجال في الإنكار

للأشياء الجديدة؛ حتى يتبين حقيقتها:

يقول ابنه محمد: «في يوم من الأيام كانت عندي دائرة قهوة - والدائرة تعني دوران الاستضافة على الشاي والقهوة بين مجموعة من الأصدقاء، بحيث تكون كل يوم أو كل أسبوع عند أحدهم في وقت معين إما في الضحى أو المغرب أو غير ذلك..»

يقول: وكان الوالد يفرح إذا جاء أحد عندي، وفي يوم من الأيام دخل علينا الوالد، وجلس يشرب القهوة، وكان من ضمن الحاضرين سليمان بن صالح العليان رحمته الله فسأل سليمان الوالد، وقال له: يا شيخ! الأمريكان يزعمون أنهم سيصعدون إلى القمر؟

فقال له الشيخ: ما المانع من ذلك، بإمكانهم أن يصعدوا بواسطة آلة ترفعهم أو أي سلطان آخر، ثم قرأ ﷻ قول الله - تعالى - : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ الرحمن: ٣٣.

وكان من ضمن الحاضرين عندي في ذلك اليوم عشرة أشخاص؛ فسمعوا كلام الوالد، وتعجبوا منه، بل إن بعضهم لم يستوعب السؤال والجواب؛ لأن هذا الكلام كان عام ١٣٦٠هـ تقريباً.

ولما كنت عام ١٤١٨هـ في سويسرا ذهبت إلى فندق برزدنت للسلام على الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري، وكان ساكناً في الفندق، وله جلسة قهوة وشاي بعد صلاة العصر، وكان من محبي الوالد، وكان يقول: لا أذهب إلى عنيزة إلا وأزور الشيخ ابن سعدي في بيته للسلام عليه.

ولما استقر بنا المجلس عند الشيخ التويجري في صالة الفندق، وكان الحضور خمسة عشر شخصاً، ومن بينهم أمريكي سمعت أنه كان عضواً بالكونجرس الأمريكي - تحدث الشيخ عبدالعزيز، وقال للأمريكي بواسطة المترجمين وهو يشير إليّ: والد هذا الشخص عرف أنكم أيها الأمريكان سوف تصعدون إلى القمر منذ ستين عاماً.

فتعجب الأمريكي من ذلك أشد العجب، ثم قال الأمريكي: هذا - يعني الوالد - يرى إمكانية وصولنا إلى القمر قبل ستين عاماً، ويوجد عندنا أناس كثيرون يكذبون ذلك، وينكرونه؟!

ثم التفت الأمريكي إلى الشيخ التويجري، وقال له: الشيخ ابن سعدي من أهل الجمعة؟ لأنه يعرف أن الشيخ عبدالعزيز التويجري من أهل الجمعة. فرد عليه الشيخ عبدالعزيز قائلاً: لا، بل هو من أهل عنيزة».

١١- وهذا الموقف يدور حول تعيين الشيخ عبدالرحمن للقضاء، وتكدره ورفضه لذلك، وفرحه لما علم أنه لن يعين قاضياً:

يقول ابنه محمد - حفظه الله -: «في عام ١٣٦٦هـ تقريباً مرت بالوالد الشيخ أزمة قوية أثرت على نفسيته وصحته.

وسبب ذلك خبر بلغ الوالد مفاده أنه سيعين قاضياً في عنيزة. وهذا الأمر مما لا يرغبه الوالد؛ فسافر إلى مكة المكرمة، وحرص على كتمان ذلك عن الناس.

وقد صحبه في تلك الرحلة الحرابي صاحب السيارة، وصالح العبدلي، وعبدالرحمن بن عبدالعزيز البسام.

وكنت مع الوالد في مكة في بيت أخي عبدالله ﷺ. وكان عندنا في البيت أبو عبود صالح العباد، ومحمد بن منصور الزامل. وفي تلك الأيام اشتدت الأمور على الوالد؛ خوفاً من إزمته بالقضاء، وكان يقول: أهل عنيزة أصدقائي، فإذا أصبحت قاضياً صار نصفهم أصدقائي، والنصف الباقي أعدائي، وهذا لا يمكن أن يحدث - بإذن الله - وكأنه يستحضر بيت ابن الوردي الذي يقول فيه:

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأعمال هذا إن عدل

وكان الوالد لا يرغب أبداً في القضاء؛ تورعاً؛ لأنه يرى أن القضاء صعب، وأنه ربما عاقه عما هو بصدده من التعليم والإصلاح، والتأليف.

واشتد عليه الأمر لما بلغه أن الملك عبدالعزيز رحمه الله في عنيزة تلك الأيام، وأنه قال للأمير: «لقد رأينا تعيين الشيخ ابن سعدي قاضياً لكم يا أهل عنيزة».

ولقد تكدر الوالد لذلك أشد التكدير؛ حتى كان يُغمى عليه في بعض الأوقات، وكان لا يشتهي الطعام إذا مرت بخاطره تلك الأخبار.

كل ذلك مع أن الوالد لم يُبلِّغ رسمياً، بل هي مجرد أخبار.

وكان لدى الوالد أمل، وثقة بلطف الله، وأنه - عز وجل - سيصرف عنه ذلك الخطب.

وكان رحمه الله يذهب في آخر الليل إلى المسجد الحرام هو وأبو عبود، ومحمد ابن منصور الزامل، والأخ عبدالله، فيصلون، ويطوفون حتى صلاة الفجر، وبعدها يجلسون في الحرم إلى أن ترتفع الشمس.

أما أنا فقد كنت شاباً صغيراً أقوم وأصلي في المسجد القريب عند بيت أخي عبدالله، وبعد الصلاة أرجع وأنام؛ حتى يأتي الوالد ومن معه؛ فأقوم وأصحابهم إلى من استضافهم على الإفطار.

وفي يوم من تلك الأيام نمت كالعادة بعد صلاة الفجر، فرأيت فيما يرى النائم رؤيا لم تغب عن بالي إلى يومنا هذا؛ حيث رأيت حيةً ضخمة كبيرة طويلة، رأيتها خارجة من جبل، ثم تعلقت، ولم تستطع التحرك من مكانها، وصار الناس ينظرون إليها من بعيد، وأخذوا يتكلمون في شأنها، وكانوا في شأنها على

ثلاثة آراء: أناس يقولون: دعونا نشق الجبل، ونخرج الحية، وأناس قالوا: بل نرمي عليها حجارة من أعلى الجبل حتى تموت، وأناس قالوا: بل دعوها وشأنها سواء طلعت أو رجعت؛ فلا تحركوها، ولا تقربوا منها.

ثم استيقظت من النوم، والناس قد تركوا الحية على حالها.

ولقد كان الناس في عزيمة حيال شأن الوالد على ثلاثة آراء: أناس يتمنون أن يصرف الله القضاء عن الوالد، وأناس يتمنون أن يكون قاضياً للبلد، وأناس قالوا: ندع الخيار لله - وحده - ونسأله - عز وجل - الخيرة في أمرنا.

وبعد أن جاء الوالد ومن معه من الحرم خرجنا جميعاً من بيت أخي عبدالله إلى بيت رجل من الجماعة استضافنا على الإفطار.

وكنت غير مكترث بالرؤيا، ولم ألق لها بالاً، وكان الوالد ومحمد الزامل والأخ عبدالله يتقدمونني بمسافة عشرة أو خمسة عشر متراً؛ فكنت أسير خلفهم أنا وأبو عبود؛ فحدثت أبو عبود عن الرؤيا وهو منصت قد أخذه العجب، وبعدما فرغت من كلامي انطلق نحو الوالد، وهو ينادي: يا شيخ يا شيخ، فوقف الوالد، فقال أبو عبود: أما سمعت رؤيا ابنك محمد فقال الوالد: خير - إن شاء الله - فقصصت الرؤيا على الوالد، وهو منصت، والجماعة يسمعون كلامي، فلما انتهيت، قال الوالد: خيرٌ يكون، أو شرٌّ يهون، يا ولدي إن صدقت رؤياك فأنا - إن شاء الله - تخلصت من القضاء.

وبعد مُضيِّ ثلاث ساعات من هذا الموقف جاء الوالد ثلاثُ برقيات بواسطة عبدالله بن محمد العوهلي برقيتان من الرياض: واحدة من آل قاضي، والثانية

من عبدالعزيز بن صالح الحماد، وكان يعمل بالديوان الملكي وعلم من البرقيات المرسلة من الرياض إلى عنيزة أنه تم تعيين شخص غير الوالد قاضياً في عنيزة، وأن الملك عبدالعزيز رحمه الله قال: اتركوا ابن سعدي.

وقد وصلت البرقيات للوالد باسم العوهلي، وكان بحمي الجودرية، وكان شريكاً للأخ عبدالله.

والبرقية لغز يبشر الوالد أنه خرج من المستشفى، وبرقية آل قاضي - أيضاً - لغز.

أما البرقية الثالثة فهي من عنيزة من عبدالعزيز العوهلي يبشرون الوالد، بخلاصه من القضاء.

المهم أنه لم يأت وقت صلاة الظهر إلا وكان عدد البرقيات ثلاث؛ ففرح الوالد في ذلك اليوم فرحاً شديداً، وخفت آلامه، وكان متردداً في الذهاب إلى عنيزة؛ خوفاً من تولي القضاء.

لكنه لما سمع الأخبار المفرحة قرر من فوره الرجوع إلى عنيزة والحمد لله رب العالمين».

١٢- وهذا موقف يبين حب الناس للشيخ عبدالرحمن السعدي، ورغبتهم في مصاحبته في السفر، وأن ذلك من الأمانى التي يتشوفون إليها؛ لما كان عليه الشيخ في السفر من طيب المعشر، وسخاوة النفس، وخدمة الأصحاب..

يقول ابنه محمد: «في إحدى السنوات أراد الوالد الحج، وكان حمد الجبهان صاحب سيارات من عنيزة، وكان طيب النفس، ينفع الناس، ويقوم بخدمة

البريد بدون مقابل؛ فلما أراد الوالد الذهاب إلى مكة أعلم حمد الجبهان بذلك، وقال: احجز لي مكاناً على أول سيارة ولكن لا تخبر أحداً بذلك.

ولكنَّ حمداً هذا لم يصبر؛ فمن شدة فرحه بصحبة الشيخ، ورغبته في إدخال السرور على الناس، ولطيبته الزائدة - قام في سوق عنيزة منادياً بصوت مرتفع: من يرغب السفر إلى مكة في هذه السيارة؛ لأن فيها رجلاً سيسافر، وكلكم تحبون، وترغبون في السفر معه، ولكن لن أخبركم باسمه.

وما إن قال ذلك حتى علم أهل عنيزة بذلك الشخص، وأنه هو الشيخ عبدالرحمن السعدي؛ فبدأوا بالزحام للحجز في هذه السيارة».

١٣- وهذا موقف يدل على دعاية الشيخ، ومزاحه مع أحبائه وأصحابه.

يقول ابنه محمد: «كان لوالدي رحمته الله قريب اسمه محمد منصور بن إبراهيم السعدي، وهو صديق للوالد، وقد ولدا في ليلة واحدة؛ حيث ولد محمد أول الليل تقريباً، والشيخ عبدالرحمن ولد عند الفجر؛ فصار محمد يكبر الشيخ بثمان ساعات.

ولما كبراً صارت لحية الشيخ عبدالرحمن بيضاء جداً، أما لحية محمد المنصور فكانت سوداء قليلة البياض؛ فإذا اجتمع الوالد مع محمد في مناسبة عند أحد الأصدقاء قال الوالد: محمد المنصور أكبر مني بثمان، ويسكت رحمته الله دون أن يبين ما هذه الثمان؛ فيظن الظان أن محمداً أكبر من الشيخ بثمان سنوات؛ خصوصاً وأن محمداً لا يتكلم؛ احتراماً للشيخ، وهو يعلم أن الوالد يمزح.

وحين يبلغ بالحاضرين العجب يخبرهم الشيخ بأن محمداً أكبر منه بثمان

ساعات» .

١٤- وهذا موقف يبين لطافة الشيخ مع أهل بيته، ومزاحه وحرصه على إدخال السرور عليهم؛ حيث كان ذلك دأبه.

يقول ابنه محمد: «الوالد - كغيره - يدرك أن النساء يتضايقن من حديث أزواجهن عن الزواج عليهن؛ فكان ﷺ يمزح مع الوالدة، ويقول لها: أريد أن أتزوج بثانية، ويسميها ب: أم إبراهيم خصوصاً إذا رأى الوالدة متعبة من عمل المنزل.

وفي يوم من الأيام رآها كذلك، فقال: يا أم عبدالله ما رأيك أحضر لك أم إبراهيم تعينك على عمل المنزل، وتريحك؟ فإذا سمعت الوالدة ذلك غضبت على الوالد، وشرعت في عتابه، وأظهرت النشاط.

وفي يوم من الأيام دخل الوالد المجلس، وأشعل النار، وصنع القهوة والشاي، وأحضر وسادة كبيرة، وألبسها عباءة، فصار الذي يراها من الخلف يظنها امرأة، وسمى هذه الوسادة المغطاة بالعباءة أم إبراهيم.

ووافق ذلك وجود عماتي وهن أكبر من الوالد سناً، ووجود بعض القريبات من محارم الوالد؛ فأتى إليهن وهن جالسات مع الوالدة، وقال: تفضلن عندي بالمجلس أم إبراهيم تدعوكن؛ فأجيبوا، وسلموا عليها؛ هي تنتظركن في المجلس. فقمْنَ كلهن والوالدة معهن، وعندما دخلن القهوة رأين ذلك أمامهن؛ فظننَّ أنها امرأة حقيقية، غير أن الوالدة كانت تعلم أنها ليست كذلك، وإنما هي مزحة

من الوالد - كما هي عادته - فقامت وأخذت شيئاً من الأرض ، وضربت الوسادة المغطاة بالعباءة ، فسقطت العباءة ، وتبين أن المغطى وسادة لا امرأة؛ فتعالت الضحكات ، وصارت تلك الحادثة تروى ولا تنسى إلى يومنا هذا» .

١٥- وهذا موقف قريب من الموقف السابق ، يقول محمد بن الشيخ عبدالرحمن : « للوالد مواقف كثيرة مع الوالدة؛ فهو يحب مداعبتها خصوصاً إذا كانت مجهدة ، فإذا كنا على غداء أو عشاء أقول للوالدة: حبذا لو تأذنين لنا بإحضار خويدمة ، تساعدك ، وتخدم الوالد ، ويتزوجها حتى لا تحتجب عنه . فإذا سمع ذلك الوالد فرح ، وأخذ يمدحني ، ويقول: هذا هو الولد الحبيب البار بأمه وأبيه ، لكن أنتِ يا أم عبدالله ما رأيك ، وماذا يضريك؟ وحين تسمع أمي ذلك يذهب عنها التعب ، وتبدأ بالتظاهر بالنشاط؛ لترى الوالد أنها ما زالت شابة ، ثم تبدأ بالعتب عليّ ، وتقول: أنت يا محمد ولدي ، وتريد أن تحضر لي ضرة؟ والوالد يسر كثيراً من كلامي ، ومن رد الوالدة» .

١٦- وهذا موقف يدل على تنوع علم الشيخ ، واتساع أفقه ومداركه .

يقول ابنه محمد : « لما كنت في مدينة الجبيل رسمت خارطة كبيرة طولها ثلاثة أمتار تقريباً ، وقد اقتبست هذه الخارطة من كتاب أطلس العالم ، ورتبتها ، ولونتها ، ووضعت عليها مسارات السفن ، وعدد الأميال من بلد إلى بلد ، وكذلك حدود الدول .

وفي السنة التي بايع فيها الوالدُ الملكَ سعوداً رحمته الله بالرياض هو والوفد الذين

جاءوا معه من وجهاء عنيزة - رجع الوفد إلى عنيزة، أما الوالد فوجدها فرصة لزيارة المنطقة الشرقية والسلام على العم سليمان؛ فسكن الوالد عندي في مدينة الخبر، وفي الصباح أذهب به إلى العم سليمان في مدينة الدمام. وفي أثناء زيارته شاهد الخارطة التي عملتها، وقد كنت محتفظاً بها؛ فأعجب الوالد بالخارطة؛ لكبرها، ووضوحها، وكونها باللغة العربية. وقال: يا وليدي هذه خارطة جميلة، ونريدها لمكتبة عنيزة؛ فأجبت طلبه، ووضعت في مكتبة عنيزة.

وفي إحدى السنوات حضر الوزير عبدالله بن سليمان إلى عنيزة، وزار المكتبة، ورأى الخارطة، وأعجب بها، وسأل عمن صنعها؛ فقال له الوالد: إنها من صنع الولد محمد، فطلبها الوزير، فأعطاه الوالد إياها، وكان بينه وبين الوزير محبة متبادلة؛ فكان الوالد يحب الوزير لفضله على عنيزة وعلى طلبة العلم خصوصاً، والوزير كذلك كان يحب الوالد، ولا يرد له طلباً.

وكان للوالد اهتمام بالجغرافيا، وكان كثير الاطلاع على الخرائط الجغرافية. وفي إحدى السنوات أحضرت له هدية، وهي عبارة عن مجسم للكرة الأرضية، وهذا المجسم يدار باليد حول محور فيه.

وكان ﷺ يكرر النظر في المجسم، ويحركها، ويسألني عنها، وأجيب عن أسئلته، وأشرح له بعض المصطلحات الجغرافية وهو منصت لي كالتالي بين يدي معلمه.

وكانت تلك الأيام أيام الحرب العالمية الثانية؛ فإذا سمع من بعض الناس

أغلاطاً رد عليهم خصوصاً فيما يتعلق بالحدود الجغرافية، ومواقع الدول، ومساحاتها، والمتحاربة منها، وكيف أن الدولة الفلانية تحد الدولة الفلانية، وعن أي طريق يتم ذلك وهكذا، والناس يعجبون من كلام الشيخ، ومعرفته، وقدرته على الإقناع.

ومن سمعه ظن أنه متخصص في الجغرافيا من دقة معرفته فيها.

والوالد رحمته الله محب لهذا العلم، وذلك نابع من اهتمامه بأمر المسلمين، وعلم الجغرافيا يمه بالتصور التام لما هو بصدده.

والذي يتأمل في بعض كتبه يلحظ ذلك جلياً.

بل كان رحمته الله يصحح بعض المفهومات الخاطئة في هذا العلم.

١٧- وهذا موقف يدل على اهتمام الشيخ بالأحداث العالمية.

يقول ابنه محمد: «في حياة الوالد رحمته الله كان وجود المذياع - الراديو - نادراً؛ لأسباب عديدة، منها غلاء ثمنه، ولعدم وجود أماكن لبيعه، ولأن الناس لم يتقبلوه في بداية الأمر.

وفي ذلك الوقت كان في عنيزة راديو مشهور وهو موجود في بيت عبدالرحمن بن مقبل الذكير الذي يعد أول من أحضره لعنيزة.

وفي وقت الحرب العالمية الثانية كان الناس يتشوقون لسماع الأخبار، وخصوصاً أخبار الحرب العالمية، وكان الوالد رحمته الله من المتابعين لأحداثها.

وإذا خرجت مع الوالد من المسجد بعد صلاة العشاء مررنا في طريقنا ببيت عبدالرحمن الذكير، فيطلب الوالد مني الوقوف للاستماع إلى المذياع الموجود في

بيت الذكير؛ حرصاً على سماع الأخبار؛ لأن عبدالرحمن الذكير رحمه الله يرفع صوت المدياع؛ ليسمعه الناس المجتمعون في مجلسه، والذين هم خارج المجلس».

١٨- وهذا موقف يبين كيفية تعامل الشيخ رحمه الله مع خصومه، ومعارضيه، وكيف كان يداريهم، ويحرص على تضييق هوة الخلاف.

يقول ابنه محمد - حفظه الله - : «كان في عنيزة رجل من أهل العلم، وكان يعارض أفكار الوالد، وينال منه في بعض المسائل العلمية، ويتكلم، ويسيء إليه في بعض المجالس، ويرد على أقواله واجتهاداته في مسائل عديدة.

ولما علم الوالد بذلك صار يبعثني إلى ذلك الشخص برسائل يخبره فيها أنه راغب في الاجتماع به، ومحب لاستماع وجهة نظره حيال المسائل التي يخالفه فيها، وأنه يود التفاهم معه بصورة ودية؛ حتى لا يحدث عند الناس بلبلة وفتنة. وذكر له الوالد في معرض تلك الرسائل أنه إذا كان مخطئاً فسوف يتراجع، وإذا كان الحق مع الوالد فيجب على الآخر ترك الوالد وشأنه.

وكانت أغلب اعتراضات ذلك الرجل في مسائل فرعية يسوغ فيها الخلاف. وكنت في ذلك الوقت صغير السن، وكان الوالد لا يرغب أن يعلم أحد بتلك الرسائل؛ بغية الإصلاح، ورغبة في عدم إشغال الناس بتلك الاعتراضات. وبعد فترة عرفت القصة، وأدركت مضمون تلك الرسائل من بعض أصدقاء الوالد الذين كانوا يتناقشون بخصوص اعتراضات ذلك الرجل.

وقد طلب بعضهم من الوالد أن يلتقي ذلك الرجل في مجلس خاص، للمناظرة في تلك المسائل، فاستجاب الوالد، ولكن لم يتم اللقاء؛ حيث انتقل

ذلك الرجل إلى بلد آخر» .

هذا وإن لهذه القصة شاهداً في بعض كتب الشيخ رحمته الله حيث ذكر ذلك على سبيل العموم؛ لبيان كيف يتعامل الإنسان مع من يخالفه، فقال رحمته الله في كتابه الفتاوى السعدية ص ٤٧ المسألة الرابعة عشرة: «يعجبني ما وقع لبعض أهل العلم وهو أنه كتب له إنسان من أهل العلم والدين ينتقده انتقاداً حاراً في بعض المسائل، ويزعم أنه مخطئ فيها؛ حتى إنه قدح في قصده ونيته، وادعى أنه يدين الله ببغضه بناءً على توهم خطئه، فأجاب المكتوب له:

يا أخي إنك إذا تركت ما يجب عليك من المودة الدينية، وسلكت ما يحرم عليك من اتهام أخيك بالقصد السييء على فرض أنه أخطأ، وتجنبت الدعوة إلى الله بالحكمة في مثل هذه الأمور - فإني أخبرك قبل الشروع في جوابي لك عما انتقدتني عليه: بأنني لا أترك ما يجب عليّ من الإقامة على مودتك، والاستمرار على محبتك المبنية على ما أعرفه من دينك؛ انتصاراً لنفسية، بل أزيد على ذلك بإقامة العذر لك في قدحك في أخيك بأن الدافع لك على ذلك قصدٌ حسن، لكن لم يصحبه علم يصححه، ولا معرفة تبين مرتبته، ولا ورع صحيح يوقف العبد عند حده الذي أوجبه الشارع عليه؛ فلحسن قصدك عفوتُ لك عما كان منك لي من الاتهام بالقصد السييء؛ فهب أن الصواب معك يقيناً، فهل خطأ الإنسان عنوانٌ على سوء قصده؟ فلو كان الأمر كذلك، لوجب رمي جميع علماء الأمة بالقصود السيئة، فهل سلم أحد من الخطأ؟! وهل هذا الذي تجرأت عليه^(١) إلا

1 - يعني من الكلام، والرمي بالتهمة.

مخالف لما أجمع عليه المسلمون من أنه لا يحل رمي المسلم بالقصد السييء إذا أخطأ، والله - تعالى - قد عفا عن خطأ المؤمنين في الأقوال، والأفعال، وجميع الأحوال؟

ثم نقول: هب أنه جاز للإنسان القدح في إرادة من دلت القرائن والعلامات على قصده السييء، أفيحل القدح فيمن عندك من الأدلة الكثيرة على حسن قصده، وبعده عن إرادة السوء ما لا يسوغ لك أن تتوهم فيه شيئاً مما رميته به؟ وإن الله أمر المؤمنين أن يظنوا بإخوانهم خيراً إذا قيل فيهم خلاف ما يقتضيه الإيمان، فقال - تعالى - : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ النور: ١٢.

واعلم أن هذه المقدمة ليس الغرض منها مقابلتك بما قلت؛ فإني كما أشرت لك: قد عفوت عن حقي إن كان لي حق، ولكن الغرض النصيحة، وبيان موقع هذا الاتهام من العقل والدين والمروءة الإنسانية.

ثم إنه بعد هذا أخذ يتكلم عن الجواب وعن انتقاده بما لا محل لذكره هنا.

١٩- وهذا موقف يدل على مراعاة الشيخ لأدب الاستماع، ومراعاة حال المتكلم، وترك مقاطعته، أو الاستخفاف بحديثه ولو كان معلوماً مكروراً.

يقول ابنه محمد - حفظه الله - : «كان الناس يتوددون للوالد، ويحرصون على صحبته، وتجادب أطراف الحديث معه، وقد كان يبادلهم الشعور نفسه.

وفي أيام الحرب العالمية الثانية كان الناس يتحدثون مع الوالد، وينقلون له أخبار الحرب، وما سمعوه عنها؛ فيأتيه الواحد منهم ولديه خبر أو قصة سمعها

من شخص أو من المذيع؛ فينقله للوالد، والوالد يصغي إليه، وينصت لحديثه، ويشكره، ويبيدي إعجابه، ثم يأتي شخص آخر، فينقل له الخبر نفسه، فيصنع معه الوالد صنيعه مع الأول، فيظن المتكلم أن الوالد لم يسمع الخبر إلا منه، فيشتد فرحه، والوالد يظهر إعجابه، وكأنه لم يسمع الحديث إلا الآن.

وهكذا يتكرر ذلك مع أكثر من شخص؛ فيصنع معهم الوالد كذلك؛ لأجل التحبب إليهم، وجبر خواطريهم، وكسب قلوبهم، وتربيتهم على أدب الحديث والاستماع.

وقد وقفت مراراً على أشياء من هذا القبيل؛ فكان ذلك من جملة الأسباب التي غرست محبته في قلوب الخاصة والعامة».

٢٠- وهذا موقف يحكي قصة مرض الشيخ عبدالرحمن رحمته الله وسفره إلى لبنان

للعلاج، وبعض ما حدث في تلك الرحلة من أخبار.

يقول الأستاذ محمد ابن الشيخ عبدالرحمن: «في عام ١٣٧٣هـ أصيب الوالد رحمته الله بارتفاع حاد في ضغط الدم، فأثر ذلك على صحته؛ فلما علم الملك سعود رحمته الله بذلك أمر بإرسال طائرة خاصة من الطائف إلى بريدة، وكان فيها اثنان من الأطباء المتخصصين؛ فلما هبطت الطائرة في مطار بريدة اتجه الطبيبان إلى منزل الوالد؛ للكشف عليه؛ فقررا نقله إلى لبنان؛ لأن حالته شديدة، وقال أحدهما: إنه سيتم الكشف عليه مرة أخرى في المستشفى الجامعي ببلبنان، وتُجرى له الفحوصات الدقيقة؛ فإذا أمكن علاجه في لبنان فالحمد لله، وإلا ينقل إلى أوروبا للعلاج.

وهكذا تم نقله إلى لبنان، وقد رافقته في تلك الرحلة، وكان معنا أبو عبود صالح العباد رحمته الله وهو أحد محبي الوالد؛ فكان الوالد يحبه، وكان يؤنس الوالد، ويصنع له القهوة والشاي، وكانا يصليان في المستشفى آخر الليل جميعاً، وكان الوالد يرتاح له كثيراً، ويلغي الكلفة بينه وبينه، وقد كان على متن الطائرة المتوجهة إلى لبنان سبعة أشخاص: الطيار، ومسؤول اللاسلكي، وطيبان، والوالد، وصالح العباد، وأنا.

وكان مع الوالد ألفا ريال فضة، ولما أخذنا أماكننا في الطائرة ناداني الوالد، وقال: يا محمد فرّق الألفين عليهم، وكانت تعادل في ذلك الوقت عشرين ألف ريال أو أكثر في وقتنا الحاضر؛ فأعطيت كل واحدٍ ممن معنا خمسمائة ريال فضة؛ ففرحوا بذلك، وشكروا للوالد صنيعه.

وأثناء الطيران كان الاتصال مباشراً بيننا وبين الديوان الملكي حتى وصلنا إلى لبنان، وكان الملك سعود رحمته الله يسأل عن الوالد وهو في الطائرة.

ومن الطريف في هذه الرحلة أن الأطباء لم يُحضروا معهم جوازاتهم، وقبل وصولنا إلى لبنان أخبروني بذلك، وقالوا: نحن لبنانيون، ولكن لم نكن نتوقع أننا سنسافر إلى لبنان؛ لذا لم نحضر جوازي السفر؛ فطلبوا مني أن أتدارك الوضع؛ فاتصلت بسفارة المملكة بلبنان عبر اللاسلكي ونحن في الطائرة، وأخبرتهم بحال الأطباء، وأنهم من قبل الملك سعود، وأنهم لم يحضروا جوازات السفر؛ فتمت الاتصالات بين السفارة السعودية والحكومة اللبنانية، وتم إعطاء الإذن لهم بالدخول.

وعندما وصلنا إلى مطار بيروت، وفتح باب الطائرة - كان في استقبالنا السفير السعودي، وسليمان الغنيم رحمته الله وطيبان من الجامعة الأمريكية، وسيارة إسعاف؛ فصعد الطيبان إلى الطائرة، وتحدثوا إلى الوالد، وقاموا بالفحوصات الأولية، وطمأنوه على صحته، وأعلموه باستقرار حاله، ثم نقلوه إلى المستشفى الأمريكي.

وكانت مدة مكث الوالد في المستشفى أسبوعاً على وجه التقريب. وفي هذا الوقت أعد سليمان الغنيم - جزاه الله خيراً ورحمه - بيتاً للوالد بمدينة عالية بجبل لبنان، وكان هذا البيت كبيراً، وقد جعل فيه خادماً، وطباخاً، وسيارة خاصة للشيخ الوالد.

وبعد خروج الوالد من المستشفى واستقرار صحته ذهبنا إلى المنزل في عالية، ومكثنا فيه مدة شهر تقريباً.

وكان طيلة فترته يحن إلى عنيزة، ويرغب كثيراً في الرجوع إليها؛ ففي كل يوم يسأل عن وصول الطائرة التي تُقلُّه إلى الوطن؛ لأن تلك الأيام أيام موسم الحج، والطائرات التي تأتي نادرة.

ولما كنا في لبنان قمنا بزيارة إلى دمشق مدتها يوم واحد، فكانت فرصة للوالد؛ كي يزور قبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله والسلام عليه، والدعاء له؛ فقد كان الوالد محباً لابن تيمية، متأثراً به.

وفي تلك الفترة كنت أنزل من مكان إقامتنا في جبل عالية إلى بيروت؛ لمراجعة السفارة السعودية؛ لمعرفة موعد وصول الطائرة التي سنرجع عليها إلى المملكة، ولأجل البريد.

أما الوالد فيبقى في المنزل هو وصالح العباد يستقبلان الناس من المعارف والأقارب وغيرهم ممن يفدون لزيارة الوالد.

وقد زار الوالد في محل إقامته خلقٌ كثير، وكان من بينهم أعضاء جمعية عباد الرحمن يتقدمهم رئيسهم الشيخ عمر الداعوق رحمته الله.

وقد طلب الأطباء من الشيخ في تلك الفترة أن يدع القراءة؛ لأن ذلك يتعبه، وطلبوا منه الراحة التامة، وألا يجهد فكره.

ولما كان في المستشفى اشترت له كتاباً عنوانه: (دع القلق وابدأ الحياة) للمؤلف الأمريكي دايل كارنيجي، وهو مدير معهد تدريب في أمريكا.

وقد قرأ الوالد الكتاب، وأعجب به، وبمؤلفه، وقال: إنه رجل منصف. وكان للوالد صديق عزيز عليه من أهل عنيزة، وكان يعاني من مرض نفسي، ومكث في بيروت مدة سنتين للعلاج ولم يستفد، فأعطاه الوالد ذلك الكتاب، وقال له: اقرأه؛ فهو مفيد جداً؛ فقرأه، وأفاد منه، وتأثر بما فيه، وتحسنت صحته، بل شفي من مرضه.

وقد أمرني الوالد بشراء نسخة أخرى من هذا الكتاب؛ لكي يوضع في مكتبة عنيزة التي أنشأها الوالد، فاشترت الكتاب، وأعطيته الوالد، ولما عدنا إلى عنيزة وضعه الوالد في المكتبة، واستعاره عدد كثير من طلاب الوالد.

ولما كان الوالد في مقر إقامته في لبنان أرسل أبا عبود إلى السوق؛ ليشتري أوراقاً وأقلاماً؛ لأنه عزم على تأليف رسالة على ضوء ما كتبه كارنيجي في كتابه المذكور، ثم شرع الوالد في ذلك، فتم له تأليف كتابه الصغير حجماً كبيراً نفعاً: (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة).

فصارت الأيدي تتناوله، والقراء يتداولونه؛ فعم النفع به، واستدرك من خلاله كثيراً من الأمور التي فاتت كارنيجي من أصول السعادة. وقد طبعت تلك الرسالة مراراً كثيرة جداً في حياة الشيخ وبعد مماته. وإلى يومنا هذا والطلبات من الداخل والخارج تتكرر لأجل طباعتها، بل إن بعض الجمعيات التي تعنى بالطب النفسي تبنت طباعتها، وطبعت منها خمسين ألف نسخة مجانية».

ويقول الأستاذ محمد مييناً بعض ما حصل في تلك الرحلة: «ولما كان الوالد في لبنان وافق وجود أسرة عمي حمد بن علي القاضي - أخو الوالد من الأم -.. ولما علم العم حمد بوصول الوالد إلى لبنان أرسل إلى أسرته يقول لهم: اذهبوا إلى عمكم، وسلموا عليه في مكان إقامته في عالية، وأوصاهم بوصايا، وقال لهم: الله الله بالأدب والاحترام، والتقدير لعمكم.

وبعد ذلك حضر لبيت الوالد ثلاث من بنات عمي ووالدتهم، وفرح والدي بهم كثيراً، وباسطهم، وتجادب معهم أطراف الأحاديث، وأذهب عنهم الوحشة والكلفة؛ فسروا بذلك كثيراً.

ولما عادوا إلى مكانهم كتبوا إلى والدهم: لقد وجدنا عمنا سمحاً، ليناً، هيناً،

بل هو أسمح منك ، وقد بسطنا كثيراً؛ فما الذي جعلك تخيفنا منه؟ مع أن الواقع كان بخلاف ذلك» .

٢١- وهذا موقف يُبينُ عن بعض أخلاق الشيخ في السفر؛ فقد كان يسافر أحياناً على السيارة، وكانت السيارة المستأجرة في وقته هي السيارة المعروفة بالوانيت، وهي عبارة عن غمارة، وصندوق؛ والمقصود بالغمارة المكان المغطى بالحديد من أعلى بالزجاج الأمامي، والزجاج الذي على باب السائق والراكب.

وهذا المكان مخصص للسائق، واثنين أو ثلاثة من الركاب.

والغمارة درجة أعلى من الصندوق الذي يتسع لعدد أكثر ولكنه أقل امتيازاً وراحة بالنسبة للغمارة؛ فالصندوق عبارة عن حوض مكشوف يجلس فيه الركاب مع أغراضهم، وحاجاتهم، وربما مواشيهم.

يقول ابنه محمد: «عندما يسافر الوالد بالسيارة كان يتنقل ما بين الغمارة والصندوق؛ فكان يياسط السائق، ثم إذا أحس منه بإعياء انتقل إلى الصندوق؛ لكي يعطي السائق - إذا كان مدخناً - فرصة للتدخين؛ لأنهم يخرجون من التدخين أمام الشيخ.

ولم يكن الشيخ ليقهرهم على ذلك، وإنما هي حكمة سلكها الشيخ مع هؤلاء؛ فهم يحتاجون إلى وقت طويل لنصحهم، والأخذ بأيديهم إلى الإقلاع عن التدخين.

ثم إن في ذلك مصلحة أخرى وهي الحفاظ على أرواح الركاب؛ لأن هؤلاء المدخنين يصابون بالصداع إذا طال عليهم الوقت ولم يدخنوا، وقد يغفلون عن

الطريق ، وينحرفون عنه.

ولقد كان لهذه الطريقة الحكيمة أثر على السائقين ، بل إن بعضهم أقلع عن التدخين ، وازداد حبهم للوالد بسبب هذا المسلك الرائع .
وإذا كان معهم في السفر نساء فإنهن يكن في مقدمة صندوق السيارة ، ويكون الرجال في الخلف على حمولة السيارة؛ فالوالد يغتنم هذه الفرصة للحديث ، والتعليم ، والفتيا ، ويرفع صوته لأجل أن يسمع الرجال والنساء على حد سواء .
وإذا نزلوا في مكان في الطريق سار مسافة ، أحضر معه ما يجده من حطب لأجل إشعال النار ، وعمل ما يُراد عمله من طبخ طعام ، أو إصلاح شاي أو قهوة» .

٢٢- وهذا موقف يتجلى فيه ذوق الشيخ ، ورهافة حسه ، ومراعاته للمشاعر.

يقول ابنه محمد: «ذكر لي أخي أحمد رحمته الله قائلاً: في يوم من الأيام كان الوالد مدعواً إلى مجلس بعد صلاة العشاء ، وكنت مرافقاً للوالد .
وبعد انتهاء المجلس خرجت مع الوالد قاصدين منزلنا ، وكان الوقت وقت أمطار ، والشوارع مليئة بالمياه ، والطين ، وكانت مظلمة؛ حيث لا توجد أنوار في ذلك الوقت؛ مما جعل السير صعباً .

وفي أثناء سيرنا شاهدت أحد كبار الجماعة يسير أمامنا على بعد خمسين متراً ، فزلق في الطين ، ثم قام وقد ابتلت ثيابه ، واتسخت وهو لا يدري أننا خلفه؛ فذكرت ذلك للوالد ، وكنا قريبين من مفترق طرق؛ فقال رحمته الله دعنا نذهب من الطريق الثاني؛ حتى لا يرانا؛ فيخجل ، ويتحرج من رؤيتنا له على تلك الحال؛ فسلطنا الطريق الآخر مع أنه أبعد بالنسبة لنا .

وهذا من حكمة الشيخ وذوقه ، ومراعاته لمشاعر الآخرين» .

٢٣- وهذا موقف تتجلى فيه رحمة الشيخ ، وحكمته ، وحسن تعليمه.

يقول ابنه محمد: «كان الوالد يمشي في الشارع ، فمر به رجل يضرب حماراً له ، ويزجره بشدة وقسوة؛ فقال له الوالد: حرام عليك هذا الفعل ، أين الرحمة؟ فقال له صاحب الحمار: يا شيخ هذا الحمار لا يمشي.

فاقترب الوالد من الحمار ، وأمسك بالحبل المربوط على عنقه ، وجره بهدوء ، فمشى الحمار ، فتعجب الرجل ، وقال للوالد: حتى الحمار يعرف إنك شيخ ، ويطيعك؛ فضحك الوالد ، ولم يعاتبه» .

٢٤- وهذا موقف يُبين عن سخاء الشيخ ، وعطفه على الفقراء.

يقول ابنه محمد: «روى الأخ عبدالرحمن بن سليمان بن عبدالرحمن البسام قائلاً: في يوم من الأيام المطيرة الباردة وأنا في العاشرة من عمري كنت ذاهباً إلى صلاة الظهر ، فشاهدت أمامي الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمته الله وجماعة المسجد قد صعدوا إلى سطح المسجد؛ لأن الشمس قد طلعت ، فصعدوا؛ كي يستدفؤوا تحت حرارة الشمس.

وأثناء صعود الشيخ للسطح من أجل الصلاة بالناس أبصر أحد الفقراء وقد جمع بدنه بيديه وهو ينتفض من شدة البرد؛ فرجع الشيخ درجات؛ كي لا يراه أحد من الناس ، وخلع بشته - عباءته - وخلع ثوبه العلوي - وكان من عادة بعض الناس في ذلك الوقت أن يلبس في الشتاء ثوبين - وقام بلف الثوب ثم لبس عباءته ، وصعد الدرج مرة أخرى ، وقابل الفقير ، وأعطاه الثوب؛ فتبلجت

أسارير الفقير، وصلى الشيخ بالجماعة، ولم يلحظ أحد شيئاً مما حصل إلا أنا دون علم الشيخ برؤيتي لما حصل؛ فتعجبت من ذلك الفعل، ولا زال عالقاً في ذهني».

٢٥- وهذا موقف يدل على تشجيع الشيخ، وحسن تربيته للصغار.

يقول ابنه محمد: «روى لي الأخ عبدالرحمن البسام - الذي ذكر الموقف السابق - قائلاً: إنني في يوم من الأيام كنت جالساً في ركن من سطح المسجد، وكنت أقرأ القرآن، وأنا صغير السن؛ فجاء الشيخ عبدالرحمن رحمته الله وصلى ما كُتِبَ له، ثم التفت إلي وقال: تريد يا عبدالرحمن أن أتدارس أنا وإياك القرآن؟ فقلت: نعم يا عم، فجلست بجانبه، وقال لي: تقرأ أولاً أو أقرأ أنا قبلك؟ فقلت: بل تقرأ أنت يا عم أولاً؛ فشرع الشيخ رحمته الله بقراءة سورة (النبأ) عن ظهر قلب، وأنا أسمع وأتابع له؛ فلما انتهى من السورة بدأت بالقراءة من سورة (النازعات) وهو يستمع ويتابع، ثم قرأ سورة (عبس) وغلط رحمته الله فرددت عليه، وأنا لا أعرف هل غلط حقيقة، أو أنه تعمد الغلط؛ لأجل أن أرد عليه؛ فيتأكد من متابعتي له.

وفي تلك الأثناء جاء والدي ونحن في مجلسنا ذلك، فقال له الشيخ: يا أخ سليمان تعال انظر إلي ولدك عبدالرحمن رد علي؛ لأنني غلطت وأنا شيخ، وهو ما غلط.

وقد أراد رحمته الله من ذلك تشجيعي، ورفع مكانتي عند الوالد؛ فشعرت حينها بأن الفرح قد ملأ قلبي، وأحسست بأنني قد قمت بعمل عظيم، وازداد فرحي

حين التفت والدي نحوي ، ونظر إلي بسرور وكأنه يقول لي : ما أعظمك من ولد؛ فذكرت تلك الحادثة لوالدتي ، وأهلي ، وأصدقائي ، ولم يزل أثر تلك الحادثة في نفسي إلى وقتنا الحاضر؛ فهي درس في التربية والتعليم والتواضع؛ فغفر الله للشيخ ، ورحمه رحمة واسعة» .

٢٦- وهذا موقف يدل على رحمته بالناس ، وحرصه على مواساتهم ،

وتخفيف معاناتهم.

يذكر ابنه الأستاذ محمد قائلاً : « إن الأخ عبدالله بن عبدالعزيز القرعاوي كاتب عدل الخبر سابقاً - بلغه نبأ وفاة والده ، وكان ذلك يوم خميس ، وهو في مكة المكرمة يعمل عند الوزير ابن سليمان بالشؤون المالية ، فقرر الذهاب إلى عنيزه ، وكان عمره آنذاك أربعة وعشرين سنة تقريباً؛ فمكث في عنيزة إلى يوم الخميس الذي يليه ، وفي ذلك اليوم توفيت والدته بمرض التيفوئيد؛ فاغتم لذلك أشد الغم؛ لحبه لوالدته ، وحب والدته له ، ولا اجتماع مصيبتين في وقت يسير . وكان من عادة أهل عنيزة أن يخرجوا مع أهل الميت إلى المقبرة ، ويعزوهم في فقيدهم حال الدفن وبعده ، أو في السوق ، أو في أي مكان آخر ، ويكتفون بذلك .

ولما أحس الوالد الشيخ بحال عبدالله المذكور آنفاً ، ورأى آثار الحزن الشديد بادية عليه - رق له ، وخاف عليه؛ فلم يكتفٍ بالتعزية داخل المقبرة ، بل ذهب إليه في اليوم التالي هو وصاحبه أبو عبود ، فزاراه في منزله ، وجلس الوالد عنده

يواسيه ، ويترحم على والديه ، ويخفف مصابه ، ويقول له : إنني رهن إشارتك ،
وتحت خدمتك في كل ما ينوبك؛ جبراً لحاطره ، وتسلية له .

يقول الأخ عبدالله القرعاوي : إن جلوس الشيخ عندي وفي مجلسي في ذلك اليوم-
أذهب ما في نفسي من الحزن؛ فلا أنسى ذلك الموقف الكريم من الشيخ رحمته الله .

٢٧- وهذا موقف يدل على حكمة الشيخ ، وقوة إقناعه ، وحسن عرضه لما

يريد .

يقول ابنه محمد : «عندما بدأ الوالد الشيخ باستخدام مكبرات الصوت في
خطب الجمعة والعيدين وكان من طليعة المستخدمين لها - أنكر عليه بعض
الناس ، لكنه لم يعبأ بذلك ، بل استطاع بحكمته وبصيرته إقناعهم بذلك .
وقد عجبت أشد العجب لما جاءه رجل يلبس نظارة ، وينكر استخدام المكبر؛
بحجة أنهم لم يجدوا عليها آباءهم ، وأنها من صنع غير المسلمين؛ فلا حاجة لنا
بها !

فقام الوالد رحمته الله بخلع نظارة ذلك الرجل من عينيه ، وسأله : هل ترى
بوضوح؟ فقال الرجل : لا يا شيخ؛ فأعاد الوالد النظارة إلى عينيه ، فقال له :
والآن؟

قال : الآن ، أرى أحسن؛ فقال له الشيخ : يا أخي أنت تعلم بأن النظارة تقرب
البعيد ، وتزيد العين إبصاراً؛ فكذلك مكبر الصوت يقرب الصوت للبعيد؛
فيسمعه من في آخر المسجد ، ومن في خارجه؛ فيفيدون منه .

وكذلك النساء في بيوتهن، والقربيات من المسجد يسمعن ذكر الله، ويُفدن من مجالس العلم؛ فهذه نعمة من نعم الله؛ فعلينا أن نفيد منها في إيصال الحق ونشره».

٢٨- وهذا موقف يدل على كرم الشيخ رحمته الله وحرصه على تنشيط الناس على الخير والعبادة.

يقول حفيد الشيخ الأستاذ مساعد السعدي - حفظه الله -: « كان من عادة أهل عينة المعروفة عندهم في ذلك الوقت أن يقسموا ليالي العشر الأخيرة من رمضان إلى قسمين، يفصل بينهما استراحة يتخللها تناول بعض الطعام، والقهوة والشاي؛ كي يتقوا على العبادة، ومواصلة القيام.

وقد ذكرت لي الوالدة - ابنة الشيخ - أن والدها رحمته الله كان من عاداته في هذه الاستراحة أن يستضيف جماعة المسجد الذين يصلون معه؛ فيأتي بهم إلى منزله؛ لتناول التمر، وشرب القهوة والشاي.

وفي حالات كثيرة كان الشيخ هو الذي يقوم بصنع القهوة والشاي، ثم يقوم أحد أبنائه بإدارتهما على الحاضرين.

وقد يقوم بهذه المهمة صديقه الخاص أبو عبود صالح العباد رحمته الله ثم يطيبهم بطيب من عنده إما أن يكون بخوراً، أو دهن عود مما يرسله الموسرون من طلابه لأهل المسجد؛ فيقوم بعدها الجماعة وقد نشطوا لأداء ما بقي من الصلاة، ويذهب ما بهم من جهد وتعب».

٢٩- وهذه مواقف مليئة بالحنان، والأبوة والعطف، وحسن التعامل مع الأولاد، وخصوصاً البنات.

يقول الأستاذ مساعد السعدي - حفيد الشيخ - : « لما سألت أمي عن معاملة الجد الشيخ عبدالرحمن مع أطفال البيت خاصة وأن أمي نورة هي أصغر ذرية الشيخ - فاضت عيناها من الدمع، وشرعت تذكر لي بعض ما علق بذهنها من الذكريات عن الوالد، فقالت: كان الوالد يتودد لي، ويناديني بـ: النيرة - وهي القطعة النقدية من الذهب - فاشتهرت بذلك الاسم عند الأهل.

وتذكر أنه كان يعطف عليها، ويحبها، وأنه لم يضربها إلا مرة واحدة، وكان ضرباً غير مبرح، وذلك لما عرضت نفسها للخطر بالصعود إلى أعلى مكان في سطح البيت، وكان عمرها آنذاك سبع سنين.

وتقول - أيضاً -: لما كان عمري ثمان سنوات تعودت اللعب مع إحدى الخاديمات الصغيرات التي كان تخدم في بيتنا، وكانت تسمى: برجس، وهي صديقة لي في ذلك الوقت، وكان لنا بيت صغير صنعه أنا وإياها من الطين في مقدمة بيتنا الكبير؛ فكنا نلعب معاً بداخله، وأنشأنا فيه وجاراً^(١) صغيراً، وصففنا فيه دلال القهوة، وأباريق الشاي.

وكنا نمثل دور الكبار، ونقلدهم؛ فيمضي الوقت ونحن لا نشعر به.

1- الوجار كلمة دارجة عند أهل نجد، وهو مكان مستطيل الشكل، يُبنى من الإسمنت، أو غيره، وتوقد فيه النار، ويوضع فيه دلال القهوة، وأباريق الشاي، ونحو ذلك.

وفي يوم من الأيام طال بنا المقام في اللعب؛ فجاء الوالد الشيخ على عادته اليومية من القهاوي - مجالس الناس التي يستضيفون فيها الشيخ - فسلم علينا، فرددنا عليه السلام، وقالت له الخادمة برجس: يا عم لم تناول القهوة عندنا قط؟ فقال: يا بنياتي ما عزموني - أي لم تعرضوا علي ذلك - اعزموني وآتيكم. فقالت برجس: غداً عندنا القهوة فلا تنس.

ولما كان اليوم التالي، وبعد أن رجع الشيخ الوالد من بعض المجالس، ووصل إلى بيته - طرقت علينا الباب بقوة، وهو يردد: يا برجس، يا برجس يناديها لتفتح الباب؛ ففتحنا الباب، ورحبنا به، ثم جلس في بيتنا الصغير على سجادة فرشناها له في المحكمة^(١) يشرب القهوة والشاي التي أعدناها له، ويتحدث معنا. وعند قيامه قال: هاه وأنت يا بنيتي نورة متى تعزميني مثل برجس؟ فقلت له: غداً أنا عازمتك على القهوة.

وفي اليوم التالي لما عاد من المجالس التي كان يغشاها بدأ ينادي بصوت: يا نورة؛ ففتحت له الباب، وجلس معنا يتناول القهوة والشاي، ويتبسط بالحديث؛ وفرحنا أشد الفرح بجلوسه عندنا».

١- المحكمة: كلمة دارجة عند أهل نجد، وهي المكان الذي يجلس فيه صاحب المنزل لعمل القهوة والشاي، وإدارة تنظيم الجلسة، وإكرام الضيوف.

ويضيف الأستاذ مساعد السعدي في روايته عن والده قائلاً: «تقول^(١) الوالدة -حفظها الله-: لازلتي أتذكر تلك الأوقات الجميلة حين يأتي الوالد للغداء فنجتمع - نحن أهل البيت - حوله؛ فيأنس بنا، ونتحدث إليه، ويتحدث إلينا. وكانت عندنا قِطَّةٌ صغيرة ذكية تعرف وقت غداء الوالد؛ فإذا جلس ﷺ للغداء جاءت عنده، وجلست بجواره؛ فكان يمسح على ظهرها، ويطعمها من غدائه؛ فإذا نهرها أحدٌ منا عاتبه، وقال: دعوها تتغدى معنا هي من أهل البيت. وتقول الوالدة: وإذا قدمنا للوالد القهوة أو الشاي كان يداعبنا، ويقول مازحاً: صبوا ثلاثة فناجيل، فناجيل له، وفناجيل لزوجته الوهمية أم إبراهيم، والثالث لزوجته الوهمية الأخرى أسماء.

أما أم إبراهيم فقد مضى ذكرها، وأما أسماء فلها قصة خلاصتها أن الشيخ عبدالرحمن لما كان في مكة المكرمة، وكان نازلاً في بيت ابنه عبدالله - كان لهم جيران قرييون منهم، وكانت نوافذهم تشرف على بيت عبدالله ابن الشيخ. وكان لهؤلاء الجيران طفلة صغيرة خفيفة الظل تسمى أسماء، وكانت تشاهد من خلال نوافذهم دخول الشيخ وخروجه.

وفي يوم من الأيام جاءت هذه البنت مع والدتها لزيارة بيت الأخ عبدالله؛ فلما اجتمعت النسوة كانت هذه البنت تقول لوالدتي -زوجة الشيخ عبدالرحمن-: سوف أتزوج أبوكم الشايب، تقصد الشيخ، والوالدة ترد عليها، وتضحك من كلامها.

٢- تقول هذا الكلام بعد وفاة والدها الشيخ بإحدى وخمسين سنة.

فلما جاء الوالد كعادته ، وجلس إلى أهل بيته ذكروا له ما قالت تلك الطفلة؛ فضحك من قولها ، وبدأ يعلق على حديثها ، ويداعب الوالدة في ذلك حتى إنه كان يسمى بعض الغرف في المنزل باسمها ، ويأمرنا إذا ناولناه الشاي أن نناوله ثلاثة فناجيل - كما مر - .

« خامساً: الشيخ عبدالرحمن السعدي ورسالة يأجوج ومأجوج »

خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى ، وقبل الدخول في قصة رسالة الشيخ عبدالرحمن السعدي يحسن الوقوف على شيء من شأن يأجوج ومأجوج.

أ- **التعريف اللغوي:** قيل: هما اسمان عربيان، وقيل: أعجميان، وقد قرأهما عاصم بالهمز، والباقون بغير همز.

قال القرطبي رحمته الله: « وقرأ عاصم (يأجوج ومأجوج) بالهمزة فيهما وكذلك في الأنبياء على أنهما مشتقان من أجة الحر، وهي شدته، وتوقده، ومن أجيج النار، ومن قولهم أماج فيكونان عربيين من أج ومج، ولم يُصْرَفَا؛ لأنهما جعلتا اسمين؛ فهما مؤنثان معرفتان.

والباقون - أي باقي القراء - بغير همز جعلوها لقبيلتين أعجميتين، ولم يصرفا؛ للعجمة، والتعريف»^(١).

ب- **أصلهم:** أصل يأجوج ومأجوج من البشر، ومن ذرية آدم وحواء.

قال القرطبي رحمته الله: « وهما أمتان من ولد يافث بن نوح، مدَّ الله لهما في العمر، وأكثر لهما في النسل حتى ما يموت الرجل من يأجوج ومأجوج حتى يولد له ألف ولد، فولد آدم كلهم عشرة أجزاء، يأجوج ومأجوج منهم تسعة

١- التذكرة للقرطبي ص ٧٨٤.

أجزاء، وسائر ولده كلهم جزء واحد»^(١).

ج - الأدلة على أنهم من ذرية آدم: جاء في صحيح البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله - تعالى -: «يا آدم! فيقول لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: «أخرج بعث النار».

قال: وما بعث النار؟

قال: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين».

فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد».

قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟

قال: «أبشروا؛ فإن منكم رجلاً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ: «أن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وأنهم لو أرسلوا إلى الناس لأفسدوا عليهم معاشهم، ولن يموت منهم أحد إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»^(٣).

د - صفتهم: أما صفتهم التي جاءت بها الأحاديث فهي أنهم يشبهون أبناء

١- التذكرة ص ٧٨٢-٧٨٣.

٢- رواه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

٣- منحة المعبود ٢١٩/٢ وروى الحاكم طرفاً منه ٤/٤٩٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط

الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي».

جنسهم من الترك الغتم^(١) المغول، صغار العيون، ذلف الأنوف، صهب الشعور، عراض الوجوه، كأن وجوههم المَجَانُّ المطرقة على أشكال الترك وألوانهم^(٢).

والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم، ففي حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم أن الله - تعالى - يوحى إلى عيسى - عليه السلام - بخروج يأجوج ومأجوج، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم، ويأمره بإبعاد المؤمنين من طريقهم ويقول: «أحرز عبادي إلى الطور»^(٣).

هـ - فسادهم: إذا خرج يأجوج ومأجوج حصل على أيديهم أذى كبير، وفتنة عظيمة، وشر مستطير.

وهم جموع كثيرة حتى إنهم؛ لكثرتهم إذا مر أولهم على بحيرة طبرية عند خروجهم شربوا الماء الذي فيها جميعه؛ فإذا مر آخرهم قالوا قد كان في هذه البحيرة ماء^(٤).

قال ابن العربي رحمه الله: «وأما خروج يأجوج ومأجوج فإنه يكون بعد نزول عيسى - عليه السلام - وهما أمتان مُضرتان مفسدتان كافتان»^(٥).

١- الغتم: العجم.

٢- انظر مسند الإمام أحمد ٢٧١/٥ بهامشه منتخب الكنز.

٣- مسلم (٢٩٣٧).

٤- انظر الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة د. عبدالرزاق البدر ص ٢٥٣-٢٥٤.

٥- عارضة الأحوذى لابن العربي ٣٤/٩.

هذا وسيوضح شيء من إفسادهم في الفقرات التالية:

و- أدلة خروجهم من القرآن: قال الله - تعالى -: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾ الأنبياء.

وقال - تعالى -: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْتَبَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) ﴾ الكهف.

فهذان الموضعان من كتاب الله فيهما دلالة واضحة على خروج يأجوج ومأجوج قبل يوم القيامة، وأن خروجهم أحد علامات الساعة التي تكون قبل قيامها.

فهذه الآيات تدل على أن الله سخر ذا القرنين^(١) الملك الصالح لبناء السد

١- ذو القرنين: اختلف في اسمه؛ فروي عن ابن عباس أن اسمه عبدالله بن الضحاك بن معد، وقيل: مصعب بن عبدالله بن قنان من الأزدي ثم من قحطان، وقيل غير ذلك وسمي بذي القرنين لأنه

العظيم؛ ليحجز بين يأجوج ومأجوج وبين الناس؛ فإذا جاء الوقت المعلوم، واقتربت الساعة اندك السد، وخرج يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة، وجمع كبير لا يقف أمامه أحد من البشر، فمأجوج في الناس، وعاثوا في الأرض فساداً. وهذا علامة على قرب النفخ في الصور، وخراب الدنيا، وقيام الساعة^(١).

ز- أدلة خروجهم من السنة: الأحاديث الدالة على خروج يأجوج ومأجوج تبلغ حد التواتر المعنوي، وقد سبق ذكر لبعضها.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها.

قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: «نعم إذا كثرت الخبث»^(٢).

بلغ المشارق والمغرب من حيث يطلع قرن الشيطان ويغرب، وقيل: لأنه ملكها، وقيل رأى في منامه أن أخذ بقرني الشمس، وقيل: كان له قرنان أي صغيرتان، وقيل: لأنه عمر حتى فني في زمنه قرنان من الناس وكان عبداً صالحاً مؤمناً، وهو غير ذي القرنين الاسكندر المقدوني المصري، فإن هذا كان كافراً وهو متأخر عن المذكور في القرآن، وبينهما أكثر من ألفي سنة. انظر البداية والنهاية ١٠٢/٢-١٠٦، وتفسير ابن كثير ٩٨/٣-٩٩، وفتح الباري ٦/٣٨٢-٣٨٦.

١- انظر تفسير ابن كثير ٩٨/٣-١٠١، والتذكرة ص ٧٨٣، وأشراط الساعة ديوسف الوابل

٣٧٠-٣٧١.

٢- رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

ح - هلاكهم: يكون هلاك يأجوج ومأجوج بعد أن يقتل عيسى الدجال حيث يُهلك الله يأجوج ومأجوج ببركة دعاء عيسى - عليه السلام - كما جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل، وفيه: «إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور.

ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، فيمر أولئك على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحصِرَ نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف^(١) في رقابهم فيصبحون فرسى^(٢) كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم^(٣) ومنتهم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت^(٤)، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله» رواه مسلم.

وزاد في رواية بعد قوله: «لقد كان بهذه ماء»: «ثم يسرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر^(٥)، هو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلم

١- النغف: جمع نغفة، وهي الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم.

٢- فرسى: أي هلكى، وهو جمع فريس يعني مفروس مثل قتيل وقتلى وصرع وصرعى، وأصله من فرس الذئب الشاة، وأفرسها أي قتلها؛ كأن تلك النغف فرستهم.

٣- زهمهم: الزهم النتن.

٤- البخت: إبل غلاظ الأعناق، عظام الأجسام. انظر التذكرة ص ٧٧٢-٧٧٣.

٥- جبل الخمر: الخمر: الشجر الملتف الذي يستتر من فيه. انظر شرح النووي لمسلم ٧١/١٨.

فلنقتل من في السماء، فيرمون بُشَّابَهُمْ^(١) إلى السماء، فيرد الله عليهم نُشَّابَهُمْ
مخضوبة دماً»^(٢).

هذه نبذة عما جاء في أخبار يأجوج ومأجوج.

- قصة كتابة الشيخ عبدالرحمن السعدي لرسالة يأجوج ومأجوج:

لم يزل أهل الإسلام وعلمائهم خاصة يشتغلون بمسألة يأجوج ومأجوج بحثاً
ودرساً، لعظم خطرهما، وبعد أثرها؛ فكان أن كتب الشيخ العلامة عبد الرحمن
ابن ناصر السعدي رحمته الله رسالة في حقيقة يأجوج ومأجوج، ومعنى خروجهم،
والمراد بانفتاح ردم ذي القرنين، وما يتصل بذلك؛ فأحدثت دويماً هائلاً، وجدلاً
واسعاً في بلاد نجد، وانقسم الناس حولها ما بين مؤيد معجب، ومنكر منتقد،
ولحق الشيخ بسببها نوع أذى ومحنة سرعان ما انقلبت نعمة ومنحة، بسبب
حسن مقصده، وسلامة نيته، وإن كان شأنه شأن غيره من بني آدم، يصيب
يخطئ، ويسدد ويقارب - رحمه الله رحمة واسعة -^(٣).

وقد كتب الشيخ عبدالرحمن هذه الرسالة في شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ،
كما يدل على ذلك خطاب وجهه الشيخ إلى أحد كبار تلامذته، وهو الشيخ عبد

١- الشاب: يطلق على النبل والسهام وواحدته: نشابة .

٢- رواه مسلم (٢٩٣٧).

3 - انظر إلى كتاب: رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج للشيخ عبدالرحمن السعدي،
تحقيق الشيخ د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي ص ٤٥-٤٦، وقد أفدت كثيراً مما في هذا المبحث من
مقدمة الشيخ أحمد للكتاب المذكور.

الله بن عبد العزيز بن عقيل - حفظه الله - حين كان قاضياً في جازان، مؤرخٌ في ٢٧/ربيع الأول / ١٣٥٩ هـ، جاء فيه:

«.. ولا استجد لنا من الفوائد شيءٌ ها الأيام غريب، سوى أننا اليومين كتبنا رسالة في دلالة الكتاب، والسنة، والعقل، وأقوال المؤرخين، على أن يأجوج ومأجوج هم الأمم الذين ظهروا على الناس في هذه الأزمان، من أصناف الفرنج، والأمريكانيين وغيرهم، وأن المسألة مسألة قطعية، وذكرنا عدة وجوه دالة على ذلك، ولما كتبتها أخذها الإخوان عندهم»^(١).

فكان أن تداولتها الأيدي، فسعى بعض الناس لدى ولاية الأمر والمشايخ في الرياض في شأن الرسالة المذكورة، فجاءت برقية من الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود رحمته الله يطلب حضوره إلى الرياض مصطحباً تفسيره، وحصل للناس هم عظيم^(٢)، ولكن الله سلم.

ويصف الشيخ نفسه هذه الرحلة في خطاب مؤرخ ١٠ شعبان ١٣٦٠ هـ، موجه لتلميذه الشيخ عبد الله بن عقيل - حفظه الله - فيقول: «.. ولا بد بلغك سفرنا للرياض، وأسبابه، ونتائجه، وأنه باستدعاءٍ مستعجل من الملك، لنحضر، ونحضر معنا التفسير، لا بد أحد معترض علينا، وفعلاً بادرنا للحضور، وإحضار التفسير، فرآه بعض المشايخ فاستحسنوه ولم يحصل بحث

٢- الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، الرسالة الرابعة ص ٥٠ عناية وتحقيق، هيثم بن جواد الحداد.

٣- انظر: روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين. للشيخ محمد بن عثمان القاضي

في مسألةٍ واحدةٍ أصلاً، ولكن المشايخ - جزاهم الله خيراً - حصل منهم من إكرامنا فوق ما يظن الظان، والمملك قال بحضرة الجميع: إنه ما بينك وبين المشايخ من فضل الله أقل اختلاف، وإنه لم يعترض عليه أحدٌ من الحاضرين، ولا من غيرهم، فأبديت له الشكر، وأني ممنون^(١) إذا رأى عليّ أحدٌ خطأً أن ينبهني، فإني ممنون بذلك من صغار الطلبة، فضلاً عن المشايخ الذين هم أبوة^(٢) للعرب. وحصل للناس انزعاج من سفري، وطلب الجماعة^(٣) أنهم يرجعون فيّ، أو يركبون معي، فمنعتهم، وأخبرتهم أنني لا أكره الحضور هناك، وأنه لا بد أن يحصل فيه مصالح، فوقع لله الحمد كما ظننت، وحصل التعارف التام مع المشايخ، وأقمنا في الرياض ستة أيام، ثم رجعنا بصحبة الملك إلى الوطن مسرورين راجين المولى أن يتم نعمه على الجميع، وأن يحسن العواقب لنا ولكم في الدنيا والآخرة.

أخبرتكم بحاصل ذلك، خوفاً أن يصورّ على غير صورته^(٤).

تلك رواية الشيخ رحمته الله رواها باختصار، وقد بسطها أحد كبار تلامذته وأصحابه، وهو الشيخ عبدالله بن محمد العوهلي رحمته الله في رسالة بعث بها إلى زميله

١ - هذه كلمة دارجة عند أهل نجد، ومعناها: إنني مستعد لما يطلب مني بكل سرور وارتياح.
٢ - مراده رحمته الله: آباء، وهي عامية، وأقرب لفظٍ فصيحٍ في معناها، أبوة أي (الآباء مثل العمومة والخؤولة) لسان العرب ٥٨/١.

٣ - مراده رحمته الله: إن وجهاء أهل بلده - عنيزة - استأذنوه في السعي والشفاعة لدى الملك في إعفائه من السفر.

٤ - الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، الرسالة الثالثة عشرة. ص ٩٨ - ٩٩.

في الطلب ، الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل - حفظه الله - نقتطف منها ما يتعلق بالمقام ، مع إبهام أسماء من سعى في هذه الوشاية - غفر الله لهم ، وتجاوز عنهم - :
«بسم الله الرحمن الرحيم... من الطايف في ٢٥ شعبان ١٣٦٠هـ إلى فرسان.
حضرة الأفخم الأخ المكرم عبدالله بن عبدالعزيز العقيل المحترم.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته دتمتم في خير وسرور...
أخبارنا خير وسرور حدث في الشهر الماضي ما كدر الخواطر -ولكن الحمد لله-
العاقبة حميدة.

وذلك أن بعض المغرورين من الجماعة قد انتقدوا على الشيخ عبدالرحمن ،
والمشتهر منهم ثلاثة (...). وقد بلغ بهم الأمر إلى أن كتبوا إلى (...). يعترضون على
الشيخ عبدالرحمن في بعض فتاويه ، ويعترضون على تفسيره ، وعلى كلامه في
يأجوج ومأجوج.

وأرسلوا إلى (...). رسالة الشيخ في يأجوج ومأجوج ، هذا وهم لم يبحثوا مع
الشيخ في شيء أصلاً ، ولم يزل الكلام يزيد حتى قدحوا في تفسيره ، وأنه مخالف
لمذهب السلف ، حسبهم الله.

ثم إن (...). كتب للمشايخ في الرياض ، وجاء برقية لابن فيصل من الملك
يطلب حضور الشيخ للرياض ، وأنه يجيب^(١) تفسيره معه ، وقد انزعج الجماعة
كلهم من استلحاق الشيخ ، وكذلك الأمير ، واجتمعوا ، وطلبوا أنهم يرجعون
الملك ، أو أنه يروح كبار الجماعة للرياض مع الشيخ ، أو ، أو ، أو الخ ، ثم عرضوا

1 - هذه كلمة عامة معناها: يحضر.

ذلك على الشيخ، فلم يزل يسكنهم، ويقنعهم - ربنا يمتع فيه - وهو منشرح صدره، مطمئن، ومن جملة ما قال للجماعة: لو خيرني الملك لاخترت القدوم على الرياض، فعسى أن أستفيد وأفيد، والقصد اتباع الحق، فإن كان الحق معي فالحمد لله، وإن كنت مخطئاً رجعت، والحمد لله.

أما الذين انتقدوا على الشيخ فقد سقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا، وندموا لما رأوا من مقت الناس لهم، وصاروا عند الناس مبغوضين جداً.

وقد قدم الشيخ إلى الرياض، ومنع الجماعة أن يروح معه أحد منهم، ولم يقدم معه إلا ابنه أحمد، وعلي الشيوخ، وصالح العلي السليم... سافروا بسيارة الأمير، ومن حسن حظي أن صادف أني في تلك الأيام في الرياض، قادم إليه لقضاء لازم، وقد اجتمعت بالشيخ وحصل لي الأئس والسرور به، وبما حصل له من الإكرام والعز في الرياض عند الملك والمشايخ، لما وصل الرياض سلم على الملك، وأكرموه المشايخ كلهم، وعزموه كلهم، واطلعوا على مكارم أخلاقه.

وفي يوم الخميس حضر المشايخ على العادة عند الملك، وبعد حضورهم طلب الشيخ من بيته؛ لأنهم نزلوه في بيت، وحضر عند الملك والمشايخ، ثم قال له الملك: هذولا^(١) إخوانك المشايخ، تراهم - والله - ما قالوا فيك ولا كلمة، وإنهم والله يمدحونك، وأفعالك جميعها جائزة لنا^(٢).

١- هذولا بلهجة أهل نجد أي: هؤلاء.

٢- أي أنها محل رضانا وإعجابنا.

وردد قوله: إن المشايخ ما قالوا فيك ولا كلمة، لا الحاضر منهم ولا الغائب، وإنهم يثنون عليك، ويحبونك، إلى أن قال: فقط، اتركوا البحث في يأجوج ومأجوج، لأنه فيه تشويشاً على الناس بلا فائدة.

قال الشيخ: إني دعيت له^(١)، وقلت: لا بأس، أنا قلت: هذا اجتهاد مني ولا ظنيت أن يحصل فيه تشويش، والآن نترك البحث فيه، ولا هي مسألة حلال أو حرام، والأمر خفيف، قال الملك: إننا مشغولون بالسفر للقصيم، وإلا اجتمعنا فيك، فأنت إن شاء الله خوي^(٢) لنا بكرى^(٣) بعد صلاة الجمعة، نمشي لأجل نجتمع فيك بالبر.

ولما صلينا الجمعة، مشى الشيخ مع الشيوخ^(٤) مكرم غاية الإكرام، حتى إن الملك أكد على خوياه أن سيارة الشيخ تكون خلف سيارة الملك، ولا يتقدمها سيارة.

ورجع إلى الوطن مسروراً، والجماعة مسرورون من سروره، متع الله بحياته...».

وهناك رواية ثالثة أملاها الأستاذ محمد ابن الشيخ عبدالرحمن السعدي وهي موجودة في المذكرة التي أعدها الأستاذ مساعد السعدي.

٣- المراد: دعوت الله له.

2- خويّ، وتجمع على اخويًا بلهجة أهل نجد أي: مرافق وصاحب.

3- بكرى: يعني غداً.

4- يعني بهم الملك والأمراء؛ فقد كان أهل نجد يسمونهم الشيوخ.

وهذه الرواية تشتمل على تأكيد ما مضى من الروایتين ، وعلى مزيد تفصيل ؛ إذ هو ممن عایش تلك الحقبة .

يقول الأستاذ محمد السعدي : « جاءت برقية من الملك عبدالعزيز ﷺ إلى أمير عنيزة عبدالله بن خالد السليم ﷺ عن طريق أمير بريدة ؛ لأن عنيزة في ذلك الوقت لا يوجد فيها برقية .

وفي هذه البرقية طلب حضور الشيخ عبدالرحمن إلى الرياض ومعه تفسيره للقرآن الكريم ، ورسالة يأجوج ومأجوج ؛ فقام أمير عنيزة بتسليمها للوالد ، فلما استلمها قال : السمع والطاعة لولي الأمر .

وكان ﷺ لا يرغب أن يعلم أحد بمحتوى الرسالة ، لكن ذلك لم يتيسر له ؛ حيث انتشر الخبر ، وصار حديث الناس ؛ فقام أهل عنيزة ، وقالوا للشيخ : إننا نرسل عشرة من كبار أهل عنيزة إلى الرياض ، وننظر في طلبات الملك ، وأنت تبقى في عنيزة .

لكن الوالد ﷺ رفض طلبهم ، وقال لهم : أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم ؛ فأنا ذاهب إلى ملك عادل ، وأعرف من نفسي أنني لم أرتكب خطأ ؛ فلعل هناك التباساً يحتاج إلى توضيح .^(١)

1 - سمعت من سماحة شيخنا الشيخ محمد بن عثيمين ﷺ ونحن عنده في منزله عام ١٤١٥ هـ تقريباً يقول : « لما استدعي شيخنا الشيخ عبدالرحمن السعدي ﷺ من قبل الملك عبدالعزيز ﷺ لقيه رجلٌ عاميٌّ صالحٌ وقال : يا شيخ عبدالرحمن ! كيف الذي بينك وبين الله ؟ فقال الشيخ : عامرٌ - إن شاء الله - فقال له الرجل العامي : إذاً لا عليك ، ولا تخف من أحد . »

وهكذا اقتنع الجماعة بذلك ، وأرادوا أن يرسلوا رجلاً يحمل كتابات من أهل عنيزة إلى الملك عبدالعزيز يبينون فيها سيرة الوالد ، وهذا الرجل هو عبدالرحمن الدخيل رحمته الله حيث رافق الوالد في السيارة التي نقلتهم إلى الرياض .

كذلك أرسلت إمارة عنيزة كتابات للملك تزكي الشيخ ، وتبين مكانته العلمية ، ومنزلته عند الناس ، وقام بحمل تلك الكتابات صالح بن علي السليم رحمته الله نيابة عن آل سليم أمراء عنيزة دون علم الوالد؛ حيث كانوا يخفون ذلك عن الوالد؛ لعلمهم أن الوالد لا يرضى بإرسال مندوب من الإمارة ، لكنهم عمدوا إلى حيلة ، وهي أنهم جعلوا صالح السليم يذهب مشياً على قدميه إلى جهة الوادي وكأنه يريد محلاً له في الوادي ، وانفقوا مع سائق السيارة التي كانت تُقلُّ الشيخ على أن إذا توجه إلى بريدة ومنها إلى الرياض ، ومر بطريق الوادي ، ورأى صالح السليم أن يقول - أي السائق - للشيخ عبدالرحمن : هذا العم صالح السليم سيذهب إلى مزرعته؛ فما رأيك يا شيخ أن نأخذه معنا؛ لأن الشيخ سيوافق على ذلك .

وقد تحقق ذلك ، والشيخ لا يعلم أن هذا الأمر متفق عليه من قبل .

ولما ركب صالح السليم وكانت معه الكتابات التي - كتبها آل سليم للملك - قال صالح السليم للوالد الشيخ : إلى أين أنت ذاهب يا شيخ خذوني معكم للوادي ، ثم بدأ صالح يسأل الشيخ ، ويقول له : إلى أين ستذهبون ، فقال الوالد : إلى بريدة نريد السلام على الأمير عبدالله الفيصل؛ فقال صالح : أريد الذهاب معكم ، فقال له الوالد : حياك الله أهلاً وسهلاً .

بعد ذلك ذهبوا جميعاً إلى بريدة، وهم: الوالد، وصالح بن علي السليم،
وعبدالرحمن الدخيل، وعلي الشيوخ، والسائق عبدالرحمن الشحيتان،
وكانت السيارة لأمير عنيزة عبدالله بن خالد السليم.
وبعد وصولهم إلى بريدة اتجهوا إلى منزل الأمير عبدالله الفيصل، ولعلمهم
تناولوا الغداء عنده.

ولما أراد الوالد مواصلة السير إلى الرياض قام صالح السليم، ورغب في
صحبه إلى الرياض، وأقسم أيماناً مغلظة - فاستجاب الوالد له، وأذن له بأن
يرافقهم صالح إلى الرياض.

وكان الوالد قبل ذلك لا يريد أن يصحبه غير الذين خرجوا معه من عنيزة.
ولما وصل الوالد إلى الرياض اتجه إلى مقر إقامته هناك؛ حيث تم إعداد بيت
كبير مفروش، تتوافر فيه جميع الاحتياجات من طعام وغيره.
وقد وافق وصول الوالد إلى الرياض يوم الجمعة؛ فقابل مندوب الملك، فقال
للوالد: سوف تتم مقابلة الملك يوم الاثنين؛ لأن عادة المشايخ أن يحضروا جميعاً
عند الملك للسلام عليه في ذلك اليوم؛ فانتظر الوالد إلى ذلك اليوم.
وفي تلك الأثناء أرسل الوالد إلى المشايخ نسخاً من كتابه التفسير، وكذلك
رسالة يأجوج ومأجوج؛ حتى يطلعوا على ما فيهما قبل مقابلة الملك.
وفي تلك الفترة قام كثير من المشايخ بزيارة الوالد في بيته، وكان الشيخ عمر آل
الشيخ يحب الوالد كثيراً.

وفي يوم الاثنين الموعد ذهب الوالد للقصر الملكي، وجلس في مكان يجتمع

فيه المشايخ ، للسلام على الملك.

هذا وقد وصل إلى الديوان الملكي يوم السبت كتاباتُ جماعةٍ أهالي عنيزة ، وكتابات آل سليم.

ولما حضر الملك قام المشايخ للسلام عليه ، ثم قام المشايخ بالثناء على الوالد ، في مجلس الملك^(١) ثم تكلم الملك ﷺ وأثنى على الوالد ، وقال له : المشايخ اطلعوا على التفسير ، وأعجبهم ، فاستمر به ، أما رسالة يأجوج ومأجوج فلم يجئ وقتها ، فدعها عنك ، واحتفظ بها.

فقال الوالد للملك : إذا أحد من المشايخ يريد أن يسأل عن شيء ، أو يريد نقاشاً حول مسألة فأنا تلميذ من تلاميذهم ، وجزاهم الله عني خير الجزاء.

فقال الملك : على ما قلت لك أما التفسير فانشره ، وأما الرسالة فاتركها في الوقت الحاضر ، ولا يحتاج الأمر إلى نقاش وبحث في هذا المجلس.

وبعد ذلك انفض المجلس بالسلام على الملك وعلى الوالد ، فقال الملك للوالد : تراك خوي^(٢) لنا ؛ لأننا نريد الذهاب إلى القصيم بعد يومين ، فقال الوالد : السمع والطاعة ، فقال له الملك : الموعدُ المدي^(٣) عقب صلاة عصر يوم كذا وكذا.

وبعد خروج الوالد من مجلس الملك ، وانتهاء الاجتماعات - كان هناك رجل واقف مُرْسَلٌ من قبل ولي العهد سعود بن عبدالعزيز ﷺ وكان هذا الرجل ينتظر

1 - سمعت أن الشيخ عبدالرحمن لما أقبل للسلام على الملك عبدالعزيز تقدمه الشيخ عبدالعزيز بن باز وقال : تفضل يا شيخنا عبدالرحمن.

2 - يعني صاحباً لنا في الطريق.

3 - المدي كلمة عامية معروفة عند أهل نجد ، وتعني مجمع الماء.

خروج الوالد ، فلما خرج قال له : ولي العهد يريد مقابلتك .
 فذهب الوالد إلى مكتب ولي العهد ، وقابله ، وكان يحب الوالد ، ويقدره ،
 فدخل الوالد عنده ، ولم يدخل أحد معه ممن رافقوه ، ولا ندرى ماذا دار في ذلك
 المجلس .

وبعد اجتماع الوالد بولي العهد خرج ، ثم توجه إلى مقر إقامته في الرياض
 بانتظار يوم الرحيل إلى عنيزة؛ فتوافد كثير من أهل عنيزة ، ومن محبي الوالد إليه
 للسلام عليه ، وتهنئته على نجاحه ، وثناء الملك والمشايخ عليه.^(١)

ولما كان يوم الرحيل إلى عنيزة ، مررنا على المدي - مجمع الماء - وتزودنا من
 الماء ، ثم وقفنا في ممر سيارة الملك ، وكانت الشوارع في ذلك الوقت غير مسفلتة .
 وبعد وقوف الوالد على الطريق مدة خمس دقائق جاء موكب الملك ،
 فانحرفت سيارته تجاه سيارة الوالد فسلم على الوالد وعلى من كان معه ، وكنت
 معهم تلك الأيام؛ حيث وافق وجود الوالد وجودي في الرياض؛ فرافقت الوالد
 عندما رجع إلى عنيزة .

ولما وصلنا إلى عنيزة قبيل المغرب بنصف ساعة تقريباً - وجدنا جمعاً غفيراً من
 أهالي عنيزة ينتظرون الوالد خارج البلد؛ لاستقباله ، ولما رأوا الوالد فرحوا أشد

1 - وفي تلك الأيام تعاقب المشايخ والعلماء على زيارته ، واستضافته وعلى رأسهم سماحة الشيخ
 محمد بن إبراهيم رحمته الله .

يقول معالي الشيخ عبدالعزيز بن الشيخ محمد بن إبراهيم : «يوم أن زار الشيخ عبدالرحمن بن
 سعدي سماحة الشيخ محمد - رحمهما الله - قابله الشيخ محمد مقابلة تكريم واحترام ، وأجلسه في
 مجلسه الخاص ، وجلس الشيخ محمد عن يمينه» انظر بحث د. محمد الشويعر في مجلة البحوث الإسلامية
 عدد ٥١ / ص ٣٣٢ بعنوان : « الشيخ محمد بن إبراهيم عالم الديار السعودية وفقهها » .

الفرح ، مع أنهم لا يعلمون متى سيصل ، ولكنهم كانوا يتحرون وصوله إلى عنيزة.

وهذا دليل على مدى ما يكونونه من محبة للوالد.

ومما يذكر من سماحة الوالد ، وسعة صدره أنه لما رجع إلى عنيزة لم يعاتب أيّاً أحد ممن تسبب بتلك الوشاية ، فلم يحقد عليهم ، ولم يتكلم بهم في المجالس ، بل كان ﷺ يعتذر لهم ، ويقول : إنهم مجتهدون ، وهذا رأيهم.

ولما بدأ أهل عنيزة باستضافة الوالد الشيخ على القهوة بعد وصوله - كان ممن عرض عليه الاستضافة أحد المعارضين له ، وأحد من كان سبب ذهابه إلى الرياض ، وذلك بعد وصول الوالد بثلاثة أيام؛ فوافق الوالد ، وقبل الدعوة ، ولم يثرب على ذلك الرجل ، بل كأن شيئاً لم يكن» .

وهذه الروايات من صاحب الشأن وممن عايش تلك الحال من خاصة الشيخ تنفي ما يضاد ذلك من تقولات أو نقولات عن مجاهيل خاض بها من خاض.^(١)

يقول الشيخ د. أحمد القاضي : «وهكذا كانت هذه الحادثة سبباً لعلو نجم الشيخ ، ورفعة منزلته ، ومزيد معرفته ، من لدن أولي الأمر من الولاة والعلماء ، وتكريمه ، وقد قيل :

وإذا أراد الله نـشـرفـضـيـلـةً طويت آتـاح لها لسان حـسـود

1 - انظر: رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج ص ٥٠.

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

على أن الشيخ رحمته الله لم يضمن تفسيره الموسوم بـ: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) رسالته في يأجوج ومأجوج، ولا شيئاً مما استنكره مخالفوه، وبقيت الرسالة محفوظة منذ ذلك الحين في أيدي نفرٍ قليلٍ من الناس، ولا يعلم أن الشيخ رحمته الله رجع عن شيءٍ مما جاء فيها، ولكنه لم يطبعها في حياته، كما صنع في معظم كتبه، رغم أنه كان بين تأليفها ووفاته سبع عشرة سنة تقريباً، فلعله رأى أن ذلك مقتضى المصلحة في ذلك الوقت.

وظلت الرسالة وتداعياتها معلماً بارزاً في سيرة الشيخ، فلا يكاد يُذكر حتى يُثنى بذكر تلك الواقعة، ولا يكاد يذكر ردم ذي القرنين، أو خروج يأجوج ومأجوج، إلا وتجري الإشارة إلى هذه الرسالة^(١).

- ملخص كلام الشيخ في مسألة يأجوج ومأجوج:

ذكر الشيخ د. أحمد القاضي ملخص قول كلام الشيخ عبدالرحمن في هذه الرسالة في أربعة أمور فقال: « أولاً: حقيقتهم وأصلهم:

- أن يأجوج ومأجوج أمتان من بني آدم، من نسل يافث بن نوح، وليسوا عالماً غيبياً كالملائكة والجن.

- أنهم من جنس الترك، جيرانهم، وأبناء عموماتهم، مشابهون لهم في الخلقة، وما يوجد من الآثار الدالة على مخالفتهم لصفات الأدميين فكذب مناقض للأدلة الصحيحة.

ثانياً: بلادهم:

- مساكنهم الأصلية في شمالي آسيا، وتحديدًا: منغوليا، وشرقي تركستان، منحازين فيها، لم يتمكنوا من الخروج بسبب ردم ذي القرنين مدداً طويلة.

ثالثاً: خروجهم وانفتاحهم:

- أن ابتداء خروجهم وقع في وقت النبي ﷺ وبخبره: «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه».

وحلق الإبهام والسبابة، ثم لم يزل ذلك الفتح يزداد، حتى زال الردم وانكسرت. - أن المخترعات الحديثة، والصناعات الراقية مكنتهم من تجاوز الحواجز الطبيعية الأخرى، فانفتحوا على الناس من كل مكان، فبرزوا من فوق رؤوس الجبال، ونفذوا من فوق متون البحار، وصعدوا في جو السماء، وصاروا «من كل حدب ينسلون»، ولم يعودوا محصورين خلف الردم لا يطلع عليهم أحد.

- أن انفتاح يأجوج ومأجوج، وخروجهم الابتدائي قد وقع، وحصل منهم الإفساد في الأرض على الناس عموماً، وعلى المسلمين والعرب خصوصاً، كفتنة التتار في المشرق، وغزوات المجرار في بلاد أوربه.

- أن خروجهم في آخر الزمان، الموصوف في حديث النواس بن سمعان بعد فتنة المسيح الدجال لا يدل على أنهم لم يخرجوا قبل ذلك؛ إذ المراد بالخروج التحول من محل إلى محلٍ آخر، وليس ابتداء الخروج.

رابعاً: مَنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ الْآنَ؟:

- أن هذه الأمة اندفعت من مساكنها الأصلية في منغوليا وتركستان، وتفرعت عنها: التتر، والصين، واليابان، والروس، واكتسحت الشعوب الأوربية، وامتزجت بهم، فهم هذه الأمم، وإن صارت لهم أسماء مخصوصة، ومَنْ وراءهم مِنَ الأمم كأمريكا حكمها حكمهم.

- أن الأولى أن يكون لفظ (يأجوج ومأجوج) المشتق من الأجيح والسرعة، اسم جنس، يشملهم، ويشمل غيرهم ممن تنطبق عليه صفاتهم؛ من كثرة الشر والكفر، ولا يقتصر على طائفة مخصوصة»^(١).

وبعد أن لَخَّصَ الشيخ د. أحمد ما دارت حوله رسالة يأجوج ومأجوج أورد تحليلاً موجزاً للرسالة فقال - حفظه الله - : «قرر الشيخ رحمته الله آراءه هذه في يأجوج ومأجوج بثقة بالغة، وجزم أكيد، لا تردد فيه، كقوله: إن صفاتهم: «ظهرت، واتضح، فوصلت إلى درجة اليقين»، وقوله: «لا يشك ولا يستريب أنهم هؤلاء الأمم، أو بعضهم»، وقوله: «إذا جمعت ذلك كله، علمت علماً يقينياً لا شك فيه، ولا ريب أنها واقعة على تلك الأمم، وأنهم المرادون بها»، وقوله: «من نظر إلى أدلتها الشرعية والعقلية لم يرتب»: أي في كونها «تنطبق عليهم غاية الانطباق» يعني الأمم المعروفة من الروس، والصين، وأمريكا، والإفرنج، ومن تبعهم، كما تكرر في رسالته.

بل قد بلغ به الحماس لفكرته ﷺ لما أن شعر أن حديث النواس ابن سمعان ﷺ حجة للمعارض جنح إلى التأويل، معرضاً بأن الحديث قد يكون غير محفوظ مع كونه في صحيح مسلم.

ولا ريب أن الشيخ ﷺ وفق توفيقاً بالغاً في الكلام على حقيقة هؤلاء القوم وأصلهم، ومحق الخرافات التي نسجتها عنكب الخيال، والآثار الموضوعية حولهم، في حجج قوية مقنعة، وتلك قضية وافقه فيها أهل التحقيق من المتقدمين والمتأخرين.

وأحسب أن الشيخ وفق - أيضاً - في تبديد الاعتقاد بأن هاتين الأمتين محصورتان خلف السد، لا يطلع عليها أحد، ولا تتصلان ببقية المعمورة، وأن هذا الاعتقاد ليس بلازم كلام الله، ولا كلام رسول الله ﷺ وأيد ذلك بالدلائل الجغرافية والعقلية المقنعة، التي تكشف عن واسع ثقافته، واطلاعه على كلام أهل الهيئة، والسير، المتقدمين والمتأخرين.

وهذا القدر قد أنكره بعض معاصريه ممن قطع بأن مقتضى القرآن أن يأجوج ومأجوج لا يزالون محصورين خلف سدٍ من حديد، في مكان ما من الأرض، وشنع على الشيخ رأيه، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿ الكهف.

فاندكك الردم، وخروج من وراءه على الناس متصل بقيام الساعة، وليس أمراً قد قضي، كما ذهب إليه الشيخ رحمته الله.

ويمكن القول أن يأجوج ومأجوج الآن أمتان معلومتان، محسوستان، باقيتان في مساكنهما الأصلية، حتى إذا شاء الله انفتاحهما المذكور في آخر الزمان جعل الله اندكك ذلك الردم التاريخي إيذاناً بخروجهم، وإن لم يكن مانعاً لهم الآن من الاتصال بالناس، والله أعلم.

ومع أن الشيخ رحمته الله يرى أن الردم قد اندك فعلاً، وأن فتح يأجوج ومأجوج قد ابتداءً حقاً، منذ قول النبي ﷺ: «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بين الإبهام والتي تليها - إلا إنه يعد ذلك خروجاً ابتدائياً، لا ينافي الخروج النهائي الكبير في آخر الزمان.

وبين هذين الطرفين سلسلة متصلة من حلقات الإفساد في الأرض انطلقت من مواطن يأجوج ومأجوج في أواسط وشمالي آسيا، كان منها اكتساح المغول للممالك الإسلامية، وغير الإسلامية، وغزوات المجرار في أوروبا، وغيرها، حتى تختتم بخروجهم النهائي بعد قتل المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - للمسيح الدجال، ثم يكون فناؤهم.

وهذا التقرير على جدته متوجه معقول، والخطب فيه سهل. ولم يكن الشيخ رحمته الله بدعاً من العلماء في تقريره، فقد سبق إليه، وتبع فيه. فممن سبقه إلى ذلك الفقيه المحدث محمد أنور الكشميري المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ رحمته الله فقد قال في شرحه لصحيح البخاري: «إن سد ذي القرنين قد

انذك اليوم، وليس في القرآن وعدٌ ببقائه إلى يوم خروج يأجوج ومأجوج، ولا خبر بكونه مانعاً من خروجهم، ولكنه من تبادر الأوهام فقط، فإنه قال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الكهف: ٩٩، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ الأنبياء: ٩٦ الخ، فلهم خروج مرة بعد مرة، وقد خرجوا قبل ذلك - أيضاً - وأفسدوا في الأرض بما يستعاذ منه، نعم يكون لهم الخروج الموعود في آخر الزمان، وذلك أشدها، وليس في القرآن أن هذا الخروج يكون عقيب الاندك متصلاً، بل فيه وعدٌ باندكاه فقط، فقد انذك كما وعد.

أما أن خروجهم موعود بعد اندكاه بدون فصل، فلا حرف فيه»^(١).

وقال في موضع آخر: «ولم يذكر في القرآن لفظ الخروج من هذا السد فقط، هاهنا، ولما ذكر في (الأنبياء): ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ الأنبياء: ٩٦. ولم يذكر السد، والردم، فكان الخروج لعمومهم»^(٢).

يقول د. أحمد القاضي: «وتبقى المسألة الأخيرة، وهي تحديد هوية يأجوج ومأجوج الآن! فأحسب أن الشيخ رحمته الله قد توسع فيها توسعاً زائداً إلى الحد الذي يُفقد هاتين الأمتين كينونتهما المميزة، واستقلالهما العرقي والجغرافي، الذي دلت عليه النصوص، ويجعل اسمهما (اسم جنس) مشاعاً بين جميع الأمم والأعراق؛ استناداً إلى اندماج الشعوب التركية الطورانية بمختلف شعوب

١- فيض الباري على صحيح البخاري ٢٣/٤.

٢- المرجع السابق ٢٦/٤.

الأرض، حتى أفضى به الأمر إلى حسابان معظم أمم الأرض من يأجوج ومأجوج.

وهذا غير مُسلّم؛ فالأمم والشعوب معروفة بأسمائها وأعراقها من عهد النبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

ولم تزل تقع بين الأمم والشعوب غزوات وامتزاجات دون أن تلغي خصوصيتها، أو تسلبها أصلها.

ومن شواهد ذلك قوله ﷺ: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»^(١).

ولا شك أن هذا القول، والجزم به آثار استنكاراً للرسالة مع ما تضمنته من جوانب مشرقة مفيدة، أدت إلى ما ذكر آنفاً من استدعاء الشيخ رحمه الله وانكفاه عن تقريرها.

- مراحل كتابة الشيخ للرسالة:

يقول الشيخ د. أحمد القاضي - حفظه الله -: «كتب الشيخ هذه المسألة ثلاث مرات، بخطه، في سنة واحدة ١٣٥٩هـ، وجميعها موجود محفوظ، ويظهر لي - والله أعلم - أن الكتابة تمت على ثلاث مراحل:

أولاً: الرسالة المختصرة: ضمنها الشيخ رأيه مجملاً دون تبويب، أو تفصيل، أو نقول.

ولعلها النسخة التي حُملت إلى الرياض، وتلقاها المشايخ، وهي التي اعتمد عليها ابن محمود في استشهاداته، وقد ضمنها الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن

1 - صحيح مسلم (٢٨٩٨).

المسند - حفظه الله - كتابه المعنون: (الصين ويأجوج ومأجوج، عالم مجهول)^(١) ونقلها بكاملها.

ثانياً: الرسالة المتوسطة: أعاد كتابة رأيه مبسوطاً، وقدم له بمثال، وثنى بآخر هو يأجوج ومأجوج، ورتب له عشرة أدلة في إثبات ما ذهب إليه، إلا أنها خلت من النقول عن المعاصرين وغيرهم.

ثالثاً: الرسالة التامة: وهي التي بين أيدينا، وقد حبرها الشيخ تحبيراً، وألحق بها جملة من النقول من كلام أهل العصر المعتبرين ما يؤيد فكرته، ورفع من مستهلها المثال الأول؛ اقتصاراً على أمر يأجوج ومأجوج فقط^(٢).

وقد اعتمدناها هاهنا لكمالها، وتضمنها ما سبق، وزيادة، يدرك هذا من قارن بين ألفاظ الرسائل الثلاث، والله أعلم^(٣).

هذا هو ملخص ما ورد في قصة يأجوج ومأجوج.

وفي نهاية الحديث عن هذه القصة ينتهي الحديث عن سيرة مدرسة السماحة والحلم الشيخ عبدالرحمن السعدي - رحمه الله رحمة واسعة، ونفع بعلمه وسيرته؛ إنه سميع قريب^(٤).

1 - من إصدارات نادي القصيم الأدبي بريدة. الطبعة الأولى عام ١٤١٠هـ.

2 - طبعت هذه الرسالة طباعة مستعجلة خالية من التحقيق، سنة ١٤١٨هـ، ووقع فيها بعض التصرف والأخطاء.

3 - رسالتان ص ٥٧-٥٨.

4 - في النية - إن شاء الله - أفراد لسيرة الشيخ رحمته الله والتوسع في ترجمته؛ حيث لدي أخبار، وروايات عن سيرته غير ما ذكر.

سماحة الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ

سماحة الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ

«أولاً: معالم عامة في سيرته»

توطئة وتمهيد:

هو العلامة الجليل الشيخ أبو عبد العزيز محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف ابن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمهم الله جميعاً..

إمام عصره، وفريد دهره، الذي جمع الله له خصال الخير، ومقومات السؤدد.

ولد الشيخ محمد في مدينة الرياض في حي دخنة في السابع عشر من شهر الله المحرم، عام أحد عشر وثلاثمائة وألف للهجرة، ونشأ نشأة صالحة، وأخذ بأسباب المعرفة والعلم، فتلقى القرآن الكريم وهو ما بين الثامنة والعاشرة من عمره وقيل: إنه حفظ القرآن في الحادية عشرة، وقيل وهو في السادسة عشرة، وذلك على يد معلمه الشيخ عبد الرحمن بن مفيريج.

وفي السادسة عشرة من عمره أصيب بالرمد في عينيه، فكف بصره، وهو في السابعة عشرة.

ثم واصل بعد ذلك طلب العلم في مختلف الفنون، وتلقى على جلة من أكابر العلماء في عصره.

وقد استفاض عنه رحمته الله أنه كان كثير الدأب في المطالعة في مختلف الكتب

وتدريسها ، فكان هذا مصدراً ثانياً أكسبه سعة من علمه وأفقه .
وقد أعانه على ذلك ما عرف عنه من حدة الذكاء ، وقوة الذاكرة ، ورجاحة
العقل .

وقد لمس منه مشايخه الألمعية النادرة ، والنجابة المبكرة ، ورأوا منه مزايا
عظيمة لا تتوافر إلا في القليل من الرجال ، فأدركوا أنه الخليفة لهم ، وأنه يمكن
أن يُطمئن إليه في مجالس العلم .

ولقد صدقت نظرتهم في هذا الرجل ، فلقد كان نسيج وحده في العلم
والتعليم ، والصبر ، والجلد ، والحكمة ، والحنكة ، وبعد النظر .
وفيما يلي من أسطر نبذة عن بعض ملامح السمو والنبوغ والألمعية في حياة
هذا الإمام الفذ .

أ- اشتغاله بالتدريس :

حين توفي عمه الشيخ عبد الله عام ١٣٣٩هـ أخذ الشيخ محمد مجلسه ، فبدأ
التدريس إلى جانب مشايخه الذين ما زالوا على قيد الحياة .
ولما توفي شيخه سعد بن حمد بن عتيق عام ١٣٤٩هـ توسع في مجالس
التدريس ، فكثر رواده وقاصدوه ؛ لما رأوا منه من غزارة العلم ، وعظم الفائدة .
ولقد كان يعمر جل نهاره بالتدريس ، حيث كان يجلس ثلاث جلسات
منتظمة ، فالأولى بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس ، والثانية بعد ارتفاع
الشمس مدة تتراوح ما بين الساعتين إلى الأربع ساعات ، والثالثة بعد صلاة
العصر ، وهناك جلسة رابعة لكنها ليست مستمرة ، وهي بعد صلاة الظهر .

أما الكتب التي كان يُدرّسها فهي كثيرة، وفي فنون متنوعة، منها ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل، وزاد المستقنع مع شرحه الروض المربع، وبلوغ المرام، والآجرومية، والملحة، وقطر الندى، وعمدة الأحكام، وأصول الأحكام، والحموية، ونخبة الفكر، وكتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وثلاثة الأصول، والواسطية، وفتح المجيد، والطحاوية، وشرح الأربعين النووية، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسنن الأربعة، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وابن كثير بدون استثناء، وكل ما جد من كتب السلف والمحققين من العلماء^(١).

ولقد كان رحمته الله يعطي مجالس العلم حقها من الاحترام والتقدير، ويحرص على إيصال الفائدة للطلاب، حتى إنه ليكاد يغني شرحه عن مطالعة. وكان له طريقة بديعة في تدريسه ليس هذا مجال بسطها^(٢).

ب- أخلاقه وصفاته:

لقد كان رحمته الله يتمتع بأخلاق عالية، جعلت له مكانة في قلوب الخاصة والعامة.

ولقد وهبه الله صفات كثيرة كانت سبباً في نبوغه وألمعيته.

1- قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله مضيفاً: «ومسند الإمام أحمد بقراءة أخيه الشيخ عبداللطيف بعد الظهر».

2- انظر مقدمة الشيخ محمد بن قاسم لفتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ص ١٣، وارجع إلى محاضرة عن سيرة الشيخ محمد بن إبراهيم لحفيده معالي الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ.

فمن صفاته البارزة ذكاؤه الباهر، وذاكرته القوية الطيبة الواعية، وحافظته النادرة التي كانت سبباً لتحصيله ثروة علمية واسعة.

فهو رحمته الله يحفظ كثيراً من المتون، والقصائد المطولة، وكان - وهو في أخريات حياته - يصف مشاهداته قبل أن يكف بصره مع أنه - كما مر - عمي في السابعة عشرة من عمره.

وكان يحفظ المتن للقراءة الثالثة، وربما الثانية، وكانت المعاملة الطويلة التي تبلغ ثلاثمائة صفحة تقرأ عليه، ثم يملي ما يراه مستحضراً كل ما فيها من الجزئيات.

ولم يكن غريباً منه أن يدل القارئ على مواضع الأبحاث في كتبها ذكراً رقم الصفحة أحياناً.

وكانت علامات الذكاء الباهر بادية منذ صغره، يقول معالي الشيخ عبدالله ابن منيع حدثنا سماحته عن نفسه فقال: «كنت في آخر العام الثاني من ولادتي، فدخلت والدتي غرفة نومها؛ فرأيتها تبحث عن شيء؛ فظننت أن ذلك الشيء الذي تبحث عنه مكحلتها؛ فأشرت بيدي إليها أن المكحلة في طاق الغرفة، ففرحت بإشارتي، وضممتني ضمة لا أزال أتذكرها حتى يومي هذا»^(١).

ويقول الشيخ حمد الحمين - حفظه الله - وهو من لازم الشيخ محمد ابن إبراهيم من عام ١٣٧٤ هـ إلى أن مات الشيخ محمد عام ١٣٨٩ هـ، يقول متحدثاً

1 - مجلة البحوث العلمية عدد ١٨، ص ٢٢٩-٢٣٠ من بحث للشيخ عبدالله بن منيع عنوانه (من

أفذاذا العلماء: الشيخ محمد بن إبراهيم).

عن حفظ الشيخ محمد ﷺ: «وكان ﷺ حافظاً للمتون، متقناً للقرآن؛ فلا أذكر مرة خلال ١٨ سنة قضيتها معه أنه قد ردَّ عليه أحد أثناء قراءته للقرآن في المسجد أثناء الصلاة، وإن كان ﷺ لا يتحدث مطلقاً عن سعة محفوظاته أو ما أشبه ذلك»^(١).

وبما كان يتميز به طهارة القلب، فكان لا يحمل ضغينة على أحد أساء إليه، بل كان ديدنه الصفح والتجاوز، بل والمحافظة على سمعة من آذاه، والدفاع عنه من أن ينال بباطل.

ولا غرو في ذلك، فهذه أخلاق العلماء والعظماء.

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

فهو ﷺ من أولى من يأخذ بقوله - تعالى - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

وكان على قدر عظيم من التأمل، والتروي، والتأني، وبعد النظر فيما يعرض عليه من القضايا التي تجدد تباعاً، ولم يكن يتعجل الأمر حتى يمعن في الدرس، والتأمل، والنظر في العواقب.

وكان يدرك حقيقة ما يعرض عليه من المشكلات؛ فيكشف ما وراءها من الدوافع ببصيرته النافذة؛ فلا ينطلي عليه كيد أو احتيال.

ورغم أنه لم يحمل الساعة طيلة حياته فإنه يدرك الوقت، ولا يكاد يخطئ فيه بضع دقائق.

1 - سيرة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رواية الشيخ حمد الحمين، ص ٢٢.

وكان ذا فراسة صادقة، وحسن اختيار للأشخاص ووضعهم في أماكنهم اللائقة بهم.

ولا أدل على ذلك من تعيينه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز نائباً له في الجامعة الإسلامية منذ أول تأسيسها؛ حيث كان ذلك الاختيار في غاية التوفيق؛ فلقد طرح الله البركة والخير الكثير فيه للإسلام والمسلمين إلى يومنا هذا.

يقول معالي الشيخ إبراهيم بن الشيخ محمد بن إبراهيم: «إن الشيخ محمداً لما عزم على تعيين الشيخ عبدالعزيز بن باز في الجامعة الإسلامية بالمدينة استدعاه وعرض عليه هذا الأمر فأجابه الشيخ عبدالعزيز قائلاً: أنا لا أرغب في ذلك.

فقال الشيخ محمد ﷺ: لا يخفك أهمية هذه الجامعة، وأملنا كبير في أن تنتشر منها الدعوة الإسلامية في العالم - إن شاء الله -.

فقال الشيخ عبدالعزيز بن باز: إذا كنت تؤكد عليّ في ذلك فليس لديّ إلا السمع والطاعة، فقال له الشيخ: أرى أن لا يصلح لهذه الجامعة إلا أنت، فتوكل على الله، فقال الشيخ عبدالعزيز: سمعاً وطاعة وأخذ عصاه، وقام ممثلاً لما ألزمه به الشيخ محمد.

وكان في تعيينه في هذه الجامعة الخير الكثير»^(١).

أما شجاعته فحدث ولا حرج فلقد كان وافر الشجاعة، قوي الشكيمة، لا يخشى أحداً، ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يتردد في إعلان الحق والصدع به أيّاً كان المخاطب به.

ودافعه في ذلك مخافة الله ، والحرص على إبراء الذمة ، فمكانته تحتم عليه نبذ التخاذل ، وله في ذلك مواقف محفوظة.

ومن السمات البارزة فيه ما آتاه الله من هيبة في نفوس الناس ، وهو أمر يرجع إلى معرفة الناس بصرامته في الحق ، ولهذا يحسب محدثه حساباً شديداً إذا أراد أن يكلمه؛ خشية أن يزل بكلمة.

وكان مع ذلك أنيساً عند مخالطته ألوفاً لمعاشريه ، لا يتصف بشيء من الغلظة أو الجفاء أو الفظاظة

وكان يحسن التفريق بين مجالس الجد والعمل ومجالس الراحة والإجمام. يقول الشيخ حمد الحمين - حفظه الله - : « كان ﷺ رغم شدته وحزمه وهيبته الناس له صاحب دعاية خصوصاً مع خاصته ، وأحفظ له ﷺ في ذلك حكايات كثيرة»^(١).

وسياتي ذكر لبعض الأمثلة لدعايته.

ومن عظيم أخلاقه أنه كان يتنزّه عن الغيبة والحديث في الآخرين بما يكرهون وعرف بذلك منذ حداثة سنه حتى فارق الدنيا.

يقول الشيخ حمد الحمين - حفظه الله - : « ولا أذكر مرة - طيلة صحبتي له - أنه تكلم على أحدٍ بسوء ، بل كان إذا أحب شخصاً مدحه ، وإن لم يحبه تركه؛ فلم يذكره ، ولا يرضى أن يذكره أحد بسوء عنده»^(٢).

1 - سيرة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ص ٢٧.

2 - سيرة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ص ٢٧-٢٨.

وكان متورعاً متعففاً عن أخذ ما ليس له، أو ما يرى فيه شبهة، وكان حريصاً على أن لا يدخل نفسه في مداخل مشتبهة، ولم يعهد عنه أنه اشتغل بالبيع أو الشراء، لا بالاستقلال ولا بالمشاركة.

وكان رحمته الله معروفاً بالبذل والسخاء وبالأخص ما يتعلق بإكرام العلماء والقضاة وطلاب العلم، وكان لا يترك مناسبة مهمة إلا أقام لها الوليمة الكبيرة، ودعاهم إليها.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ومنها أن الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله لما قدم من الدلم عندما كان قاضياً فيها أكرمه الشيخ محمد بمأدبة كبيرة حضرها العلماء والمشايخ.

ويقول معالي الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم رحمته الله : «يوم أن زار الشيخ عبدالرحمن بن سعدي سماحة الشيخ محمد - رحمهما الله - قابله الشيخ محمد مقابلة تكريم واحترام، وأجلسه في مجلسه الخاص، وجلس الشيخ محمد عن يمينه»^(١).

وكان محباً للعلماء من مشايخه وغيرهم، كثير الثناء عليهم، والدعاء لهم؛ فكان يقول عن شيخه الشيخ سعد بن عتيق رحمته الله : «شيخنا الشيخ الكبير، والعالم الشهير».

وكان إذا أتاه الشيخ محمد بن مانع رحمته الله قام له، ورحب به، وأجلسه مكانه. ومن كان يحبهم ويكرمهم الشيخ عبدالله القرعاوي، والشيخ أحمد شاکر،

والشيخ محمد حامد الفقي، والشيخ عبدالرحمن الأفريقي، والشيخ فيصل المبارك، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبدالله بن حميد، والشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ عبدالرزاق عفيفي، والشيخ حمود التويجري وغيرهم.

ج- خشية الله :

كان رحمته من أكثر الناس خشية لله، واستحضاراً لعظمته - عز وجل - فكثيراً ما يُسمع وهو يلهج بذكر الله، واستغفاره، ثم يرى وعينه تغرورقان بالدموع. وأكثر ما يكون ذلك حينما يكون في موقف مناجاة لله، أو حين يسمع بعض ما يحرك القلوب.

قال الشيخ محمد بن قاسم رحمته : «وكان ذلك يتجلى كثيراً فيما يحويه من الليل بالصلاة التي كان يواظب عليها في إقامته وسفره، وقد لا يعرف هذا كثير من الناس الذين لم يتصلوا به، وقد صحبته زمناً طويلاً، وهو يقوم ما يقرب من ساعة ونصف آخر الليل لا يترك ذلك»^(١).

د أعماله :

لقد تقلد الشيخ أعمالاً عظيمة، وأنيط به مهمات جسيمة. وهذه الأعمال، وتلك المهمات لا يقوم بها أولوا القوة من الرجال، وذلك لكثرتها، وتنوعها، وصعوبتها. ومع ذلك فإن الشيخ محمداً قام بها خير القيام، وذلك لكبر نفسه، وعلو همته، وقبل ذلك إخلاصه، وتوفيق الله له.

1 - فتاوى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ص ١٩.

وفيما يلي من أسطر ذكر لتلك الأعمال مع ملاحظة أن كثيراً من المهام التي قام بها وتولى رئاستها كانت في طور تأسيسها ، ومعلوم ما في ذلك من المشقة.

١- **التدريس**: وقد مر بنا شيء من ذلك ، وهو بجد ذاته عمل عظيم لو تفرغ له وحده.

٢- **الفتوى**: فقد كان يشارك فيها حتى مات شيخه الشيخ سعد بن عتيق رحمته الله ثم استقل بها حتى تحولت أخيراً إلى عمل منظم في دار الإفتاء عام ١٣٧٤هـ. وظل يقوم بالفتوى من خلال تلك الدار حتى وافته المنية ، إلى جانب ما كان يكتبه في بيته من فتاوى وردود على بعض الكاتبين.

٣- **إمامة مسجد عمه** الشيخ عبد الله من عام ١٣٣٩هـ إلى قبيل وفاته.

٤- **رئاسة القضاء**: ففي عام ١٣٧٦هـ أنشئت رئاسة القضاة تحت رئاسة سماحته في نجد والمنطقة الشرقية والشمالية ، وبعد وفاة سماحة الشيخ عبد الله بن حسن سنة ١٣٧٨هـ رئيس القضاة بالحجاز والمنطقة الغربية - ضمت إلى الشيخ محمد رئاسة القضاة بالحجاز والمنطقة الغربية ، فصار رئيس قضاة المملكة العربية السعودية ، فكان يقوم بتمييز الأحكام التي تحتاج إلى نظره.

٥- **رئاسة الكليات والمعاهد العلمية** منذ إنشائها عام ١٣٧٠هـ ، والتي أصبحت فيما بعد تسمى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٦- **الإشراف على مدارس البنات** منذ افتتاحها عام ١٣٧٩هـ.

٧- **رئاسة الجامعة الإسلامية** منذ افتتاحها عام ١٣٨١هـ.

٨- **رئاسة دور الأيتام** ، وضمت فيما بعد إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية.

٩- **رئاسة المعهد العالي للقضاء**.

١٠- **رئاسة المجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي** منذ إنشائها عام ١٣٧٩هـ.

- ١١- رئاسة المكتبة السعودية.
 - ١٢- خطابة الجامع الكبير وإمامة العيدين.
 - ١٣- الإشراف على نشر الدعوة الإسلامية في أفريقيا.
 - ١٤- رئاسة المعهد الإسلامي في نيجيريا.
 - ١٥- رئاسة مجلس القضاء الأعلى.
 - ١٦- رئاسة مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية.
 - ١٧- الإشراف على ترشيح الأئمة والمؤذنين.
 - ١٨- تعيين الوعاظ والمرشدين.
 - ١٩- بدأ في إنشاء مجلس هيئة كبار العلماء ، وأثبت في ميزانية عام ١٣٨٩ هـ غير أن المنية وافت سماحته عام ١٣٨٩ هـ قبل أن يباشر أعماله. فهذه نبذة عن أعماله الجبارة العظيمة التي لا يقوم بها إلا من آتاه الله جلدًا وقوة.
- وإن هذا ليدل على علو همته ، وسعة علمه ، ومقدرته الفذة ، وثقة الناس به ، وحاجتهم إليه^(١).

1- انظر تفصيل الحديث عن سيرة الشيخ محمد بن إبراهيم إلى مقدمة فتاويه ورسائله التي جمعها الشيخ محمد بن قاسم ٩/١ - ٢٣ ، وعلماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبدالله البسام ١/٨٨-٩٧ ، ومن أفاضنا العلماء الشيخ محمد بن إبراهيم لمعالي الشيخ عبدالله بن منيع ، مجلة البحوث العلمية ، عدد ١٨ ، ص ٢١١-٢٣٨ ، وسيرة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رواية الشيخ حمد الحمين ، وبحث الدكتور محمد الشويعر: الشيخ محمد بن إبراهيم عالم الديار السعودية وفقهها عدد ٥١ ص ٢٩٣-٣٧٢.

«ثانياً: أبرز تلامذة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله (١)»

لم تستقطب الرياض طلاباً بقدر ما استقطبت على يد الشيخ محمد ابن إبراهيم، حيث سطع نجمه في وقت مبكر، وعلا ذكره العلمي، فلفت الأنظار، واتجهت إليه المجاميع من أنحاء الجزيرة العربية، بل ومن خارجها منذ جلس للتدريس، فالتفّ حوله طلاب العلم بحرص ورغبة؛ لكي ينهلوا من معين علمه الثرّ للأسباب التالية:

- ما جعله الله له من قبول في القلوب، وسمعة حسنة لدى القاصي والداني، وما جُبلت عليه طباعه من خصال عديدة وحميدة، تُرغّب في القرب منه، وتحبب في الأخذ عنه، وتزيل الهيبة، وتباعد عن الجفوة.
- ما جبلت عليه نفسه من حب نشر العلم، وهمة عالية في توصيل ما أفاء الله به عليه للآخرين؛ حيث يرى أن أمانة العلم في تبليغه، وعدم كتمانها.
- حرصه على التطبيق العملي في نفسه؛ خوفاً من مَعَرَّة التائم بكتمان العلم، ورغبةً بإرواء نهم المتعطشين للنيل من موارد العلم العذبة، ورجاء أن يترك أثراً علمياً ينتفع به؛ ليكون له من العمل المستمر الصالح.
- إخلاصه وبذله من جهده ووقته فوق ما يتحمله غيره؛ حرصاً منه على أداء الأمانة، وشعوراً بحاجة العباد والبلاد إلى العلم، الذي به السعادة والخير في الدنيا

1 - هذا المبحث أكثره مستفاد من بحث الشيخ عبدالله بن منيع عنوانه (من أفاضنا)، منشور في مجلة البحوث العلمية عدد ١٨ ص ٢١٦-٢١٩، وببحث د. محمد الشويعر: الشيخ محمد بن إبراهيم عالم الديار السعودية وفقهها مجلة البحوث العلمية عدد ٥١ ص ٣١٨-٣٢٥.

والآخرة.

- **تواضعه لطلابه**، فهو رؤوف بهم، ناصح لهم، قريب منهم، حريص على إيصال النفع لهم.

ولصدقه وحصافة رأيه تجاوب معه الملك عبدالعزيز، ويسر للطلاب السبل المعينة على التفرغ للدراسة بحلقة الشيخ محمد خاصة، والمشايخ الآخرين عامة وذلك من خلال ما يلي:

- **توفير مساكن وأربطة لطلبة العلم**، وأكبرها وأهما رباط دخنة المجاور لمسجد الشيخ عبدالله، الذي تولى إمامته الشيخ محمد بعد وفاة عمه منذ عام ١٣٣٩هـ، ويقع جزء من هذا الرباط والمكتبة السعودية في مبنى مجمّع المحاكم بالرياض في دخنة.

وبعدما ازداد عدد الطلاب، وضاق بهم رباط دخنة وما حوله أُوجِدَت مساكن أخرى متعددة لإسكان الطلبة، واستيعاب عددهم المتكاثر سنة بعد أخرى عرفت باسم بيوت الإخوان.

- **الحرص على إتاحة الفرصة في العمل للناهبين القادرين من كبار الطلبة**: في القضاء، والوعظ، والدعوة، والإمامة، والتدريس كل في الموقع المناسب له.

- **تنظيم ترحيل هؤلاء الطلبة إلى ديارهم وقت الإجازة**، ولأعمالهم لمن يكلف بعمل على حساب الدولة.

- **وضع مخصصات للطلاب تصرف لهم من المالية**: من أرزاق وكسوة في بادئ الأمر، ثم تحولت إلى مبالغ نقدية بعدما استقرت ميزانية الدولة، وثبت دخلها؛

لكي تعينهم على التفرغ للعلم ، وتكفيهم مؤنة البحث عن لقمة العيش .
وقد تحقق بذلك نتائج جيدة ، فكان مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم في دخنة
جامعة علمية كبيرة ، تخرج فيه على يدي الشيخ محمد ﷺ أفواج كثيرة من
العلماء شغلوا مناصب مهمة في الدولة ، ولا يزالون .

ولعل من أبرزهم؛ حيث يصعب تعدادهم؛ لكثرتهم ما يلي:

- ١- الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد ﷺ وآخر عمل تولاه: رئيس المجلس الأعلى للقضاء.
- ٢- الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ﷺ مفتي عام المملكة العربية السعودية.
- ٣- الشيخ سليمان بن عبيد آل سلمي ﷺ آخر عمل تولاه: الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.
- ٤- الشيخ عبدالله بن يوسف بن وابل ﷺ قاضي أبها ونزيلها.
- ٥- الشيخ عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد ﷺ أول رئيس لمدارس البنات وآخر عمل قام به: رئيس محكمة التمييز بالرياض.
- ٦- الشيخ عبدالملك بن إبراهيم آل الشيخ - شقيق الشيخ محمد رحمهما الله - وآخر عمل قام به: رئاسة هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمنطقة الغربية.
- ٧- الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن حسن آل الشيخ ﷺ وآخر عمل قام به: منصب وزير المعارف ، ثم رئيس هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- ٨- الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ رحمته الله أحد علماء الرياض ووجهاتها.
- ٩- الشيخ صالح بن محمد اللحيدان رئيس المجلس الأعلى للقضاء حالياً.
- ١٠- الشيخ محمد بن إبراهيم البواردي رحمته الله وآخر عمل قام به: القضاء بمحكمة التمييز بالرياض.
- ١١- الشيخ صالح بن علي بن غصون وآخر عمل قام به عضوية هيئة كبار العلماء، والقضاء بمجلس القضاء الأعلى قبل تقاعده.
- ١٢- الشيخ عبدالله بن عمر بن دهيش رحمته الله رئيس محكمة مكة.
- ١٣- الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمته الله المستشار بالديوان الملكي.
- ١٤- الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ وآخر عمل قام به قبل تقاعده: وزارة العدل.
- ١٥- الشيخ راشد بن صالح بن خنين المستشار بالديوان الملكي حالياً.
- ١٦- الشيخ سعود بن رشود رئيس محكمة الرياض الكبرى سابقاً رحمته الله.
- ١٧- الشيخ زيد بن عبدالعزيز بن فياض الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قبل وفاته رحمته الله.
- ١٨- الشيخ محمد بن عبدالله بن الأمير عضو المجلس الأعلى للقضاء حالياً.
- ١٩- الشيخ علي بن سليمان الرومي القاضي بمحكمة التمييز بالرياض رحمته الله.
- ٢٠- الشيخ غيهب بن محمد بن غيهب القاضي بمحكمة التمييز بالرياض.

- ٢١- الشيخ محمد بن الشيخ عبدالرحمن بن قاسم رحمته الله الذي جمع فتاوى سماحته^(١).
- وقد أورد فضيلة الشيخ عبدالله بن سليمان بن منيع ٣٣ عالماً، كلهم أخذوا عن سماحته، ومن أبرزهم ممن لم يرد لهم ذكر عند غيره:
- ١- الشيخ حمد الجاسر رحمته الله علامة الجزيرة وباحثها.
 - ٢- الشيخ محمد بن هليل رحمته الله القاضي بالدوادمي.
 - ٣- الشيخ عبدالرحمن بن قاسم، جامع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية وأول أمين للمكتبة السعودية بالرياض رحمته الله.
 - ٤- الشيخ عبدالله بن محمد القرعاوي داعية الجنوب رحمته الله والذي نفع الله به في جنوب المملكة واليمن.
 - ٥- الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رحمته الله: شقيقه وعضده في التعليم بعدما فتحت المعاهد.
 - ٦- الشيخ الدكتور حمد بن محمد بن فريان، وكيل وزارة العدل السابق، وعضو مجلس الشورى.
 - ٧- الأمير مساعد بن عبدالرحمن رحمته الله وزير المالية سابقاً وصاحب أكبر وأقدم مكتبة خاصة بالرياض.

1 - راجع في تلاميذه (مشاهير علماء نجد وغيرهم) ص ١٧٢-١٧٧ وقد أورد منهم ٦٦ اسماً، وانظر كتاب (روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد) لمحمد العثمان القاضي ج ٢ ص ٣١٩-٣٢٠ وقد أورد منهم ٤١ اسماً.

٨- الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل، عضو المجلس الأعلى للقضاء سابقاً.

٩- الشيخ محمد بن عبدالله بن عودة وآخر عمل قام به هو كونه رئيساً عاماً لتعليم البنات.

١٠- الشيخ الدكتور عمر بن عبدالعزيز المترك رحمته الله المستشار بالديوان الملكي سابقاً.

١١- الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن غديان عضو الإفتاء، وعضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة بالمملكة.

١٢- الشيخ عبدالله بن سليمان بن منيع عضو هيئة التمييز بمكة، وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة.

وخلاصة القول أن غالب علماء المملكة هم من تلاميذه، ذلك أن الشيخ مورد عذب، ترده الجموع من طالبي العلم، فينهلون من معينه، فيصدرون بعد ارتواء. ولما تكاثر عددهم، ورأى حاجة البلاد بعد استقرارها، وتشعب الأعمال فيها، اقترح الشيخ محمد رحمته الله على الملك عبدالعزيز رحمته الله فتح المعاهد والكليات في عام ١٣٧٠هـ حيث تحول طلابه إلى الدراسة بها، كل بحسب مستواه العلمي، وكان له الإشراف التعليمي والمتابعة، وأسند الإدارة لأخيه الشيخ عبداللطيف، الذي كان عضداً له، يعمل بما يوجهه، ويتابع العمل مباشرة عنه.

وقد تحولت المعاهد والكليات فيما بعد إلى جامعة أخذت اسم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فنفع الله بها وبمن تخرج فيها داخل المملكة وخارجها.

«ثالثاً: عمل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم اليومي»

لسماحة الشيخ محمد رحمته الله نظام يومي حافل بجلائل الأعمال، وتنوعها. يقول معالي الشيخ عبدالله بن منيع - وهو ممن لازم الشيخ محمداً سنوات طويلة - يقول مبيناً ذلك: «كان رحمته الله شاغلاً كل وقته بالتدريس في جامعته، وفي بيته، وبعد أن تراكمت على سماحته الأعمال الإدارية من علمية، وقضائية، وفتوى، وإشراف عام على الشؤون الدينية - حالت تلك الأعمال الإدارية عما كان يقوم به من التعليم، فتفرغ لها تفرغاً كاملاً. وبصفتي أحد المقربين لدى سماحته في العمل معه في الإفتاء فلدي خبرة تامة بعمله اليومي:

يقوم من نومه قبل الفجر بما شاء الله، ثم يصلي تهجداً ما شاء الله له ذلك يتلو في تهجده ما يتيسر له من كتاب الله - تعالى - حتى يؤذن الفجر، ثم يصلي الفجر إماماً في مسجده القريب من بيته في دخنه، ثم يجلس بعد صلاة الفجر في بيته لمن يأخذ منه موعداً من أعضاء الإفتاء، وأعضاء الرئاسة؛ لعرض ما لديه من قضايا وأخذ توجيهه نحوها، ويستمر ذلك معه حتى الساعة الواحدة صباحاً بالتوقيت الغروبي، ثم يأتي دور مدير مكتبه الخاص؛ ليعرض عليه من الأمور السرية ما تيسر له عرضه.

وبمناسبة الحديث عن مكتب سماحته الخاص فهو شبيه بمركز القيادة العامة التي تصدر عنها كل التوجيهات لقطاعات أعمال سماحته في المجالات العلمية، والقضائية، والشؤون الدينية، والإفتاء وغير ذلك من الأمور السرية المختصة

بأجناس المجتمع.

بعد انتهاء دور مدير مكتبه الخاص يغادر مكتبه إلى داخل بيته؛ ليستريح قليلاً، ويتناول فطوره، ثم يذهب إلى الإفشاء إن كان هذا اليوم من أيامها، أو يذهب إلى رئاسة القضاء إن كان من أيامها؛ حيث قسم سماحته أيام الأسبوع بين الإفشاء، ورئاسة القضاء لكل واحدة منهما ثلاثة أيام في الأسبوع متغيرة، يوم في الإفشاء، ويوم في الرئاسة.

وبعد صلاة الظهر يجلس مجلساً خاصاً لمن أخذ منه موعداً من القضاة؛ لعرض ما لديه من إشكال في عمله من حيث مكانه في العمل، أو ما يعترضه من إشكال قضائي فيما ينظره في قضائه، أو من حيث رغبته في الانتقال، أو التقاعد، أو غير ذلك مما يلجأ إليه بعد الله في حل إشكاله.

وقد يشترك في هذا المجلس عند سماحته غير القضاة أشخاص من أسر ذات مكانة خاصة لا تريد الإسهام في حل مشاكلها، والإشراف عليها من غير سماحته.

يمكث في مجلسه هذا ما بين الساعة والساعتين تبعاً لعدد من يتفق معهم على هذا الموعد، ثم يتغدى، ويستريح قليلاً، وبعد أدائه صلاة العصر يكون قد أعطى موعداً لواحد من أعضاء الإفشاء، أو الرئاسة؛ لعرض ما لديه من معاملات قضائية؛ للنظر فيما صدر فيها من أحكام قضائية من المحاكم، ثم من التمييز مما يرغب المقام السامي من سماحته التأكد من صحة الإجراءات القضائية التي صدرت بخصوصها؛ فيستمر معه ذلك العضو حتى قبيل آذان المغرب.

يكون ذلك في بيت سماحته ، وقد يكون في مزرعة سماحته في عرقه .
ولسماحته بعد صلاة المغرب مجلس عام يحضره كل من يريد السلام على
سماحته ، أو الاتفاق معه على موعد خاص ؛ لعرض مشكلة لديه .
لهذا المجلس من العموم ماله من حيث أجناس الناس ، وأصناف الأحاديث
حديث في الأخبار العامة ، حديث في الأحوال الجوية ، حديث عن مسألة فقهية
يجري طرحها للاسترشاد من سماحته عن حكمها ، حديث عن أحوال المجتمع
من حيث التعليم ، أو الصحة ، أو المرافق العامة ، أو القبائل العربية وتسلسل
أنسابها يستمر هذا المجلس العام حتى أذان العشاء ، ثم يذهب إلى المسجد ؛
ليستمع إلى قراءة في تفسير ابن جرير تنتهي في الغالب بتعليق سماحته على
الدرس ، ثم تقام الصلاة ، وبعد صلاة العشاء يختصر سماحته مع مدير مكتبه
الخاص ؛ لعرض ما لديه من أعمال سرية ، وعامة يجري بعدها التوجيه من
سماحته ببعثها لجهات اختصاصها من المؤسسات التابعة لسماحته ، ثم بعد ذلك
يأتي موعد أحد أعضاء الرئاسة ، أو الإفتاء مع سماحته ؛ لعرض ما لديه من
معاملات قضائية يجري التوجيه عليها بما يراه سماحته ، وقد يكون العرض
خاصاً بتلاوة نتائج أعمال قضائية سبق دراستها من سماحته بواسطة ذلك
العضو ، وذلك لختمها ؛ تمهيداً لبعثها للجهة التي جاءت منها ، ثم ينهض
سماحته إلى داخل البيت ؛ لتناول ما تيسر له من عشاء ، ثم ينام .
وهكذا يسير برنامجه اليومي على وتيرة واحدة لا يغيره عن هذا إلا سفر
يقتضي برنامجاً مغايراً .

وبهذا يتضح أن سماحته ﷺ كان يقضي ما لا يقل عن سبع عشرة ساعة كلها في خدمة المسلمين، وبصفة دائمة ومستمرة لا تقطعها إجازة، ولا يحول دون القيام بها أي تعلل من تعللات الآخرين؛ فرحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له من الثواب والجزاء ما يؤهله لأعلى عليين»^(١).

«رابعاً: ترجمة نادرة للشيخ محمد بن إبراهيم»

لقد كتب في سيرته العديد من الكتب، والرسائل العلمية. كما أن بعض طلابه كتبوا عنه، ورثوه، وبينوا فضله ومناقبه. ومن الكتابات النادرة في ذلك ترجمة أملاها في ٤/١١/١٣٨٩هـ تلميذه البار سماحة الشيخ الإمام عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمته الله حيث وجد في طي أوراقه كلمة تحت عنوان (فائدة تتعلق بترجمة شيخنا محمد بن إبراهيم آل الشيخ ووفاته رحمته الله).

قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بعد ذلك: «في شعبان من عام ١٣٨٩هـ ألمَّ به رحمته الله مرض في المعدة، ولم يزل به حتى أدخل المستشفى المركزي بالرياض؛ للفحص والعلاج في أول رمضان ثم في ٤^(١) منه سافر إلى لندن؛ للعلاج، واشتد به المرض هناك، ورأى الأطباء أنه لا مصلحة في إجراء العملية؛ فرجع إلى الرياض في ليلة الجمعة الموافق ١٩/٩/١٣٨٩هـ وهو ثقيل جداً وضعيف الشعور، ولم يزل في غيبوبة إلى أن وافته المنية في ضحوة يوم الأربعاء الموافق ٢٤/٩/١٣٨٩هـ - رحمه الله رحمة واسعة -.

وقد عدُّته يوم السبت الموافق ٢٠ رمضان، وسلمت عليه فرد علي ردًّا ضعيفاً، ثم لم يزل في غيبوبة، وأخبرني أخوه فضيلة الشيخ عبدالملك وابناه الفاضلان الشيخ عبدالعزيز والشيخ إبراهيم أنه لم يزل في غيبوبة من حين وصل من لندن إلى أن توفي إلا أنه قد يتكلم بكلمات قليلة مضمونها طلبُ المغفرة

1- أي في الرابع من شهر رمضان المذكور.

والعفو والمسامحة ونحو ذلك.

وكان لمرضه، ثم موته ﷺ الأثر العظيم في نفوس المسلمين في المملكة وغيرها، وقد حزن المسلمون عليه حزناً عظيماً، وصلى عليه ﷺ بعد صلاة الظهر من اليوم المذكور في الجامع الكبير بالرياض، وكنت أنا الذي أممّتهم في الصلاة عليه، وحضر الصلاة عليه جلالة الملك فيصل، والأعيان من الأمراء والعلماء وغيرهم، وامتلاً المسجد الجامع بالناس على سعته، وصلى الناس عليه في خارج المسجد، وتبع جنازته إلى المقبرة الحمّ الغفير، نسأل الله أن يتغمده برحمته ورضوانه، ويسكنه فسيح جنانه، ويصلح عقبه ويَجبر مصيبة المسلمين فيه، ويحسن لهم الخلف.

وكان ﷺ باذلاً وسعه من حين مات عمه الشيخ عبدالله بن عبداللطيف ﷺ عام ١٣٣٩هـ في التعليم والتوجيه والفتوى، وكان لديه حلقات كبيرة في مسجده وبيته في أنواع الفنون، وتخرج عليه جمع كثير من العلماء من القضاة وغيرهم، وكان ذا غيرة عظيمة، وهمة عالية رفيعة، وكان كهفاً منيعاً لأهل الحق من دعاة الهدى، وكان ذا حزم وصبر وقوة في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم.

ثم تولى رئاسة القضاء والنظر في مشاكل الدولة والمسلمين، فلم يألُ جهداً في إجراء الأمور على السداد والخير، وبذل الوسع في حل المشاكل وإيصال الحق إلى مستحقه.

وقد أسندت إليه الحكومة الفتوى، فقام بأعبائها مع قيامه برئاسة القضاء، وكان قد قسم وقته بين محل رئاسة القضاء ودار الإفتاء علاوة على ما ينظر فيه من المشاكل في البيت، وكان يعتني بالدليل، ويرجح به ما اختلف فيه العلماء من المسائل.

وكان ذا حكمة في توجيه الطلبة وتعليمهم، وكان يرفق بهم في محل الرفق، ويقوى عليهم في محل القوة، ويوجههم إلى الآداب الصالحة والأخلاق المرضية؛ فجزاه الله خيراً، وأكرم مثواه، ورفع منزلته في دار الكرامة؛ إنه جواد كريم. وكنتم ممن لازمه مدة طويلة، وتخرّج عليه في العقيدة السلفية، والفقهاء، والحديث، والعلوم العربية، وعلم الفرائض، وأصول الفقه، ومصطلح الحديث، والتفسير، جزاه الله عني وعن سائر طلبة العلم والمسلمين أفضل الجزاء، وضاعف له المثوبة، وجمعني به وبوالدينا جميعاً وسائر مشايخنا وإخواننا وأحبابنا في الفردوس الأعلى في جوار الرب الكريم؛ إنه على كل شيء قدير.

وكان مولده ﷺ في يوم الاثنين السابع عشر من المحرم سنة ١٣١١هـ كما أخبرني بذلك ﷺ وقد أخذ العلم عن جماعة من العلماء أشهرهم عمه العلامة الشيخ عبدالله بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ الإمام محمد ابن عبدالوهاب - رحمهم الله جميعاً - والشيخ سعد بن حمد بن علي بن عتيق، والشيخ حمد بن فارس، وأخذ علم الفرائض عن الشيخ عبدالله بن راشد. وكان عمره ﷺ حين توفي ثماناً وسبعين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام.

وهذا مآل الدنيا ومصير كل حي ما عدا الحي القيوم، والحمد لله رب العالمين وإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا، واخلفنا خيراً منها، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه في ٤/١١/١٣٨٩هـ.

عبدالعزيز بن عبدالله بن باز «

« خامساً: منزلة الشيخ محمد عند العلماء المعاصرين له »

لقد كان لسماحة الشيخ محمد ﷺ المنزلة العليا، والمقام الأرفع بين علماء عصره، سواء كان في المملكة العربية السعودية أو غيرها من البلاد العربية والإسلامية.

ويتبين ذلك من خلال المراسلات التي تصل إليه، أو المشاورات التي تعرض عليه، ولو استرسلت في ذكر شيء من ذلك لطال المقام.

وفيما يلي ثلاثة أمثلة من ذلك، وهي عبارة عن ثلاث رسائل بعث بها علامة الجزائر رئيس جمعية العلماء الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي إلى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم؛ فإلى تلك الرسائل.

الرسالة الأولى: وهي أرجوزة بعث بها الإبراهيمي إلى علماء نجد وقد تضمنت ثناءً على علماء نجد الأوائل والمعاصرين، وخصوصاً الشيخ محمد بن إبراهيم، وفيها حث على تعليم النساء، وأن يكون ذلك تحت إشراف الشيخ محمد بن إبراهيم ﷺ.

وإليك ما قاله في تلك القصيدة الماتعة:

كأذني خرجتُ عن طور البَشْرِ ^(١)	قد كنت في جنِّ النَّشَاطِ والأَشْرِ
أهيمُ في بَدْرِ الدُّجَى إذا سَفَرُ	وكنت نَجْدِيَّ الهَوَى من الصغَرُ
أَنْظِمُ إنْ هَبَّ نَسِيمٌ بِسَحَرُ	وَأَتَّبَعُ الظُّبْيَ إذا الظُّبْيُ نَفَرُ
وأَقْطَعُ اللَّيْلَ إذا اللَّيْلُ اعْتَكَّرُ	ما رَقَّ من شعر الهَوَى وما سَحَرُ

1 - الأشر: المرح والتبختر والاختيال.

فِي جَمْعِ أَطْرَافِ الْعَشَايَا وَالْبُكْرِ
 لَبَيْتٌ مِّنْ أَعْلَى النَّدَاءِ وَابْتَدَرَ
 وَأَكَّدَتْ شَهْوَدُهُ صِدْقَ الْخَبْرِ
 بَاكَرَنِي فَكَانَ فِيهِ مُزْدَجَرُ
 وَلَسْتُ أَنْسَى وَصْلَهُ لَمَنْ هَجَرَ
 حُسْنًا وَظِلًّا وَلِحَاءً وَثَمَرُ
 عَلَى صِفَاتٍ أَشْبَهَتْ نَقْشَ الْحَجَرِ
 عَنَ أَحْمَدٍ وَمَا تَرَامَى وَنُشِرُ
 وَسُنَنِ مَا شَانَ رَاوِيهَا الْحَصْرُ^(٤)
 وَمَا أَتَى عَنَ صَحْبِهِ الطُّهْرِ الْغُرَرِ
 وَقَائِدِي فِي الْبَدِينِ آيٍ وَأَثَرَ
 وَمَذْهَبِي حُبُّ عَلِيٍّ وَعَمَرُ
 هَذَا وَلَا أَحْصُرُهُمْ فِي اثْنِي عَشَرَ
 وَلَا أَنْالُ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِشَرِّ

وَإِنْ هَوَى نَجْمُ الصَّبَاحِ وَأُنْكَدِرُ
 ثُمَّ ارْعَوَيْتُ بَعْدَ مَا نَادَى الْكَبِيرُ^(١)
 وَكَتَبَ الشَّيْبُ عَلَى الرَّأْسِ النُّذْرُ
 فَلَسْتُ أَنْسَى فَضْلَهُ فِيمَا حَجَرَ^(٢)
 أَكْسَبَنِي مَا يَكْسِبُ الْمَاءُ الشَّجَرَ
 طَبَعَنِي عَفْوًا وَمِنْ غَيْرِ ضَجَرَ^(٣)
 عَقِيدَتِي فِي الصَّالِحَاتِ مَا أَثَرَ
 مِنْ سَيْرِ أَعْلَامُهَا لَمْ تَنْدَثِرُ
 قَدْ طَابَقَتْ فِيهَا الْبَصِيرَةُ الْبَصَرُ
 وَالتَّابِعِينَ الْمُقْتَفِينَ لِلْأَثَرِ
 صَحَّ بَرَاوٍ مَا وَنَى وَلَا عَثَرَ
 وَالْخَلْفَاءِ الصَّالِحِينَ فِي الزُّمَرِ
 لَا^(٥) وَلَا أَرْفَعُهُمْ فَوْقَ الْبَشَرِ
 (وَشِيعَتِي فِي الْحَاضِرِينَ) مَنْ نَشَرَ

1 - من أعلى النداء: يريد المؤذن، ارعوى: كف ورجع.

2 - حجر: منع.

3 - اللحاء: قشر العود أو الشجر.

4 - الحصر: العي في النطق.

5 - لعلها: كلا

دِينَ الْهُدَى وَذَبَّ عَنْهُ وَنَفَرَ
 حَتَّى قَضَى مِنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ الْوَطَرَ
 وَمَعَشْرِي فِي كُلِّ مَا سَاءَ وَسَرَّ
 أَمَّا إِذَا صَبَّيْتُ هَذِهِ الزُّمَرَ
 (فَخَلَّتِي مَنْ بَيْنَهُمْ أَخٌ ظَهَرَ)
 وَجَالٍ فِي نَشْرِ الْعُلُومِ وَقَهَرَ
 (عبداللطيف) الْمُرْتَضَى النَّدْبُ الْأَبْرُ
 مَنْ آلِ بَيْتِ الشَّيْخِ إِنْ غَابَ قَمَرُ
 فَجَادُهُمْ نَقَى التَّرَابَ وَبَدَّرَ
 عَلَى الْأَذَى فَكَانَ عُقْبَاهُ الظَّفَرُ
 وَإِنْ أَحْفَادَ الْإِمَامِ لَزُمَرُ
 تَقَاسَمُوا الْأَعْمَالَ فَاخْتَصَّ نَفَرُ
 وَاخْتَصَّ بِالْتَّعْلِيمِ قَوْمٌ فَازْدَهَرُ

لِعِلْمِهِ وَفَقَ الدَّلِيلَ الْمُسْتَطَرَّ
 هُمْ شَيْعَتِي فِي كُلِّ مَا أَجْدَى وَضَرَ
 وَعُصْبَتِي فِي كُلِّ بَدْوٍ وَوَحْضَرَ
 فِي وَاحِدٍ يَجْمَعُ كُلَّ مَا انْتَشَرَ^(١)
 فِي الدَّعْوَةِ الْكُبْرَى فَجَلَّى وَبَهَرَ^(٢)
 كَتَائِبَ الْجَهْلِ الْمَغْيِرِ وَانْتَصَرَ
 سُلَالَةَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْمُعْتَبَرِ^(٣)
 عَنِ الْوَرَى خَلْفَهُ مِنْهُمْ قَمَرُ
 وَلَقِيَ الْأَذَى شَدِيدًا فَصَبَّرَ
 وَالابْنَ وَالِي السَّقْيِ كِي يَجْنِي الثَّمَرَ
 (محمد) مِنْ بَيْنَهُمْ حَادِي الزُّمَرِ^(٤)
 بِمَا نَهَى مُحَمَّدٌ وَمَا أَمَرَ
 يَبْنِي عَقُولَ النَّشْءِ مِنْ غَيْرِ خَوَرِ^(٥)

1 - الزمر جمع زمرة وهي الجماعة.

2 - الخلة: الصديق.

3 - يعني به: الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رحمته الله أخو الشيخ محمد ويعني بالإمام المعتمر:

الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمته الله.

4 - يعني به الشيخ محمد بن إبراهيم، وهذا شروع في الثناء عليه.

5 - الخور: الضعف.

قَادَ جِيُوشَ الْعِلْمِ لِلنَّصْرِ الْأَعْرُ
 وَالْجَيْشِ مُحْلُولِ الزَّمَامِ مُنْتَثِرُ
 وَلَمْ يَقْدَهُ فِي الْمَلَا بُعْدُ نَظَرُ
 مُحَنَّكَ طَوَى الزَّمَانَ وَنَشَرَ
 تَنَاسُقَ كَالرِبْطِ مَا بَيْنَ السُّورِ
 وَالْجَيْشِ أَشْبَالَ لِيَوْمٍ يُنْتَظَرُ
 صُنِعَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ
 وَارْكَبُ جَوَادِ الْحَزْمِ فَالْأَمْرُ خَطَرُ
 عَفَا الْخُطَى عَفَا اللِّسَانَ وَالْفِكْرُ
 وَغَايَةَ الْجَمْعِ الْمَفِيدِ فِي الْحَضَرِ
 مَا اجْتَمَعَتْ إِلَّا ثَوَى الْخَيْرِ وَقَرَّ
 وَلَيْسَ مِنْهَا مَا بَغَى الْبَاغِي وَجَرَّ
 إِنَّ فَضُولَ الْقَوْلِ جِزءٌ مِنْ سَقَرِ
 وَلَا يَقُولُ: إِنَّنِّي غَيْثٌ قَطَرُ
 عَرَفْتَ مَبْدَاهَا فَهَلْ تَمَّ الْخَبَرُ
 كَالسُّورِ يعلو حجراً فوقَ حجرِ
 مَا لَمْ يُسَوِّرْ بِنِظَامٍ مُسْتَقَرُّ
 مِنْ قَائِدٍ سَاسَ الْأُمُورَ وَخَبَرَ
 وَالْجَيْشِ فِي كُلِّ الْمَعَانِي وَالصُّورِ
 وَالْجَيْشِ أُسْتَاذٌ لِنَفْعِ يُدْخَرُ
 وَالْكُلُّ قَدْ سَيَقُوا إِلَيْكَ بِقَدَرِ
 خَلَّ الْهُوَيْنَى لِلضَّعِيفِ الْمُحْتَقَرِ^(١)
 فَيَا أَخَا عَرَفْتَهُ عَفَا النَّظَرُ
 وَيَا أَخَا جَعَلْتَهُ مُرْمَى السَّفَرِ
 تَجْمَعُنِي بِكَ خِلَالَ وَسَيْرِ
 وَلَيْسَ فِيهَا تَاجِرٌ وَمَا تَجَرَّ^(٢)
 وَمَا تَقَارَضُ الثَّنَا فِينَا يُقَرَّ^(٣)
 فَلَا أَقُولُ فِي أَخِي: لَيْثٌ خَطَرُ
 وَإِنَّمَا هِيَ عِظَاتٌ وَعَبْرُ
 وَبَيْنَنَا أَسْبَابُ نُصْحٍ تُدَكَّرُ

1 - الهوينى: التؤدة والرفق

2 - ثوى: أقام، قر: ثبت

3 - التقارض: التبادل

كَثْمَانُهَا غَبْنٌ وَغِشٌّ وَضَرَرٌ
 تَحْمِلُ مَا يَحْمِلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ
 وَكَيْفَمَا تَكُونَتْ كَانَ الثَّمَرُ
 فَكَيْفَ يَرْضَى عَاقِلٌ أَنْ تَسْتَمِرَّ
 تَزْرَعُ فِي النَّشْءِ أَفَانِينَ الْخَوَرِ
 وَإِنَّهَا إِنْ أَهَمَّتْ كَانَ الْخَطَرُ
 وَإِنَّهَا إِنْ عَلِمَتْ كَانَتْ وَزْرٌ
 وَمَنْعَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالنَّظَرِ
 وَالْفُضْلِيَّاتِ مِنْ نِسَاءِ صَدْرِ غَبْرٍ
 وَأَنْظُرْ هَذَاكَ اللَّهُ مَاذَا يُنْتَظَرُ
 وَأَنْظُرْ فَقَدْ يَهْدِيكَ لِلْخَيْرِ النَّظَرُ
 هَلْ أُمَّةٌ مِنَ الْجَمَاهِيرِ الْكُبَرِ
 خَطَّتْ مِنَ الْمَجْدِ وَمِنْ حُسْنِ السَّيْرِ

لَا تَنْسَ (حَوْأ) إِنَّهَا أُخْتُ الذَّكَرِ^(١)
 تُثْمِرُ مَا يُثْمِرُ مِنْ حُلْوٍ وَمُرٍّ
 وَكُلُّ مَا تَضَعُهُ فِيهَا اسْتَقَرَّ
 مَزِيدَةٌ عَلَى الْحَوَاشِي وَالطَّرَرِ^(٢)
 تُرَضِعُهُ أَخْلَاقَهَا مَعَ الدَّرَرِ^(٣)
 كَانَ الْبَلَاءُ كَانَ الْفَنَاءُ كَانَ الضَّرَرُ
 أَوْلَا فَوَزْرٌ جَالِبٌ سُوءَ الْأَثَرِ^(٤)
 لَمْ تَأْتِ فِيهِ آيَةٌ وَلَا خَبَرٌ
 لَهْنٌ فِي الْعِرْفَانِ وَرِدٌّ وَصَدْرٌ^(٥)
 مِنْ أُمَّةٍ قَدْ شَلَّ نِصْفُهَا الْخَدْرُ^(٦)
 وَخُذْ مِنَ الدَّهْرِ تَجَارِيِبَ الْعَبْرِ
 فِيمَا مَضَى مِنَ الْقُرُونِ وَحَضَرَ
 تَارِيخَهَا إِلَّا بِأُنْتَى وَذَكَرَهُ

- 1 - أي لا تنس البنت في التعليم فإنها أخت الابن، وهذا هو المقصود الذي مهّد له الشيخ الإبراهيمي رحمته الله بكل ما سبق.
- 2- الطرر: جمع طرّة وهي طرف الشيء وحاشيته.
- 3- الدرر: جمع درّة وهي اللبن.
- 4- الوزر: الملجأ، الوزر: الإثم والحمل الثقيل.
- 5- غبر: مضى، الورد: الذهاب إلى الماء، الصدر: الرجوع عنه.
- 6- الخدر: تشنج يصيب العضو فلا يستطيع الحركة، يقال خدرت رجله.

وَمَنْ يَقُلْ: فِي عِلْمِهَا غَيٌّ وَشَرٌّ
وَلَا يَكُونُ الصَّفْوُ إِلَّا عَنِ كَدَرِ
لَجَارِفٍ كُلِّ بِنَاءٍ مُشْمَخِرٍ
وَأَعْلَمَ بِأَنَّ الْمُنْكَرَاتِ وَالْغَيْرِ

فَقُلْ لَهُ: هِيَ مَعَ الْجَهْلِ أَشْرٌ
وَإِنَّ تَيَّارَ الزَّمَانِ الْمُنْحَدِرِ
فَاحْذَرِ وَسَابِقَ فَعَسَى يُجِدِّي الْحَذَرَ^(١)
تَدَسَّسَتْ لِلْغُرُفَاتِ وَالْحَجَرِ

مِنْ مِصْرَ وَالشَّامِ وَمِنْ شَطْطِ هَجْرٍ

وَأَنْهَاهَا قَارِنَةٌ وَلَا مَفْرُ
وَإِذْكَرَ فَنِي الذِّكْرَى إِلَى الْعَقْلِ
حُطُّهَا بِعِلْمِ الدِّينِ وَالْخُلُقِ الْأَبْرِ
خُذَهَا إِلَيْكَ دُرَّةً مِنَ الدُّرْرِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْكَ فَعَنْ قَوْمٍ آخِرِ
مَنْ قَالَ قِدْمًا (بِيَدِي ثُمَّ انْتَحَرَ)^(٢)
صَبِيَّةً تَأْمَنُ بِوَأْتِيقِ الضَّرْرِ
مِنْ صَاحِبِ رَازِ الْأُمُورِ وَخَبَرِ^(٣)

1 - المشمخر: العالي.

2 - بيدي ثم انتحر: يشير إلى مَثَل مشهور أرسلته الزبّاء، وخلاصة قصته أن الزبّاء قتلت جذيمة الأبرش خال عمرو، فدبّر وزير جذيمة - واسمه قصير - مكيدة لأخذ الثأر منها، فجدع قصير أنفه، وذهب إليها باكيًا مدعياً أن عمراً جدع أنفه، فصدقته، ومكث عندها مدة، ثم أتى بالرجال ومعهم عمرو، ليقتلوها، وكان لها نفق أعدته لوقت الحاجة، فلما أرادت أن تهرب من النفق وجدت عمراً على بابه، فمصّت خاتماً مسموماً كان بيدها وقالت: (بيدي لا بيد عمرو) وقد أشار محمد بن دريد في مقصوره إلى هذه القصة فقال:

وَقَدْ سَمَا عَمْرُو إِلَى أَوْتَارِهِ
فَاسْتَنْزَلَ الزُّبَاءَ قَسْرًا وَهِيَ مِنْ
فَاحْتَطَّ مِنْهَا كُلُّ عَالِي الْمَسْمَى
عُقَابَ لُوحِ الْجَوِّ أَعْلَى مُنْتَمَى

3 - خذها: يعني القصيدة، ومعنى راز: أي جرب، وفحص ومحص.

صَمِيمَةً فِي الْمُنْجِيَاتِ مِنْ مُضَرٍّ نَسَبْتُهَا الْبَدُوَّ وَسُكْنَاهَا الْحَضَرَ^(١)

أما الرسالة الثانية فهي - أيضاً - أرجوزة عنوانها (إلى علماء نجد) وقد سبق إيرادها عند ترجمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله يقول فيها مثنياً على

الشيخ محمد بن إبراهيم:

وَوَاحِدَ الْعَصْرِ الْهَمَامَ الْكَيْسَا ^(٢)	يَا شَيْبَةَ الْحَمْدِ رَيْسَ الرُّؤْسَا
حَسِبْتَ فِي بُرْدَتِهِ شَيْخَ نَسَا ^(٣)	وَمَفْتِي الدِّينِ الَّذِي إِنْ نَبَسَا
غُرّاً إِذَا الرَّاوِي افْتَرَى أَوْ دَلَّسَا	رَاوِي الْأَحَادِيثِ مُتُوناً سُلَّسَا
وَمُوقِنَ الظَّنِّ إِذَا تَفَرَّسَا	وَصَادِقَ الْحَدْسِ إِذَا مَا حَدَّسَا
بِهِ الْمُرِيبُ خَائِضاً مُخْتَلِسَا	وَصَادِعاً بِالْحَقِّ حِينَ هَمَّسَا
غَرَائِباً مِنْهَا إِيَّاسَ أَيَّسَا ^(٤)	وَفَارِساً بِالْمَعْنِيِّينَ اقْتَبَسَا
وَكَانَ قَبْلُ مَوْحِشاً مَعْبُوسَا	بِكَ اغْتَدَى رَيْعُ الْعُلُومِ مُونِسَا
فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ الزُّلَّالِ الْمُحْتَسَا ^(٥)	ذَلَّلَتْهَا قَسْراً وَكَانَتْ شُمُوسَا

1 - يعني بذلك: القصيدة؛ فهو يقول: إنها اشتملتها - لجودة سبكها - على الحضارة المتبدية، والبداءة المتحضرة.

2 - يعني بشيبة الحمد: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله وهذا شروع في الثناء عليه.

3 - يريد الإمام النسائي صاحب السنن (٢١٥ - ٣٠٣ هـ).

4 - يعني إياس بن معاوية.

5 - قسراً: قهراً، الشُّمُسُ: بضم الشين والميم، جمع شمس، بفتح الشين: وهو الفرس الصعب الذي لا يُمكن من الركوب عليه.

وكان جدُّ العلمِ جدًّا نَعَسًا ^(١)	فتحتَ بالعلمِ عيوناً نُعَسًا
وكان داءُ الجهلِ داءً نَجَسًا ^(٢)	وسُقَّتَ للجهلِ الأَسَاةُ النُّطَسًا
وَوَتَّرَتْ يَدَ الإِلَهِ الأَقْوَسَا ^(٣)	رمى بك الإِلْحَادَ رامٍ قَرُطَسَا
وتركَ التَّوْحِيدَ مَرَعِيَّ الوَسَا ^(٤)	وجَدُّكَ الأَعْلَى اقْتَرَى وَأَسَسَا
لُحَّتْ فَكَنْتَ فِي الدِّيَاجِي القَبَسَا ^(٥)	حَتَّى إِذَا الشَّرِكُ دَجَا وَاسْتَحَلَسَا
حتى غدا الليلُ نهاراً مُشْمَسًا ^(٦)	ولم تَزَلْ تَفْرِي الفَرِيَّ سَائِسَا
لَمْ تَعُدْ نَهَجَ القَوْمِ بَرًّا وَائْتَسَا ^(٧)	يَا دَاعِيَا مُنَاجِيَا مُعَلَّسَا
ويُصْبِحُ الفَدْمُ كَسولاً لَقَسَا ^(٨)	إِذْ يُصْبِحُ الشَّهْمُ نَشِيطاً مُسَلَسَا

1 - الجد: بالفتح: الحظ.

2 - الأَسَاة: جمع آس: الطيب. النطس: الخذاق الماهرون

3 - قرطس: أصاب المرمى، وقوله: ووترت... من وتر القوس: أي جعل لها وترًا أي شدَّ وترها، وقوله: الأَقوس: جمع قوس.

4 - جدك الأعلى: يريد به الشيخ محمد بن عبد الوهاب، اقترى البلاد: تتبعها وطاف فيها.

وقوله: وترك التوحيد مرعي الوسا: أي تركه محفوظ الجنب؛ حيث سد الذرائع المفضية إلى الشرك، والوسا في البيت: هي الوسائل، وإنما حذف آخرها؛ ترخيماً للضرورة الشعرية.

5 - دجا الليل: أظلم، استحلس: اشتد ظلامه.

6 - يقال فلان يفري فلان: أي يأتي بالعجب في عمله؛ ومنه قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا﴾: أي شيئاً يُتَحِيرُ فِيهِ، وَيُتَعَجَّبُ مِنْهُ.

7 - الغلس: ظلمة الليل؛ أي داعياً مناجياً بالأسحار، البر: الخير والصلاح، الائتساء: الاقتداء.

8 - الشهم: السيد الذكي الفؤاد، المسلس: اللين السهل، القدم: البليد العيبي، واللقس: الغث النفس خبيثها.

كان الثرى بين الجموع موبسًا فجئته بالغيث حتى أوغسًا^(١)
 قل للألى قادوا الصفوف سوسًا خلوا الطريق لفتى ما سوسًا^(٢)
 وطأطأوا الهام له والأرؤسًا إن النقيس لا يجاري الأنفسًا

أما الرسالة الثالثة فهي موجة من الشيخ البشير إلى الشيخ محمد بن إبراهيم وإليك نصها:

حضرة الأخ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مفتي المملكة العربية السعودية، أطال الله بقاءه.
 السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فإنني أكتب إليكم - كتب الله لنا ولكم السعادة والتوفيق، وأدام علينا وعليكم نعمة الإيمان وأتمها - أذكركم ما لستم عنه غافلين من حال إخوانكم الجزائريين المجاهدين، وما هم فيه من الشدة والحاجة إلى العون والإمداد، وما أصبحت عليه الأمة الجزائرية كلها من ورائهم من البؤس والضيق.

أذكركم أن لكم بالجانب الغربي من وطن العروبة ومنابت الإسلام الأولى،

1- أوغس: صار سهلاً ليناً، والوعس: الرمل اللين الذي تسوخ فيه الأقدام.

2- الألى: الذين، سوسًا: جمع سانس، وسوس الأخير: فعل ماض يقال سوس الطعام: وقع فيه السوس، وتسويس الشخص: كناية عن كبره وهرمه، يقول: خلوا الطريق لفتى لا يزال جلدًا قويًا لم يبلغ من الكبر عتياً، ولم ينخر السوس عظمه من الهرم، وقد يراد بذلك أنه لم يخلط في أمره، ولم يلبس حقه بباطل.

ومجرى سوابق المجاهدين الأولين لإخواناً في العروبة وهي رحم قوية، وفي الإسلام وهو سبب مرعي، وفي ذلك المعنى الخاص من الإسلام وهو السلفية التي جاهدتم وجاهد أسلافكم الأبرار في سبيل تثبيتها في أرض الله، وقد لقوا من عنق الاستعمار وجبروته ما أهمهم وأهم كل مسلم حقيقي يعلم أن الإسلام رحم شابكة بين بنيها أينما كانوا، وأن أقل واجباته النجدة في حينها والتناصر لوقتته.

مضى على ثورة إخوانكم الجزائريين التي انتصروا بها لله ولدينه أربع سنوات، وما فترت لهم عزيمة، ولا بردت لهم فيها حمية، وأراهم الله من آيات نصره للفئة القليلة على الفئة الكثيرة ما دل على إخلاصهم له، وصدقهم في معاملته، وقد شهد لهم العالم حتى أعداؤهم فيما أظهروه من ضروب الشجاعة المقرونة بحسن التدبير والتقدير، وبالمواقف الجليلة الميضة لوجه الإسلام التي بعد العهد بمثلها، غير أن الحرب كالحبلى لا ندري ما تلد، ولا على أية حال تسفر. أيها الأخ، إن العالم المسلم - خصوصاً من أهله الله للقيادة مثلكم - مؤتمن على دين محمد ﷺ ومن ثم فهو مسؤول عنه، فإما له إن قام بما يجب عليه من التثبيت له وتمكينه في الأرض والدفاع عن حقائقه؛ وإما عليه إن فرط في تلك الأمانة، وإنها لثقيلة.

إن الواجب الذي يفرضه الدين على أمثالكم أن تقوموا لله بحملة صادقة أنتم أهل للقيام بها في قضية الجزائر؛ فتوجهوا نداءً جهيراً إلى المسلمين الذين يشهدون الموسم ليحملوه إلى من خلفهم من المسلمين حين ينقلبون إلى أوطانهم؛

تَحْضُونُهُمْ فِيهِ عَلَى مَسَاعِدَةِ إِخْوَانِهِمْ مَجَاهِدِي الْجَزَائِرِ، وَتَبَيَّنَ لِهِمْ مَا يَتَرْتَبُ عَلَى قَعُودِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ نَصْرَةِ إِخْوَانِهِمْ الْجَزَائِرِيِّينَ مِنْ آثَارٍ، أَيْسَرَهَا أَنْ الْإِسْتِعْمَارَ الْمَتَسَانِدَ سَيَنْتَقِمُ - إِنْ أَنْتَصَرَ - لِنَفْسِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ انْتِقَامًا عَاجِلًا، وَإِنْ طَرِقَ الْإِنْتِقَامَ لِكَثِيرَةٍ، وَإِنْ وَسَائِلُهُ جَمِيعَهَا فِي يَدِهِ.

ثُمَّ تُوجَّهُوا نِدَاءً خَاصًّا إِلَى إِخْوَانِنَا سَكَانِ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ تُحَرِّضُونَهُمْ بِهِ عَلَى الْجِهَادِ بِالْمَالِ، وَأَنَّهُ قَرِينُ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ، بَلْ هُوَ مُقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ، وَإِنَّ الْمَالَ لِهَوِ الرُّكْنِ الرَّكِينِ فِي نَجَاحِ إِخْوَانِكُمُ الْمَجَاهِدِينَ. وَقَدْ قَامَ الشَّعْبُ الْجَزَائِرِيُّ وَحْدَهُ بِهَذَا الْوَاجِبِ فِي سِنَوَاتِ الثُّورَةِ كُلِّهَا، وَكُلَّ مَا وَصَلَهُ مِنْ إِعَانَاتٍ مَالِيَّةٍ كَانَ نَوَافِلًا.

أَمَّا الْآنَ فَإِنَّ الشَّعْبَ مُضِيقٌ عَلَيْهِ وَمَحْصُورٌ، وَقَدْ انْقَطَعَتْ بِهِ الْوَسَائِلُ الْمَالِيَّةُ، فَالْتِجَارَةُ مَعْطَلَةٌ، وَالْفَلَاحَةُ كَذَلِكَ، وَالشَّعْبُ الَّذِي هُوَ تَحْتَ قَبْضَةِ الْعَدُوِّ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْخِنَاقُ، وَأَرْهَقَتْهُ الْمِظَالِمُ وَالْمَغَارِمُ، وَشَتَّتَهُ الْقَتْلُ وَالتَّشْرِيدُ، فَقَدِمَتْ مِنْهُ نَحْوُ مِليُونِ شَخْصٍ كُلِّهِمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ نَحْوَ ذَلِكَ الْعَدَدِ مِنْ دِيَارِهِمْ حِفَاةَ عِرَاةٍ لَا يَمْلِكُونَ قُوَّةَ يَوْمِهِمْ، هَائِمِينَ عَلَى وَجُوهِهِمْ إِلَى مَرَآكِشٍ غَرْبًا، وَإِلَى تُونِسَ شَرْقًا، كُلُّ ذَلِكَ انْتِقَامًا مِنَ الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ الَّذِي عَجَزَ عَنْ قَمْعِ الثُّورَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْمُسَلَّحِ، فَلَجَأَ إِلَى هَذِهِ الْوَسَائِلِ الْوَحْشِيَّةِ.

وَبِهَذِهِ الْبَلَايَا الَّتِي يَصِيبُهَا الْإِسْتِعْمَارُ عَلَى الشَّعْبِ الْجَزَائِرِيِّ الْأَعْزَلِ بَهَضَتْ التَّكَالِيفُ الْمَالِيَّةُ عَلَى جَيْشِ التَّحْرِيرِ الْجَزَائِرِيِّ، فَأَصْبَحَ مُطَالِبًا بِالْإِنْفَاقِ عَلَى نَفْسِهِ

في التسليح وتوابعه ، وبالإنفاق على هؤلاء المشردين من الشعب ، ونبشركم بأن الجيش والشعب كلاهما محتفظ بمعنوياته على أكمل ما يكون ، وكلاهما مصمم على مواصلة الكفاح حتى النصر أو الموت.

وقد كان جيش التحرير مؤلفاً في أول أمره من ثلاثة آلاف مقاتل ، فأصبح بعد أربع سنوات مؤلفاً من أكثر من مائة ألف مقاتل مسلح بما يلزم من السلاح على أكمل تنظيم وأحسن تدريب ، وهو في كل يوم يذيق عدوه ألواناً من الهزائم ، والحمد لله.

نحن نعلم أن المملكة العربية السعودية قامت بواجبها في فترات متباعدة ، ولكن ذلك كله كان دون ما يطالبها به الإسلام ، لا في المبالغ الحالية التي قدمتها ، ولا في المواقيت التي كانت تقدم فيها هاتيك المبالغ ، وفضيلتكم تعلمون أن المعونة كالغيث إنما تفعل فعلها وتؤتي ثمرتها إذا جاءت في الوقت المناسب.

أيها الأخ الجليل ، إن الثورة الجزائرية تعدكم كهفها الأحمى ، وإن موقفاً منكم في سبيلها كالمدد في وقت الحاجة إليه ، فهلاً صيحة منكم تحرك النفوس الجامدة إلى البذل في سبيل الله ، وتهز الهمم الخاملة فتتبارى في سوق بضاعتها شرف الدنيا وعز الآخرة ، وقيمتها مال زائل ، وحال حائل.

أيها الأخ الكريم ، هذه رسالتي يحملها إلى سماحتكم وفد جبهة التحرير الجزائرية إلى المملكة العربية السعودية؛ لمناسبة موسم الحج ، وللاتصال بالحكومة السعودية الموقرة في شؤون المجاهدين الجزائريين التي أهمها تسلم المبالغ المالية التي تبرع بها الشعب السعودي الكريم؛ فالرجاء أن تأخذوا بيد الوفد المذكور ،

وأن تكونوا عوناً لى المراجع الحكومية العليا حتى يقضى حاجته، ويؤدي مهمته على أكمل وجه.

أيها الأخ، هذا عرضٌ عرضته عليكم وأنتم تعلمون ما أكنه لسماحتكم من التقدير والاحترام والاعتراف بمكانتكم في الدولة وفي الأمة. وتقبلوا في ختام حديثي إليكم تحياتي الأخوية الخالصة.

القاهرة في ١٣ يونيو ١٩٥٨. من أخيكم

محمد البشير الإبراهيمي

رئيس جمعية العلماء الجزائريين

«سادساً: لطائف من سيرة الشيخ محمد بن إبراهيم»

سيرة سماحة الشيخ محمد ﷺ تحمل لطائف، وأخباراً ربما لم يقف عليها كثير ممن قرأوا عنه.

والحديث ههنا سيُضَمَّن شيئاً من ذلك.

ذكر الشيخ حمد الحمين - حفظه الله - وهو من أطال صحبة سماحة الشيخ محمد بحكم عمله - جُملةً مما سمعه وأفاده من سماحة الشيخ محمد من اللطائف، والفوائد، والأحاديث.

وإليك طرفاً من ذلك^(١).

قال الشيخ حمد: سألت - يعني الشيخ محمداً - عن العقل هل هو في الصدر أو في الرأس؟ فقال: قيل هذا، وقيل هذا، ولكن الذي يظهر أن الصدر يُحَضَّر، والرأس يجمع.

وسمعه يقول: لا بد في الضوء من أقل جريان، ولا يكفي مجرد البلل.

وكان أحد أبنائه الصغار يتوضأ، فبدأ باليسار قبل اليمين، فأخبرت الشيخ بذلك، فضحك وقال: يجوز، ولكنه خلاف الأفضل.

وسأله رجل وأنا أسمع عن التسوك هل يبدأ باليسار أو باليمين؟ فقال: بل باليسار؛ لأنه إمطة أذى.

وكان يقول في المسح على الجوارب: إنه إذا كان فيه شق يسير فلا بأس بالمسح عليه خصوصاً إذا كان مما يلي باطن القدم.

1 - انظر سيرة الشيخ محمد بن إبراهيم ص ٢٩-٤٨.

وكنت معه مرة فصلينا المغرب خارج الرياض ، فلما انصرف خلع الخفين ، فسألته عن السبب ، فقال : انتهى وقت المسح عليهما والإمام ليس كالمأموم -يعني يخاف من نسيان المدة-.

وسألته عن التيمم هل يجزئ بكل تراب له غبار أو لا ، وهل يجزئ التيمم على الرمل - لأن منطقتي الزلفي كثيرة الرمل - فقال : نعم يجوز. وقد رأيت الشيخ محمد مراراً يتيمم على الجدار وكان طينياً يضربه مرة واحدة ، ثم يمسح يديه ووجهه.

وسمعته يقول : إن النبي ﷺ لما غزا تبوك في السنة التاسعة كان طريقه إلى تبوك أكثره رملي ، ولم ينقل عنه أنه حمل معه تراباً؛ ليتيمم به ، لو كان فعل ذلك لتوفرت الدواعي والهمم لنقله؛ فدل ذلك على جواز التيمم بالرمل وما أشبهه.

وكان كثيراً ما يُسأل عن تغسيل اليدين من أثر الأكل وسريان الغُسالة في ماء المجاري هل يجوز؟ فكان ﷺ يقول : نعم يجوز ، وهل هو إلا وساخة من اليدين؟!

ورأيت مرة على بشت الشيخ دماً يسيراً بعد الصلاة فأخبرته ، فقال : الشئ اليسير لا بأس به.

وسمعته يوماً يتكلم عن الأذان ومشروعيته وأهميته ، وقال : «إنه من شرائع الإسلام الظاهرة ، وإن الرسول ﷺ كان إذا غزا قوماً انتظر حتى الصباح؛ فإن سمع أذاناً و إلا أغار عليهم ، وإنه لو صلى القوم ونسوا الأذان فإنهم يؤذنون

ولا يعيدون الصلاة؛ لأن الأذان للوقت، وهو شريعة من شرائع الإسلام لا تترك، ثم قال: كنا عند الشيخ سعد بن عتيق رحمته الله في درسه قبل العصر في الجامع الكبير، ثم إنه صلى العصر وقد نسوا الأذان، فلما انصرف من الصلاة سأل عن الأذان، فأخبر بأنهم لم يؤذّنوا، فأمر أحد المأمومين أن يقوم ويؤذّن، قال الشيخ محمد: فقام في وسط الصف، فأذّن بعد الفراغ من الصلاة. وسمعتة يقول: إذا جلس الإمام للتشهد الأول وقام، ولم يكمل المأموم تشهده فلا يتبعه حتى يكمل.

وفي عام ١٣٧٧هـ أصيبت رجلي بمرضٍ فوضع فيها الجبس في مدينة جدة، وكنت لا أستطيع الحركة فكنت أتيّم وأصلي إلى غير القبلة، فلما جئت إلى الرياض سألت الشيخ عن صلاتي وهل هي صحيحة أو أقضيها؟ فمكث أياماً ينظر فيها ثم لم يفتني فيها بشيء.

ورأيت رجلاً أتى إليه وقال: إنني أسافر من مدينة الخرج إلى الرياض وتدركني صلاة المغرب في الطريق فهل يجوز لي أن أجمع معها العشاء مع العلم أنني سوف أصل إلى الرياض قبل صلاة العشاء، فقال: نعم يجوز.

وتأخرت مرة عن صلاة الجمعة فوجدته رحمته الله قد شرع في الركعة الأولى فصفت مع الذين يصلون في ساحة الصفاة بجانب الساعة، ويقتدون بمكبّر الصوت - بدون اتصال الصفوف - فلما انتهينا من الصلاة سألته عن صلاتي هذه فأمرني بالإعادة.

وسألته عن صلاة الكسوف هل هي فرض عين أو فرض كفاية؟

فقال: إن ابن القيم رحمته الله قال في كلام له عنها: إنه لو قيل بوجوبها لكان له وجه.

وصلى مرة على جنازة فكبر خمس تكبيرات ، فلما انصرف أخبرته فقال : لا بأس بذلك.

وكان يقول بعدم وجوب الزكاة في الحلبي ، ويقول ثبت عن خمسة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم القول بذلك.

وكان هناك رجل من أهل الزلفي يعطي زكاته لقريبة منه ، وكانت تجمع هذه النقود ولا تشتري بها شيئاً مطلقاً ، فطلب مني أن أسأل الشيخ : هل يجوز أن يشتري بالزكاة التي يريد دفعها لها ملابس وطعاماً ونحو ذلك ودفعه إليها؟ فسألت الشيخ فسكت ، ولم يجب قريباً من يومين ، ثم قال : مادام الحال كما ذكر؛ فإنه يجوز هذا.

وسألته عن النقد الورقي : هل هو سند أو نقد بذاته؟ فتوقف في ذلك ولم يجب ، والذي أعرفه عنه أنه مات رحمته الله ولم يفت فيها بشيء.

وكنت معه مرة في اليوم التاسع والعشرين من رمضان بعد العصر ، فقال : يظهر أن الليلة يهل هلال شوال ، ثم قال : إن ابن مسعود قال : صام رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع رمضانات كلها تسع وعشرون يوماً.
ومن ذلك أنه كان هناك قطُّ مؤذٍ في بيتي ، فاستفتيت الشيخ في قتله فأفتاني؛ لأنه مؤذ.

وحدث أن امرأة قتلت زوجها ، وقبض عليها ، واعترفت ، وحكم عليها

القاضي بالقتل ، ثم إن أولياء المقتول تنازلوا عن القصاص ، فرفض الشيخ تنازلهم ، وقال : إن قتلها حراية لا قصاص ؛ لأنها قتلتته غيلة ؛ فليس للأولياء حق في ذلك ، وأمر بقتلها ، فقتلت - وكنت من الحضور عند قتلها - .

وحصلت قضية عند أحد القضاة - من طلبة الشيخ - وهو أن رجلاً قبض عليه بتهمة السرقة ، واعترف عند الشرطة بذلك ، فلما أحيل إلى القاضي أنكر ما سبق أن أقر به ، فسأله القاضي عن هذه القضية أثناء زيارة للقاضي للشيخ في منزله وأنا أسمع ، فقال الشيخ : أما الحد فيدراً عنه ، وأما المال الذي اعترف به فيلزم به . وسمعتة يتكلم عن القضاء يوماً وأنه ابتلاء ، ثم قال : لما كانت البينة على المدعي واليمين على من أنكر وبعض المدعين لا يأتي بيينة ، ولا يدري أن له حق اليمين على المدعى عليه فللقاضي أن يخبره بأن هذا حق له ، ولا يكون هذا من باب تلقين الخصم حجته المنهي عنه .

وسمعتة يوماً يتكلم عن تزكية الشهود ، وأنه لا بد للمزكي من معرفة تامة بالمزكى ، وقال : إن عمر لما طلب تزكية أحد الشهود فزكاه رجل ، قال له عمر : هل جاورته ؟ قال : لا ، قال : هل تعاملت معه في بيع وشراء ؟ قال : لا ، قال : هل سافرت معه ؟ قال : لا ، قال : فأنت لا تعرفه^(١) .

ثم ذكر الشيخ حمد الحمين جملة من الأحاديث العامة التي سمعها من الشيخ فقال : « سمعتة يقول : لما كبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - صار يؤم الناس في (الترابيح) ابنه الشيخ عبد الله رحمته الله فكان الشيخ محمد يسأل

1 - سيرة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ص ٢٩-٤٢ .

الناس عن ابنه فيثنون عليه ، فقال : « الحمد لله الذي أخرج من صلبى من يقوم بالواجب » .

وسمعه يقول : « كان الإمام محمد بن سعود - رحمه الله تعالى - ديناً عادلاً ، وكانت له أكثر من امرأة وكان هناك قماش اسمه (المروء) فكان من عدله إذا أراد أن يقسم هذا القماش بين نساته يزنه بالميزان » .

وسمعه يقول : « كان الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - يقول : أنا أعرف رجال الحديث مثل معرفتي برجال الدرعية ، ولو ذهب للنخيل ما فرق بين شجر الجح وشجر القرع » .

وسمعت الشيخ محمداً يقول : « كان الإمام فيصل بن تركي - رحمه الله تعالى - شديد الخوف من الله ومن ذلك أنه استدعى أحد الرعية - لشكوى جاءته - فقال له - بعد أخذ ورد- : خف الله يا طويل العمر ، فبكى الإمام فيصل رحمته الله » .

وسمعه يقول : « كان الشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله تعالى - يقول عن نفسه أنه يذكر ثدي أمه لما كانت ترضعه » .

وسمعه يقول عنه - أيضاً - : « كان رحمته الله حاد البصر ، ولما كبر وثقل بقيت معه حدة البصر ، فكانوا إذا تحروا الهلال حملوا الشيخ عبدالرحمن إلى سطح المسجد - وهو كبير - ليرى الهلال » .

وسمعه يقول عنه - أيضاً - : « إنه أسند التدريس لابنه عبد اللطيف رحمته الله فكان ابنه لا يشرح مطلقاً وأبوه موجود ، فكان أبوه يخرج من الحلقة حتى يشرح ابنه ، ثم يأتي وهو لا يعلم به حتى يستمع شرحه » .

وسمعته يقول: «دعانا بعض أهل ضرمى على وليمة مع الشيخ سعد ابن حمد بن عتيق رحمته الله وبعض الإخوة، فلما انتهينا من الغداء - وكان بعد العصر - استأذن الشيخ سعد ونهضنا معه - وكان هذا قبل السيارات ومعنا رواحل - فلما ظهرنا فوق عقبة (القديّة) أردنا أن ننام، فقيّدنا الرواحل، ولم نعقلها؛ حتى تستطيع الرعي ولا تبتعد عنا؛ فلما أصبحنا ذهب الذين معنا للبحث عن الرواحل فوجدوها كلها إلا راحلة الشيخ سعد؛ فتفرقوا للبحث عنها، وكان الشيخ سعد في هذه الأثناء يدعو الله - تعالى - أن يأتيه براحلته، فأتى الذين ذهبوا للبحث عنها ولم يجدوها.

قال الشيخ محمد: فأتى رجل إلينا من بعيد وهو يسوق راحلة الشيخ سعد معه حتى وصلت إلينا، ثم اختفى ولا ندري من هو، وكان الذين ذهبوا للبحث عنها كل واحدٍ منهم يحسب أن الآخر هو الذي يسوقها حتى أتوا وسأل بعضهم بعضاً فأنكر كل واحد ذلك، وهذه من كرامات الشيخ سعد رحمته الله .

وسمعته يقول عن أبيه الشيخ إبراهيم: «عندما وضعت له زوجته - أم الشيخ محمد - العشاء في أحد الأيام وكان بعد العصر - في ذلك الوقت - فلما بدأ بالأكل إذا الباب يطرق، فخرج فإذا رسول من الشيوخ - يعني الملك عبد العزيز وكان يسمى بذلك في ذلك الوقت - يخبره بتكليفه بالقضاء، قال الشيخ محمد نقلاً عن والدته: فدخل البيت مهموماً وترك العشاء وغسل يديه - ولم يتناول إلا اليسير - ولحظت عليه في الليل عدم نومه، فلما أصبح سألتُه عن السبب فأخبرها بأنه ولي القضاء، وكان ورعاً رحمته الله .»

وجئت يوماً إلى الشيخ فلقيني الشيخ حمود التويجري - رحمه الله تعالى - ومعه مسودة كتاب له قرأها على الشيخ ، فلما دخلت على الشيخ - وليس عنده أحد غيري - قال : إن رجلاً قرأ عليه قبل قليل - يعني الشيخ حموداً - كلاماً فيه بيت أعجبه وهو :

هي الأرض تهتز ابتهاجاً من الحيا كما اهتزت العذرا ارتياحاً من البعل^(١)

ويقول معالي الشيخ عبدالله بن منيع متحدثاً عن بعض لطائف سيرة سماحة الشيخ محمد : « كان ﷺ إيجابياً في تصرفاته ، ويجب الإيجابية في تصرفات الآخرين .

ذكر له في مكتبه في الإفتاء بحضورنا نحن أعضاء الإفتاء أن فلاناً القاضي في محكمة كذا يكثر خطؤه في أحكامه ، وكان ﷺ يعرفه ، ويعرف إيجابياته في الأحكام .

وذكر له كذلك أن فلاناً من القضاة في نفس المحكمة خطؤه قليل ، فسأل ﷺ عن أعمال هذا ، وأعمال هذا وهو يعرف ذلك ، فقيل له : أن ما ينهيه الأول من أعمال في المحكمة يعادل نصف أعمال المحكمة ، وما ينهيه الثاني من أعمال قليلة جداً ، فقال : الأول عندنا أنفع للمسلمين ، وأصلح ، وأولى بالتقدير .

وكان ﷺ جازماً ، عازماً إذا هم بأمرٍ قضاؤه عند ولي الأمر كتب بخصوصه رغبته ، ومراده في خطاب ثم طواه بجيبه ، ثم نادى سائق سيارته ، واتجه إلى قصر جلالة الملك ، أو مكتبه فلم يرجع إلا وقد أجيبت دعوته ، وليبت رغبته .

1 - سيرة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ص ٤٣-٤٨ .

وكان ﷺ لا يطلب شيئاً لنفسه ، وإنما طلباته خاصة بأعماله الرسمية .
وكان ﷺ يحب الحديث بالرموز مع من يعرف معه ذلك .
أذكر مثلاً لهذا فقد كنا في إحدى جلساتنا مع سماحته في مكتبه في الإفتاء ،
وبعد مرور وقت من العمل انتابه شيء من النعاس ، فأراد فضيلة الشيخ عبدالله
ابن عقيل أن يساعده على طرد النعاس ، فأعطاه حلاوة علك مغلفة بغلافها
الورقي فعلكها ﷺ ، ثم بعد ذلك قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً
وَأَمْوَاتًا (٢٦) ﴾ المرسلات ، ففهمها فضيلة الشيخ عبدالله بن عقيل ، وناوله
ورقة العلك المغلف بها سابقاً ، فوضعها فيها ، وأعطاهها الشيخ عبدالله ، فوضعها
في الزبالة ، فغبطت الشيخ عبدالله على هذا الفهم من الشيخ^(١) .

«سابعاً: من نوادر الشيخ محمد بن إبراهيم»

للنادرة وقع في النفس، وراحة في القلب، حيث تجلو صدأه مع رتابة العمل،
والجدية المتواصلة.

جاء في الأثر: «روحوا عن النفوس ساعة فساعة؛ فإنها إذا كَلَّتْ مَلَّتْ»^(١).
والشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله يهتم بالنادرة، ويتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في
مداعبة أصحابه والتبسُّط معهم؛ ليسرِّي عن العاملين، حيث يعاملهم
كالأبناء^(٢)، وإليك طرفاً من ذلك:

أ- يقول الشيخ عبدالله بن منيع الذي لازم سماحته في العمل معه مدة طويلة:
«أذكر أنني أنا وأحمد بن قاسم مع سماحته بعد العصر في الطائف في منطقة
الهدا؛ لعرض ما لدي من معاملات على سماحته كالمعتاد، وفي رجوعنا وجَّه
الكلام لأحمد بن قاسم قائلاً: يا أحمد أمك جاءت بولد ليس أخاك ولا أختك
فمن هو؟ فبهت أحمد من هذا، وقال: خلها في قبرها عفا الله عنك، وبعد أن
أتاح له فرصة التأمل، قال: هو أنت يا أحمد، جاءت بك أمك؛ فتنفس
الصعداء وقال: الحمد لله فرجت عني جزاك الله خيراً»^(٣).

ب- ويقول الشيخ عبدالله بن منيع - حفظه الله -: «كان رحمته الله يحب النكتة

1 - جاء في (المقاصد الحسنة) ص ٣٣٠ أنه ضعيف، وورد في (ضعيف الجامع) ٣١٤٠، قال
السخاوي: «يشهد له ما في صحيح مسلم وغيره من حديث: «يا حنظلة ساعة وساعة».

2 - انظر مجلة البحوث عدد ٥١ ص ٣٥٣ بحث د. محمد الشويعر.

3 - مجلة البحوث عدد ١٨ ص ٢٣١.

ويسترويها، فقد صار من بعض الزملاء أن اجتمع لديه اثنان من فراشي الإفتاء فذكرهما أن الصوم يصير في الصيف، والشتاء، وكذلك الحج هكذا فإن السنة تستدير، فإذا اجتمع الصوم مع الحج في إحدى السنين فمن منكما سيصوم ويترك الحج، ومن سيحج ويقضي الصوم، فقال أحدهما: سأحج وأترك الصوم لأيام آخر، وقال الآخر: سأصوم وأترك الحج، فذكر لسماحته فاستدعاهما وأعيد السؤال عليهما فاحتج الأول على تركه الصوم بقوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ البقرة: ١٨٤.

واحتج الثاني بقوله - تعالى - : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ البقرة: ١٨٥.

فضحك ﷺ وقال : لقد بنيت هذه الدار على علم.

ومن رواية النكتة ما ذكره لنا - أي الشيخ محمد بن إبراهيم - أنه أبلغ الشيخ عبدالله بن عجيان ﷺ قرار نقله من نجران إلى طريف، فقال له : أسألك يا سماحة الشيخ هل أمرك الملك بأن تُحدِّدَ بي المملكة في قضائي»^(١).

ج- وذكر الشيخ إسماعيل بن عتيق أن محمد عطاء الهندي سأل الشيخ في مجلسه فقال : ماذا نضع بالميت إذا مات في السفينة؟ فقال الشيخ : ألقه في البحر. فقال السائل : يطفح على سطح البحر، فقال له الشيخ : اعمل له مثقلاً، فقال السائل : يأكله السمك، فقال الشيخ : إذا أحمله على ظهرك ليكن معك حيث شئت.

د- وكان من مداعبته للشيخ علي بن خميس: أن علياً تكلم يوماً بالهاتف مع مكة مخاطباً الشيخ عبدالله بن إبراهيم، فقال له الشيخ محمد: كلمت مكة يا علي؟ قال: نعم، قال فكلم الدرعية، فقال: لا تليفون فيها، قال: عجباً لك! تكلم البعيد ولا تكلم القريب.. وقال الشيخ ابن عتيق: ومثل هذا يحصل من الشيخ أحياناً مع غيره.

و- وقرأ الشيخ عبدالعزيز بن شلهوب، وهو حسن الصوت، قليل اللحن، ولكنه أخطأ في هذه القراءة بكلمة، وهي: وهذه لغة حمير قرأها: وهذه لغة حمير، فقال الشيخ: سبحان الله، وهل للحمير لغة^(١).

«ثامناً: تفننه في العلوم»

لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله المنزلة العليا بين علماء زمانه؛ فهو مقدمهم، ورئيسهم، ومرجعهم خصوصاً في المملكة العربية السعودية. وجل العلماء الذين جاؤوا من بعده هم من طلابه - كما مر -. وكان رحمته الله إماماً في كثير من العلوم، متفنناً فيها.

يقول معالي الشيخ عبدالله بن منيع - حفظه الله - مبيناً سعة علمه، وعلو كعبه، وعظم مكانته في ذلك: «لا شك أن سماحته رحمته الله ذو علم واسع، وفقه دقيق يتحدث في التفسير فنشهد له أنه من علمائه الأفاضل، ويتحدث عن أصول الاعتقاد فلا نشك أنه من رجاله المبرزين، أما الفقه فهو فقيه زمانه يشهد لما أقوله ما قام بجمعه عن سماحته فضيلة الشيخ محمد بن قاسم من ملفات الإفتاء، ورئاسة القضاء، والمكتب الخاص، وتقارير سماحته في دروسه المختلفة في جامعته، وفي بيته العامر.

كان رحمته الله يتمسك بالمذهب إلا أنه غير متعصب له، وقد يخرج أحياناً عن مشهوره إلى صحيحه، أو إلى إحدى الروايات عن الإمام أحمد، وفي فتاواه رحمته الله ما يدل على ذلك.

يرغب الاطلاع إلى حكم مسألة فلا يكتفي من ذلك بكتاب واحد، بل لا بد له من مجموعة من الكتب التي تتحدث عن المسألة نفسها؛ حتى إذا تم له قراءة ما أراد أملى رأيه في هذه المسألة بما يعتبر جمعاً لأطراف القول فيها بعد تحريره محل الوفاق، ومحل النزاع فيها؛ فيختار فيها قولاً يذكر مستند المصير إليه، ومسوغ

القول به.

أذكر على سبيل المثال رأيه في التسعير، وكلامه في تحريف أهل الكتاب التوراة والإنجيل، وسلامة كتاب الله القرآن من ذلك؛ حيث توليت ذلك مع سماحته. وكان رحمته الله ذا علم معتبر في علوم التاريخ، والأنساب، والفلك، وفي علوم اللغة العربية من نحو، وصرف، ومعان، وبيان، وبديع، وكان ذا ذوق رفيع في إدراك غرر القصائد العربية، والقدرة على تحليلها، والغوص على دقائق معانيها، يقول الشعر بلا تكلف.

تحدث عن نفسه رحمته الله أمامنا فقال: لو أردت لما تحدثت إلا بالشعر إلا أنه يرى في الشعر ما رآه الشافعي فيه حيث يقول الشافعي:

ولولا الشعر بالعلماء يزري كنت اليوم أشعر من لبيد^(١)

ويقول د. محمد الشويعر متحدثاً عن شعر سماحة الشيخ: «قليلون جداً هم الذين يعرفون عن الشيخ محمد رحمته الله تذوقه للشعر حفظاً واستشهاداً، وقولاً في المناسبات، ذلك لأنه لا يشتغل به، ولا يجعله يلهيه عن مذاكرة العلم وتعليمه. فقد روي عنه قوله الشعر، ولكنه في مناسباته كالرثاء، وحفظه للشعر، ولكن للاستحسان أو للاستشهاد به مع الوقائع التاريخية، أو للشواهد العلمية من لغة وغيرها.

يقول عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ: وللشيخ محمد معرفة بالعروض، ويقرض الشعر على طريقة العلماء، وقد رثى الشيخ عمر بن سليم ت ١٣٦٢ هـ

بأربعة أبيات هي قوله :

إن المصيبة حقاً فقد دنا عمراً
أعظم بميتته رزءاً بنا كبُراً
قطبُ القصيم وما دون القصيم وما
خلف القصيم وما مجرى القصيم جرى
عليه دار الهدى والحق بيئته
كان الحياة وكان السمع والبصرا
ارزقه يا ربنا عضواً ومغفرة
واجبر مصيبتنا يا خير من جبرا
وله مرثية في عمه الشيخ عبدالله بن الشيخ عبداللطيف تبلغ خمسة وخمسين بيتاً ومطلعها :

على الشيخ عبدالله بدر المحافل نريق كصوب الغاديات الهواطل
ولم أقف على بقيتها كاملة ، لكن قال عنها الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن
البسام إنها طويلة جيدة.

لكن الشيخ محمد بن عثمان القاضي أورد عشرين بيتاً بالمطلع ، فقال بعده :

دموعاً على الخدين تجري بعبرة
ولوعة محزون مهاج البلابل
فقد حق أن العين تهرق ماءها
وتسكب دمعاً بالضحي والأصائل
وأن لكبدي أن تذوب وينطوي
فؤادي على حزن به متواصل
وللأنس أن يزور عني جانباً
فإني مصاب القلب منذكى الغلائل
فما مرنا يوم فظيع على الورى
كيوم وفاة الشيخ زاكي الشمائل
فأعظم به من فادح جل خطبه
به الكل مفجوع مصاب المقاتل
فهل أحد يُرجى لسد انتلامه
وفرجته هيهات ذا غير حاصل
هو العالم النحرير والجهبذ الذي
يبين الهدى في مشكلات المسائل

هو الناصح البدأل في النصح جهده
 إمام لعمرى عارف أهل وقته
 تقى نقى حازم ذو رزانة
 حلیم ذكى ذو دهاً وسماحة
 فقيه نبیه ناسك متورع
 إليه تُشدُ اليعملات وتُمتطى
 وصول لأرحام وإن قطعت به
 فيا عين سُحى أدمعاً بعد أدمع
 سأكبه جهدي ما بقيت بأدمع
 ويبكيه طلاب العلوم بلوعة
 جزاه إله العالمين بجنة
 وغايته كي يُنتهى عن أباطل
 طيب زمان ماله من مماثل
 وثابت جاش في اشتداد النوازل
 وذو خلق زاك وحسن شمائل
 وذو نَصَفٍ في أمره غير مائل
 ظهور الفلا من شاسعات المنازل
 صفوح عن الزلات من جهل جاهل
 على وجناتي واستمرى وواصل
 ويبكيه غيري من شريف وفاضل
 وأعيينهم كالمستهل بوابل
 وأسكنه الفردوس أعلى المنازل

وقال فضيلة الشيخ علي الرومي قاضي التمييز بالرياض رحمته الله وهو من تلاميذ
 الشيخ الملازمين: كنا في الدرس عند سماحة شيخنا محمد بعد صلاة الفجر، وفي
 ذلك اليوم، أنشأ هذه الأبيات - التي رواها لنا الشيخ علي من ذاكرته - ليحث
 الطلبة على الاهتمام بالدروس، وزيادة التحصيل على الفور:

واسوأناه لطالب العلم الذي
 وإذا قراءته تقصت قام لا
 هذا وفي حال القراءة قلبه
 ويود لو أن القراءة تنقضي
 ثقلت عليه مجالس التدريس
 يلوي على ما بعد من تأسيس
 بالفهم والإصغاء غير أنيس
 في لحظة .. ماذا يقول جليسي

إن قلت إنهم لعمري ما لهم من رغبة في نيل كل نضيس
 إن قلت ما لهمو من الإقبال من إدلاجه حظ ولا تفليس
 ورضوا الترسُّم وهو غير مفيدهم إن الأمانى حظ ذي التقليس
 يا رب واغرس خير غرس يرتجى منهم إغاضة ذي الخنا إبليس
 يا رب واجعلنا من الغرس الذي تختار للتنزيه والتقديس
 وإبانة التوحيد محضاً صافياً وإزاحة التشبيه والتبليس

ثم قال الشيخ علي: وقد فقدت منها بيتين لا أتذكرها الآن.

وقد كتب له بعض المحبين أبياتاً رقيقة، فأجابه رحمته بقوله:

عليك مثل الذي أهديت يشفعه تحية ما شدا بالبان صادحه
 في روضة من رياض الخرج باكرها ووسمي والصيف تسقيها روائحه
 ورحمة الله ما أبدى أخو مقّة من الوداد الذي تخفى جوانحه^(١)

رحم الله مدرسة الحزم والعلم سماحة الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم،
 وجزاه خير الجزاء على ما قدم للإسلام والمسلمين.

سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز

سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز^(١)

«توطئة وتمهيد»

هو الإمام القدوة العلامة بقية السلف، وشيخ الإسلام، ومفتي المسلمين سماحة والدنا وشيخنا أبي عبدالله، الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمته الله. ذلك البحر الخضم، والطود الأشم، الذي بعد صيته، وتناهى فضله، وكمل سؤده.

ذلك الإمام الذي قل أن يوجد له نظير، وقل أن تند عنه خصلة من خصال الخير؛ فلقد جمع الله له من حميد الخلال، وكريم الخصال ما لم يجمع لغيره إلا في القليل النادر على مر الأزمان.

ماذا يقول الواصفون له وصفاته جأت عن الحصر علم في حلم، وحزم في عزم، وتواضع في شمم، وغيره على الحق لا تكفكفها رغبة في مدح، أو حذر من ذم، ووضاءة أخلاق في متانة دين، وبراعة بيان في صدق يقين، وعزة نفس في سخاوة طبع، حتى لكأن البحتري يعنيه بقوله:

1 - هذه الصفحات إنما هي خلاصة ميسرة لترجمة هذا الإمام؛ إذ رغبت ألا يخلو هذا الكتاب من ترجمة له، وأردت أن ألبى رغبة كثيرين ممن يودون تلخيص كتاب (جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز ابن باز) رواية الشيخ محمد موسى مدير مكتب بيت سماحة الشيخ، وإعداد كاتب هذه الصفحات، ويقع في ٦٥٧ صفحة، فمن أراد التفصيل في سيرة هذا الإمام فليرجع إلى الكتاب المذكور، وإلى كتاب (الرسائل المتبادلة بين الشيخ ابن باز والعلماء) إعداد: الشيخ محمد موسى، ومحمد الحمد.

فلك الفضائل من فنون محاسن بيضاً لأفراط الخلاف وشيما
 جُمِعَتْ عَلَيْكَ وللأنام مفرقٌ منها فأفراد قُسمِنَ وتوما
 ما نال ليثُ الغابِ إلا بعضُها حتى رعى مُهَجَ النفوسِ جميما
 شاركته في البأس ثم فَضُلْتُهُ بالوجود محقوقاً بذاك زعيما

وإذا اجتمعت تلك الخصال في شخص ما- فاعلم أن وراء ذلك عظمة؛ فانسج
 بعد ذلك من برود الثناء ما شئت دونما شطط، ثم أهداها لتلك العظمة الحققة.
 ولئن كان أكثر العظماء يتوهج في مقتبل عمره، ثم يذوي بعد ذلك ويذبل-
 فإن شيخنا رحمته الله لا تطرد هذه القاعدة في حقه.

بل هو كالعود الهندي لا يزيده تقادم الأيام إلا زكاءً وطيباً، وكمالاً،
 وجلالاً؛ فمآثره تتجدد، وهمته تعلو وتسمو، وذاكرته تقوى وتزداد سنة بعد
 سنة، وقيامه بالمسؤوليات، وتحمله للتبعات يتضاعف يوماً بعد يوم، وأيديه
 البيضاء تسحُّ بالعطاء إثر العطاء، وعلمه يزدان ويزداد، والثقة به، والقبول له
 بازدياد واطراد؛ فبقي حاضراً متوهجاً، معطاءً حتى آخر لحظة من عمره.
 الله أكبر! عبادة لله حتى اليقين، وحياة عامرة بالعمل المجيد حتى طويت كطي
 السجل للكتب.

تلك حياة فقيد الأمة الذي سكنت أنفاسه وحسامه مُخَضَّبٌ بدم الجهاد في
 سبيل الحق؛ فلم يمتْ على فراشه ملقي السلاح كما يموت ضعيف العزيمة منزل
 الإيمان.

بل لقد كان لسانه بالحق قوَّالاً، وعزمه في دحض الباطل صوَّالاً، وفكره في

هموم الأمة ومصالحها جوالاً.

وبعد أن رحل عن الدنيا أبقى لنا سيرة غراء ، وذكراً أطيب من ريح المسك.

فدُّ عَزِيْزُ المِثْلِ جِوهرُهُ	زَاكٍ كَأَنْفَاسِ الشَّدَا بَرُّ
غَالٍ عَلَى المَهْجَاتِ حَالِيَةٌ	بِجِهَادِهِ الأَثَارُ والعُصْرُ
مُتَقَرِّدٌ بِخَلَائِقِ غُرَرٍ	بِجَمَالِهَا يَتَفَاخِرُ الفُخْرُ
فِي كُلِّ صَالِحَةٍ لَهُ خَبْرٌ	وَلِكُلِّ مُحَمَّدَةٍ لَهُ صُورٌ
صَافٍ كَمَاءِ المِزْنِ ظَاهِرُهُ	كَضَمِيرِهِ وَكسْرِهِ الجَهْرُ
عَلَّمَ عَلَى الذُّرُواتِ رَفًّا كَمَا	رَفَّ السَّنَا وَتَلَامِحِ النُّورِ
العِلْمُ مَلَأَ جَنَانَهُ دُفَقٌ	وَالعِقلُ خَلَفَ لِسَانَهُ وَقَرُّ
تَتَأَلَّقُ الفِصْحَى عَلَى فَمِهِ	زَهَوًّا كَمَا يَتَأَلَّقُ البَدْرُ
عَالٍ عَلَى الأَهْوَاءِ مُتَّشِحٌ	بِحِجَى لَهُ فِي لَمَحِهِ غُورٌ
مِصْبَاحُهُ الفَرْقَانِ يَتَبَعُهُ	أَنَّى أَشَارَتْ آيَةُ الزُّهْرُ
يُنحَو وَيَسْلُكُ مَا تَفَهَّمَهُ	مِنْهُ النُّبِيُّ وَصَحْبَهُ العُرُّ
وَيَقِيْمُ مِنَ مَالِوَا بِهِ جِنْفًا	حَتَّى يَثُوبَ إِلَى الهُدَى الصُّعْرُ
كَمْ نَزَّهُ الإِسْلَامَ مِنْ بَدْعٍ	قَدْ بَاضَهَا الشَّيْطَانُ وَالكُفْرُ
مَقْبُوحَةٍ شَوْهَاءَ شَاهٍ بِهَا	وَجْهَ الهُدَى وَتَلَوْتَ الطُّهْرُ
كَانَ الحَكِيمَ الطَّبَّ بِلِسْمُهُ	رَفَقَ الحَدِيثَ وَفَقَّهُهُ البَحْرُ
أَدبُ النُّبُوَّةِ مَا تَنَخَّلَهُ	وَالحِكْمَةُ الزُّهْرَاءُ وَالْيَسْرُ
بَلِغَ المَدَى وَالْيَسْرُ يَبْلُغُ مَا	يَعِيَا بِبَعْضِ طَلَابِيهِ العَسْرُ

نظراته لطفاً ويسمته رُحْمَى وَعَدْبُ حَدِيثِهِ نَشْرُ
 خلع الحياءُ عليه بهجته وله جلال السنِّ والقدْرُ
 أبقية السلف الكرام زهت بجلالك الحرمت والذكرُ
 عذراً إليك فقد وهى جلدي وخبث قواي وخانني الصبرُ
 ما بعد روحي ما أذوبه ياليت شعري هل وفي العذرُ (١)

ولنا بعد ذلك أن نتساءل: ما سر هذه العظمة؟ وما سر تلك المحبة التي تملكت

القلوب، وتخللت من الناس مسلك الروح؟

والجواب: أن ذلك يرجع لمحض فضل الله-عز وجل-حيث وهب الإمام

مواهب فطرية عظيمة، وجبله على سجايا وخصال عديدة حميدة.

وتلك المواهب والسجايا والخصال غُدِّيَتْ بلبان العلم والإيمان، ومزجت

بإكسير الإخلاص والتقوى؛ فآتت أكلها ضعفين، بل أضعافاً كثيرة.

ويرجع ذلك - أيضاً - إلى جدِّ الإمام وتشميره، واقتدائه بسلفه الصالح، ومن

اقتدى بأولئك السراة صار للمتقين إماماً؛ فاقتدى به من معه، ومن بعده.

وسرُّ بديع يتمثل بقول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ مريم: ٩٦.

وقول النبي ﷺ: « إذا أحب الله عبداً أوحى إلى جبريل أني أحب فلاناً فأحبه،

فيحبه جبريل، فينادي جبريل بأهل السماء: أن الله يحب فلاناً فأحبه؛ فيحبه

١- من أبيات قالها العلامة محمد بهجة الأثري في رثاء العلامة محمد بهجة البيطار-رحمهما الله-وهي

تماماً على سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمته الله.

أهل السماء، ثم يطرح له القبول في الأرض» .

وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه محبة في الناس
وسرٌّ آخر، ألا وهو بذل الإمام نفسه، ووقته، وماله، وعلمه، وراحته في
سبيل نشر الخير، ونفع الناس؛ مبتغياً بذلك وجه الله.
وبعد فلقد كان لنا في حياة الإمام عظات، ولنا - أيضاً - في موته عظات، وإن
أعظم موعظة نأخذها أن ندرك أن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنه لا ينفع
الإنسان إلا ما قدمه من أعمال صالحات، ومآثر خيرات، وأن نستحضر أن العلم
والإيمان يرفعان صاحبهما عند الله وعند خلقه درجات.

وإن كنا محبين للإمام معجبين بسيرته - فلتلهج ألسنتنا بالدعاء له، ولتتخذ من
سيرته نبزاساً نسير عليه؛ فهو لم يصل إلى ما وصل إليه إلا باقتدائه بمن سبقه من
سلفه الصالح؛ وعلى رأسهم رسول الله ﷺ .

لقد مات الإمام، وبقي اسمه، واتفق منصفه وجاحد فضله على نبه وعلمه.
لقد بكى الإمام الكبير والصغير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والرجال
والنساء، والموافق والمخالف.

ولقد بكته أمم شبت على يديه، وتربت تحت رعايته، ونهلت من علمه،
وقبست من فضله.

ولقد بكاه الفقراء والمعوزون، وطالبو الشفاعات والمساكين الذين كانوا
يحتمون بطرافه السامي الذرا، ويأوون إلى حرمة الذي لا يزهده؛ فيلقون القلب
الرحيم الذي يحنو عليهم حنو المرضعات على الفطيم.

وبكته ساحات الجهاد؛ حيث فقدت نصيحها، ونصيرها، ورابط جأشها،
ومقوي عزائمها، والحريص على جمع كلمتها، ورأب صدعها.
وما مثلُ مَنْ بُلوا بفقد الإمام إلا كالمدلجين يطلع عليهم القمر ساطعاً،
فيستبينون به أعلام الطريق رشداً، حتى إذا ازدهتهم طلعتُه، وتدفقت حولهم
أشعته - تواري بالحجاب؛ فإذا هم مظلّمون.
أجلُ لقد ذهب ذلك الأمل المروّح عن القلب، وأصبحت الذكريات تبعث
الحسرات؛ فتجعلها ركاماً.

وهل بالوسع نسيان الشيخ الإمام؟ وهل تغيب ذكراه عن قلب كل محب له؟
وهل يسלוه من رآه، أو جالسه، أو سمعه، أو سمع به؟
إن ذكراه لتتجدد بكل مناسبة، وإنها لتمثل بكل سبيل؛ فماذا نقول؟ وماذا
ندع؟

وتأتي أهمية سيرة الإمام ابن باز لأمر عديدة منها:

- ١- أنها تتحدث عن سيرة لإمام دنت له قطوف العلوم، ودانت له نواصي
الحكمة؛ فهو أمة في الخير، وقدوة في الهدى والتقى.
- ٢- أن جوانب العظمة في سيرة هذا الإمام لا تكاد تحصى كثرة - كما مر - مما يجعل
هذه السيرة ميداناً فسيحاً لمن أراد التأسّي والافتداء؛ فالرئيس يجد فيها بغيته،
والعالم يجد فيها ضالته، والوالد والمربي، والقاضي، والعامي، والعابد،
ونحوهم كل يجد في هذه السيرة ما قد يكون سبباً في فلاحه.
- ٣- أنها تمثل صورة حية للإسلام، والافتداء بسيد المرسلين، وسلف هذه

الأمة الصالح.

٤- أن صاحب هذه السيرة عاش عمراً مديداً، وشاهد أحوالاً متباينة، وعاصر طبقات إثر طبقات، ومع ذلك أثمر وأثرى، وأفاد وأجاد، وامتاز بحسن التعامل مع المتغيرات، واختلاف الطبقات.

٥- أن هذه السيرة تحمل في طياتها لفتاتٍ تربويةً عمليةً عظيمةً^(١).

٦- أن صاحبها رجل عاش بين ظهرانينا، ورحل من بيننا منذ وقت قريب؛ فهو ممن عاش في القرون المتأخرة؛ ومع ذلك نال ما نال من مجد، وفضل، وسؤدد؛ مما يجعل صدى هذه السيرة أوسع، وتأثيرها في النفوس أوقع؛ لأن من الناس مَنْ إذا حُدِّثَ عن السلف وماثرهم قال: أين نحن من أولئك ف:

لا تعرضن بذكرهم مع ذكرنا ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

فإذا شاهد هذا الإمام وقد تحلى بما تحلى به، وقبس من سيرة السلف ما قد قبس- كان ذلك داعيةً إلى السعي في الكمال، وطرده شبح اليأس من القلوب.

٧- المكانة العالية التي يحتلها سماحة الإمام الشيخ عبدالعزيز في نفوس المسلمين؛ فلقد كان ملء أسماعهم، وأبصارهم، وقد تجلت تلك المكانة إبان موته؛ حيث زلزل ذلك الخطبُ القلوب، وهز القاصي والداني؛ فالمصيبة بفقدته ليست من نوع المصائب المعهودة التي يَقتُصِرُ أثر الحزن فيها على الأهل، والأصدقاء، وأهل البلد فحسب؛ بل إن المصيبة بفقدته تجاوزت ذلك؛ فتناولت

1 - لعل الله ييسر الفرصة لكتابة مفصلة عن الدروس التربوية، والعبر المستفادة من سيرة الإمام

البلدان الإسلامية، وسائر العواصم الكبرى، بل تغلغت في شتى بقاع الأرض؛ فقلَّ أن يوجد رئيس، أو حاكم، أو كاتب، أو عالم، في سائر بقاع الأرض لم يعرف الفقيد، أو لم يسمع باسمه الكريم، ومزايه العظيمة، وقل أن توجد إذاعة أو مؤسسة إعلامية لم تدع خبر وفاته.

حقاً إن المصيبة به عظيمة، والخطب بفقده أليم، وليس من بلدة هي أحق بالتصبر من أي بلدة أخرى في عامة الأقطار.

ولقد شهد الناس بأم أعينهم كأن سحابة حزن سوداء غشيت عليّة القوم، وصغارهم؛ فاشترك في تجرع المصاب به كلُّ مَنْ عرف فضله من الحكام، والأمراء، والوزراء، والعلماء، والتجار، والوجهاء، والفقراء، والنساء، والأطفال، وأهل الحرف، بل لقد أصبح في شغل عن السَّفَرِ السَّفَرُ يوم وفاته، واجتمع أمة لا يكاد يحصى عددها لتشيع جنازته.

وبعد موته انطلقت الأعين بالدموع عليه، والألسنة بذكره والدعاء له، ومكثت الصحف ووسائل الإعلام مدة طويلة تكتب عنه، ونظمت القصائد تلو القصائد في رثائه، وذكر محاسنه، وصارت التعازي تتابع من قريب ومن بعيد فيه؛ وأصبح كلُّ محبٍّ له مُعزِّباً به، ومُعزِّياً به.

وهذا كله ترجمة لما تكنه النفوس من الاعتراف بفضله، وعلمه، وتقواه، وذلك يضيف أهمية على دراسة سيرته؛ فعلى قدر مكانة الإنسان، وشهرته يعظم الاقتداء به، وتُلحُّ الرغبة في سماع الحديث عنه؛ فلا ينبغي أن نقف عند

مجرد وصفه وذكر مآثره، بل ينبغي أن نتجاوز ذلك إلى الاقتداء به، والتخلق بأخلاقه.

والحقيقة أن الذي يكتب عن سماحة الإمام رحمته الله لن يسلم من أحد اثنين: أما أحدهما فعارف بالإمام، سابر لأحواله، مطلع عليه عن كثب؛ فهذا لن تذهب به الغرابة بعيداً، بل ربما يلوم على التقصير في إيفاء الشيخ حقه. وأما الآخر فجاهل بالإمام الشيخ، بعيد عنه؛ فلذا قد يرى أن فيما يقرؤه شيئاً من المغالاة أو المبالغة؛ فلا هذا يلام، ولا ذلك يلام. والعجيب في الأمر أن كثيراً ممن يسمع بهم الإنسان ثم يراهم يرى أنهم أقل مما سمع؛ لفضل المغيب على المشهد. أما سماحة الشيخ رحمته الله فإنك تسمع عنه العجب، فإذا رأيته، وسبرت حاله عن قرب رأيت منه فوق ما سمعت عنه.

«معالم عامة في سيرة سماحة الشيخ ابن باز»

أولاً: نبذة عن سيرته: هو سماحة الشيخ الإمام العلامة المجدد عبدالعزيز ابن عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله آل باز.
ولد في الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ، وكان بصيراً في أول طلبه للعلم -كما يقول-.

ويقول: ثم أصابني المرض في عيني عام ١٣٤٦هـ فضعف بصري بسبب ذلك ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم من عام ١٣٥٠هـ والحمد لله على ذلك.
وأسأل الله - جل وعلا - أن يعوضني البصيرة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة، كما وعد بذلك - سبحانه - على لسان نبيه محمد ﷺ كما أسأله - سبحانه - أن يجعل العاقبة حميدة في الدنيا والأخرى.

ويقول ﷺ: وقد بدأت الدراسة منذ الصغر، فحفظت القرآن الكريم قبل البلوغ على يدي الشيخ عبدالله بن مفيرج ﷺ ثم بدأت في تلقي العلوم الشرعية والعربية على أيدي كثير من علماء الرياض، ومن أعلامهم:
١- الشيخ محمد بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد ابن عبدالوهاب - رحمهم الله -.

٢- الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد ابن عبدالوهاب قاضي الرياض - رحمهم الله -.

٣- الشيخ سعد بن حمد بن عتيق ﷺ قاضي الرياض.

٤- الشيخ حمد بن فارس وكيل بيت المال بالرياض ﷺ.

٥- الشيخ سعد وقاص البخاري من علماء مكة المكرمة أخذت عنه علم التجويد في عام ١٣٥٥هـ، حيث كنت أتردد على الشيخ سعد في دكانه مدة شهرين، أخذ عنه علم التجويد.

٦- سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ رحمته الله وقد لظمت حلقاته صباحاً ومساءً، وحضرت كل ما يقرأ عليه، ثم قرأت عليه جميع المواد التي درستها في الحديث والعقيدة، والفقه، والنحو، والفرائض، وقرأت عليه شيئاً كثيراً في التفسير، والتاريخ، والسيرة النبوية نحواً من عشر سنوات وتلقيت عنه جميع العلوم الشرعية ابتداءً من سنة ١٣٤٧هـ إلى سنة ١٣٥٧هـ حيث رشحت للقضاء من قبل سماحته.

ثانياً: من أخبار سماحة الشيخ في صباه: من أخباره في صباه أن والده توفي وهو صغير حيث إنه لا يذكر والده.

أما والدته فتوفيت وعمره خمس وعشرون سنة. ومما يُذكر أنه كان في صباه ضعيف البنية، وأنه لم يستطع المشي إلا بعد أن بلغ الثالثة، ذكر ذلك ابنه الشيخ أحمد.

وكان سماحة الشيخ معروفاً بالتقى والمسارة إلى الخيرات، والمواظبة على الطاعات منذ نعومة أظفاره.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله -: «وقد ذكر لي الشيخ سعد ابن عبدالمحسن الباز- وهو قريب لسماحة الشيخ ويكبره بعشر سنوات- ذكر أن سماحة الشيخ منذ نعومة أظفاره كان شاباً تقياً سباقاً إلى أفعال الخير، وأن مكانه دائماً في

روضة المسجد وعمره ثلاثة عشر عاماً.

وقد ذكر لي سماحة الشيخ رحمته الله فيما كان يذكره من أخبار صباه موقفاً لا ينسأه مع شيخه الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ قاضي الرياض آنذاك. يقول سماحته: كنت في مقتبل عمري، وقد رآني الشيخ صالح رحمته الله في طرف الصف مسبوفاً، فحزن الشيخ صالح، وقال: بعض الناس يسوف، ويجلس يأكل ويشرب حتى تفوته الصلاة، وكأنه رحمته الله يعنيني ويُعرض بي؛ فخجلت مما كان مني، وتكدرت كثيراً، ولم أنس ذلك الموقف حتى الآن. ولم يكن الشيخ صالح رحمته الله ليقول ذلك إلا لأنه كان يتوسم ويتفرس في سماحة الشيخ نبوغه المبكر.

ومن الأخبار المعروفة عن سماحة الشيخ في صباه أنه كان معروفاً بالجود والكرم.

وقد ذكر لي الشيخ سعد بن عبدالمحسن الباز رحمته الله أن سماحة الشيخ عبدالعزيز وهو طالب عند المشايخ - إذا سلم عليه أحد دعاه إلى غدائه، أو عشائه، ولم يكن يحتقر شيئاً يقدمه لضيوفه ويجعل الله في الطعام خيراً كثيراً. أَلِفَ الْمَرْوَةَ مُذْ نَشَا فَكَأَنَّهُ سُقِيَ اللَّبَانَ بِهَا صَبِيحاً مُرْضَعاً

ويضيف الشيخ محمد موسى: «ومن أخباره في صباه أنه كان يكتب، ويقراً ويعلق على الكتب قبل أن يذهب بصره.

وقد قيل ذات مرة لسماحة الشيخ: سمعنا أنك لا تعرف الكتابة.

فأجاب سماحته بقوله: هذا ليس بصحيح؛ فأنا أقرأ وأكتب قبل أن يذهب

بصري، ولي تعليقات على بعض الكتب التي قرأتها على المشايخ مثل
الآجرومية في النحو، وغيرها.

وإذا أملى سماحة الشيخ عليّ كتاباً، أو تعليقاً، وكان هناك إشكال في كلمة
ما-قال لي: تُكْتَب هكذا، وأشار إلى راحة يده، وهو يَكْتُب بإصبعه؛ ليريني
كيفية الكتابة الصحيحة.

وقيل لسماحته ذات مرة: هل صحيح أنك تتمنى أنك رأيت الإبل على ما
خلقها الله؟

فأجاب سماحته بقوله: هذا ليس بصحيح؛ فأنا أتصورها؛ لأن بصري لم
يذهب إلا وعمري تسع عشرة سنة».

ثالثاً: من أبرز صفات الشيخ على سبيل الإيجاز: تفرد سماحة الإمام
عبدالعزیز رحمته الله بصفات عديدة لا تكاد تجتمع في رجل واحد إلا في القليل النادر،
ومن أبرز تلك الصفات على سبيل الإيجاز: الإخلاص لله - ولا نزكي على الله
أحداً - فهو لا يبتغي بعمله حمداً من أحد ولا جزاءً، ولا شكوراً، والتواضع
الجم، مع مكانته العالية، ومنزلته العلمية، والحلم العجيب الذي يصل فيه إلى
حد لا يصدقه إلا من رآه عليه، والجلد، والتحمل، والطاقة العجيبة حتى مع
كبر سنه.

ومن صفاته الأدب المتناهي، والذوق المرهف، والكرم والسخاء الذي لا
يدانيه فيه أحد في زمانه فيما أعلم، وذلك في شتى أنواع الكرم والسخاء، سواء
بالمال أو بالوقت، أو الراحة، أو العلم، أو الإحسان، أو الشفاعات، أو العفو،

أو الخُلُق، ونحو ذلك.

ومما كان يتحلَّى به السكينةُ العجيبةُ التي تغشاه، وتغشى مجلسه، ومن يخالطه، والذاكرةُ القويةُ التي تزيد مع تقدمه في السن، والهمةُ العالية، والعزيمةُ القويةُ التي لا تستصعب شيئاً، ولا يهولها أمر من الأمور.

ومن صفاته العدلُ في الأحكام سواء مع المخالفين، أو الموافقين، والثباتُ على المبدأ، وعلى الحق، وسعةُ الأفق، وبعُدُ النظر، والتجددُ؛ فهو -دائماً- يتجدد، ويواكب الأحداث، ويحسن التعامل مع المتغيرات.

ومن خصاله الحميدةُ الثقةُ العظيمةُ بالله - جل وعلا -، والزهدُ بالدنيا، سواء بالمال أو الجاه، أو المنصب، أو الثناء، أو غير ذلك، والحرصُ على تطبيق السنة بحذافيرها، فلا يكاد يَعْلَمُ سنةً ثابتةً إلا عمل بها.

ومن صفاته بشاشةُ الوجه، وطلاقةُ المحيا، والصبرُ بأنواعه المتعددة من صبر على الناس، وصبر على المرض، وصبر على تحمل الأعباء إلى غير ذلك. ومن مزاياه عفةُ اللسان، والمراعاةُ التامةُ لأدب الحديثِ والمجلسِ ونحوها من الآداب، والوفاءُ المنقطعُ النظيرُ لمشايخه، وأصدقائه، ومعارفه، وأرحامه، وجيرانه.

كما أنه كان يحسن الظن بالناس ولا يقبل الخبر إلا من ثقة، وكان قليل الكلام، كثير الصمت، كثير الذكر والدعاء، وكان لا يرفع صوته بالضحك. وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، أو قرئ عليه سيرة لأحد العلماء، أو شيء يتعلق بتعظيم القرآن أو السنة.

وكان يقبل الهدية، ويكافئ عليها، ويحب المساكين، ويحنو عليهم، ويتلذذ بالأكل معهم.

وكان يحافظ على الوقت أشد المحافظة، ويشجع على الخير، ويحض عليه، وكان لا يحسد أحداً على نعمة ساقها الله إليه، ولا يحقد على أحد بل يقابل الإساءة بالإحسان.

وكان معتدلاً في مأكله ومشربه، دقيقاً في مواعيده، متفائلاً ومحباً للفقير. هذه نبذة عن بعض أخلاقه على سبيل الإيجاز، وسيأتي تفصيل لذلك في الصفحات التالية.

رابعاً: الأعمال التي تولاهما سماحة الشيخ: أول عمل تولاه سماحة الشيخ X هو القضاء؛ حيث عين قاضياً في مدينة الدلم عام ١٣٥٧ هـ واستمر فيه إلى عام ١٣٧١ هـ.

وكان طيلة تلك المدة يقوم بإمامة الناس، وخطبة الجمعة، وإلقاء الدروس في الليل والنهار، والإصلاح بين الناس، وتفقد أحوالهم، ويقوم باستقبال الوفود، والزائرين، وطلاب العلم، ويعنى بالفقراء والمحتاجين.

كما كان رحمته الله يولي مصالح الناس اهتمامه، ويكتب إلى المسؤولين في كل ما يراه ضرورياً لإصلاح المنطقة، فيجد لديهم من التجاوب ما يحقق رغبته الخيرة في الإصلاح العام.

وقد تتلمذ على يديه في تلك الفترة جمع غفير من العلماء، والقضاة. وفي عام ١٣٧١ هـ انتقل سماحته إلى التدريس في المعهد العلمي في الرياض، ثم انتقل إلى كلية الشريعة واستمر فيها إلى عام ١٣٨١ هـ.

وكان في تلك الفترة يؤم المصلين في جامع الإمام تركي بن عبدالله رحمته الله ويقوم بإلقاء الدروس في المسجد، وفي بيته، ويلقي المحاضرات الكثيرة، والكلمات المتنوعة في المناسبات.

وفي عام ١٣٨١هـ انتقل إلى المدينة النبوية؛ ليعمل نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية وهو سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله.

وكان في المدينة يلقي الدروس في المسجد النبوي بين المغرب والعشاء عدا ليلة الثلاثاء.

وكان يتلقى الطلاب، ويلقي المحاضرات، والكلمات، ويكتب في الصحف والمجلات.

وفي عام ١٣٩٠هـ صدر الأمر الملكي بتعيينه رئيساً للجامعة الإسلامية.

وفي ١٤/١٠/١٣٩٥هـ انتقل إلى الرياض وعين رئيساً لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برتبة وزير.

وفي تلك الفترة تولى إمامة جامع الإمام تركي بن عبدالله، واستمر فيه حتى هدم الجامع المذكور، وبعدما أعيد بناؤه من جديد كتب سماحته لولاية الأمور مقترحاً عليهم أن يعين سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ إماماً للمسجد المذكور.

كما كان في الوقت نفسه رئيساً لمجلس رابطة العالم الإسلامي، ورئيساً للمجمع الفقهي، والمجلس الأعلى العالمي للمساجد، والمجلس التأسيسي للرابطة.

وفي عام ١٤١٤هـ صدر الأمر السامي بتعيينه مفتياً عاماً للمملكة، ورئيساً

لهيئة كبار العلماء، ورئيساً للجنة الدائمة، ورئيساً لرابطة العالم الإسلامي. ومن أعماله - أيضاً - أنه كان رئيساً لدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة التي تأسست عام ١٣٥٢ هـ بأمر من الملك عبدالعزيز رحمه الله.

خامساً: أبرز الأعمال التي كان يقوم بها سماحة الإمام على سبيل الإيجاز:
أعمال سماحة الإمام كثيرة لا تكاد تحصى، وهذه جملة من أبرز أعماله على سبيل الإيجاز الاهتمام العظيم بالعلم وتعليمه، والحرص البالغ على الدعوة إلى الله - عز وجل - والقيام بالفتوى، والرد على المستفتين من كل مكان، وفي هذا الميدان تتجلى عبقريته الفذة.

ومن أعماله التعاون مع أهل العلم في كل مكان في سبيل نشر الدين، وتصحيح العقيدة، وإرسال الدعوة، وكفالتهم، ودعم الجهاد الإسلامي في شتى صورته في كل مكان، والكتابة في الصحف، والرد على المخالفين، وإلقاء الدروس، والمحاضرات، والندوات، والبرامج الإذاعية، وأشهرها وأعمها نفعاً برنامج نور على الدرب الذي كان يشارك فيه منذ عام ١٣٩٢ هـ إلى آخر أيامه رحمه الله.

ومن أعماله الإسهام وتبني طبع الكتب النافعة باللغة العربية وغيرها، والشفاعة بأنواعها المتعددة، كالشفاعة في المصالح العامة، والشفاعة في المصالح الخاصة إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه في ثنايا هذا الكتاب - إن شاء الله - ومتابعة أوضاع المسلمين، والحرص على نصرتهم، ورفع الظلم عنهم، ومساعدتهم بالمستطاع.

ومن أعماله شراء البيوت للمحتاجين، وتحمل الإيجار عن بعض

المستأجرين ، وإجراء المرتبات لبعض المحتاجين بحسب أحوالهم ، وكفالة الأيتام ، والأسر المعوزة ، وإقراض المحتاجين وغالباً ما ينتهي بالمساحمة.

ومن أعماله الحرص على ترميم المساجد في الداخل والخارج.

ومن أعماله النصيحة الصادقة لأئمة المسلمين ، وعامتهم ، والحرص التام على جمع كلمة المسلمين على الحق ، وإصلاح ذات بينهم وتقريب وجهات نظرهم.

ومن أعماله رئاسة بعض المؤتمرات ، والمجامع والهيئات العلمية ، ودعم المراكز والمعاهد والمدارس والجمعيات الإسلامية في داخل المملكة وخارجها.

هذه بعض أعماله على سبيل الاختصار.

سادساً: مؤلفات سماحة الشيخ وآثاره العلمية: لقد ترك الشيخ رحمته الله

مؤلفات علمية كثيرة ، يصعب حصرها ، واستقصاؤها؛ فمنها المكتوب ، ومنها المسموع ، ومنها المطبوع ، ومنها الذي لم يطبع ، ومنها ما يشترك به مع غيره ككثير من الفتاوى ، إلى غير ذلك من مؤلفاته وآثاره. وإليك طرفاً من ذلك :

- ١- الفوائد الجليلة في المباحث الفرضية ، وهو من أوائل مؤلفاته بل ربما كان أولها ، ولعل الطبعة الأولى من هذا الكتاب كانت عام ١٣٥٨هـ.
- ٢- التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة (توضيح المناسك).

وهو - كما يقول سماحة الشيخ - أهمها ، وأنفعها ، وقد جمعه في عام

١٣٦٣هـ لما كان قاضياً في الخرج، ثم زاده، وبسطه بعد ذلك، وطبع طبعات كثيرة لا تكاد تحصى، وترجم إلى لغات عديدة، وكثيراً ما كان يُقرأ على سماحته، فيضيف إليه، ويحذف منه ويقول: ما أضعف العبد!

٣- التحذير من البدع، ويشتمل على أربع مقالات: حكم الاحتفال بالمولد النبوي، وليلة الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، وتكذيب الرؤيا المزعومة من خادم الحجرة النبوية المسمى الشيخ أحمد.

٤- رسالتان موجزتان في الزكاة والصيام.

٥- العقيدة الصحيحة وما يضادها.

٦- وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها.

٧- الدعوة إلى الله، وأخلاق الدعوة.

٨- حكم السفور والحجاب، ونكاح الشغار.

٩- وجوب تحكيم شرع الله، ونبذ ما يخالفه.

١٠- نقد القومية العربية.

١١- الجواب المفيد، في حكم التصوير.

١٢- الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دعوته، وسيرته.

١٣- ثلاث رسائل في الصلاة:

أ- كيفية صلاة النبي ﷺ.

ب- وجوب أداء الصلاة في جماعة.

ج- أين يضع المصلي يديه حين الرفع من الركوع.

- ١٤- حكم الإسلام، في من طعن في القرآن، أو في رسول الله ﷺ .
- ١٥- حاشية مفيدة، على فتح الباري؛ وصل فيها إلى كتاب الحج؛ وفي آخر أيام سماحته عهد إلى تلميذه صاحب الفضيلة الشيخ علي بن عبدالعزيز الشبل إكمال ما شرع به سماحته من التعليق على المواضع التي تحتاج إلى تعليق في العقيدة، فأكملها الشيخ علي - حفظه الله - وكان سماحة الشيخ قد خصص للشيخ علي وقتاً يقرأ عليه ما انتهى من تعليقه.
- وبعد وفاة سماحة الشيخ خرج ذلك الكتاب.
- ١٦- رسالة الأدلة النقلية والحسية، على جريان الشمس وسكون الأرض، وإمكان الصعود إلى الكواكب.
- ١٧- إقامة البراهين، على حكم من استغاث بغير الله، أو صدق الكهنة والعرافين.
- ١٨- الجهاد في سبيل الله.
- ١٩- الدروس المهمة لعامة الأمة.
- ٢٠- فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة.
- ٢١- وجوب لزوم السنة، والحذر من البدعة.
- ٢٢- تحفة الإخوان، بأجوبة مهمة تتعلق بأركان الإسلام.
- ٢٣- تحفة الأخيار، ببيان جملة نافعة مما ورد في الكتاب والسنة من الأدعية والأذكار.
- ٢٤- مجموع فتاوى ومقالات، جمع الدكتور محمد بن سعد الشويعر، وقد

خرج منها ١٨ مجلداً.

٢٥- ما هكذا تعظم الآثار.

٢٦- فتاوى نور على الدرب.

٢٧- كتاب الطلاق.

٢٨- كتاب الحج؛ وقد خرج منه مجلدان، جمع الشيخ أ.د. عبدالله بن محمد

الطيّار، والشيخ أحمد بن عبدالعزيز بن باز.

٢٩- الرد على بعض الكُتّاب في إباحة حلق اللحي.

٣٠- فتاوى اللجنة الدائمة بالاشتراك مع أعضاء اللجنة وقد خرج منه ١٧

مجلداً كبيراً، والبقية قيد الطبع.

٣١- الفتاوى الكثيرة، التي كانت تنشر في المجلات والصحف، كمجلة

الجامعة الإسلامية، والمجلة العربية، ومجلة الدعوة.

٣٢- الفتاوى الخاصة المكتوبة، التي نشر بعضها، ولم ينشر بعضها الآخر.

٣٣- تعليقات على كتاب: بلوغ المرام لابن حجر.

٣٤- التحفة الكريمة في بيان كثير من الأحاديث الصحيحة والحسان. لم يطبع.

٣٦- هناك تعليقات كثيرة جداً، على كثير من الكتب، ومكتبة سماحته مليئة بمثل

هذا، وقلما يقرأ عليه كتاب إلا ويعلق عليه.

٣٧- هناك العديد من الفتاوى الخاصة المكتوبة لأشخاص معينين.

٣٨- هناك العديد من الإملاءات في الدروس العامة لدى أكثر الطلبة.

٣٩- الأشرطة المسجلة في شرح المتون العلمية.

٤٠- الأشرطة المسجلة للمحاضرات العامة.

٤١- الأشرطة المسجلة للبرامج الإذاعية ، ولعل الأشرطة الخاصة ببرنامج نور على
الدرب قد بلغت ستمائة وسبعة وأربعين شريطاً ، هذا ما وجد منها.
٤٢- الأشرطة المسجلة في التعليق على المحاضرات والندوات.
هذه بعض آثاره العلمية ، أما آثاره وأجوبته المثورة ، أو التي يلقيها في المجالس
العامة والخاصة- فلا يمكن حصرها؛ إذ لا يخلو مجلس أو مائدة ، أو مناسبة يحضرها
سماعته؛ إلا ويلقي فيها العديد من الأسئلة ، ويكون فيها من الفوائد العلمية ما لا
يمكن حصره.

« نظام سماحة الشيخ اليومي، وفي مجلسه، ومكتبه، ومكتبته »

أولاً: النظام اليومي لسماحة الشيخ: يقوم سماحة الشيخ رحمته الله قبل الفجر بساعة تقريباً؛ لأداء صلاة التهجد؛ حيث يصلي إحدى عشرة ركعة كلها خشوع، وتضرع، ودعاء كثير، وكان يكثر في ذلك الوقت من الذكر، وقراءة القرآن، والدعاء للمسلمين وولادة أمورهم، ويختتم بالاستغفار.

وبعد أذان الفجر أو قبله يذهب إلى المسجد بسكينة ووقار وذل لله، فإذا خرج من المنزل قال الدعاء المأثور، ثم إذا وصل المسجد قدم رجله اليمنى، ودعا بما ورد، ثم صلى السنة الراتبة، وأكثر من الأدعية، ثم يؤدي صلاة الفجر، وبعدها يأتي بالأذكار الواردة بعد الصلاة، ثم يمكث طويلاً لورده اليومي من الأدعية والأذكار الصباحية.

وبعد ذلك يبدأ الدرس المعتاد الذي ربما زاد وقته على ثلاث ساعات؛ حيث تُقرأ عليه الكتب المتعددة المتنوعة، وبعد ذلك يجيب على الأسئلة الكثيرة بكل عناية ودقة، ثم ينصرف بعد ذلك إلى منزله.

وإذا لم يكن عنده درس انصرف إلى منزله بعد أن يأتي بورده اليومي الصباحي.

ثم يجلس في المنزل ما يقارب الساعتين؛ حيث تعرض عليه بعض المعاملات المهمة، أو تقرأ عليه بعض الكتب أو البحوث، وفي ذلك الوقت - أيضاً - يقوم سماحته بالنفث والرقية في بعض أواني المياه، أو قوارير الزيت، أو العسل التي أتى بها أصحابها؛ ليقراً فيها سماحته.

وبعد ذلك يتوجه سماحته إلى داخل منزله، لأخذ قسط من الراحة، وقد يجلس على سريره دون نوم - كما يقول ذلك هو -.

وبعد الساعة الثامنة ينهض، ويتهيأ للإفطار ثم يتوضأ ويصلي ركعتين، ثم يتوجه إلى المكتب بسكينة وعزيمة وهمة.

وفور ركوبه السيارة تُعرض عليه بعض القضايا، أو تقرأ عليه بعض الكتب، وإذا وصل المكتب وتَرَجَّل ماشياً عرضت عليه - أيضاً - بعض الكتابات، أو القضايا إلى أن يصل إلى مكتبه.

وإذا استقر في مكتبه واصل القيام بالأعمال العظيمة التي لا يقوم بها الجماعة الكثيرة من الرجال الأقوياء الأشداء؛ حيث تعرض عليه القضايا، ويستقبل الوفود، ويجيب على السائلين، ويؤدي الأعمال المنوطة به في المكتب، ويأتيه المطلقون إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره، مما سيرد ذكره بعد قليل.

وهكذا يستمر عمله إلى الساعة الثانية والنصف ظهراً أو بعدها بقليل، حيث يكون آخر من يخرج من العمل.

وبعد ذلك يتوجه إلى منزله، وفي الطريق إلى المنزل يُواصل عرض القضايا أو قراءة الكتب عليه، وكثيراً ما كان يستمع إلى أخبار الثانية والنصف ظهراً عبر المذياع وهو في الطريق إلى منزله.

وإذا لم يكن معه من يقرأ عليه قطع الطريق بالذكر، وقراءة القرآن.

وإذا وصل إلى منزله وجد الجموع الغفيرة من الأجناس المتعددة ومن ذوي الحاجات المتنوعة بانتظاره؛ فهم ما بين مستفت ومُسَلِّم، ومطلِّق، وطالب

حاجة، وفقير، ومسؤول، وزائر من قريب أو بعيد.

وبعد أن يصل إليهم يلقي السلام عليهم، ويدعوهم إلى تناول طعام الغداء على مائدته، ثم يقوم الحاضرون إلى الغداء، ويجلس سماحته بينهم يتناول طعام الغداء، ويباسطهم، ويسأل عن أحوالهم، ويجيب عن أسئلتهم، وإذا انتهى من الغداء تأنى قليلاً؛ كيلاً يعجلهم، وإذا قام قال: كلُّ براحتي، لا تعجلوا.

وإذا قام لغسل يديه بدأت الأسئلة، تلقى عليه وهو في الطريق إلى المغسلة، ومن بعدها يعود إلى المجلس.

وإذا كان الوقت متأخراً ووقت صلاة العصر قد اقترب توضأ، وتابع المؤذن، ثم توجه إلى المسجد.

وإذا كان في الوقت متسع رجع إلى المجلس، وتناول الشاي مع الضيوف، وتطيب معهم، ثم توجه إلى داخل المنزل قليلاً، ثم يخرج وقت أذان العصر.

وبعد ذلك يتوجه إلى المسجد ويؤدي الصلاة، وبعد ذلك يقرأ الإمام ما تيسر من كتاب رياض الصالحين للنووي، أو الوابل الصيب لابن القيم، أو كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، أو غيرها من الكتب، ثم يشرع سماحته بشرح ما قرئ، ثم توجه إليه الأسئلة، فيجيب عليها، ثم يرجع إلى منزله؛ لأخذ بعض الراحة، وفي الطريق إلى المنزل يجيب على ما تيسر من أسئلة الجموع الغفيرة المحيطة به.

وقبل المغرب يتوضأ سماحته، ويذهب لصلاة المغرب، وبعد الصلاة يأتي

للمنزل، ويؤدي السنة الراتبة، ثم يجلس للناس جلسته المعتادة إذا لم يكن لديه محاضرة، أو تعليق على ندوة.

وفي مجلسه المعتاد يؤدي من الأعمال العظيمة ما قد لا يخطر على بال - كما سيأتي بيان ذلك في صفة مجلسه -.

وإذا أُذِّنُ بصلاة العشاء تابع المؤذن ثم قام للصلاة، وترك جميع الأعمال، وإذا دخل المسجد، وأدى تحية المسجد بدأ الإمام يقرأ بعض الأحاديث، ثم يشرع سماحة الشيخ في شرحها، وإيضاحها، ثم تنهال عليه الأسئلة بعد ذلك، فيجيب على ما تيسر منها.

وبعد صلاة العشاء يعود إلى منزله إذا لم يكن لديه موعد خارج المنزل أو محاضرة، أو إجابة دعوة خاصة، أو وليمة زواج، أو زيارة مريض، أو نحو ذلك.

وإذا رجع للمنزل جلس لقراءة بعض المعاملات عليه، أو راجع بعض الكتب، وربما كان لديه اجتماع أو أكثر داخل المنزل، وربما كان لديه ضيوف، وربما كان لديه موعد تسجيل إذاعي، أو محاضرة يلقيها عبر الهاتف لأناس خارج المملكة.

وبعد ذلك يتناول طعام العشاء مع ضيوفه، وموظفي مكتب المنزل، ومن حضر عموماً.

وبعد تناول العشاء؛ يعود لإكمال ما شرع فيه من عمل قبل العشاء، أو يكمل الجلوس مع ضيوفه، أو يجلس لقراءة بعض الكتب، أو إنهاء بعض المعاملات

حتى ساعة متأخرة؛ إما الحادية عشرة أو الثانية عشرة، ثم ينصرف بعد ذلك إلى داخل منزله، ويمشي على قدميه مدة نصف ساعة تقريباً، ثم يأوي إلى فراشه. وهكذا كان يقضي سحابة يومه في عمل وهمة ونشاط وأنس يسري منه إلى من حوله.

ثانياً: وصف ما يدور في مجلس سماحة الشيخ: سماحة الشيخ رحمته الله يجلس للناس جلساته المعتادة بعد مغرب كل يوم إذا لم يكن لديه محاضرة، ويجلس يوم الخميس من الساعة الحادية عشرة أو قبلها إلى قبيل العصر، ويجلس يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ويجلس بعد مجيئه من الدوام وتناول الغداء إلى أذان العصر إذا كان في الوقت متسع؛ فهذه-تقريباً-هي جلساته المعتادة للناس عامة، سواء كان في الرياض، أو مكة، أو الطائف، أو المدينة.

وإذا جلس للناس ضاق بهم المجلس، والتفوا حوله على اختلاف أجناسهم وحاجاتهم؛ فهذا عالم، أو مسؤول كبير جاء لزيارة سماحته، وهذا آخر قدم للسلام، وهذا قريب لسماحته، وهذا مستفتٍ عن أمر ما، وهذا مطلق، وهذا ذو حاجة، وهذا ذو مشكلة، ويريد حلاً لها، وهذا مرید لشفاة من سماحة الشيخ في أي أمر من الأمور، وهذا قادم للجلوس ورؤية الشيخ، وكيفية تعامله مع الناس، وهذه وفود أتت من داخل المملكة وخارجها لزيارة سماحته، وهذا فقير أتى؛ لينال ما ينال من بر سماحته وعطفه، وهذا وهذا الخ.

فإذا قدم سماحة الشيخ إليهم ألقى السلام عليهم، ثم تتابعوا للسلام عليه؛ فإذا أخذ مكانه في صدر المجلس علا المجلس السكينة، والوقار، والأدب.

ويكون عن يمين سماحته وشماله اثنان من كُتَّابه يعرضان عليه القضايا والكتابات التي تأتيه من كل مكان، فيتولى الرد عليها، والإجابة عنها. وهذان الكاتبان يتناوبان؛ إذ إن كل واحد منهما قد ملأ جعبته من الرسائل والمعاملات.

ويكون بجانب سماحته هاتفان لا يكاد يتوقف رنينهما.

وما بين كل فينة وأخرى يتقدم طالب حاجة، أو مستفت، فيعرض ما يريد على سماحته، وإذا قدم قادم إلى المجلس توجه إلى سماحته، فسلم عليه، فيرد سماحة الشيخ السلام، ويلاطفه، ويسأله عن اسمه إن كان لا يعرفه، وإن كان يعرفه سأله عن أحواله وعن مشايخ بلده، وطلبة العلم فيه إن كان قادماً من بلد آخر، ثم يلح عليه بتناول طعام الغداء، والعشاء، ويلح عليه بالمبيت عنده.

وهكذا الحال مع كل قادم ولو أدى ذلك إلى قطع المكالمة وطلب الانتظار ممن يهاتف، ولو أدى - أيضاً - إلى إيقاف القراءة من أحد الكاتبين. وبعد ذلك يعاود الحديث مع من هاتفه، أو السماع لمن يقرأ عليه.

فإذا رأيت هذا المشهد من كثرة الناس وكثرة حاجاتهم وتنوعها، ورأيت حال الشيخ مع الهاتف، ومع من يقرؤون عليه من كُتَّابه، ورأيت كثرة القادمين والمسلمين - أيقنت أن جموعهم لن تَنفُضَ، وأن تلك الحاجات والمعاملات تحتاج إلى مدة أسبوع في الأقل؛ ليتم التخلص من بعضها.

وما هي إلا مدة يسيرة، ثم تَنفُضُ تلك الجموع بنفوس راضية، وصدور منشرحة؛ حيث يأخذ كل واحد منهم نصيبه من سماحة الشيخ؛ إما بتوجيه

معين ، وإما بوعده صادق طيب ، وإما بإجابة لسؤال ، وإما باستجابة لطلب .
 كل الذي تبغي الرجال تصيبه حتى تَبَغِّي أن ترى شرواه
 سيان بادىء فعله وتليئه كالبحر أقصاه أخو أدناه
 كل ذلك وسماحته يستقبلهم بصدر رحب ، وجبين وضَّاح ، ونفس كريمة ،
 لا ينهر أحداً ، ولا يكهره ، مع ما يلقاه سماحته من كزازة ، وسوء أدب ، وكثرة
 إلحاح ، ومقاطعة من بعض المراجعين ، حتى إن الذي يحضر المجلس أول مرة
 ليعجب أشد العجب ، ويظن أن سماحته يتكلف ما يقوم به ، ولكن ذلك هو
 دأبه وأدبه ؛ حتى لكأنه هو المعني بقول البحري :

خُلِقَ أتيت بفضله وسنائه طبعاً فجاء كأنه مصنوع
 وحديثٌ مجدٍ منك أفرط حسنه حتى ظننا أنه موضوع
 وبقوله :

سمحُ اليدين إذا احتبى في مجلس كان الندى صفةً لذاك النادي
 متَهَجِّدٌ يخفي الصلاة وقد أبى إخفاءها أثر السجود البادي
 انظر إليه إذا تلفت معطياً نيلاً وقُلُ في البحر والوراد
 وإذا تكلم فاستمع من خُطبةٍ تجلو عمى المتحيِّر المرتاد
 أفضى إليه المسلمون فصادفوا أدنى البرية من تقى وسداد
 وإذا انصرفوا من عنده انصرفوا مسرورين ، وكل منهم يظن أن له منزلة خاصة
 عند سماحة الشيخ .

وإذا أذن المؤذن بالعشاء أو الظهر ، أو العصر أيّاً كان وقت ذلك المجلس قطع

سماحة الشيخ الحديث مع من يهاتفه، أو يحادثه، أو يسأله، أو يقرأ عليه، وشرع بمتابعة المؤذن ومن ثمَّ يتوجه إلى المسجد.

وما إن ينتهي ذلك المجلس إلا وقد قام بأعمال عظيمة لا يقوم بها الجماعة من أولي القوة من الرجال، مع أن سماحته كفيف البصر، متقدم في السن، ومع أن كلمته هي الفصل التي يتوقف عليها أمور عظيمة خاصة أو عامة؛ فهذا دأبه في جميع مجالسه.

ثالثاً: سماحة الشيخ في العمل الرسمي في المكتب: بعد أن يأتي سماحة الشيخ من درس الفجر في المسجد يدخل منزله، ويرتاح قليلاً، ويتناول الإفطار، ثم يمضي إلى عمله في المكتب في الرئاسة، وإن لم يكن عنده درس في المسجد فإنه يأتي بعد الفجر لمكتب البيت، ويستمر مدة ساعتين أو أكثر تعرض عليه المعاملات، وتقرأ عليه الكتب، والبحوث، والمقالات، ثم يدخل منزله ويرتاح قليلاً، ثم يتناول الإفطار، ويمضي إلى عمله في المكتب بعد أن يؤدي صلاة الضحى.

وفي الطريق من المنزل إلى العمل يُقرأ عليه منذ خروجه من المنزل حتى يصل. وإذا ترجل من السيارة عند وصوله مقر العمل استقبله الناس على اختلاف طبقاتهم وحاجاتهم، وفي طريقه من السيارة إلى مكتبه في رئاسة الإفتاء أو اللجنة يقضي حاجات كثيرة، ويجب عن أسئلة عديدة في تلك الخطوات القليلة المعدودة.

وسماحة الشيخ يذهب إلى مكتبه في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء،

يوم الأحد قبل الظهر، ويوم الثلاثاء قبل الظهر.
 وإذا كان في اللجنة استمع إلى الفتاوى المعدة من قبل اللجنة، وبعد ذلك يتم
 تداول الرأي فيها مع أعضاء اللجنة قبل صدورها.
 وبعد الظهر من يوم السبت يذهب سماحته-أيضاً-إلى اللجنة الدائمة لقراءة
 الفتاوى الصادرة من اللجنة لإقرارها ثم طبعها تحت إشراف صاحب الفضيلة
 الشيخ أحمد بن عبدالرزاق الدويش.
 أما ما عدا هذه الأوقات فيمضي وقته في مكتبه في الرئاسة، وهناك تعرض
 عليه أنواع المعاملات من مقالات، وأقوال صحف، وبحوث، وشفاعات،
 ونحوها.

وهناك يستقبل طلبات الناس، ويحيب عن أسئلتهم.
 وهناك يرد على الهاتف، ويمنع من طرح سماعته.
 وهناك يستقبل الزائرين، والمسلمين.
 وهناك يعرضُ عليه الموظفون المعاملات الخاصة من مكاتبتهم عبر الهاتف، أو
 يأتون إليه بها.

وهناك تعرض عليه أنواع المعاملات المتعلقة بالشؤون الإدارية للرئاسة،
 والمكاتبات الرسمية الواردة إلى سماحته من الجهات الحكومية، وكثير مما يتعلق
 بشؤون الدعوة إلى الله في الداخل والخارج، وقضايا الحسبة، والطلبات
 الشخصية من مشارق الأرض ومغاربها، ومن جموع المسلمين الذين يتوافدون
 إلى مكتبه؛ التماساً لمساعدته لهم.

وتعرض عليه الاستفتاءات، ولا سيما قضايا الطلاق، والرضاع التي ينظر فيها سماحته بنفسه.

وهكذا يستمر عمله إلى نهاية الدوام، فيكون هو آخر الموظفين خروجاً، أو من آخرهم.

وإذا كان في مهمة عمل خارج المكتب سواء كان في الديوان الملكي، أو في اجتماع في مكان آخر، أو كان في مراجعة للمستشفى، أو كان في محاضرة في بعض القطاعات، ثم انتهى من مهمته-سأل عن الساعة، فإذا قيل له - مثلاً -: الساعة الثانية أو أكثر أو أقل قال: نذهب إلى المكتب، فإذا قيل له: ضاق الوقت، وما بقي إلا القليل، ولا يستحق أن يُذَهَبَ لأجله قال: ولو! نقضي بعض الأعمال في هذا الوقت.

وإذا كان في الطائف فإنه لا يعود إلى الرياض إلا بعد نهاية الانتداب، أو أن يؤذن له من ولي الأمر دون طلب منه.

وفي الطائف يواصل إلقاء الدروس، ويلقي محاضرات كثيرة في أماكن عدة، كالقاعدة الجوية، ومدارس سلاح الإشارة، وفي السجن.

وفي عامه الأخير بدأ الانتداب إلى مكة المكرمة في ١٤١٩/١٢/١هـ حتى ١٤١٩/١٢/٢١هـ، ولكنه مكث في الرياض بسبب مشورة الأطباء؛ لأنه لم يتحمل الذهاب للحج.

ولما سُئِلَ عن المدة التي مكثها في الرياض؛ لتحسب له، قال: لا تحسب لي انتداباً؛ لأنني لم أذهب!!

ولما أُخبر بأن الموظفين الذين كانوا معه ليس لديهم مانع من السفر إلى مكة، ولكنهم جلسوا؛ مراعاة لمصلحته، أبى أن تحسب لهم انتداب تلك المدة.

فلما ألحوا عليه، قال: نعطيهم من عندنا.

رابعاً: سماحة الشيخ في مكتبة منزله: لسماحة الشيخ مكتبة كبيرة في منزله في

الرياض، وله مكتبة في منزل الطائف، ومكتبة في منزل مكة.

والمكتبة هي محل أنسه، وهي-في الغالب-مقر عمله واجتماعاته الخاصة مع العلماء وغيرهم، وهي محل بحثه، ودراسة بعض المعاملات الخاصة الواردة عليه. وهي مكان التسجيل لبرامج الإذاعة كبرنامج نور على الدرب وغيره، وهي مكان اللقاءات بمندوبي الصحف.

وفيها يراجع كتبه، ودروسه، وبعض المسائل التي يحتاج إليها.

وفيها يتتبع أسانيد الأحاديث، وطرقها؛ إذ كان رحمته الله كثير الرجوع إلى كتب الرجال، ككتاب تقريب التهذيب، وتهذيب التهذيب، وميزان الاعتدال، وتعجيل المنفعة، وتهذيب الكمال.

يقول الشيخ محمد موسى: «وقد سمعت صاحب الفضيلة الشيخ إسماعيل

ابن محمد الأنصاري رحمته الله يقول: إن سماحة الشيخ يكاد يحفظ التقريب عن ظهر قلب».

وكان يستقبل المكالمات وهو في المكتبة، ويلقي المحاضرات الخارجية عبر الهاتف.

وكان رحمته الله لا يميل الجلوس بين الكتب، والتنقل في رياضها؛ ففي بعض

الأحيان يؤتى إليه بالمعاملات من طلاق ونحوه؛ فإذا بدأوا عرضها عليه بعد العشاء ربما ظهر عليه بعض الإعياء والتعب، والنعاس، فيقول: ما عندي نشاط. ثم يطلب بعض الكتب فإذا بدأوا القراءة عليه في الكتب نشط، وتأهب، وذهب عنه النعاس، وتفاعل مع الكتاب أو الكتب.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله -: «وفي يوم من الأيام بدأتُ أعرض عليه بعض المعاملات في الطلاق وغيره، فلمست منه الإعياء، فقال: ما عندي نشاط، أشعر بالإعياء، وأرى عرضها في وقت آخر.

فخرجت من عنده في الساعة التاسعة من الليل تقريباً، وذهبت إلى شمال الرياض؛ لقضاء بعض الأعمال الخاصة بي.

ولما انتهى عملي عدت إلى منزلي، وفي الطريق مررت بمنزل سماحته، ولما حاذيته رأيت سيارة الأخ صلاح الدين عثمان - أمين مكتبة منزل سماحة الشيخ - وكانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف.

فلما رأيت السيارة قلت في نفسي: ما الذي أبقى الأخ صلاحاً إلى ذلك الوقت، خصوصاً وأن عهدي بسماحة الشيخ أنه مُجْهَد، ولم يستطع إكمال قراءة المعاملات؛ فوقفت عند منزل سماحته، ودخلت المنزل وإذا بسماحته يخرج من المكتبة متجهاً إلى داخل بيته؛ فسألت الأخ صلاحاً، وقلت له: أنتم جالسون من حين ذهبت من عندكم حتى هذه الساعة؟

قال: نعم؛ لما بدأت أقرأ على سماحته في الكتب نشط، واشتد عزمه، ولم يذهب داخل بيته إلا الآن - كما ترى! -

وفي بعض الليالي نجلس في المكتبة بعد صلاة العشاء ساعة ونصف الساعة تقريباً،

ونلاحظ على سماحته الإعياء؛ إذ هو طيلة يومه في جهاد، وعمل متواصل.
وعندما نقوم إلى مكان الطعام لتناول وجبة العشاء يعود للشيخ نشاطه،
ونرجع مرة أخرى إلى المكتبة، ويقول ﷺ: النشاط يعود بعد الأكل، وهو بمثابة
البنزين للسيارة.

وأحياناً يمضي في المكتبة الساعتين، والثلاث دون أن يشعر؛ فإذا سأل عن
الساعة وقلنا: الساعة الحادية عشرة قال: إلى الله المشتكى، الوقت يمضي،
والجلوس بين الكتب لا يُمل، نتمنى أن نقرأ كل ما في هذه المكتبة، ولكن
المشاغل لا تتركنا.

وفي يوم من الأيام في عام ١٤١٨ هـ قال سماحته للأخ صلاح أمين المكتبة: لم
يتيسر إلى الآن إمرار مسند الإمام أحمد؛ قراءتنا فيه متقطعة، كلما قرأنا منه جزءاً
انقطعت القراءة، وإن شاء الله سوف نقرؤه، فبدأ بقراءته، ولكن الأعمال
العظيمة لم تتركه.

ولا أعلم أنه عرض على سماحته كتاب يتكون من مجلد أو مجلدين أو ثلاثة،
أو أكثر إلا قال: سوف نقرؤه إن شاء الله.

ومما هو جديد بالذكر أن سماحته أوصى قبل وفاته بإهداء مكتبته إلى مكتبة
مسجد سماحته في مكة المكرمة.

«من أحوال سماحة الشيخ»

أولاً: تعظيمه للسنة ، وتطبيقه لها: كان سماحة الشيخ رحمته الله شديد التعظيم للسنة ، مطبقاً لها في شتى أحواله؛ فلا تكاد تثبت عنده سنة قولية ، أو فعلية إلا كان فعلها ، وحافظ عليها.

ينبيك عن قرب النبوة هديئه والشيء يخبر بعضه عن كله

وإليك بعض النماذج الدالة على ذلك على سبيل الإجمال ، وإلا فالتفصيل سيأتي في ثنايا الصفحات الآتية:

- ١- الحرص التام والمداومة المستمرة على الإتيان بسنن الصلاة بحذافيرها.
- ٢- المحافظة على الأدعية والأذكار المطلقة والمقيدة ، كأذكار طرفي النهار ، ودعاء الدخول للمنزل والخروج منه ، والتسمية قبل الأكل أو الشرب ، وحمْدِ الله بعده ، ومتابعة المؤذن ، والدعاء بما ورد بعد الأذان ، بل كان يقطع الحديث إذا كان يتحدث ويقول لمن يحدثه أو يهاتفه : يؤذن؛ ليفهم محدثه أن سماحته سوف يجيب المؤذن ، بل إنه إذا أراد دخول الخلاء ، وسمع المؤذن وقف قليلاً ليتابع المؤذن ، وإذا انتهى من متابعته وأتى بالأذكار الواردة بعد الأذان دخل الخلاء.
- ومن الأذكار التي كان يحافظ عليها؛ دعاء الخروج إلى المسجد ، ودعاء دخوله ، ودعاء الخروج منه ، وسيأتي تفصيل هذا عند الحديث عن صلاته رحمته الله.
- ٣- الشرب بثلاثة أنفاس ، وإذا شرب ماءً ناول من على يمينه ولو كان صغيراً.
- ٤- العمل بالسنن الواردة في الأكل ، من حيث الجلوس ، وتقدير النعمة ، والبدء بالبسملة ، ولعق الأصابع بعد الأكل ، وحمْدِ الله بعد الفراغ من الطعام.

- ٥- لزوم الاستخارة إذا أشكل عليه شيء.
- ٦- اتباع السنة في الملبس؛ فلا يلبس ثياب سرف ولا مخيلة، ولا يلبس ما أسفل الكعبين، ونحو ذلك.
- ٧- المحافظة على آداب التحية، وأدب الحديث والمجالس.
- ٨- الحرص على التيمن، ومن ذلك أنه كان يقدم رجله اليمنى عند لبس النعل، واليسرى عند خلعه.
- ٩- تَقْصُدُ الوتر في كل شيء، ومن اللطائف في ذلك أنه كان محباً للتمر. يقول الشيخ محمد موسى: «وكثيراً ما كان يسألني إذا كان يتناول تمراً فيقول: كم تناولتُ من تمرة؟ فإذا عدت النوى قلت له-على سبيل المثال-: ستاً، أو ثمانياً فيزيد واحدة، وإن كان وتراً اكتفى به أو زاد اثنتين وهكذا..».
- ١٠- الذهاب للمسجد بعد القدوم من السفر أحياناً، وأداء ركعتين فيه.
- ١١- الحرص التام على تطبيق السنة بجدافيرها في الحج والعمرة.
- ١٢- حمد الله بعد العطاس، وتشميت العاطس إذا حمد الله، وترك تشميته إذا لم يحمد الله.
- يقول الشيخ محمد موسى: «وأذكر أن شخصاً عطس بجانبه فلم يحمد الله، فبادر بعض الحاضرين إلى تشميته، فقال سماحة الشيخ رحمته الله: وهل حمد الله حتى تشمتوه؟».
- ١٣- كثرة الذكر؛ فلا يكاد لسانه يفتر من ذكر الله - عز وجل - تهليلاً، أو تكبيراً، أو حمداً، أو حوقلة أو نحو ذلك.

١٤- لا يقوم من المجلس إلا ويقول كفارة المجلس.

١٥- يبدأ بالسلام على من يعرف ومن لا يعرف، ويرى أن السنة عند التلاقي المصافحة إلا إذا قدم أحد المسلمين من سفر، ويقول ﷺ: يقول أنس رضي الله عنه: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تلاقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا».

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : «وقد رأيت شخصاً سلم على سماحته ﷺ وعانقه، وهو لم يقدم من سفر، فقال له سماحة الشيخ: السنة المصافحة، فقال الشخص: أنا أحبك يا شيخ، فقال سماحته: السنة مقدم على حبك».

١٦- كان يحسر عن رأسه إذا نزل المطر ويدعو بالدعاء المأثور.

ثانياً: بكاء سماحة الشيخ: كان ﷺ كثيراً ما يبكي عند سماع القرآن الكريم، أياً كان صوت التالي، أو حسن ترتيله من عدمه.

وكان يبكي إذا سمع شيئاً من السنة النبوية.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : «وقد رأيت أكثر من مرة يبكي عندما يسمع سيرة أحد العلماء في تراجمهم في البداية والنهاية، أو في تهذيب التهذيب، أو في سير أعلام النبلاء».

وكان يبكي - أيضاً - إذا سمع بأخبار الاضطهاد، والتعذيب التي تمر بالمسلمين في بعض البلاد.

أما طريقة بكائه فكان يبكي بصوت خافت جداً، ويرى التأثير على وجهه، أو يرى الدمع يهراق من عينيه، وكان لا يحب رفع الصوت بالبكاء.

وكان يبكي كثيراً إذا تكلم عن شيخه سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله بل إنه كان لا يستطيع مواصلة الكلام عنه.

وكان كثير البكاء إذا سمع شيئاً يتعلق بتعظيم القرآن، أو السنة، وأذكر أنني كنت أقرأ عليه في كتاب (القول القويم) للشيخ العلامة حمود التويجري رحمته الله ومر أثناء القراءة كلام للشيخ حمود حول تعظيم السنة، فالتفتُ فإذا دموع سماحة الشيخ تتحادر على خديه.

وكان من عادة سماحة الشيخ رحمته الله أنه إذا استُضيف في مكان ما طلب من بعض الحاضرين أن يتلو بعض الآيات؛ ليعطر بها المجلس، وليقوم سماحته بشرحها، وكثيراً ما كنت ألحظ عليه البكاء، والدمع، وتغير الصوت.

وكان يبكي كثيراً إذا توفي أحد العلماء المشهورين أو من لهم بلاء في الإسلام، حيث بكى على الشيخ صالح العلي الناصر، والشيخ حمود التويجري، والشيخ صالح بن غصون، وبكى كذلك على الرئيس الباكستاني السابق ضياء الحق -رحم الله الجميع-.

وإذا عرّض عليه بعض المساكين، أو المظلومين حاله تأثر ورقّ لحاله، وربما بكى.

وإذا سمع شيئاً من أخبار المسلمين وما يلاقونه من العنت والشدة بكى، وتغير صوته.

وكثيراً ما كان يبكي إذا صلى بالناس ولكنه كان يغالب نفسه. وكذلك كان يبكي حال الدعاء، وكنت أدقق النظر في وجهه أثناء الدعاء في

عرفة، أو عند الصفا والمروة، فأجد دموعه تنزل على خديه، وألحظ تغيراً في صوته.

وكثيراً ما كان يبكي أثناء الدروس، فيتوقف قليلاً حتى يذهب ما بنفسه، إلا أنه أحياناً يُغَلَبُ على أمره.

وكثيراً ما كان يبكي إذا سمع حادثة الإفك، أو قصة الثلاثة الذين خُلّفوا. وكنت أقرأ عليه كتاب (الجواب الكافي) لابن القيم رحمته الله في مجالس كثيرة، فكان يبكي في بعض المواضع المؤثرة من الكتاب.

وكان معالي الدكتور محمد الشويعر يقرأ عليه في البداية والنهاية، فكان يبكي إذا سمع بعض الأخبار المتصلة بالحروب خصوصاً إذا كان فيها قتلى كثيرون من المسلمين.

وكان يبكي أحياناً إذا سمع شعراً مؤثراً يدعو للفضيلة، ويصور مآسي المسلمين.»

ثالثاً: زهد سماحة الشيخ: لا يكاد يعرف في زماننا هذا أزهّد من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله مع أن الدنيا تقبل عليه، وتترين له، إلا أنه زاهد بها، مشيح بوجهه عنها.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : «فلا أذكر في يوم من الأيام أنه سأل عن راتبه، ولا عن مقداره، ولا عن زيادته، ولا عن وقت مجيئه، ولا أذكر أنه سأل عن انتدابه، أو عن رصيده أو حسابه، لا يسأل عن ذلك ولا يعبأ به.

ولا أذكر أنه تكلم ببيع، أو شراء، أو أمر من أمور الدنيا إلا على سبيل

السؤال عن حاجة أحد، أو الشفاعة له، بل كان كثير الوصية بالتحذير من الاغترار بالدنيا.

وسماحة الشيخ كان يعيش عيشة القناعة، والزهد والكفاف؛ فلم يكن يمسك شيئاً من حطام الدنيا، ولم يكن يتطلع إلى مال، أو جاه، أو منصب. بل كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وكان زاهداً بالجاه، والمراتب، والمديح، وحب الذكر.

ولم أسمع منه أو عنه أنه مَالٌ في يوم من الأيام إلى الدنيا، أو طلب شيئاً من متّعها.

وكان يكره الحديث في تغيير أثاث منزله، أو سيارته، أو أن يقال له: عندك كذا وكذا.

وكان يكره الخوض في الأحاديث الدنيوية البحتة التي ليس من ورائها مصلحة للمسلمين، أو للدعوة.

ومما يدل على زهده كثرة إنفاقه، وإسقاطه الدين عمن اقترض منه ولو كان كثيراً؛ فلا أحصي كثرة ما طرحه من الديون عن أناس اقترضوا منه.

وأذكر أنه قبل عشر سنوات أملى عليّ كتباً لبعض من أقرضهم، وقال: «أخشى أن يفاجئني الأجل، وأحب أن أخبركم أنني قد سأمحتكم، وأبرأتكم، ولم يبق لي عليكم شيء».

ولا أذكر أنه طالب أحداً له حق عليه.

وأذكر أنه قبل وفاته بثلاث سنوات أقرض شخصاً سبعمائة ألف ريال، ثم

أرسل إليه يخبره بأنه قد طرحه عنه، فقلت له؛ شفقة عليه، ورغبة في سماع ما عنده: أعظم الله أجر هذا الحساب -أعني حساب سماحة الشيخ الخاص- فالتفت إليّ وقال: يا ولدي! لا تهملك الدنيا، أنا بلغت من العمر سبعاً وثمانين، ولم أر من ربي إلا خيراً، الدنيا تذهب وتجيء، وفرقٌ بين من يتوفى وعنده مائة مليون، ومن يتوفى وليس لديه شيء؛ فالأول ثقيل الحساب والتبعة، والثاني بعكس ذلك كله».

وما ثنك كلام الناس عن كرم ومن يسدُّ طريق العارض الهطل
ومن صور زهده رحمته الله: زهده في المديح والإطراء؛ فكثيراً ما تقرأ عليه بعض الرسائل التي تفيض بالحب، والدعاء والثناء على سماحته؛ فإذا بدأ القارئ بقراءتها قال: اتركوا المقدمة، اقرؤوا المقصود؛ ماذا يريد صاحبها؟ أنا لا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام.

وكثيراً ما يأتي بعض الناس، ويكثر من الثناء على سماحته، ويذكر بعض أوصافه، وهو يتململ ويتغير وجهه، ويقول: الله المستعان، الله يتوب على الجميع، الله يستعملنا وإياكم فيما يرضيه.

ويأتي إلى سماحته بعض الناس ويقول: رأيت فيك رؤيا منامية صالحة -إن شاء الله- فيلزم سماحته الصمت، ولا يطلب من الرائي ذكرها، ولكن ذلك الشخص يبدأ بذكرها، وسماحة الشيخ لا تظهر عليه الرغبة في سماعها؛ ولكن أدبه يأبى عليه أن يُسكَّت المتكلم، فإذا انتهى قال: خير إن شاء الله، والمعول على عفو الله.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : « ولم أسمع منه يوماً من الأيام أنه سأل أحداً عن دخله الوظيفي ، أو عن ممتلكاته .

وفي يوم من الأيام جاءه أحد الناس المعروفين لديه ، وخاض في أمور الدنيا وقال : يا سماحة الشيخ ! نحن بخير ، وعندنا كذا وكذا ، وقد اشترت أرضاً بكذا وكذا ، والآن هي تساوي خمسة وأربعين مليون ريال .

فالتفت إليه سماحة الشيخ وقال : مادام أنها بلغت هذا المبلغ فبعها ، ماذا تنتظر ، واصرفها في وجوه الخير ، أو أعطنا إياها نصرافها لك . فسكت ذلك الرجل ، ولم يجر جواباً .

ولم أسمع أن سماحته ساهم مساهمة في أرض أو شراكة . وقد حاولت أن أقترح عليه بأن يضع شيئاً من ماله في مساهمة ، لعلها تُوفِّي بعض نفقاته ، ولكن لهيبته لم أجرؤ على ذلك ؛ لما أعلمه عنه من البعد عن الدنيا ، وزيتها ، وزخارفها .

رابعاً : ورع سماحة الشيخ : أما ورعه ، وتجنبه للمشتبهات فهو أمر يعرفه القاصي والداني .

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : « وما يحضرنني في ذلك الشأن ما يلي :

١ - أنه إذا تقدم إليه بعض الفقراء ، وشكى إليه حاجة ، أو قال : أريد السفر إلى مكة ، أو المدينة وليس معه شيء ، ولا يحمل إثباتاً من مشايخ معروفين ، أو من أناس يعرفهم سماحة الشيخ قال : أعطوه مائة أو مائتين أو ثلاث مائة . ويقول : إذا حددتُ المبلغ إلى ثلاثمائة ريال فإنني أعني حسابي الخاص .

أما حساب الصدقات والزكوات الواردة إليه من بعض المحسنين فلا يصرف منه شيئاً لأحد إلا إذا ثبتت لديه الحاجة بالبينة الشرعية.

٢- ومن ورعه رحمته أنه لا يقبل هدية من أحد؛ لأنه في عمل حكومي، وإذا قبلها كافأ عليها، وكان يقول: إذا كانت تساوي مائة فأعطوه مائتين، وإذا كانت تساوي مائتين فأعطوه أربعمائة، وأخبروه بالألا يقدم لنا شيئاً مرة أخرى.

٣- وإذا أعطي شيئاً على سبيل الهدية من طيب أو سواك، أو بشت أو نحو ذلك، وكان بجانبه أحد أعطاه إياه، وقال: هدية مني إليك.

٤- ولم يكن يستشرف للعطايا، والهدايا، فضلاً عن أن يطلبها.

وقد أخبرني الشيخ إبراهيم الحصين رحمته أن الملك فيصل رحمته جاء إلى المدينة، ولما أراد سماحة الشيخ الذهاب لزيارته، لم يكن لديه سيارة؛ إذ كانت سيارته تحتاج إلى بعض الإصلاح، فأخبروا سماحته بذلك، فقال: خذوا سيارة أجرة، فاستأجروا له، وذهبوا إلى الملك.

ولما عاد سماحة الشيخ إلى منزله أخبر الملك فيصل بأن الشيخ جاء بسيارة أجرة، فتكدر الملك كثيراً، وأرسل إلى سماحة الشيخ سيارة، وأخبره بتكدره.

ولما أخبر سماحة الشيخ بذلك قال: ردوها، لا حاجة لنا بها، سيارتنا تكفيها. يقول الشيخ إبراهيم: فقلت: يا سماحة الشيخ هذه من الملك، وأنت تستحقها، فأنت تقوم بعمل عظيم، ومصلحة عامة، والذي أرسلها ولي الأمر، وإذا رددتها ستكون في نفسه، والذي أراه أن تقبلها.

فقال سماحة الشيخ: دعني أصلي الاستخارة، فصلى، وبعد الصلاة قال: لا

بأس نأخذها، وكتب للملك ودعا له.

٥- وفي بعض الأحيان إذا أهدي إليه شيء وقبله؛ تطيباً لقلب المهدي، ولم يعرف ما يناسب المهدي من الهدايا-كتب إليه، وشكره، ودعا له؛ وطلب منه أن يكتبني بما وصل، وضمّن ذلك المحبة، والشكر، مما يكون أوقع في نفس المهدي من أي هدية أخرى».

«من أخلاق سماحة الشيخ»

أولاً: تواضع سماحة الشيخ: مع أن سماحة الشيخ إمامٌ من أئمة المسلمين، بل على رأس الأئمة من أهل العلم في زمانه، ومع أنه مفتي المسلمين، وشيخ الإسلام في عصره، ومع أنه صاحب المعالي، والسماحة، والفضيلة، ورئيس هيئة كبار العلماء، ورئيس اللجنة الدائمة للإفتاء، وكان رئيس الجامعة الإسلامية، وغير ذلك من الألقاب التي تُشرف به لا يشرف هو بها- إلا أنه كان آية في التواضع؛ فلا يكاد يعرف له مثل في زمانه في هذه الخصلة؛ فهو لا يرى لنفسه فضلاً، ولا يرغب في المديح، ولا في التمييز على الناس، وكان محباً للفقراء، والمساكين، حريصاً على مجالستهم، والأكل معهم.

ومن تواضعه ﷺ أنه لم يكن يحتقر الفائدة من أي أحد كائناً من كان.

والشواهد والقصص على تواضع سماحته لا يمكن حصرها، وقد مضى ما يؤكد ذلك ضمن الفقرات الماضية، وسيأتي شيء من ذلك في الفقرات الآتية.

ومما يذكر في هذا الصدد ما يلي:

- ١- في يوم من الأيام وقبل وفاته بثلاثين عاماً حضر إلى مسجد؛ ليلقي فيه محاضرة، فلما شعر بأن المسجد مفروش بالحصير، وأن سجادةً قد وضعت له خاصة طواها بنفسه، وطحها جانباً؛ لأنه لا يريد أن يتميز عن غيره.
- ٢- ومن صور تواضعه أنه لا يؤم الناس إذا صلى في مسجد فيه إمام راتب حتى مع إلحاح الإمام عليه.

٣- ومن ذلك أن السيارة الممنوحة له ولأمثاله من قبل الدولة إذا انتهت

مدتها، وأرادوا تغييرها بأحدث منها قال: وما علَّتها فيقال له: انتهت مدتها؛ فماذا تريدون بدلاً عنها يا سماحة الشيخ؟ فيسأل: وما أنواع السيارات؟ فيذكر له الكاديلاك، والمرسيدس، والفورد، والبيوك، وغيرها فيقول: والكابرس؟ فيقال له: لا يليق بمقامك، فيقول: لماذا؟ أليس القبر واحداً؟!

٤- طُلب من سماحة الشيخ تغيير أثاث بيته في مكة أكثر من مرة، وهو لا يستجيب، ويقول: لنا في هذا البيت ستة عشرة سنة، ولا ندرى ماذا بقي من أعمارنا!

ولما كثر عليه الإلحاح، وقيل له: إن أثاث المجلس غير صالح، وغير مناسب، وإن تغييره ضروري توقف كثيراً، وبعد إلحاح شديد أمر بتشكيل لجنة خماسية ذكَّرتهم، وقال: اجتمعوا، واكتبوا ما ترونه، وحصل ذلك، وتم إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، وذلك في آخر أيامه رحمته الله.

٥- وطلب من سماحته أيضاً تغيير بيته الذي في الطائف؛ لأنه صغير، ومجلسه صغير، ويحتاج إلى زيادة منازل للضيوف ولموظفي مكتب البيت فلم يوافق على ذلك، وقال: فيه بركة.

٦- وفي بيته الذي في الرياض دعت الحاجة إلى إيجاد بعض الغرف، فقبل له يا شيخ! البيوت المعروضة للبيع في هذا الحي كثيرة، ونرى أن يشتري بيتٌ يكون لبعض العمالة الموجودة لديكم، وللضيوف، فتغير وجه سماحته، وقال: نحن مسافرون!!

يعني السفر إلى الدار الآخرة.

٧- ومن صور تواضعه تواضعه للمرأة والمسكين والسائل.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله -: «وأذكر قبل ثلاثين سنة من وفاته أنني رأيته خارجاً من المسجد الجامع، فقيل له هناك امرأة تريد إجابة عن أسئلتها، فما كان منه إلا أن اتكأ على عصاه، وأصغى لها، وأجاب عن أسئلتها حتى انصرفت!».»

٨- ومن صور تواضعه أنه يرد السلام على كل أحد، ويبادر من لقيه بالسلام، حتى إن السائل الذي يقف أمام الناس يسألهم بعد الصلاة إذا سلم لم يرد عليه أحد في الغالب.

أما سماحة الشيخ فلم يكن يدع الرد عليه أبداً.

٩- ومن صور تواضعه أنه يتواضع لمن دونه في العلم، حتى ولو كان من طلابه؛ ومن الأمثلة على ذلك أنه في عام ١٣٨٦هـ جاء من المدينة إلى الرياض، وألقى محاضرة في دار العلم، ولما انتهى من المحاضرة؛ وجهت له الأسئلة، فالتفت سماحته إلى أحد طلبة العلم، وهو من تلاميذه وقال: تفضل، أجب عن الأسئلة، فامتنع ذلك الرجل.

١٠- ومن صور تواضعه أنه كان لا يرضى أن يخص بشيء دون غيره، والشواهد على هذه الصورة كثيرة جداً.

ومن ذلك أنه في عام ١٤٠٢هـ لما أصيب بمرض في القلب، وللازم الفراش في المستشفى التخصصي عدة أيام، وأجريت له الفحوصات اللازمة-أوصاه الأطباء بتناول بعض الأشياء، ومنعوه من بعضها ككثير الدهن، والملح، ثم وضعوا له

طعاماً خاصاً.

فلما علم بذلك أبى ، وقال : الذي يوضع لغيري يوضع لي ، وما يحصل إلا الخير!

وفي عرفة في حج عام ١٤١٨هـ كان جالساً في المصلى ، ومئات الناس حوله ، فجيء له بفاكهة مقطعة؛ لأن عاداته في المشاعر في الحج أنه لا يأكل في الغالب إلا الفاكهة ، والتمر ، واللبن.

فلما وضع أمامه قال : أكلُ الحاضرين وضع لهم مثل هذا ؟
قالوا : لا ، فقال : أبعده ، وغضب.

وحدث بعض مَنْ عاش معه في الدلم لما كان قاضياً فيها أنه يهدى إليه من بعض جيرانه لبن فيقول سماحته : إن كان كثيراً فقدموه للضيوف ، وإن كان قليلاً فلا أريد منه شيئاً.

١١- ومن صور تواضعه أنه كان يمشي الهوينى بعيداً عن التكبر ، والتمایل ، والزهو ، والأشر والبطر ، والغرور.
بل ترى الخشوع ، والخضوع ، والتواضع سمة لمشيته.

ومشيت مَشِيَّةَ خَاشِعٍ مُتَوَاضِعٍ لَللّهِ لَا يُزْهِى وَلَا يَتَكَبَّرُ

١٢- ومن صور تواضعه أنه لا يأنف من قول : لا أدري ، لا أعلم ، أتوقف؛ فكثيراً ما يقول ذلك حين يسأل وهو لا يعلم سواء كان ذلك في مجالسه الخاصة ، أو العامة ، أو في المحاضرات ، أو المساجد ، أو في الإذاعة.

وفي عام ١٤٠٢هـ كان يلقي درساً في الحرم ، فسئل : هل الأثنى مثل الذكر يخلق رأسها ، ويوزن ، ويُتصدق بوزنه ورقاً ؟

فأجاب رحمته الله بقوله: ما عندي علم أسألُ إخواني طلبة العلم، وأخبركم إن شاء الله.

ولا يُخصى ما يردُّ بمثل هذا، أو يقول: سنبحث في كلام أهل العلم، أو يكتب لمعالي الأمين العام لهيئة كبار العلماء؛ لبحث المسألة، أو يُعمد بعض طلبته، أو بعض الباحثين بذلك.

١٣- ومن صور تواضعه أنه لا يحتقر النصيحة، أو الفائدة من أي أحد.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : «وأذكر أنه في يوم من الأيام اتصل شاب صغير بسماحة الشيخ، وقال: يا سماحة الشيخ! الناس بأشد الحاجة إلى علماء يُفتونهم، وأقترح على سماحتكم أن تجعلوا في كل مدينة مفتياً؛ ليسهل الاتصال.

فقال له سماحة الشيخ: ما شاء الله، أصلحك الله، كم عمرك؟ فقال: ثلاثة عشر عاماً.

فقال لي سماحة الشيخ: هذا اقتراح طيب، يستحق الدراسة، اكتب إلى الأمين العام لهيئة كبار العلماء بهذا، فكتبتُ ما أملى به، ومما جاء في كتابه: أما بعد فقد اتصل بي بعض الناصحين، وقال: إنه يقترح وضع مفتين في كل بلد، ونرى عرضه على اللجنة الدائمة؛ لتبادل الرأي في الموضوع».

ثانياً: دعابة سماحة الشيخ ومزاحه: كان سماحة الشيخ رحمته الله حريصاً على ملاطفة جلاسه، وإدخال السرور عليهم.

وكان يداعبهم، ويمزحهم مزاحاً لا إسراف فيه ولا إسفاف.

لا يَكْفَهُرُ إِذَا انْحَاذَ الْوَقَارِبَهُ وَلَا تَطْيِيشُ نَوَاحِيهِ إِذَا مَزَحَا

ومما يذكر في هذا الباب ما يلي:

- ١- أنه ﷺ إذا أراد الوضوء من المغسلة ناول من بجانبه غترته أو مشلحه ثم قال مازحاً مداعباً: هذه يا فلان على سبيل الأمانة، لا تطمع بها.
- ٢- ومن ذلك أنه إذا قام من المكتبة متعباً من القراءة والمعاملات، ثم تناول العشاء - قال: سنعود إلى المكتبة مرة أخرى؛ لأننا ملأنا البنزين، وتزودنا بالوقود، أو يقول بعبارة: (عَبِينَا) بنزين، ويعني بذلك أنه نشط بعد تناول الطعام.
- ٣- وكان ﷺ مرهف الشعور؛ وبمجرد إحساسه أن أحداً ممن معه متضايق من أمر ما فإنه يلاطفه بما يشرح صدره، وينسيه همه؛ فربما قال لمن معه: ماذا عندك؟ ماذا ترغب؟ وربما قال له: مازحاً: ما تريد الزواج، وإذا أُحْضِرَ الطعام قال لبعض جلسائه: تغدوا معنا، أو تعشوا؛ الذي لا يخاف - يعني من أهله - يتفضل معنا.
- ٤- ومن هذا القبيل - أيضاً - أنه إذا سلم عليه أحد سأله عن اسمه، فإذا كان في الاسم غرابة أو معنى غريب أو حسن - داعب سماحته صاحب ذلك الاسم، فمن ذلك أن فضيلة الشيخ متعب الطيار إذا سلم على سماحة الشيخ قال له سماحته: من؟ فيقول متعب الطيار، فيقول: متعب من؟ فيقول: متعب أعداء الله، فيقول سماحته: نعم، نعم.
- ٥- وذات مرة جاءه مطلقاً فقال له: ما اسمك؟ قال: ذيب، قال: وما اسم زوجتك قال: ذيبة؛ فقال سماحته مداعباً: أسأل الله العافية! أنت ذيب، وهي

ذبية ، كيف يعيش بينكما أولاد؟

٦- وذات يوم كان أحد الإخوة يقرأ ، وفي أثناء قراءته تردد في كلمة ولم يفصح عنها ، أي لم يستطع أن يقرأها.

وكان ضمن الحاضرين في المجلس د. عبدالله بن محمد المُجَلِّي فقال سماحة الشيخ : أعطها ابن مُجَلِّي ؛ لعله يجليها.

٧- ومما يذكر في ذلك - أيضاً - أن سماحته كان كثيراً ما يمازح الشيخ عبدالرحمن بن حمد بن دايل ، والشيخ عبدالرحمن رحمته الله من قدامى كتاب سماحة الشيخ وممن له باع طويل في تحرير قضايا الطلاق ، وهو معروف بسرعة إنجاز الأعمال ، وضبطها ، وكان مع سماحة الشيخ في المدينة ، وهو المسؤول عن الأوراق التي ترد إلى بيت سماحته وروداً وصدوراً ، وكان يعمل مع سماحته جل أوقاته ، وهو محبٌ للخير ، وذو همة عالية ، وإتقان للعمل - كما مر ذكره - .
وكان يُعِدُّ الفتاوى على معاملات الطلاق ، باسم سماحة الشيخ ، ويندر أن يجد سماحته فيها نقصاً ، أو خطأً.

وهو لا يرافق سماحة الشيخ إذا سافر إلى مكة أو الطائف ، بل يمكث في الرياض يستقبل معاملات الطلاق التي ترد إلى مكتب الرياض ، ويعد عليها ، ثم يرسلها إلى سماحته في مكة أو الطائف .

وفي بعض الأحيان يرسل ثلاثين معاملة أو أربعين ، أو أكثر أو أقل ، وتوزع بين الموظفين لقراءتها؛ فإذا جاء وقت عرضها قال سماحة الشيخ : أبو حمد ضابط لعمله ، ثم قال : مماًزحاً ، ولو ، نختبر أبا حمد ، اقرؤا ماكتبه ، فإذا قرؤوه

وإذا هو في غاية الضبط والإتقان.

وكان الشيخ عبدالرحمن يتصل بسماحة الشيخ، أو يقابله، ويبدأ بسرد الأعمال، وقراءة القضايا بكل نشاط وهمة، فإذا رآه سماحة الشيخ هكذا قال: يا أبا حمدا! ألا تريد أن تتزوج؟ فيقول الشيخ عبدالرحمن: يا سماحة الشيخ أنا في وادٍ وأنت في وادٍ، أين أنا والزواج، فيقول سماحة الشيخ مداعباً: وسع صدرك، وسع صدرك.

ويقول الشيخ عبدالرحمن بن دايل: إذا أجريت اللازم على معاملة ما، ثم قرأتها على سماحته، وأعجبه ما قرىء عليه، قال: قالون، قالون، يعني: جيد؛ بالفارسية.

٨- ومن النماذج على دعابة سماحة الشيخ أنه كان قبل وفاته بعام واحد مدعواً عند الشيخ محمد الموسى، بمناسبة سكنه بيته الجديد، وكان المجلس مليئاً بالمشايخ وطلاب العلم، وعلى رأسهم سماحة الشيخ عبدالعزيز رحمته الله وصاحب الفضيلة الشيخ العلامة عبدالله بن جبرين، وصاحب الفضيلة الشيخ عبدالله الفتوخ، وصاحب الفضيلة الشيخ عبدالعزيز السدحان وجمع من المشايخ من الزلفي.

وكان سماحة الشيخ يعمر المجلس بالفوائد، والإجابة على الأسئلة، وحصل أن حديثاً طويلاً دار حول الرقية، وتلبس الجنى بالإنسي.

ومما دار في ذلك المجلس أن الشيخ عبدالعزيز السدحان ذكر أنه ورد في ترجمة أحمد بن نصر الخزاعي رحمته الله أنه رقى رجلاً فيه مس من الجن، فتكلمت على

لسانه جنية ، فقالت لأحمد بن نصر: يا شيخ لن أخرج من هذا الرجل حتى يدع القول بخلق القرآن.

فتبسم سماحته ﷺ وقال: ما شاء الله ، هذه جنية سنية ، هذه من أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: ذوقه المرفه ، وأدبه الجم: سماحة الشيخ ذو نفس شفاقة مرفهة ، وأدب جم رفيع ، وقد مر شيء من ذلك عند الحديث عن صفاته ، فهو ﷺ لا يجرح شعور أحد ، ولا يواجه الناس بما يكرهون ، كما أن أدبه لا يفارقه سواء في بيته مع أهله ، أو مع موظفيه ، أو مع زائريه ، أو مراجعيه ، أو مع من يتحدث معه عبر الهاتف ، وسواء كان ذلك في السفر أو الحضر ، أو حالة الصحة أو المرض وإليك طرفاً ونماذج من هذا القبيل :

١- من ذوقه ورهافة حسه أنه إذا شعر بضيق من يعمل معه حاول إيناسه ومباسطته - كما مر-.

٢- ما ذكره الشيخ محمد موسى قائلاً: «إذا دخل عليه أحد وهو على موعد قراءة مخصص لي ، أو للدكتور محمد الشويعر أو غيرنا فإن الشيخ يرغب في استقبال الآتي وإكرامه ، ولا يرغب في الوقت نفسه-أن يضيع الوقت المخصص لي أو لغيري ، لذا فإنني أراه يتحفظ لا يدري ماذا يصنع؛ لأنه يريد أن يشعرني بأن الوقت لي ، ولا يريد أن يؤخذ إلا بإذني أو إذن غيري ممن خصص له الوقت. مع أنه يأمر على الجميع ، ومع أن المعاملات والأوراق ، والكتب كلها داخلة ضمن عمله.

فإذا أذن صاحب الوقت ، أو قال للقادم: تفضل سرّاً سماحته بذلك أيما سرور؛ لأنه أرضى الطرفين» .

٣- ومن ذوقه ﷺ أنه يراعي مشاعر الآخرين؛ ويسعى سعيه لإرضائهم وتطيب قلوبهم.

ولا أدل على ذلك من الدعوات الكثيرة التي توجه إليه فيجيب أصحابها مع ما كان عنده من الأعمال العظيمة التي تحتاج إلى أوقات بل أعمار لكي تقضى .
وهذه السجية لا تفارق سماحته حتى في حال مرضه ، بل في آخر أيامه .

٤- ومن ذوقه ﷺ أنه كان يلاطف من يأتون لزيارته ، حتى في آخر أيامه؛ حيث يسألهم عن أحوالهم ، وعن أهليهم؛ ليدخل السرور عليهم بل كان يسأل الموظفين الذين معه عن أهليهم ، ويقول: لعلكم تتصلون بهم ، وتطمئنون عليهم؛ لأن الموظفين في الطائف ، وأهليهم في الرياض؛ فلم تكن هذه الأمور لتفوت على سماحته ﷺ .

حتى إنه لما كان في المستشفى في مرضه الأخير وقبل وفاته بأيام لم يكن يهمل أي رسالة تأتيه ، حتى إن أحد الناس كتب إلى سماحته رسالة أبان فيها عن عظيم محبته للشيخ ، ودعواته ودعوات المسلمين لسماحته .

فأمر سماحته بإعداد جواب مناسب ، ضمَّنه شكره ، ومحبته ، والدعاء له بالتوفيق .

٥- ومما يدل على ذوق سماحته المرهف أنه يتحمل الناس بألوانهم المختلفة ، وهيئاتهم المتنوعة ، وروائحهم التي لا تروق أحياناً ، حيث إن بعضهم يقترب

كثيراً من سماحته، بل ربما ضيق عليه النَّفس وسماحة الشيخ لا ينهره ولا يوبخه، بل قصارى ما يكون من سماحته أن يقول له: ابتعد قليلاً.

٦- ومن عجائب مراعاته لشعور الآخرين، وحرصه على عدم تكدير صفوهم أنه في آخر ليلة جلسها للناس لم يدخل على الناس من باب المجلس الذي اعتاد أن يدخل عليهم معه.

وإنما دخل من باب المجلس النافذ إلى المجلس الذي يعد فيه الطعام؛ ذلك أنه أتى من داخل منزله على العربة يقوده ابنه الشيخ أحمد؛ ولما وصل إلى باب المجلس ترجل من العربة ومشى؛ ليري الناس أنه بخير وعافية؛ ليفرحوا بذلك، ويطمئنوا على صحته.

ولهذا لما رآه الناس تهللت وجوههم، وفرحوا أيما فرح-كما سيأتي وصف ذلك عند الحديث عن آخر أيام الشيخ-.

٧- ومن ذوقه المرهف وأدبه الجم أنه لا يمد رجله وعنده أحد، حتى ولو كانوا من مرافقيه، مع أن الأطباء قد أوصوه بأن يجعل متكئاً يضع عليه رجله، بعد إصابته إثر سقوطه عليها عام ١٤١٤هـ.

٨- ومن ذوقه أنه إذا انتهى من غسل يديه بالصابونة الموجودة على المغسلة أراق عليها بعض الماء؛ ليزيل ما يطفو عليها من رغوّة؛ حتى إذا أراد غيره استعمالها وجدها نظيفة.

٩- ومن أدبه وذوقه أنه إذا شرب ماءً أعطى الذي عن يمينه ولو كان صغيراً، ولو لم يكن يعرفه.

١٠- وإذا أراد أن يناول شيئاً لأحدٍ ناوله بيمينه ، وإذا أراد أن يناول أحد الموظفين معه ورقة ، أو سماعة الهاتف أو أي شيء آخر ناوله إياه باليمين .
وإذا كان أحد عن شماله وشق عليه أن يمد له باليمين وضع اليمين على الشمال وناول ما معه .

١١- ومن أدبه أنه إذا دخل بيته بعد درس الفجر ، أو بعد أن يغادر مكتب البيت بعد استعراض المعاملات أنه يدخل بيته بسكينة ، ورفق ، وهدوء؛ لئلا يزعج نائماً .

وإذا وصل منزل الأسرة ، وحاول فتح الباب ووجده مغلقاً طرقه برفق ولين ، وربما جلس الدقائق وهو يحركه ، ويطرقة بسكينة ولطف .

١٢- وكان من أدبه أنه إذا مر بأحد ، وظن أنه نائم مشى بهدوء ورفق .
لكنه إذا مر بأحد ، أو سمع أحداً والصلاة قد دخل وقتها تغيرت طريقته؛ فتراه يرفع صوته ، ويقول: الصلاة الصلاة ، أما سمعتم الأذان ، توكلوا على الله .
١٣- ومن أدبه وذوقه أنك لا تسمع منه كلمة نابية ، أو غليظة ، أو مشتملة على سوء أدب .

لا مطلق هُجْر الحديث إذا احتبى فيهم ولا شرس السجية جاس

رابعاً: السخاء والجود وكرم الضيافة: لا يكاد يُعْلَم في زمان سماحة الشيخ أحد أسخى ، ولا أجود ، ولا أكرم من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ، وذلك في وجوه السخاء ، وصوره المتعددة؛ فسماحته كريم في خلقه ، جواد في صفحه وعفوه ، سخي بعلمه ، ووقته وراحته ، ونومه ، متلاف لماله في وجوه الخير

المتعددة؛ من بذل، وصدقات، وإقراض ينتهي غالباً بالمساحة. والذي بيده ليس له ولو سئل ما سئل؛ فربما سئل مالا فأعطاه، وربما أتته الهدية في المجلس فسأله أحد الحاضرين إياها فأعطها إياه، بل كثيراً ما يتندر من بجانبه بالهدية التي تقدم لسماحته، بل ربما سئل عباءته التي يلبسها فأعطها من سأله إياها.

والحديث عن كرمه وسخائه وجوده يبدأ ولا ينتهي، وحسب الحديث في الأسطر التالية أن يكون عن صورة من هذه الصور، ألا وهي كرم ضيافته، وعنايته البالغة بمن يقدمون ضيوفاً عليه؛ فأليك طرفاً ومعالم من هذا القبيل:

١- كان ﷺ محبوباً على حب الضيوف، والرغبة في استضافتهم منذ صغره. وقد ذكر الشيخ عبدالمحسن بن سعد الباز -أحد أقارب سماحة الشيخ، ويكبر سماحته بعشر سنوات - ذكر أن سماحة الشيخ، وهو يطلب العلم عند المشايخ في مقتبل عمره- كان إذا سلم عليه أحد دعاه إلى غدائه أو عشائه، ولا يحتقر ما يضعه للناس، ويجعل الله في طعامه خيراً كثيراً.

٢- كان يوصي بشراء أحسن ما في السوق من الفاكهة، والتمر، والخضار، وسائر الأطعمة التي تقدم لضيوفه.

٣- وكان يلح إلحاحاً شديداً إذا قدم عليه أحد أو سلم عليه، فكان يلح عليهم بأن يحلوا ضيوفاً عنده على الغداء، والعشاء، والمبيت، ولو طالت مدة إقامتهم.

ولا يكاد القادم إليه يتخلص منه إلا بعد لأي وجهد.

٤- وكان يُرَغَّبُ القادمين إليه بأن يتواصلوا معه في الزيارة، فيذكّرهم بفضل الزيارة، والمحبة في الله، ويسوق لهم الآثار الواردة في ذلك؛ مما يبعثهم إلى مزيد من الزيارة؛ لأن بعضهم لا يرغب في الإثقال على سماحة الشيخ وإضاعة وقته؛ فإذا سمع منه ذلك انبعث إلى مزيد من الزيارات.

٥- وكان يحرص أشد الحرص على المواعيد التي يضربها لضيوفه؛ فكان يعطي من يعملون معه خبراً بذلك، ويقول: سيقدم علينا اليوم فلان من الناس، أو فلان من أهل العلم، ويتقدم للمجيء قبل ضيفه؛ ليكون في استقباله.

٦- لا يتلذذ بالأكل وحده، بل لا يجد أنسه إلا بالأكل مع الضيوف والفقراء، ولهذا لا يكاد سماحته يتناول غداءه أو عشاءه إلا ومعه أناس على المائدة.

٧- وكان يلاطف ضيوفه، بمحاسن كلامه، ولطيف ترحيبه.

ومن كلماته المعتادة لضيوفه قوله: حياكم الله، حيا الله الجميع، من الألفة ترك الكلفة.

٨- وكان لا يقوم من المائدة حتى يسأل عن ضيوفه: هل قاموا؟ فإذا قيل له قاموا قام؛ كيلا يعجلهم بقيامه قبلهم، وإذا قام قال: كل براحتة، لا تستعجلوا.

٩- وكان لا يتبرم من كثرة الضيوف، ولا تضيق نفسه إذا فاجأه الزائرون وهو لم يحسب حسابهم، بل يرحب بهم، ويلاطفهم، ويقول: حياكم الله، وبياركُ اللهُ في الطعام الذي يقدم، ولو لم يؤخذ حساب القادمين، وربما أمر بأن يحضر زيادة في الطعام.

كريم إذا ضاق اللئام فإنه يضيق الفضاء الرحب في صدره الرحب

والقصص في هذا السياق لا تكاد تحصى.

١٠- وكان من عاداته أنه ينيب من يقوم على إكرام الضيوف، والقيام بشأنهم إذا كان لديه موعد محاضرة، أو مناسبة، أو وليمة.

وكان إذا جاء من مواعده سأل عن الضيوف وعن راحتهم، وعمّا قدم إليهم. وإذا لاحظ تقصيراً في حقهم تكدر وغضب.

١١- وكان دائماً يسأل: عسى ما نقص عليهم شيء، وإن قيل له: لا، فرح وتهلل، وحمد الله.

١٢- وإذا قدم الضيوف من بعيد، ثم استضافهم وأكرمهم، وأرادوا توديعه- ألح عليهم بأن يمكثوا، وأن يتناولوا وجبة أخرى، وأن يبيتوا عنده؛ فلا يخلصوا منه إلا بعد أن يتأكد بأنهم مسافرون أو مرتبطون.

بل إذا قالوا: إنهم مرتبطون، قال: ألا يمكن أن تتخلصوا من ارتباطكم؟ ألا تهاتفون صاحب الارتباط، وتعتذروا منه؟

١٣- وإذا كان مُجهداً، أو لم يكن له رغبة في الطعام-جلس مع ضيوفه؛ إيناساً لهم، وتطيبياً لنفوسهم؛ خصوصاً إذا رغبوا في ذلك، ولم يعذروه.

١٤- وكان يفرح بالقدام إليه ولو لم يعرفه من قبل، خصوصاً إذا قدم من بعيد، أو لمصلحة عامة.

١٥- وكان يرفع من شأن ضيوفه، ويعلي من منزلتهم، ولو لم يكونوا كباراً، ولو لم تكن لهم مكانة اجتماعية.

وأذكر أنه قبل سنتين من وفاته كان في الطائف، وزاره بعض الشباب من

الزلفي، وكانوا طلاباً في كلية الشريعة، ومن ضمنهم أخي عبدالله وبعضهم لم ير الشيخ قبل ذلك، وكان غاية ما يتمنون أن يروا سماحته في زيارتهم تلك. فلما دخلوا مجلسه بعد المغرب حياهم، وأدناهم، وألح عليهم بالعشاء، فقالوا: نحن لا نريد سوى رؤياك والسلام عليك.

فقال: لا بد من العشاء، فوافقوا.

وكان في مجلسه بعد المغرب يلتفت إليهم، ويأسطهم، ويسألهم عن المشايخ في الزلفي.

يقول الشيخ محمد موسى: «فلما صلينا العشاء دخلت مع سماحته في المختصر؛ لأقرأ عليه بعض الأوراق والمعاملات ريثما يتم إعداد العشاء. وكان الشباب الزائرون في المجلس ينتظرون.

فلما شرعت بالقراءة على سماحته رأيت منصرفاً عني، ثم قال: أبا موسى! فقلت: نعم، فقال: تركنا الضيوف، فقلت: عفا الله عنك، هؤلاء أبناؤك، وقد جلسوا معك بعد المغرب، وسيجلسون معك بعد قليل على العشاء؛ فماذا يريدون غير ذلك؟ ائذن لي بإكمال ما شرعنا بقراءته.

ثم شرعت بالقراءة، فقال: أبا موسى، ضيوفنا؟ فقلت: لا بأس عليهم، فقال: في ذمتك يا أبا موسى؟ فقلت: لن يلحق ذمتي شيء إن شاء الله، فقال: لندع القراءة الآن، هيا إلى المجلس، فتركنا القراءة، وجلس معهم يأسطهم، ويجيب عن أسئلتهم.

فلما تناولوا طعام العشاء مع سماحته استأذنوا فقال: ما نسمح لكم، لا بد أن

تبيتوا عندنا، فقالوا: عندنا مكان سنبيت فيه، فألح عليهم، وقال: نحجز لكم في الفندق، إن أردتم؛ لأنه ﷺ ظن أنهم مستحيون، فقالوا: جزاك الله خير الجزاء، وغفر لك، وجعلك ذخراً للإسلام والمسلمين، لقد أعطيتنا من وقتك ومجلسك فوق ما نستحق، وفوق ما تصورنا؛ فودعهم، وحملهم السلام لمن أمامهم».

١٦- ومن لطائف كرمه أنه إذا قدم عليه قادم وهو في السيارة أخذ يتحفز، ويتحرك، ويدعو القادم للركوب معه، ولو كان المكان ضيقاً، لكن سماحته يريه أنه محب لصحبته.

وربما أمر أحد السائقين التابعين للرئاسة ليوصل من يقدم عليه، أو أن يأخذ سيارة للأجرة؛ لتتقل من يأتون إليه إذا كانوا كثيرين.

١٧- وكان يراعي مشاعر ضيوفه، ولا يرضى أن يهانوا بحضرته.

١٨- كان منزل أسرة سماحة الشيخ في الرياض لا يتسع لكثرة الضيوف القادمين إليه، وكثيراً ما يأتيه أناس بأسرهم إما من المدينة أو غيرها؛ إما طلباً لشفاعة أو مساعدة، أو نحو ذلك، فكانوا يسكنون عند سماحة الشيخ في المنزل. وإذا خرج سماحة الشيخ في الصباح أخذ معه أوراقهم وطلباتهم، ويقول: اقرؤا ما فيها.

١٩- لدى سماحة الشيخ مكان مهيئاً للضيوف، وهذا المكان في بدروم بيت الرياض.

وربما اجتمع فيه عشرة أشخاص، أو خمسة عشر، وربما جلسوا أياماً، وربما

شهوراً!!

وفي يوم من الأيام قيل لسماحة الشيخ: إن فلاناً ساكنٌ عندنا منذ وقت طويل، فقال: لو استغنى عنكم ما جلس عندكم!

٢٠- هناك عدد من الناس يرتادون منزل سماحته وقت الغداء بصورة مستمرة.

٢١- وكان يجود لمحبيه وزائريه بما يستطيع ولو قلّ.

وأذكر أنني ذهبت للعمرة بصحبة الوالدة والأهل وبعض الإخوة؛ فمررنا بالطائف - وكان موجوداً به في ذلك الوقت - فعرجنا على منزل سماحة الشيخ قبيل المغرب، فخرج يتهدى مع من يقوده إلى المسجد، فقابلته، وسلمت عليه، فألح بالعشاء، والمبيت، والإفطار غداً، والغداء، وقال: بعد ذلك لكم أن تذهبوا؛ فصرت أعتذر منه، وهو يلح؛ وقال: عندنا مكان خاص بالأهل؛ فقلت له: سنذهب إلى مكة، وبعد العمرة والاستقرار في مكة نَقْدُم عليك مرة أخرى.

فقال: يعني ما فيه فائدة؟ فقلت: الأمر كما ترون، فأخرج من جيبه مسواكاً جديداً وقال: اللهم اهدنا فيمن هديت إذا خذ هذا المسواك؛ فأخذته، والسرور يملأ قلبي بتلك النفس الرضية، وتلك الهدية التي تعدل في معناها كل هدية.

خامساً: ثباته وشجاعته: سماحة الشيخ معروف بالثبات وقوة القلب، والشجاعة الأدبية؛ فهو معروف بقول الحق، والصدق، ولا يُعْلَم أنه اهتز، أو توقف عن إنكار منكر؛ لكونه صدر من فلان أو فلان.

بل ينكر المنكر على أي أحد، ولكن بالأساليب الحكيمة، الناجعة، الناجحة، الموافقة لما جاء في الشرع المطهر.

ثم إنه إذا تبين له الحق لم يحد عنه قيد أنملة ، وإذا تبين له من خلال النظر في الأدلة خلاف ما يرى رجع عما كان عليه دونما تخرج.

وسماحته معروف برباطة الجأش ، وقوة الشكيمة؛ فقد تمر به فتن عظيمة ، ومصائب عامة وخاصة؛ فلا يظهر عليه جزع ، أو خور ، أو ذعر ، وإنما يقابلها بالثبات ، والصبر ، والرضا ، والاحتساب ، والاستعانة بالله ، فهذا دأبه في سرائه وضرائه؛ حيث يلزم الاعتدال ، واستواء الطرائق.

وربما وقع عليه حادث في السيارة التي تُقَلُّه ، فتهتز السيارة ، ويحصل بها بعض الضرر وهو ثابت لا يزيد على الدعاء ، وحمْدِ الله على السلامة ، وقول : ماذا حصل ، وبعد ذلك يستمر في الاستماع لما يُقرأ عليه.

ومرة دخل في مجلس داخل بيته لأداء السنة الراتبه للمغرب ، ولما كَبَّر ودخل في الصلاة جاء أحد المرافقين لسماحته ، وفتح النور فانفجرت إحدى الثريات وصدر منها صوت شديد ، وتطاير منها شرر ، فلم يتغير ، ولم يتحرك ، وبعد فراغه من الصلاة ، وإتيانه ببعض الأدعية والأذكار قال : ما هذا الصوت؟ ولم يزد على ذلك.

وفي أزمة الخليج أيام كانت الصواريخ العراقية تصل إلى الرياض أحياناً كان الناس يصابون بالرعب إذا سمعوا أصوات الصفارة المنذرة.

أما سماحته فهو على حاله ، ودروسه على حالها ، وثقته بالله لا تتضعع.

بل إن كثيراً من الطلاب يقولون : إننا نشعر بالأمان والطمأنينة إذا حضرنا

درسه.

ولما اشتعل الحريق الكبير في منى ، عام ١٤١٧ هـ أصاب الناس ما أصابهم ،
من الذعر والخوف .

أما سماحة الشيخ رحمته الله فشرع بالحوقلة ، والدعاء ، ولما صلى الظهر ، قنت ،
وسأل الله أن يكفي المسلمين شر هذا الحريق .

فهذه هي حاله في شتى أطواره ، يصدق عليه قول القائل :

قد عشت في الدهر أطواراً على طُرُقٍ شتى فصادفت منه اللينَ والبشعا
كُلًّا بلوت فلا النعماء تُبَطِّرُنِي ولا تَخَشَعْتُ من لأوائها جزعا
لا يمالأ الهول قلبي قبل وقعته ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعاً

ومن ثباته وشجاعته ورباطة جأشه أنه يتكلم في المحافل وأمام الناس كبارهم
وصغارهم فلا تقيده حبسة ، ولا يهوله عظمة من أمامه ، بل يتكلم بكل
طمأنينة ، وراحة ، وسكينة .

ومن شجاعته وقوته في الحق أنه ينكر المنكر ، ويبين الحق ، ويرد على من
أخطأ كائناً من كان .

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، وهذا الأمر معروف عن سماحة الشيخ في
مقتبل عمره ، وبعد أن طعن في السن .

ومن الأمثلة على ذلك أنه لما نشرت صحيفة الجيش السورية كلاماً كفرياً ،
يتضمن إنكار وجود الله - سبحانه وتعالى - كتب سماحة الشيخ للرئيس السوري
آنذاك ، وهو نور الدين الأتاسي ، وبين له الحكم في ذلك ، وأن الواجب التوبة ،
وإعلانها في الصحف .

ومن ذلك أنه لما نشرت بعض الصحف الخارجية أن بعض الرؤساء طعن في القرآن، وذكر أنه متناقض، وتكلم في شخص الرسول ﷺ كتب إليه سماحة الشيخ، وبين له فداحة ما قال، وأوضح له أن ذلك كفر وردة، وأن الواجب عليه إعلان التوبة في الصحف التي نشرت كلامه.

ولما لم ينشر ذلك الشخص ما أشار به سماحة الشيخ، ولم يعلن توبته ورجوعه - كتب سماحته مقالاً مطولاً بين فيه كفر ذلك الشخص، وردته، ونشرت ذلك بعض الصحف.

سادساً: العدل في الأحكام: لقد عُرف عن سماحة الشيخ أنه كان رمزاً ومثالاً للعدل، والإنصاف؛ فكثيراً ما تكون كلمته هي الفصل بين الأطراف المتنازعة، في كثير من الشؤون.

والناس على اختلاف طبقاتهم يرضون بحكمه؛ لعلمهم بتجرده وتقواه. ومن مظاهر العدل عنده أنه إذا قرئ عليه كتاب، أو سمع كلاماً لأحد من الناس، أو سمع عن أي أحد شيئاً سمعه وكأنه خالي الذهن عن معرفة ذلك القائل أو الكاتب؛ فحكم عليه بما يستحق ثناءً، أو نقداً، أو غير ذلك؛ فلا تأخذه معرفة الإنسان وقربه من سماحته إلى مجاملته، والتغاضي عن أغلاطه، ولا يأخذه الجهل به، أو مخالفته أو بعده، أو كثرة كلام الناس فيه - إلى رد ما عنده من صواب.

بل يقبل الحق، ويثني عليه ولو كان من أبعد الأبعدين. وكثيراً ما يُقرأ عليه في كتب لأناس قريين إليه، بل ربما كانوا من خاصة محبيه،

ومع ذلك ربما كتب على الكتاب عدداً كثيراً من الملحوظات والاستدراكات. والعكس من ذلك؛ حيث يُقرأ عليه بعض الأحيان في كتب يطلب قراءتها لأناس مخالفين، فإذا قرأها تجرد من كل هوى، وقَبِلَ ما فيها من حق، بل ربما أثنى على بعض المواضع فيها، وإذا رأى ملحوظة أشار إليها، ونقل الدليل على خطئها، أو ساق ما يراه، أو أبدى الوجه الأولي في المسألة التي تدور حولها الملحوظة.

بل ربما ردَّ عليه أحد من الناس، أو ناقشه في مسأله ما - فلا تراه يغضب لذلك بل يستمع لمن يرد عليه بكل هدوء وارتياح، وربما رجع عن قوله إذا رأى وجهة الرد، وربما قال: نَتَّهَمُ رأينا، نراجع الموضوع، أو المسألة مرة أخرى. وربما ناقشه بعض الناس بصلف، وجهل، وغرور، وسماحة الشيخ لا تفارقه سكينته، بل يتلطف بمن يناقشه، ويأخذه بالتي هي أرفق.

ومن عدله وتجرده أنه إذا قرىء عليه لعالم أو كاتب ما، وأحس من القارىء تدمراً، أو سمع منه كلمة فيها فضاضة أو غلظة تقال في حق المقروء له - أظهر سماحته احترام ذلك المقروء له، وأثنى عليه بما هو أهله، وقال: فيه خير كثير، وليس معصوماً، ولسنا معصومين، وكلنا ذوو خطأ، وهذه صفات البشر.

ومن عدله وإنصافه أنه لا يثربُّ على من قال بقول يخالف ما يراه؛ بل يتسع صدره لهذا الخلاف، ويلتمس العذر لمن خالف، ولا يُلزم غيره بأن يأخذ بما يراه، ولا يكلف نفسه عناء الرد على من يخالفه في مسألة أو قول له وجهته، خصوصاً إذا كان القائل بذلك عالم له مكانته.

سابعاً: حلم سماحة الشيخ وسكيتته: أما حلمه وسكيتته؛ فلا يكاد يصدق بهما إلا من رأى ذلك بأم عينه؛ لأنك إذا سمعت عنه ذلك ربما تظن أنه من نسج الخيال، وما هو من نسج الخيال، وإنما هو جبلةٌ جبِلَ عليها فريدٌ دهره، ونسجٌ وَحْدَه.

لأن حلمك حلمٌ لا تكلفُهُ ليس التَّكْحُلُ في العينين كالكَحْلِ

والحلم والسكينة يلازمانه في شتى أطواره، يستوى بذلك حاله في السفر والحضر، وفي الصحة والمرض، وفي الزحام والوحدة، ومع القريب والبعيد. وقد مر بك، وسيمر شيء من ذلك في ثنايا هذه السيرة الغراء؛ فهو يحلم على من يجهل عليه، ويحلم على من يرفع الصوت بحضرتة، ويحلم على من يسيء فهمه، ويحلم على من يرد عليه بالباطل، والقصاص في هذا السياق كثيرة جداً. ومما يحضرني في ذلك أنه قبل سنتين من وفاة سماحته رحمته الله كان في الطائف، وفي يوم من الأيام جاء سماحته من الدوام قريباً من الساعة الثالثة إلا ربعاً، ولا يخفى عليك أنه قد قام في آخر الليل للتهجد، وأنه يجلس للدرس حتى الثامنة صباحاً، ثم يذهب للدوام ويقوم بما يقوم به من الأعمال العظام، فلما قدم من الدوام في ذلك اليوم دخل مجلسه، فحيا الجموع التي كانت تأتي كالعادة إليه، وبدأت الأسئلة تترى، والهاتف يستأنف رنينه.

وفي هذه الأثناء دخل على سماحته رجل نائر، ومعه أوراق يطلب فيها شفاة الشيخ؛ ليحصل على مال؛ ليتزوج، فشرع الرجل يتكلم بصوت مرتفع أزعج الحاضرين في المجلس، فوجهه سماحة الشيخ بما يلزم، وقال: اذهب إلى

فلان في بلدكم الفلاني ، واطلب منه أن يكتب لكم تزكية ، ويقوم باللازم ، ثم يرفعه إلينا ، ونحن نكمل اللازم ، ونرفع إلى أحد المحسنين في شأنك .
فقال الرجل : يا شيخ ارفعها إلى المسؤول الفلاني - يعني أحد المسؤولين الكبار - فقال سماحة الشيخ : ما يكون إلا خير ، فرفع الرجل صوته ، وأخذ يكرر : لا بد أن ترفعها إلى فلان ، وما زال يردد ، وما زال الشيخ يلاطفه ، ويرفق به ، ويعده بالخير ، حتى إن الحاضرين تكدروا ، وبدا الغضب من على وجوههم ، بل إن بعضهم همَّ بإخراج الرجل ، ولكنهم تأدبوا بحضرة الشيخ ، ولم يرغبوا بالتقدم بين يديه .

فقال الرجل : يا شيخ عمري يزيد على الخمسين ، وما عندي زوجة ، وما بقي من عمري إلا القليل ، فتبسم سماحة الشيخ ، وقال : يا ولدي - إن شاء الله - ستزوج ، ويزيد عمرك - إن شاء الله - على التسعين ، وسنعمل ما نستطيع في تلبية طلبك .

فما كان من ذلك الرجل الثائر المستوفز إلا أن تَبَلَّجت أساريره ، وأقبل على سماحة الشيخ ، وأخذ برأسه يُقبِّله ، ويدعوله .

فلما همَّ بالإنصراف ودع الشيخ ، فقال له سماحته : لا نسمح لك ؛ غداؤك معنا ، فقال : يا شيخ أنا على موعد ، فقال له الشيخ : هذا الهاتف اعتذر ، فما زال يحاول التخلص ، وما زال سماحة الشيخ يلح عليه بتناول الغداء ، ولم يقبل سماحته الاعتذار إلا بعد لأبي وجهه .

حينئذٍ تعجب الحاضرون من تحمل الشيخ ، وصبرت ترى الدهشة بادية على وجوههم ، فكأنه أعطاهم درساً عملياً في فضل الحلم ، وحميد عاقبته .

ثامناً: لزوم الشورى: فمع أن سماحة الشيخ من أعقل الرجال، وأحزمهم، وأكثرهم روية، وأناة، وحكمة، وتجربة، وحنكة إلا أنه كان كثير المشاورة، كثير الأخذ بمبدأ الشورى، سواء في أموره الخاصة، أو في الأمور العامة منطلقاً بذلك من قوله-تعالى- ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩ وقوله- ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الشورى: ٣٨، ومقتدياً بالنبي ﷺ حيث كان كثير المشاورة لأصحابه، حتى إن سماحة الشيخ يستشير في أموره الخاصة به كإجراء العملية التي قررت له أكثر من مرة، وكموضوع سفره للخارج للعلاج، وغير ذلك من الأمور.

وكان ﷺ لا يحقر الرأي من أي أحد كائناً من كان، بل كان يقبله، وربما تبنّاه إذا رأى وجاهته، ولو كان من صغير، أو ممن ليس له شأن. وإذا كان له رأي في مسألة أو موضوع، ثم نوقش فيها، وتبين له وجه الصواب أخذ به ولو كان مخالفاً لما رآه سالفاً.

« من لطائف سيرة سماحة الشيخ »

في سيرة سماحة الشيخ رحمته الله لطائف كثيرة تتجلى فيها عظمته الحقه ومن ذلك ما يلي :

أولاً : محافظته على الوقت : للوقت عند سماحة الشيخ منزلة كبرى؛ فهو يدرك أهميته، ويسعى سعيه لاغتنامه بأقصى ما يمكن؛ فلا يكاد يفوت عليه وقت مهما قل أو قصر إلا اغتنمه فيما يرضي الله وينفع الناس؛ فوقته ما بين قراءة في كتاب، أو إملاء لشفاعة، أو سماع لشكوى، أو حل لمعضلة، أو إجابة لسائل، أو مهاتفة لمستفت، أو إلقاء دروس، أو محاضرة، أو تعليق على كلمة أو مشاركة في ندوة، أو بإلطاف للضيوف، أو بلهج بذكر الله. ومن مظاهر عنايته بالوقت ما يلي :

١- دقته في المواعيد : فمن ذلك على سبيل المثال أنه إذا دعي لمناسبة ما- كان من أول الحاضرين، وإذا كان هناك موعد لاجتماع معين في وقت محدد كان أول من يأتي، وإذا كان هناك انعقاد مجلس هيئة كبار العلماء، أو الرابطة، أو اللجنة الدائمة كان أول القادمين، بل كان يأتي قبل الموعد المحدد، فإذا كان الاجتماع يبدأ في الساعة التاسعة على سبيل المثال حضر في الساعة الثامنة والنصف، أو الثامنة وخمس وأربعين دقيقة. ربما أتى في بعض المناسبات التي يدعى إليها، ومكث ساعة ونصف الساعة ريثما يكتمل الحاضرون.

٢- **ضبطه العجيب للارتباطات:** فسماعته لا يكاد ينسى موعداً خصصه لأحد سواء لمن يأتون إليه، أو من يأتي إليهم، وأحياناً يسأل من معه هل عندنا موعد: فيقولون: لا، فيقول: بلى، تأكدوا، فإذا رجعوا إلى سجل المواعيد وجدوه كما قال سماعته.

٣- **معرفة بالوقت:** فهو ملم بالأوقات، وبأي نجم نحن، ومتى يخرج النجم الفلاني، ومتى يدخل.

كما أنه ضابط للوقت مع أنه لم يكن يحمل ساعة؛ فإذا تأخر المؤذن عن الأذان دقيقة أو أكثر بقليل، قال: ما له لم يؤذن؟ ألم يحن الوقت؟ وإذا سأل من معه عن الساعة وقالوا: الساعة كذا بالتوقيت الزوالي قال: توافق كذا بالغروبي.

٤- **تنظيم الوقت:** فنظامه اليومي طيلة العام يكاد يكون معروفاً عند جميع مرتاديه وعارفيه، فنظام خروجه من الدرس بعد الفجر معروف، ونظام دخوله منزله معروف، ونظام خروجه للدوام ومجيئه منه معروف، ونظام جلوسه للناس يوم الخميس والجمعة، وبعد المغرب ونحو ذلك معروف، سواء كان في الحج، أو في الطائف، أو الرياض، أو المدينة.

كما أن عمله في كل وقت معروف؛ حيث يخصص هذا الوقت لذلك العمل، وذلك الوقت لعمل آخر.

٥- **لا يحتقر اغتنام الجزء اليسير من الوقت:** ولهذا تقرأ عليه المعاملات، والكتب، وتوجه إليه العشرات من الأسئلة وهو على الطعام، وهو في طريقه إلى

الدوام، وفي مجيئه منه، ويقراً عليه ويفتي، وهو يغسل يديه بعد انتهائه من الطعام، أو حين يكون في طريقه إلى المسجد، أو مجيئه منه، أو في طريقه لدخول منزله بعد أن يفارق مجلسه.

حتى إنه يقراً عليه إذا نزل من سيارته إلى مكتبه؛ فإنه يقضي كثيراً من الحوائج في ذلك الوقت مع أن المسافة قصيرة.

ولما أراد بعض المسؤولين في الرئاسة العامة للبحوث العملية والإفتاء والدعوة والإرشاد أن يفتح باباً عند موقف سيارة الشيخ بحيث يختصر له الطريق إلى مقر عمله -رفض سماحته ذلك الرأي لما استأذنوه، وقال: إن هذه المسافة التي بين السيارة والمكتب أقضي فيها حاجات للناس، فإذا اختصر الطريق ذهبت هذه المصلحة، بل في بعض الأحيان تُقرأ عليه المعاملات أو الكتب وهو مضطجع على فراشه.

وأكثر معاملات الطلاق تقرأ عليه عن طريق الهاتف.

٦- لا يعرف الإجازات: فسماحته ﷺ لم يأخذ إجازة طيلة فترة عمله التي تزيد على ستين عاماً!

بل إن عمله في يوم الخميس والجمعة والإجازات الرسمية ربما زاد على عمله في الدوام الرسمي.

٧- لا يعرف النزهة والرحلات البرية: فلم يكن من أهل التنزه، أو كثرة الرحلات أو السفر للمتعة والاستجمام خصوصاً في مراحل عمره الأخيرة، بل كان وقته عامراً بالجد، والسعي في مصالح المسلمين.

يقول الشيخ محمد موسى: «وأذكر أن أحد المسؤولين الكبار عرض على سماحته الخروج للنزهة في وقت الربيع، فقال سماحة الشيخ: أنا لا أرغب الخروج، وليس من عادتي.

فقال له المسؤول: النفس تحتاج إلى الراحة، وتغيير الجو، وشم الهواء. فقال سماحة الشيخ - مازحاً - : الذي يرغب تغيير الجو، وشم الهواء النظيف يخرج إلى السطح ويكفيه ذلك».

٨- ملء المجالس بالمفيد النافع: فإذا دخل مجلساً من المجالس، أو دعي إلى مناسبة ما - ملأ المجلس بالمفيد النافع، ولم يدع الوقت يمضي بلا فائدة، أو يمضي بالقييل والقال، فضلاً عن الغيبة وما شاكلها.

ومن ذلك أنه كان يطلب من بعض الحاضرين قراءة بعض الآيات، ثم يشرع سماحته في تفسيرها، ثم يفتح المجال للأسئلة.

٩- بركة الوقت: فالبركة في وقت سماحة الشيخ ظاهرة؛ حيث ينجز الأعمال العظيمة في الأوقات اليسيرة القليلة، فهو يُشرف على كثير من المشروعات الكبيرة، ويدير كثيراً من الأعمال المختلفة المتفرقة بأيسر كلفة، وأخف مؤونة، وأقل وقت.

ولا تبالغ إذا قُلت: إنه يوجه التوجيهات الكثيرة التي يترتب عليها أعمال عظيمة، وأمواًل ضخمة بدقائق معدودة، بل ربما لا تتجاوز الدقيقة الواحدة.

يقول الشيخ محمد موسى: «وقد حسبت له بعد المغرب في يوم من الأيام ستين إجابة لستين سؤالاً، كل ذلك في جلسة بعد المغرب، مع أنه لم يكن متفرغاً

للإجابة وحدها ، بل عن يمينه وشماله اثنان من الكتاب يتعاقبان القراءة عليه ، والناس يتوالون للسلام عليه ، والهاتف لا يقف رنينه إلى غير ذلك مما مر ذكره في وصف مجلسه» .

١٠- لا يستهين بإنجاز أي عمل ولو قل : فربما قضى وقته بأعمال عظيمة يترتب عليها مصالح كبيرة للأمة بعامه ، كاجتماعات الهيئة ، واللجنة ، والرابطة ، وغيرها.

وربما لم يكن عنده أعمال كبيرة ، فيقضي وقته في رد على الهاتف ، أو مسامرة لضيف ، أو إجابة لأسئلة امرأة ، أو أحد من العوام ، بل للرد على بعض الأسئلة التي ترد من بعض الشباب أو الفتيات حول بعض المسابقات الثقافية ، فيرد عليها وهو منشرح الصدر؛ فهو لصغار الأمور وكبارها ، ويعنيه كثيراً ألا يضيع وقته إلا في فائدة أو مصلحة ولو قلّت.

١١- اغتنام الوقت في حال المرض : فسماحة الشيخ رحمته الله لا يُضيع الوقت حتى في حال المرض ، فربما اشتد عليه المرض ، ونقل إلى المستشفى ، وبمجرد دخوله المستشفى ، أو رقوده على سريريه ، أو شعوره بأدنى تحسن في صحته يبدأ بطلب الكتب أو المعاملات ، أو إجابة عن الأسئلة عبر الهاتف ، أو أن يلقي الكلمات على منسوبي المستشفى ، وهكذا.

وسترى عجباً من ذلك عند الحديث عن حاله في المرض.

١٢- اغتنام الوقت في المواقف الحرجة : فحتى هذه المواقف يحرص سماحته رحمته الله على اغتنامها ، وملئها بالنافع.

يقول الشيخ محمد موسى: «وأذكر أن صاحب السمو الملكي الأمير نايف ابن عبدالعزيز وزير الداخلية ذكر سماحة الشيخ بموقف حصل من سماحته حين توفي جلالة الملك عبدالعزيز رحمته الله يقول الأمير نايف - حفظه الله - مخاطباً سماحة الشيخ قبل وفاة سماحته بستين تقريباً: حين توفي جلالة الملك عبدالعزيز رحمته الله وهو في الطائف، وبلغنا الخبر ونحن في الرياض - خرج الأمراء، والعلماء إلى المطار؛ لاستقبال جثمانه.

ولما تأخرت الطائرة استأذن سماحتكم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمته الله في اغتنام الوقت بقراءة شيء من القرآن الكريم، بدلاً من السكوت الذي خيم على ذلك المجلس، فأذن الشيخ محمد بذلك».

١٣- اغتنام الوقت في حال السفر: فبمجرد ركوبه السيارة وذكره لدعاء السفر، يلتفت إلى من بجانبه من الكتاب، ويقول له: ما معك؟ فيبدأ بسماع أخبار الصحف، أو قراءة بعض الكتب، أو عرض بعض القضايا والمعاملات. وهكذا حاله وهو ينتظر موعد إقلاع الطائرة، وبعد أن تقلع حيث يكون معه كاتب، أو كاتبان أو أكثر، فيتعاقبون القراءة عليه إلى حين وصول الطائرة إلى مكان هبوطها في الرياض، أو الطائف، أو غيرهما.

يقول الشيخ محمد موسى: «ومما يحضرنى من القصص في هذا القبيل ما ذكره الشيخ عبدالرحمن بن دايل - وهو من قدامى كتاب سماحة الشيخ وعمره قريب من عمر سماحة الشيخ، فهو من مواليد ١٣٣٢هـ تقريباً، وقد عاش مع سماحته ما يقارب أربعين سنة - يقول رحمته الله: كنا في المدينة إبان عمل سماحته في

الجامعة الإسلامية، وذات يوم سافر سماحته إلى قرية بدر التي تقع على الطريق بين جده والمدينة على الطريق القديم؛ حيث ذهب لمهمة دعوة يلقي خلالها محاضرة وكنت أنا والشيخ إبراهيم بن عبدالرحمن الحصين رحمهم الله معه في السيارة؛ فلما بدأ سيرنا، ودعا سماحته بدعاء السفر التفت رحمهم الله وقال: توكلوا على الله، يعني ابدؤا بقراءة المعاملات، فقلنا: يا شيخ - غفر الله لك - نحن دائماً نقرأ، ولا نتمكن من الخروج خارج المدينة، وهذه هي فرصتنا؛ دعنا نستمتع بالرحلة، وننظر إلى الجبال والأودية، ونتفكر في مخلوقات الله.

فضحك سماحته وقال: اللهم اهدنا فيمن هديت، اللهم اهدنا فيمن هديت؛ ليقراً الشيخ إبراهيم، وأنت تفكر في مخلوقات الله كما تقول، وبعد أن ينتهي الشيخ إبراهيم، أمني عليك، وينظر الشيخ إبراهيم ويتفكر وقت الإملاء، وهكذا...». ويقول الشيخ عبدالرحمن بن دايل: «أنتم ما أدركتم نشاط سماحته؛ إذ كان في المدينة لا ينام بعد العشاء إلا متأخراً، وكان لا ينام بعد الفجر، ولا الظهر، ولا العصر».

ثانياً: ذاكرة سماحة الشيخ: فمن أعجب الصفات التي تميز بها سماحة الشيخ قوة الذاكرة؛ فذاكرته العجيبة تستوعب ما لا يحصى من المعلومات، والمعرفة بالأشخاص، والتذكر للتواريخ، والأحداث.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : «وقد عرفت سماحته منذ أربعين سنة، وعشت معه عن قرب ستة عشر عاماً ولم ألحظ عليه نقصاً في فكره، ولا في حافظته».

بل لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن عزمته وهمته، وقوة حافظته تزداد قوة ونشاطاً

كل عام؛ فكلما تقدم به السن زكت قريحته، وقويت ذاكرته. وكثيراً ما يمر بنا ما يدل على ذلك؛ فأحياناً يذكر لنا بعض أخباره في صباه، وأحياناً يُدعى سماحته لغداء أو عشاء، أو مناسبة افتتاح، أو حضور وليمة زواج، أو محاضرة، أو ندوة، أو نحو ذلك، ونحن نسجل مواعيد سماحته بعد أن يعطي أهلها الموافقة، فإذا قرب الموعد سألنا سماحته هل عندنا موعد كذا في مكان كذا وكذا؟

فنقول: أحياناً: لا، أو نقول: لا ندري، فيقول سماحته: بلى، تأكدوا.

فإذا رجعنا إلى سجل المواعيد وجدناه كما قال.

وكذلك موقفه في الدرس لا يكاد ينساه، وأحياناً يسأل عن رقم الصفحة إذا انتهى الدرس أو القراءة، فإذا جاء وقت الدرس أو موعد القراءة من جديد قال: افتحوا صفحة كذا، وربما ضبط الصفحة بكلمة أو حرفين من حساب الجُمَّل^(١).

(1) حساب الجُمَّل نوع من أنواع الحساب، وهذا النوع يعتمد على الحروف لا الأعداد، وهو يعتمد على ترتيب حروف الهجاء الترتيب الأبجدي، لا الترتيب الألفبائي الذي، نستخدمه والترتيب الأبجدي كما يلي:

أبجد، هوز، حطي، كلمن، سغفص، قرشت، ثخذ، ضظغ.

وكل حرف من هذه الحروف له قيمة عددية، تبدأ بالآحاد، ثم العشرات، ثم المئات، ثم الآلاف،

وذلك كما يلي:

أ، ب، ج، د، هـ، و، ز، ح، ط، ي، ك، ل، م، ن، ٥٠،
س، ع، ف، ص، ق، ر، ش، ت، ث، خ، ٦٠٠،
٧٠٠، ض، ٨٠٠، ظ، ٩٠٠، غ، ١٠٠٠.

فإذا أراد مثلاً أن يشير إلى ص ٣٠ مثلاً قال: يك، أو نحو ذلك.

ومن عجيب ذاكته أنه إذا أتاه أحد من الأسرة المالكة في بعض الأحيان، ودار الحديث عن الأسرة وأوائها أخذ سماحته يسرد أن فلاناً هو ابن فلان، وأن أمه فلانة، وأخته فلانة، وتوفيت في عام كذا وكذا.

وربما قال لمن يزوره منهم: خالتك فلانة، وعمتك فلانة، وهذا يرجع إلى كذا وكذا إلخ.

حتى إن بعضهم يقول: أنت أعلم بأسرتنا منا.

وكان ﷺ يحفظ أسماء الأسرة المالكة، وتاريخ ميلادهم، ويراجع ما كتبه عنهم في بعض الأحيان، ويحفظ الأشقاء من الأمراء أبناء الملك عبدالعزيز، ويعرف الأخوة لأب، وأحوال كل منهم، وله عناية خاصة بذلك.

وكذلك يعتني بأل الشيخ، ويعرف كبارهم، والسابقين منهم؛ لاسيما العلماء منهم؛ حيث يوليهم اهتماماً كبيراً.

ومن لطائف ذاكرة سماحة الشيخ أنه إذا أراد البحث في عدالة رجل من رجال الحديث ومعرفة حاله، وما قيل فيه - قال: الذي أعرفه أن صاحب التقريب قال: صدوق، أو قال: ثقة، أو قال: يخطئ، ولكن من باب التأكد.

وعند البحث يكون كلام الشيخ مطابقاً لما في الكتاب في الأغلب.

ولهذا إذا رأيت سماحة الشيخ يتكلم في الحديث ظننت أنه لا يعلم غيره؛ لما كان عليه من حفظ للمتون والأسانيد، والرجال، والصحيح، والضعيف، والموضوع.»

ويواصل الشيخ محمد موسى حديثه عن ذاكرة سماحة الشيخ فيقول: «ومن

العجائب في ذلك؛ أنه في يوم من الأيام أهدى صاحب السمو الملكي الأمير سعود ابن فهد إلى سماحة الشيخ جهاز كمبيوتر قد خُزن فيه جميع ما في الصحيحين، والسنن والمسانيد.

وعندما حضر المختص؛ لإطلاع سماحته على نظام الجهاز، وكيفية استخراج الحديث المراد، والبحث عنه، وفي كم رواية ورد، وفي أي الأبواب يوجد - سأل سماحته عن بعض الأحاديث في كم رواية ورد؟ وفي أي الأبواب؟ فجعل المختص يبحث عن بعض الأحاديث والشيخ يسأل ويقول: صحيح، وفي بعضها يقول الشيخ: بل ورد بلفظ كذا وكذا، ورواه فلان.

وإذا بحث المختص عنه لم يجده في الجهاز، وعند الرجوع إلى أصل الكتاب يوجد طبق ما كان يحفظه سماحة الشيخ!

وبعد أن سأل سماحته عدة أسئلة وصار يُصَوِّب ويخطئ قال المختص: يا شيخ! أتينا بالجهاز على أننا قد حفظنا فيه كل شيء، وأن هذا الجهاز قد اعتني بإدخاله المعلومات، ولكننا فوجئنا بأنك يا شيخ أحفظ من الكمبيوتر!

ومما يدل على قوة ذاكرته أنه يحفظ النصوص من الكتاب والسنة، ومواطن الاستشهاد منها، ويعزو الآيات المتشابهة إلى مظانها دون خلط بينها.

وكان إذا أملى كلمة، أو نصيحة، وأورد حديثاً قال: متفق على صحته، وهذا لفظ مسلم، أو قال: رواه مسلم وأبو داود، وهذا لفظ أبي داود.

وإذا سمع كلمة من أحد، واستدل المتحدث بحديث وعزاه قال سماحة الشيخ: هذه رواية فلان، أو قال: لفظه كذا، ورواه - أيضاً - الترمذي، أو ابن

ماجه ، أو أحمد وهكذا ، وعند الرجوع إلى مظانه يكون سماحته - في الأغلب - مصيباً .

ثالثاً: صحة سماحة الشيخ: كان سماحة الشيخ رحمته الله يتمتع بصحة جيدة في الجملة فلم يكن يعاني من كثير من الأمراض التي كان يعاني منها من هو في سنه ، أو في مكانته ممن يتصدون للناس ، بل من هم أقل منه بكثير؛ فسماعته لم يكن مصاباً بمرض السكر ، ولا بالضغط ، ولا بالكوليسترول ، ولم يكن يمتنع عن طعام ، ولا يوجد معه مرض مزمن .

بل كان - مع كبره - يحب الطعام الحلو ، فكان يحب الشاي الحلو ، وكان ضمن عشائه حلاوة الطحينية ، بل كان يأكلها منفردة بلا خبز أحياناً .

أما الأعراض التي تمر بالناس فقد تمر به إلا أنها لم تكن تعوقه ، أو تلزمه الفراش ، فالشيخ رحمته الله عاش ممتعاً بالصحة والعافية في الجملة ، عدا الأمراض العارضة التي مرت به ، والتي سيمر الحديث عنها في فقرة قادمة .

والسبب في صحته وعافيته - أولاً و آخراً - يعود لمحض فضل الله ، ثم لإقبال سماحته على ربه ، وإكثاره من ذكره ، وشكره ، وعبادته ، والإقبال عليه بشتى القربات ، وحرصه على قضاء الحوائج ، وتنفيذ الكربات؛ فإن لهذه الأمور أبلغ الأثر في أن يتمتع الإنسان بالعافية .

ثم إن هناك سبباً مباشراً في تمتعه بالصحة والعافية ألا وهو مزاج الشيخ المعتدل؛ فسماعته ليس من أهل الوهم ، والمبالغة في تعظيم الأمور . وهناك سبب - أيضاً - وهو اعتدال سماحته في مطعمه ومشربه .

ومع ذلك فقد مرت به أمراض شديدة في فترات من عمره؛ فلم يفارقه حلمه، ولا سكينته، ولا فُتَّتْ تلك الأمراض من عضده، ولا نالت من همته ولا خلقه. يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : «وأذكر قبل خمس سنوات أو ست من وفاة سماحة الشيخ أنه راجع مستشفى الملك فيصل التخصصي؛ لإجراء بعض الفحوصات، ولما رأى الأطباء حال الشيخ وضعف قواه، وكبر سنه-أوعزوا إلى بعض أبنائه بقولهم: إن الشيخ منهكٌ نفسه وهو بهذا السن؛ فترجو إبلاغه بأن يخفف على نفسه، وأن يعطيها شيئاً من الراحة؛ فهو محتاج إلى ذلك.

ولما جلس سماحة الشيخ بعد صلاة الفجر في مكتب البيت جاء ابنه الذي أوصاه الأطباء بما مضى ذكره، وقال: يا سماحة الوالد: الأطباء يوصون سماحتكم بكذا وكذا، ونرجو الأخذ بتوجيههم، وأن ترفقوا بأنفسكم، وأن تقللوا من الحديث والعمل.

وكنت أنظر إلى سماحة الشيخ، وهو يستمع إلى كلام ابنه، فلما فرغ من كلامه قال سمachtته: ما يكون إلا خير، واستمر على حاله، ولم يغير شيئاً من نظامه، بل ربما زاد عليه».

ومع أن سماحة الشيخ عاش في الجملة ممتعاً بالصحة والعافية - كما مر - إلا أنه أصيب بأمراض شديدة في أوقات متفرقة في عمره. وهذه الأمراض كفيفة في حطمه، وإنهاكه، وقطعه عما هو بصدده من العلم، والتعليم، والقيام بمصالح المسلمين.

إلا أن الأمر كان بعكس ذلك تماماً، حيث كان دأبه الصبر، والرضا، وقوة التحمل، واستواء الطرائق، ولزوم الاعتدال في جميع الأحوال.

رابعاً: همته العالية: من العجائب في سيرة سماحة الإمام عبدالعزيز ابن باز همته العالية المتجددة، التي تزكو وتتسامى مع تقدمه في العمر.

وإذا أردت الحديث عن همته فإنك تحار؛ فبأي شيء تبدأ، وعن أي مجال تتحدث؟

ذلك أن همته العالية لا تقتصر على مجال معين، أو عمل محدد، بل هي شاملة لشتى الأعمال التي يقوم بها؛ فهيمته العالية تتجلى في قراءة الكتب؛ فهو لا يمل قراءتها، بل كثيراً ما يشرع في قراءة كتب مطولة لا يخطر بالبال أن يتمها؛ لما يرى من كثرة أعماله.

وما هي إلا مدة ثم يتم قراءتها.

وتتجلى همته في الاطلاع على المعاملات، والتوجيه بما يلزم؛ فلا يمل ولا يكل من كثرة ما يعرض عليه.

وتتجلى في العبادة، وتطبيق السنة في شتى شؤونه.

وتتجلى في زكاء نفسه، وطهارتها، وترفعها عن السفاسف، والمحقرات.

ومن كان ذا نفس ترى الأرض جولةً فلا بد يوماً للسموات يرتقي

وتتجلى في سخائه، وجوده، وكرمه، في شتى صور السخاء، والجود

والكرم.

وتتجلى في اغتنام الأوقات، والقيام بالمشروعات والأعمال العظيمة، التي

تقف دونها عقبات ، إلى غير ذلك من مجالات همته.

وعلو همته التي دلت على صِغَر الكبير وقلّة المُسْتَكْتَر

وإن الذي يعمل معه ، ويرافقه ليعجب أشد العجب مما يراه من همته ﷺ .

وإنك لترى الإعياء يبلغ مبلغه بمن يرافقون سماحته ، ويعملون معه مع أنهم في قوتهم ونشاطهم ، ومع أنهم مجموعة يتعاقبون العمل ، ويتناوبون على القراءة عليه ، ومرافقته ، ومع أنهم يجدون متعة ولذة في العمل معه ، ومع أنهم متفرغون له ، ومع أن سماحته كبير في السن ، ويقوم بأعمال متنوعة كثيرة.

ومع ذلك كله تجد أن سماحة الشيخ يقوم بالأعمال العظيمة بمنتهى اليسر ، والسهولة ، والسرور ، والسكينة ، يستوي بذلك حاله في السفر ، أو الحضر ، أو الصحة ، أو المرض.

والشواهد والقصص في هذا السياق لا يمكن حصرها ، بل إن معظم القصص التي مرت والتي ستمر تؤكد هذا المعنى وتؤيده.

مُتَنَقِّلٌ فِي سَوْدٍ مِنْ سَوْدٍ مِثْلَ الْهَالِالِ جَرَى إِلَى اسْتِكْمَالِهِ

خامساً: القيام بصغار الأمور وكبارها: وهذا من أسرار عظيمته ، ولطائف سيرته ، وأسباب تميزه ، وحلوله في سواد العيون ، وسويداء القلوب؛ ففي الوقت الذي يقوم فيه بجلائل الأعمال ، من مراسلات لكبار المسؤولين ومناصحة لرؤساء الدول ، واستقبال للوفود من أعلى المستويات ، وقيام بالدروس والفتوى ، والردود على الأسئلة المتتابة ، ورئاسة الاجتماعات في الرابطة أو الهيئة ، أو غيرها ، ونحو ذلك من الأعمال التي يترتب عليها المصالح العامة للأمم مع ذلك كله لا تراه يهمل دقائق الأمور ، وصغارها؛ بحجة اشتغاله بما هو أهم ،

بل تراه يسمع سؤال المرأة، ويستقبل الفقير المسكين، ويجيب على سؤال الهاتف ولو كان يسيراً، بل تراه يداعب قائد سيارته، والعاملين معه، ويسألهم عن أحوالهم، وأحوال ذويهم، بل لا يُغفلُ الثناء على طبّاخ المنزل على الوجبات التي يعدها، ولا ينسى مداعبة الصغار، والقيام بحقوق الأهل، وهكذا كانت حاله مع الناس؛ فكل يعطيه حقه، وينزله منزلته.

ولم يكن أحدٌ يلهيه عن أحدٍ كأنه والدٌ والناسُ أطفالٌ

سادساً: لا يحمّلُ أحداً ذنبَ أحدٍ، ولا يشغله شيءٌ عما هو بصدده؛ وهذا سرٌ عظيمٌ من أسرار عظّمته، وسببٌ رئيسٌ من أسباب قوته، وتحمله وثباته؛ فسماحة الشيخ رحمته الله لا يحمّلُ همومَ العملِ إلى المنزل، ولا يحملُ المشكلات والقضايا العامة للزائرين، وإذا ترك مكتبه ترك مشكلاته، وقضاياه داخل المكتب، وإذا خرج من بيته ترك شؤون البيت في البيت.

وليس معنى ذلك، أن تلك القضايا لا تتحرك معه، أو أنه لا يأبُه لها، وإنما كان يعطي كل مشكلة قدرها، ولا يحمّلُ أحداً ذنبَ أحدٍ؛ فإذا جلس أحدٌ إلى سماعته ظن أنه خَلِيٌّ من الهموم، والشواغل؛ لأنه يقبلُ بكليته على محدثه، وجليسه.

ولقد وطّن سماعته نفسه على هذا الخلق العظيم؛ فكان ذلك من أعظم ما يعينه على القيام بالمسؤوليات.

بخلاف حال أكثر الناس؛ حيث تراهم إذا كدّر عليهم مُكدرٌ نال الغضب منهم مناله، وامتد ذلك إلى من حولهم، وإلى كل من يتصل بهم من زملاء، وأهل،

وأولاد، واستمرت معهم تلك الحالة يومهم ذلك، وربما زادت مدة التكدر. ولو كان سماحة الشيخ على مثل هذه الحال لأنهدم، ولتصدعت قناته، وفترت همته.

ولكنه كان كالجبل تصطدم به العوادي، وتعود أدراجها، وهو ثابت لا يتزحزح.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : «ولهذا نعجب منه أشد العجب؛ ففي كثير من الأحيان تأتيه قضايا، وتعرض عليه مشكلات تشيب لهولها نواصي الولدان، ويحضر اجتماعات على أعلى المستويات، وتجتمع لديه أعمال كالجبال، فنقول: حُطِمَ سماحته، ولن يقوم بقية يومه بشيء من العمل؛ فما يروعنا إلا أنه إذا خرج من اجتماع، أو استمع إلى قضايا، أو مشكلات، ثم اتخذ ما يراه حيالها-أقبل على عمله الجديد بهمة ونشاط سواء كان صغيراً أو كبيراً، فربما قدم إليه ضيف فسامرته ولاطفه، وربما قال: أعطونا الكتاب الفلاني؛ فنشره بقراءته، وربما قال: اتصلوا بفلان، أو ابجثوا عن المسألة الفلانية.

وإذا كان لديه موعد ذهب إليه، وإن كانت عنده محاضرة ذهب لإلقائها، مع أننا نتوقع أحياناً أن ذهنه قد تشوش، وأن نفسه قد تكدرت عليه، ولكننا نفاجأ بخلاف ذلك تماماً».

سابعاً: طريقة سماحة الشيخ في التحية وردها: كان ﷺ معظماً للسنة، مطبقاً لها في شتى أحواله، - كما مر -.

ومن مظاهر ذلك محافظته على تحية الإسلام على وفق ما جاء في السنة في هذا

الشأن، فكان ﷺ يبدأ بالسلام على من لقيه، وكان يسلم إذا دخل مجلساً، ويسلم إذا قام من المجلس.

وكان يسلم في بداية مكاتباته ونهايتها؛ فكان يقول بعد المقدمة أما بعد فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته، أو سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ويقول في النهاية: والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكان يرد السلام على المسلم في المكاتبات وغيرها بمثل ما حُيي به أو أحسن.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله -: «وكنت ألاحظ عليه أنه يرد السلام على كل من سلم سواء قصده بعينه، أو سلم على جماعة وهو من بينهم، حتى إن بعض الذين يقومون بمسألة الناس في المساجد يبدأ كلامه بالسلام، فألاحظ كثيراً أنه لا يرد عليه إلا سماحة الشيخ ﷺ».

وإذا أركبت سماحته في السيارة ثم ذهبت إلى باب السيارة الآخر كان يسألني: هل سلمت؟ فهو يرى السلام إذا حال بين الاثنين حائل.

وكان بعد تحية الإسلام يزيد في الحفاوة والسؤال، وحسن الاستقبال.

وكان إذا سمع متحدثاً في الإذاعة يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ رد عليه بقوله: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

ثامناً: سماحة الشيخ ورياضة المشي: كان سماحة الشيخ يحب رياضة المشي،

وكان كثيراً ما يمشي خصوصاً قبل إصابة قدمه في شهر شعبان عام ١٤١٤هـ.

فكان ﷺ يمشي من بيته إلى المسجد ولو بعدت المسافة.

ولما كان في المدينة كان بيته يبعد عن الحرم مسافة تزيد على الكيلومتر، وكان

يسير إلى المسجد على قدميه إلا إذا خاف فوات الوقت.

وفي الرياض بعد ما جاء من المدينة في نهاية ١٣٩٥هـ صار إماماً للجامع الكبير في الرياض قُربَ قصر الحكم، وسكن في بيت سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله وكان يمشي من بيته إلى المسجد مع أن المسافة كانت كيلو متر تقريباً.

ولما سكن بيته الذي يقع في حي البديعة في الرياض كان يسير من بيته إلى المسجد الذي يقع غربي بيته على قدميه.

وفي مكة المكرمة كان يمشي من بيته الذي يقع في العزيزية إلى المسجد الذي يقع في الجهة الشرقية في أغلب الأحيان.

ويقول رحمته الله إنني رتبت وقتاً للمشي مدة تتراوح ما بين ربع ساعة إلى نصف ساعة كل يوم، وذلك قبل النوم، وفي الصباح بعد المجيء من الدرس، وبعد القيام من مكتب البيت في الصباح؛ حيث كان سماحته يمشي في الغرفة، أو بين البيوت.

«تعامل سماحة الشيخ مع الناس»

يتعامل سماحة الشيخ رحمته الله مع الناس كل بحسبه؛ فيتعامل معهم بالحسنى، وبالعفو، ويانزالهم منازلهم، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وفيما يلي ذكر لشيء من ذلك:

أولاً: سماحة الشيخ مع أرحامه: كان سماحة الشيخ رحمته الله حريصاً كل الحرص على صلة أرحامه مهما تكاثرت مشاغله، ومع أنهم لا يلومونه لو لم يصلهم؛ لقيامه بمصالح المسلمين، وبالمسؤوليات الجسام، ولأن له الحق أن يوصل.

ومع ذلك كان يبادرهم بالاتصال المستمر، والسؤال عن أحوالهم وأولادهم، وجيرانهم

فعلى سبيل المثال: إذا كان سماحته في مكة أو الطائف، كان يأتي من العمل في الساعة الثانية والنصف ظهراً، أو بعد هذا الوقت منهكاً مكدوداً؛ إذ هو قد قام من قبل صلاة الفجر بساعة تقريباً، وبعد الصلاة يكون له دروس، ثم يذهب للعمل، ويقوم بأعمال عظيمة؛ فإذا جاء من العمل وإذا بالناس يُلْتَفُونَ حوله ما بين مسلّم، ومستفت وغير ذلك كما هي العادة في المجلس.

وفور وصوله المجلس، وسلامه على الحاضرين، وبعد أخذه مكانه، والتقاطه أنفاسه - يأخذ سماعه الهاتف ويقول لمن عنده من الموظفين: اتصل على أخي محمد - وأخوه محمد هذا أكبر منه بست سنوات وسمعه ضعيف - فيتصل سماحته بأخيه، وأخوه لا يسمع منه إلا كلمة من بين عدة كلمات.

ومع ذلك فإن سماحة الشيخ يصابر أخاه، ويسأله عن حاله، وأولاده، وصحته، بل ويسأله عن جيرانه، ويقول: ما حال فلان وفلان من جيرانك، ثم يدعو له، ويقول: من عندنا فلان، وفلان ويعدد من قرابته، والموظفين حوله يسلمون عليك.

ثم ينتقل إلى بيت زوجته أم عبدالله ويسأل عنهم واحداً واحداً، ثم ينتقل إلى بيت أم أحمد ويسلم على من عندهم من البنين والبنات، ثم يتصل بابنه عبدالله، ثم ابنته الكبيرة حتى يتصل بهم جميعاً، أو ربما قال اتصلنا بكم البارحة ولم نجدكم، والناس حوله ملتفون، وهو منشرح الصدر، رضيُّ البال!!

كما كان رحمته الله محباً لبقية أقاربه، حريصاً على نفعهم واستضافتهم. ومن عظيم صلته لأرحامه أنه كان يخصص مبلغاً من المال يزيد على مائة وستين ألفاً، فيوزعه في نهاية شهر رمضان، وذلك في عيد الفطر على زوجته، وأولاده، وبناته، وأولاد أولاده، وأولاد بناته، وأزواج بناته، وأخيه، وأولاد أخيه، وبعض أقاربه.

وهذا المبلغ يقتطعه من ماله الخاص.

كما أنه رحمته الله اشترى بيتاً لأخيه محمد، ورتب له راتباً شهرياً، واشترى بيوتاً لبعض أقاربه، وذلك من ماله الخاص.

ومن عنايته بصلة أرحامه أنه يدعو جميع أسرته، وهم يبلغون المئات؛ لتناول طعام الإفطار معه في شهر رمضان مرة واحدة كل سنة.

ثانياً: تعامل سماحة الشيخ مع زوجاته: لسماحة الشيخ رحمته الله زوجتان: أم عبدالله، وله منها ابنان وثلاث بنات، وأم أحمد، وله منها ابنان وثلاث بنات. وأم عبدالله هي الأولى، وقد تزوج قبلها إلا أن زوجته التي قبلها لم تستمر معه.

وأم أحمد هي الأخيرة، وقد مات عنهما رحمتهما الله. وكان رحمته الله يلزم العدل ويتحراه في تعامله مع زوجته، وكان برأً بهما، رحيماً، عطوفاً، حريصاً على القيام بحقوقهما. وكان يتصل بهن يوماً إذا كان في مكة أو الطائف إن لم يكن معه أحد منهن -كما مر- في الحديث عن صلته بأرحامه، وكان يتلطف في الكلام معهن، وربما أخبرهن بما فعل يومه ذلك، فرمما قال: اجتمعنا اليوم في الرابطة، وغداً إن شاء الله -سنذهب إلى كذا وكذا ونحو ذلك.

وكان رحمته الله محباً لأسرتيه، رقيقاً بهما، بعيداً عن الزجر، وكثرة العتاب. يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله -: «وأذكر في يوم من الأيام أنه كان يريد السفر في الطائرة، وتأخرت إحدى أسرتيه التي ستسافر معه في تلك الرحلة أكثر من ساعة، وتأخرت بسبب ذلك الطائرة التي تُقلُّه.

ومع ذلك لم يُبدُ على سماحته أي تضجر أو سامة، بل كنا نقرأ عليه المعاملات دون انقطاع، وكلما مضى عشر دقائق أو ربع ساعة سأل: هل جاؤوا، فإن قيل له: لا، واصل الاستماع.

ولما وصلوا لم يُبدِ أي تضجر، ولم تدر منه أي كلمة؛ لأنه يلتبس لهم

المعاذير ، ويعلم أنهم لم يتأخروا إلا لعارض.

وكان ﷺ كثير الوصاية بالأهل ، كثير التحذير من الجفاء معهم ، والتقصير في حقوقهم.

ومن الطرائف في ذلك أنني كنت مع سماحته في الطائف عام ١٤١٨ هـ ، وكنت في مجلسه المعتاد عن يساره ، أقرأ عليه بعض المعاملات ، وكنت على العادة-أرد على المكالمات ، وإذا طلبوا سماحته ناولته سماعة الهاتف.

وفي يوم من الأيام رن الهاتف فأخذ سماحته السماعة على غير العادة ، وإذا هم أهلي يطلبونني ، فناولني سماحته السماعة ، وأخذ ينتظرني حتى أفرغ من المكالمة. وكنت حريصاً على الاختصار؛ لأن وقت سماحة الشيخ لا يسمح بالإطالة ، والمجلس مليء بالحاضرين ، وأهلي يعلمون ذلك.

والذي حصل أن أهلي سألوني : هل ستتغدى معنا هذا اليوم ؟ فقلت : لا.

وبذلك انتهى الغرض ، ووضعت سماعة الهاتف.

فقال لي سماحة الشيخ : انتهيت من المكالمة ؟ قلت : نعم.

فقال ﷺ : ما هذا الجفاء ؟ أهكذا تكلمون أهليكم ؟ أسأل الله العافية.

فقلت : يا سماحة الشيخ ! المقصود قد انتهى ، ولا أريد الإطالة؛ فالوقت لا

يسمح.

فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، خيركم خيركم لأهله.

ثالثاً: تعامل سماحة الشيخ مع أولاده: لسماحة الشيخ ﷺ عشرة من

الولد ، أربعة أولاد ، وست بنات.

وأكبر أولاده عبدالله ثم عبدالرحمن وهما يعملان بأعمال خاصة بهما

ثم أحمد وهو معيد في كلية الشريعة ، ثم خالد وهو لا يزال طالباً .
وكما أن سماحة الشيخ إمام في زهده ، وورعه ، وعلمه ، وكرمه ، وأخلاقه ،
وحلمه ، وشجاعته ، ونصحه-فهو كذلك إمام في تعامله مع أبنائه؛ فهو ﷺ
يعاملهم معاملة الوالد الرحيم ، والمربي الشفيق الكبير؛ حيث كان يحنو عليهم ،
ويحترمهم ، ويقدرهم ، ويدعو كثيراً لهم ، ويعدل فيما بينهم ، ويستجيب
لدعوتهم .

ومن تقديره لهم وإكباره بواجبهم أنه إذا قدم كل سنة من الطائف إلى
الرياض-كان غداؤه أول يوم عند ابنه الأكبر عبدالله ، وفي اليوم الثاني يكون
غداؤه عند ابنه عبدالرحمن ، وفي اليوم الثالث يكون غداؤه عند ابنه أحمد .
وإذا انتهى من الغداء عند واحد منهم دعا له ، وقال : أنعم الله عليكم ،
وأكرمكم الله ، وكأن الواحد منهم واحد من أصدقائه ، لا من أبنائه .
ومن عدله بين أولاده وزوجاته أنه جعل لكل من أولاده وزوجاته حساباً خاصاً ؛
فمن احتاج منهم مبلغاً خلاف المصاريف واللوازم الضرورية ، وما يحتاجه البيت
قيّد ذلك في حساب المحتاج على سبيل القرض ، وكذا لو أن أحداً من أولاده احتاج
إلى سيارة ، أو غيرها دفع المبلغ ، وقيّد ذلك في حسابه الخاص .
ومما يدل على عنايته بهم أنه يخصصهم بوقت يسمع منهم ويسمعون منه ،
ويسألونه عما أشكل عليهم ، وقد خصص لأبنائه وبناته وزوجتيه وقتاً معيناً
كذلك .

وإليك هذه الكلمة الأبوية الحانية التي وجهها إليهم بتاريخ ١٤١٥/٦/٥ هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة أبنائي وبناتي وفقهم الله لما يرضيه أمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد رأيت أن تكون ليلة الأربعاء من الأسبوع الثاني والأسبوع الرابع من كل شهر وقت اجتماع بكم أيها الأبناء؛ لقراءة ما تيسر من القرآن والمذاكرة في بعض الأمور الدينية وغير ذلك مما تدعو الحاجة إليه بعد صلاة العشاء في محل البركة. أما مساء الأربعاء ليلة الخميس من الأسبوع الثاني، ومساء الأربعاء من الأسبوع الرابع ليلة الخميس فللبنات؛ لقراءة ما تيسر من القرآن، مع المذاكرة في بعض الأمور الدينية، وما تدعو الحاجة إليه؛ فأرجو اعتماد ذلك. وفق الله الجميع لما يرضيه، وجعلنا وإياكم وسائر إخواننا من عباده الصالحين، وحزبه المفلحين؛ إنه سميع قريب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبدالعزیز بن عبد الله بن باز

رابعاً: سماحة الشيخ مع جيرانه: كان سماحة الشيخ محباً لجيرانه، كثير التفقد لهم، كثير السؤال عنهم، وكان يفرح بهم إذا قدموا إليه، وكان يقول: ادعوهم، لعلهم يستحيون من المجيء إلينا.

ومن صور وفائه لجيرانه أنه كان يحرص كل الحرص على توديعهم في المسجد إذا أراد السفر؛ حيث يودعهم في آخر صلاة يصلّيها معهم في المسجد، ويوصيهم بتقوى الله سواء كانوا جيرانه في الرياض، أو الطائف، أو مكة.

بل ربما ودع ثلاثة مساجد قبل أن يسافر، ففي الرياض-مثلاً- يودع جماعة

مسجده القريب، وجماعة المسجد الجامع القريب جامع سارة، ومسجد الرئاسة.

وفي مكة يودع جماعة مسجده، والمسجد القطري، ومسجد التوعية.
خامساً: تعامل سماحة الشيخ مع من يعملون معه أو تحت رئاسته: سماحة
 الشيخ رحمته الله يتعامل مع من يعملون معه أو تحت رئاسته بكل مودة، واحترام، وتقدير، سواء كان ذلك من الكتاب، أو الموظفين، أو الخدم، أو السائقين، أو مسؤولي القهوة والشاي وإعداد الطعام، أو غير ذلك.

فلم يكن سماحته يكهرهم، أو ينهرهم، أو يعنفهم، أو يحملهم مالا يطيقون. بل كان حريصاً على نفعهم، وتفقد أحوالهم، وإدخال السرور عليهم، فإذا جلس إليه أحد العاملين لديه لاطفه بالكلام، وسأله عن أهله، وأولاده إن كان له أولاد، وإن لم يكن متزوجاً أوصاه بالمبادرة إلى الزواج، وربما قال له: تزوج، ونحن نساعدك إذا كنت محتاجاً.

وإذا أتاه أحد منهم بقهوة أو ماء، أو طيب دعا له وشكره.
 وإذا قابل الطباخ أثنى عليه، ودعا له، وشكره على إجادة الطهي.
 وإذا لم يرقه الطعام لم يعبه، بل قصارى ما يقول: إنهم لم يحسنوا صنعته هذا اليوم.

حتى إن السائق إذا تأخر عن مواعده المعتاد جلس سماحة الشيخ ينتظره حتى يأتي دون أن ترى على سماحته تضجراً أو تبرماً.

فإذا أتى السائق ولو متأخراً ركب معه دون أن يتلفظ بكلمة سب أو عتاب،

واذ لم يأتِ ركب مع أي أحد؛ ليوصله مراده.

وكان ﷺ حريصاً على اتحافهم بالهدايا والأعطيات ، وعلى الشفاعة لهم في الترقيات.

وكان ﷺ يُنزل من تحته منازلهم ، ويحرص على العدل بينهم ، وإعطاء كل واحد منهم حقه.

ومن الأمثلة على ذلك أنه يحترم وقت كل موظف من موظفيه ، فلا يُدخل أحداً منهم في وقت أحد آخر إلا بإذن الذي خصص له ذلك الوقت. ولو حصل شيء من ذلك عوض الذي أخذ وقته وقتاً آخر ، أو وعده بأن يعطيه وقتاً كافياً.

وإذا كان يقرأ عليه أكثر من واحد من الموظفين لزم العدل بينهم؛ بحيث يستمع من هذا معاملة ومن الآخر معاملة ، أو يقول: لكل واحد منكم ربع ساعة أو ثلث ساعة ، وإذا انتهوا بدأ بهم مرة ثانية وهكذا.

وإذا كانوا معه في الطائرة أو السيارة سار بهم على هذا المنوال. ومع هذه السماحة العظيمة فإن من يعملون تحت يده يحبونه حباً جماً ، ويهابونه هيبه وافرة ، ويُجلُّونه إجلالاً عظيماً ، ويتفانون في خدمته ، ويحرصون على إدخال السرور عليه.

بل إنهم يعملون عملاً مضاعفاً زائداً على العمل الرسمي المقرر لهم.

بل لا تطيب نفوس أكثرهم بمغادرة منزله حتى يدخل داخل البيت للنوم أو

الراحة.

سادساً: سماحة الشيخ والفقراء: كان سماحة الشيخ رحمته الله محباً للفقراء، عطوفاً عليهم، متواضعاً لهم، حريصاً على مؤاكلتهم، متفقداً لأحوالهم، صبوراً على ما يلقاه من إلحاحهم، وكثرة حاجاتهم. ولم يكن يرضى بأن يهانوا في حضرته، ولم يكن - كذلك - يقبل كلاماً أو اقتراحاً يتضمن إقصاءهم أو إبعادهم من مجلسه ومائدته. وهذا الأمر معروف عن سماحته، ومستفيض عند القاضي والداني، ولا تخلو مائدته ومجالسه من الفقراء والمساكين أبداً.

بل لقد كان كثير السؤال عنهم، وكانوا يزدحمون على مائدته رغبة في تناول الطعام معه، وكان يدينهم، ويسأل - دائماً - عسى ما نقص عليهم شيء؟ يقول الشيخ محمد موسى: «وكان يقول: لا تردوهم، وكنا نردهم أحياناً؛ لأن بعضهم يجلس على الطعام قبل أن يكتمل تجهيزه، فإذا اكتمل فتحنا لهم الباب، ومع ذلك كان يقول: لا تردوهم، ارحموهم، وكان رحمته الله لا يرد سائلاً، ولا يحتقر ما يقدمه للناس مهما كان».

وأخبره في هذا الباب لا يمكن حصرها، وفي كتاب الجوانب ذكر لشيء منها. سابعاً: سماحة الشيخ مع أهل العلم: لأهل العلم السابقين، والمعاصرين منزلة خاصة عند سماحة الشيخ؛ إذ كان رحمته الله يحبهم، ويقدرهم حق قدرهم، وينزلهم منازلهم اللائقة بهم.

ومما يمكن ذكره في طريقة سماحته مع العلماء، ما يلي:

١- كثرة ترحمه على العلماء: فكان سماحته لا يكاد يذكر أحداً من علماء السلف، أو يذكرهم أحد عنده إلا ترحم عليهم، ودعا لهم سواء العلماء

السابقين كالصحابية، والتابعين، أو من جاء بعدهم.

٢- حبه لقراءة سيرهم، وتأثره بذلك: فكان كثيراً ما يبكي إذا قرئ عليه شيء

من سير العلماء، وما لاقوه في سبيل العلم، وما قاموا به من الدعوة والجهاد.

٣- إجلاله لمشايخه وتأدبه معهم: فكان مُجِلاًً لمشايخه، معترفاً بفضلهم، كثير

الذكر والدعاء لهم؛ فكان كثيراً ما يترحم على شيخه العلامة سعد بن عتيق،

وشيخه صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ قاضي الرياض في وقته، وشيخه حمد ابن

فارس وغيرهم - رحمهم الله -.

أما أقرب مشايخه إلى قلبه، وأعظمهم أثراً في نفسه فهو سماحة الشيخ الإمام

العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية في وقته رحمته الله.

فقد كان سماحة الشيخ يجلب هذا الإمام، ويقدره قدره، ولا يستطيع الحديث

كثيراً عنه؛ إذ يغلبه البكاء إذا أراد ذلك.

وكان يقول عنه: ما رأيت عيناى قبل أن أعمى، ولا سمعت أذناى بعد أن

عميت مثله، وكان له فضل كبير عليّ.

وكان رحمته الله يتأدب مع شيخه محمد غاية الأدب، وإذا أراد مكاتبته في أي شأن

من الشؤون تلتطف معه، وتأدب في خطابه، وعرض له الموضوع بغاية التأدب،

وختمه بالدعاء له.

وكان يتعاون مع سماحة الشيخ محمد في المناصحات، والقضاء على المنكرات.

٤- كثرة استشارته لأهل العلم: حيث كان رحمته الله كثير المشاورة لأهل العلم،

كثير الأخذ والاعتداد بأرائهم، وخصوصاً أعضاء هيئة كبار العلماء، وأعضاء

اللجنة الدائمة.

٥- كثرة استضافته لأهل العلم: فقل أن يمر يوم أو أقل من يوم إلا ويأتيه الوفود تلو الوفود من أهل العلم من شتى الأماكن.

٦- حفاوته بأهل العلم: حيث كان ﷺ عظيم الحفاوة بأهل العلم، عظيم الفرح بمقدمهم؛ فإذا قدم - على سبيل المثال - سماحة الشيخ العلامة محمد ابن صالح العثيمين ﷺ إلى الرياض أو الطائف استضافه سماحة الشيخ عبدالعزيز، وفرح به؛ إذ إن الشيخ محمد ممن لهم منزلة وحظوة عند سماحة الشيخ.

فإذا استضاف الشيخ محمداً على الغداء اتصل بمكتب البيت، وقال: سيأتينا اليوم الشيخ محمد، ويأمر بزيادة الغداء، ثم يأتي من العمل إلى المنزل قبل مجيء الشيخ محمد بوقت كافٍ، حتى يكون في استقباله إذا وصل منزل سماحته؛ فإذا وصل الشيخ محمد فرح سماحته به، وحياه، وتجادب معه أطراف الحديث.

٧- كثرة السؤال عن أهل العلم: فكان ﷺ كثير السؤال عنهم، والاتصال بهم؛ فإذا جاءه - على سبيل المثال - أحد من الأردن سأله عن الشيخ الألباني ﷺ وإذا جاء أحد من أهل المدينة سأله عن الشيخ عبدالمحسن العباد، أو الشيخ حماد الأنصاري، أو الشيخ عمر فلانته -رحمهما الله- وغيرهم من أهل العلم في المدينة.

وإذا قدم عليه أحد من أي بلد سأله عن أهل العلم الذين يعرفهم سماحته، أو يسأله عن أهل العلم الموجودين عندهم.

وكذلك الحال بالنسبة لمن يأتون من خارج البلاد؛ حيث يسأل عن أهل

العلم، ويوصي بنقل السلام إليهم، وربما حمل من يأتيه رسالة إليهم، وربما سألهم: من عندكم من أهل العلم، وما نشاطهم في العلم والدعوة؟ وكان يأخذ عنواناتهم، ويراسلهم، ويوصيهم بالعناية بالدعوة إلى الله، ويقول: نحن مستعدون للتعاون معكم بما يخدم الدعوة.

٨- حرصه على الاستماع لأهل العلم، والقراءة لهم، وتشجيعهم: فكان كثيراً ما يستمع إلى إذاعة القرآن الكريم، وبرنامج نور على الدرب - على وجه الخصوص - وكان يعرف أيام كل عالم من العلماء في ذلك البرنامج، فكان يقول: هذه ليلة الشيخ صالح بن غصون، وهذه ليلة الشيخ عبدالله بن غديان، وهذه ليلة الشيخ محمد بن عثيمين، وهذه ليلة الشيخ صالح اللحيدان، وهذه ليلة الشيخ صالح الفوزان، وهذه ليلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله. وكان يُسرُّ بنشرهم للعلم، ويفرح بفتاواهم المسددة. وكان يستمع لبعض المحاضرات عبر الأشرطة، وكان يعلق كل أسبوع على محاضرات الجامع.

وكان إذا لاحظ ملحوظة على أحد من أهل العلم أباها له بكل لطف وأدب. وكان يعلق على كثير مما يقرأ عليه، وكان يعجب كثيراً من أساليب صاحب المعالي العلامة الشيخ الدكتور بكر أبو زيد، وكان يقول متعجباً: من أين يأتي الشيخ بكر بهذه الأساليب، والتراكيب؟!

وإذا طلب منه قراءة كتاب، أو تقديمه قرأه، وربما قدم له، وإن كان هناك من ملحوظات أباها، وربما قرأ الكتاب ولم يبد أي ملحوظة.

وإذا زاره أحد من أهل العلم ممن لهم باع في الكتابة والتأليف شكره على ما كتب، وأثنى على ما قرأه من ذلك، وسأله عما يكتب، وعما ينوي الكتابة عنه، وشجعه على مزيد من الكتابة.

وربما طلب هو بعض الكتب لبعض المعاصرين لقراءتها إذا دعت الحاجة لذلك.

٩- الذب عن أهل العلم، وإحسان الظن بهم: فكان يحسن الظن بأهل العلم كثيراً، ويحمل كلامهم على أحسن المحامل، ولا يرضى أن يُنالوا بأي سوء أو مكروه، وكان يدافع عنهم، ويحفظ أعراضهم، ولا يصدق ما يقال فيهم من سوء حتى يقف على حقيقة الأمر.

وإذا جاءه أحد من الناس، وقال: إن الشيخ فلان بن فلان قد قال: كذا وكذا مما لا يليق - نهره سماحة الشيخ، وقال: هو أوثق عندنا منك، أفنصدقك ونكذب الشيخ فلاناً؟ ونحو ذلك.

وإذا تثبت من صحة ما يقال عن فلان من أهل العلم من أنه أخطأ في أمر ما - أرسل إليه نصيحة، أو هاتفه، أو طلب حضوره، وبعد ذلك يبدي له وجه الخطأ، ويورد الأدلة على ما قال بأسلوب يفيض بالرحمة، والنصح؛ فما يكون من ذلك الشخص إلا أن يقبل كلام سماحته، ويدعو له.

١٠- الحرص على جمع كلمة أهل العلم: فكثيراً ما يبذل جاهه، وشفاعته، وعلمه، في سبيل جمع كلمة أهل العلم، ورأب ما يكون بينهم من صدع، وتضييق ما يحصل بينهم من خلاف؛ فكم جمع الله به من كلمة، وكم رأب به

صدع.

وكان كثيراً ما يقول لبعض العلماء: لا نود أن نختلف في أي مسألة، ونود أن تكون كلمتنا وفتوانا واحدة.

ولكنه إذا خُوف في أي مسألة اتسع صدره كثيراً للمخالف.

١١- **الوفاء لأهل العلم**: فهو كثير السؤال عنهم، والزيارة لهم، واستضافتهم، وتشجيع جنائزهم - كما مر -.

ومن صور وفائه لهم أنه كان يجري لبعضهم المخصصات، ويشفع لهم إذا احتاجوا.

ومن صور وفائه أنه كان يعتني بأهليهم من بعدهم، فإذا توفي أحد من أهل العلم سأل سماحته عن أهله، فإن كانوا محتاجين أمدهم، وربما خصص لهم مرتباً يجري عليهم.

وكان وفياً لزملائه من أهل العلم - على وجه الخصوص -.

١٢- **الفرح بالطلاب**: فلقد كان سماحته يفرح كثيراً إذا قدم عليه أحد من طلابه سواء القدامى، أو المتأخرين سواء كانوا من الداخل أو الخارج.

ثامناً: منهج سماحة الشيخ في التعامل مع ولاية الأمور: يتعامل سماحة الشيخ مع ولاية الأمور على وفق ما جاء في الشرع المطهر، ويمكن أن يلخص ذلك في الأمور التالية:

١- كان سماحة الشيخ يدين لولاية الأمور بالسمع والطاعة في المنشط والمكروه.

٢- وكان يدين لهم بالنصيحة، ويتعاون معهم على البر والتقوى.

- ٣- وكان يبين لهم الحق، ويرغبهم فيه، ويبين لهم الباطل، ويحذرهم من طريقه.
- ٤- وكان حريصاً على جمع الكلمة، وتحبيب الرعاة بالرعية، والرعية بالرعاة.
- ٥- وكان كثير المكاتبة للولاة في شتى المجالات التي يرجى من ورائها جلب النفع، أو دفع الضرر.
- ٦- وكان كثير البذل لشفاعته عند الولاة في سائر أنواع الشفاعات.
- ٧- وكان كثير الدعاء لهم بصلاح النية، والبطانة، والقول، والعمل.
- ٨- ولم يكن يتشوف إلى ما عند الولاة، أو يطمع بما لديهم من الجاه، أو المال، أو المنصب.
- ٩- وكان يقول: ربما نختلف مع ولاة الأمور في بعض الأمور، وربما يشتد النقاش، ولكننا نصطلح معهم، ويزول ما في النفوس؛ لأن الهدف هو النصح لهم وللمسلمين.
- ١٠- وكان يقول: الواجب علينا بيان ما نراه لهم، والاستمرار في بذل النصح دون توقف حتى الموت، وموقفنا في ذلك لا يتغير؛ فهذا الذي في وسعنا واستطاعتنا.
- ١١- كان يتأدب معهم، وينزلهم منازلهم، ويحسن مخاطبتهم ومكاتبتهم.
- ١٢- كان كثير الشكر للولاة إذا صدر منهم قرار صائب، أو مبادرة طيبة أو نحو ذلك.

١٣- كان يقوم بكل عمل يسنده إليه ولاية الأمور على أتم وجه وأكمله.
 ١٤- كان كثيراً ما يزور الولاية؛ لنصحهم، أو زيارتهم في حال المرض، أو الوصول، أو نحو ذلك.

١٥- وكان كثير المبادرة في تهنئة الولاية بسلامة الوصول، أو بالشفاء من المرض، أو بمناسبة حلول شهر رمضان، أو انقضائه، أو حلول العيد أو نحو ذلك، فكان يهاتفهم، أو يكاتبهم، أو يزورهم.

تاسعاً: منهج سماحة الشيخ مع المخالفين: لسماحة الشيخ رحمته الله منهج متميز مع المخالفين، ينطلق فيه من نصوص الشرع المطهر، الآمرة بالصفح، وأخذ العفو، ودفع السيئة بالحسنة، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والبعد عن كل ما ينافي العدل والإنصاف وشرف الخصومة.

فكان من منهج سماحة الشيخ مع المخالفين له أنه لا يُحْمَلُ كلامهم ما لا يحتمل، ولا يَتَقَوَّلُ عليهم ما لم يقولوه، ولم يكن يذكرهم بسوء، أو تجريح. بل لقد كان يحترمهم، ويقدرهم، ويتناسى أخطاءهم في حقه، ويقبل عذر المعتذر إليه منهم، خصوصاً من لهم سابقة، وفضل.

وإذا زاره أحد من مخالفه أظهر له الفرح، والتسامح، ومزيد العناية، وأظهر له المحبة، والحفاوة على سبيل دعوته، وتطبيب قلبه.

وإذا دعاه ذلك المخالف إلى مناسبة أو وليمة وافق سماحته، وأجاب الدعوة بلا تردد؛ ليزيل ما في نفس الداعي.

وإذا بلغه أن أحداً من المخالفين رماه بسوء، أو ذكره بدم لم يزد على أن

يقول: سامحه الله، سامحه الله.

وإذا مرض ذلك المخالف زاره سماحته، أو اتصل به عبر الهاتف؛ ليواسيه، ويدعو له.

وإذا مات قريب لذلك المخالف عزّاه، وزاره في منزله.

وإذا مات المخالف له دعا له، وزار أهله، وعزاهم، وأوصى من يوصل العزاء إلى زوجته إن كانت على قيد الحياة.

وإذا خالفه بعض الناس، وعاتبه في أمر ما-بين للمخالف موقفه، وتقبّل العتاب بصدر رحب.

هذه بعض أخلاقه مع مخالفيه، ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُونَ عَظِيمٍ﴾ فصلت: ٣٥.

لا يحمل الحقد من تعلق به الرتب ولا ينال العلامن طبعه الغضب

فكم وأد بذلك النهج السديد من عداوة، وكم استمال من قلب، وكم أطفأ من نار حقد.

عاشراً: تعامل سماحة الشيخ مع التجار والمحسنين: سماحة الشيخ لا يغفل أحداً من طبقات المجتمع، بل تراه يعطي كل أحد حقه، وينزله منزلته اللائقة به. ولا ريب أن للتجار والمحسنين مكانة ووجاهة، وأنهم سبب لقيام المشروعات الخيرية النافعة.

وسماحة الشيخ يتعامل مع هذه الطبقة بالحسنى، ويتعاون معهم على البر والتقوى، ولا يريد من ذلك مصلحة شخصية، بل يريد من وراء ذلك نفع

المسلمين، والإحسان إلى التجار والمحسنين، وذلك بدلالتهم على الخير، وحثهم وحثهم عليه، ولهذا ترى سماحته كثير الاتصال بهؤلاء، كثير الاستضافة لهم، كثير التعاون والتواصي معهم على الحق والصبر.

كما أنه ﷺ يعينهم على أنفسهم، ويذكرهم بفضل الإنفاق في وجوه الخير، ويكثر من شكرهم والدعاء لهم إذا قاموا بعمل نافع.

وفي المقابل فإن التجار والمحسنين يحبون سماحته، ويكونون له التقدير والمحبة والإجلال، كما أنهم يثقون به، ويصغون لنصحه وآرائه، ويستجيبون لنداءاته في البذل والإنفاق.

ثم إن سماحته تارة يدعوهم للإنفاق على سبيل العموم، وتارة يدعوهم على وجه الخصوص، وتارة يدعوهم لدعم المجاهدين، وتارة يدعوهم لطباعة الكتب، وتارة يدعوهم للمساهمة لجمعيات تحفيظ القرآن، وتارة يدعوهم لسداد ديون الفقراء، وتارة يدعوهم لدعم جمعيات البر، وتارة يدعوهم لدعم الهيئات والمؤسسات الخيرية في الداخل والخارج وهكذا

وإذا دعاهم هبوا - في الغالب - لإجابة نداءه؛ لما في نفوسهم من الخير، ولثقتهم بسماحة الشيخ، ولعلمهم بأنه سيضع الشيء في موضعه، ولعلمهم بدقته، وتحريه، ونظامه.

لقد كان هذا دأب سماحته من قديم إلى أن توفاه الله.

« العلم والدعوة والتربية في سيرة سماحة الشيخ »

حياة سماحة الشيخ رحمته الله حافلة بالعلم، والدعوة إليه، وتربية الناس عليه. سواء كان ذلك مباشراً، أو اقتداءً بأفعاله وسيرته.

ولو استرسل الحديث في ذلك لما كفاه مجلدات، والمقام لا يسمح بذلك، وفيما يلي ذكر لبعض المعالم في ذلك السياق:

أولاً: تفنن سماحة الشيخ في العلوم: لقد جمع الله لسماحة الشيخ علوماً شتى؛ حتى إنك إذا رأيتَه يتكلم عن علم من العلوم ظننت أنه تخصصه، وأنه لا يحسن غيره.

فسماعته إمام في الحديث، وعلومه، ومعرفة رجاله، وأحوال رواته، ومعرفة الصحيح من الضعيف، والموضوع، وسترى طرفاً وعجباً من ذلك عند الحديث عن ذاكرة سماحة الشيخ.

وسماحته فقيه من الطراز الأول، ويتجلى فقهه في فتاواه ورسائله الكثيرة. وإذا ناقش، أو نوقش، أو تكلم أو سئل عن شيء يتعلق بالعقيدة ظن السامع أن سماحته لا يحسن إلا هذا الفن.

وإذا تكلم على تفسير بعض الآيات قلت: هذا هو فنه؛ ففي بعض الأحيان إذا صلى سماحته الفجر، وقرأ بعض الآيات بالمصلين لما كان إماماً، أو سمعها من الإمام لما كان مأموماً، ثم رجع إلى بيته - طلب عدة تفاسير؛ ليقف على ما قاله المفسرون في معنى الآية أو الآيات.

وبعد ذلك تراه يرجع بعض التفاسير على بعض، وربما مال إلى معنى لا يخطر

بالبال ، وربما قيده على حاشية بعض التفاسير.

وهكذا علم الفرائض فهو فارس ميدانه ، وإن الإنسان ليعجب من هذا الرجل الضرير حين يَحْضُرُ دروسه ، ويرى ضَبْطَهُ لمسائل الفرائض ، وقسمة التركات حتى لكأنه يقرؤها من كتاب.

وكذا إذا تلکم في النحو ، قلت هذا عالمه ، وهكذا في سائر الفنون الأخرى.

وقد مر ، وسيمر في ثنايا الكتاب ما يؤكد ذلك ، ويبرهن عليه.

ثانياً: تحضير سماحة الشيخ للدروس: كان سماحة الشيخ رحمته الله يُحَضِّرُ

للدروس في الغالب؛ فكان يُقرأ عليه ما يتعلق بدرس الصباح من الشروح كفتح الباري ، والمجموع شرح المذهب ، ونيل الأوطار ، والمنتقى وغيرها من الكتب المتعلقة بالدرس الذي يليه بعد الفجر ، وبدرس بلوغ المرام.

وربما رجع إلى تعليقاته في شروحه القديمة؛ لكي يسترجع معلوماته.

هذا بالنسبة للدروس ، أما المحاضرات فلا يكاد يحضّر لها ، وإنما يسأل عن

عنوانها قبيل الوصول إلى مكان المحاضرة.

ومن النادر أن يقول قبل وصوله إلى مكان المحاضرة: دعوني أتأمل قليلاً.

وإذا أُعلن عن إقامة صلاة الاستسقاء طلب بعض الكتب التي تبحث في هذا

الموضوع ، وكان يطلب في - الغالب - إحضار كتاب المقنع ، فيقرأ عليه باب

الاستسقاء.

وكذلك الحال بالنسبة للعديد والكسوف؛ حيث يطلب الكتب المتعلقة بهذا

الشأن.

ثالثاً: عناية سماحة الشيخ بالدعوة إلى الله: الدعوة إلى الله - تعالى - تجري في عروق سماحة الشيخ، فحياته، ومجالسه الخاصة والعامة، وتعامله مع الناس على اختلاف طبقاتهم، ومكاتباته، ومراسلاته، ومؤلفاته، ودروسه كل ذلك يصب في قالب الدعوة إلى الله، وتربية الناس على الدين الحق.

والصفحات الماضية والآتية شاهد على ذلك.

ولقد كان رحمته الله منذ نشأته حريصاً على الدعوة إلى الله، بأذلاً وقته وماله، وعلمه، وجاهه في ذلك السبيل.

وهذا الأمر يعرفه القاضي والداني، فلا يكاد أحد في عصره يدانيه في ذلك الشأن؛ فهو إمام الدعاة في عصره، وهو المرجع الأول لهم، وهو الذي يشرف على إرسال الكثير من الدعاة، وتعيينهم ومتابعتهم، وإجراء الرواتب لهم، وإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه.

رابعاً: سماحة الشيخ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: سماحة الشيخ إمام عصره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فهذا دأبه، ومنهج حياته؛ فلا يكاد يذكر له معروف إلا أيده، ودعا لصاحبه، ودعمه بكل ما يستطيع.

ولا يكاد يذكر له منكر صغيراً كان أم كبيراً خاصاً، أم عاماً، وسواء كان من فرد أو من جماعة إلا بادر إلى إنكاره، وتغييره بما يستطيع.

وإذا زاره أحد، أو اتصل به بشأن منكر من المنكرات لم يفلس من سماحة الشيخ ومشاركته في الإنكار، بل يجد القلب الكبير، والغيرة الصادقة، والإخلاص المنقطع النظير.

وسماحته - كما مر - لا يتعاضم شيئاً مما ينكره ، وفي الوقت نفسه لا يحتقر شيئاً يقوم بإنكاره ، فتراه ينكر المنكرات الكبيرة على مستوى الأمة .

وينكر في الوقت نفسه المنكرات التي تقع من بعض الناس كتارك الصلوات ، وإسبال الثياب ، وحلق اللحية .

فإذا سمع بمنكر في مكان ما ، أو دولة ، أو صحيفة بادر إلى الإنكار .

وإذا بلغه أن شباباً يجتمعون في مكان ما في وقت الصلاة كتب إلى الجهات المختصة حول هذا الأمر .

وإذا سار بجانبه أحد ، وشعر سماحته بأن ثوب ذلك الذي يسير معه طويل ، أو أنه يجرب عباءته - أنكر عليه .

وإذا سمع أن الدائرة الفلانية يشيع فيها منكر معين كتب إلى المسؤولين فيها ، يحثهم على تغيير ذلك المنكر .

وإذا سمع عن بدعة ، أو عمل ينافي العقيدة في مكان ما - بادر إلى إنكاره ، وإذا أُخبر أن فلاناً من الناس متلبس بمنكر معين استدعاه ، ونصحه ، أو هاتفه ، أو راسله .

وكان من منهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه يتثبت ، ويتحرى ، ويطلب البينة .

وإذا ثبت لديه وقوع منكر من شخص أو جهة كتب إليهم ، وخاطبهم مشافهة ، أو استدعى من يعنيه الأمر ، ثم أنكر عليه بلطف ، وبين له الأدلة على ما يقول ، ورغبه في الخير ، وحذره من الشر ؛ فما يكاد يقوم بهذا الأمر إلا ويجد

القبول، والاستجابة؛ فكم درأ الله به من مفسدة، وكم قضى الله على يديه من منكر، وكم أحيا به من سنة، وقمع به من بدعة.

وكان كثيراً ما يحث على إحياء هذه الشعيرة، ويؤكد على ضرورة التواصي بها، ويكتب الرسائل في الحث على هذا الأمر، وكان ذلك دأبه طيلة حياته.

خامساً: تربية سماحة الشيخ لطلابه: سماحة الشيخ رحمته الله يربي طلابه على مكارم الأخلاق، وعلى اتباع الدليل، وعلى احترام العلماء، وتنزيلهم منازلهم. وكان محباً لطلابه، شديد الاحتفاء بهم سواء طلابه القدامى، أو من بعدهم. وكان رحمته الله يدرّبهم على البحث، والنظر في الأدلة.

وإذا سئل أثناء الدرس عن مسألة، أو عن صحة حديث، أجاب على السؤال في الحال، وإذا كان يتطلب التثبت والتأكد من درجة الحديث، أو عن حكم المسألة - كلف أحد تلاميذه بجمع كلام أهل العلم في المسألة، ثم يعرضه على سماحته.

فإذا أعد الطالب ما طلب منه قرأه على سماحة الشيخ في الدرس، فيفرح سماحته بذلك، ويدعو للطلاب.

وإذا سئل عن مسألة، وليس عنده علم منها قال: لا أدري، وإذا كان عنده أحد من أهل العلم سأله عن المسألة التي لا يعلمها، ولو كان المسؤول أقل علماً من سماحته بكثير.

ومن تربيته لطلابه، أنه كان يجرهم، وينهرهم إذا استدعى المقام ذلك؛ فمن ذلك أنه إذا سأله بعض الطلاب سؤالاً فيه تعنت، أو تكلف قال له الشيخ: البحث

المسألة، وارجع إلى كلام أهل العلم.

وربما غضب الشيخ على السائل -وذلك قليل- إذا شعر أن السؤال فيه تشدد، أو اعتراض على حكم، أو تنقص لأحد من أهل العلم.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله -: «أذكر مرة أن أحد الطلاب سأل سماحة الشيخ عن مقادير الديات، وقال: يا شيخ الدية الآن فيها ظلم للمسلم؛ فإنها تحدد بمائة ألف، وأصلها مائة من الإبل؛ فلو أن الإبل المذكورة في دية المسلم عرضت في السوق للبيع لبلغت قيمتها أكثر من مائة ألف؛ فلو أعيد النظر في تقدير الدية.

فرد عليه سماحة الشيخ بشدة، وقال: الذي قدر الدية علماء أعرف منك، وأنت تعترض، وأنت في بداية الطريق؛ فيجب عليك أن تتأدب وتترك الكلام الذي لا يعينك».

ومع ذلك فإن الرفق والتحمل هو دأب الشيخ، ولكنه يتقصد تربية الطلاب حتى يكونوا على منهج سوي، وخلق فاضل.

ولهذا فإن سماحة الشيخ إذا زجر طالباً أو نهره لم يحمل في نفسه على الطالب شيئاً، وإنما ينتهي الأمر بمجرد انتهاء المجلس.

أما إذا كان السائل يريد الحق فإن سماحة الشيخ يصبر عليه، ولا يزره، ولا ينهره، بل يتلطف به حتى ينال بغيته من سماحته.

سادساً: سماحة الشيخ والشعر: سماحة الشيخ عبدالعزيز رحمته الله متذوق للشعر، بصيرٌ به، محبٌ لحسنه، منتقد لبعض الأبيات التي يسمعاها.

يقول الشيخ محمد موسى - حفظه الله - : « وأثناء قراءتي عليه في بعض الكتب كانت تمر أبيات شعر كثيرة ، فكان سماحته يقف عند بعضها أحياناً ، ويقول : هذا البيت وزنه كذا وكذا ، وهو من بحر كذا وكذا ، وأحياناً يقول : هذا البيت منكسر ، وصوابه لو قال : كذا وكذا .

وكثيراً ما ينتقد بعض الأبيات من الشعر ، حيث يقف عندها ، ويطلب إعادة قراءتها ، ويقول : كان ينبغي أن يقول كذا وكذا ، أو ينبغي أن يعدل إلى اللفظة الفلانية بدل هذه اللفظة . . وهكذا .

وسألته ذات يوم : ألم تقل شعراً يا سماحة الشيخ ؟

فقال : قلت مرة ، ونسيته ، ولم أقل شعراً بعد ذلك .

وكان ﷺ يردد بعض الأبيات الشعرية ، وكثيراً ما أسمعته يردد قول ابن القيم في النونية :

والحق ممتحن ومنصور فلا تعجب فهذي سنة الرحمن

وكذلك كان يردد بيت أحمد شوقي :

دقات قلب المرء قائلة له : إن الحياة دقائق وثواني

وكان ﷺ محباً لسماع الشعر الحسن الذي يحمل المعاني السامية التي تحث

على الخير ، وتنهض بالهمة ، وتصور أحوال المسلمين .

وأذكر في هذا الصدد أن سماحته ﷺ كان مدعواً عام ١٤١٠ هـ لإلقاء

محاضرة في مسجد سمو الأمير عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن ، وبعد

إلقاء المحاضرة توجه إلى منزل الأمير عبدالرحمن ، حيث إن الأمير قد دعاه إلى

طعام العشاء.

وكان ضمن الحاضرين في تلك المأدبة الشيخ حسن المانع رحمته الله.
والشيخ حسن كان معلماً في معهد إمام الدعوة العلمي، وكان كفيفاً، وحافظاً
لكثير من الشعر، وكان ذا صوت ندي شجي.

فقال الأمير عبدالرحمن لسماحة الشيخ: هذا الشيخ حسن يا سماحة الشيخ
صوته جميل، ويحفظ بعض القصائد المؤثرة، فأمل أن تأذنوا له بإلقاء بعض
القصائد، فقال سماحته: لا بأس، فليلق ما شاء، فاستحيا الشيخ حسن،
وقال: لا يليق بي أن أتقدم بين يدي سماحتكم، فألح عليه سماحة الشيخ،
وقال: أسمعنا ما عندك.

بعد ذلك شرع الشيخ حسن رحمته الله بإلقاء قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء
الأندلس والتي مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُعْرَبُ طيب العيش إنسان
فلما استمر في إلقائها، تأثر سماحة الشيخ كثيراً، وبكى بكاءً شديداً؛ إذ إنها
ذكرته بما مر على المسلمين في تلك البلاد، وذكرته بأحوال المسلمين المعاصرة في
كثير من البلاد.

وكان يستشهد بالشعر في بعض كتاباته؛ حيث يضمها بيتاً أو أبياتاً من الشعر
تناسب ما هو بصدده.

سابعاً: وصايا كان سماحة الشيخ يكثر منها: وصايا سماحة الشيخ كثيرة
جداً، وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.

إلا أن هناك وصايا معينة كان سماحته يوصي بها كثيراً سواء في كلماته، أو محاضراته، أو مكاتباته، أو نصائحه الشفوية للأفراد، ومن تلك الوصايا ما يلي:

- ١- الوصية بتقوى الله - سبحانه - .
- ٢- العناية بالقرآن الكريم حفظاً، وتدبراً، وتحاكماً، وعملاً.
- ٣- العناية بالسنة، والعمل بها، والوصية بحفظ ما تيسر منها.
- ٤- الحرص على الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ذلك.
- ٥- العناية بكتب العقيدة، والوصية بحفظ ما تيسر منها، كالعقيدة الواسطية، والحموية، والتدمرية وغيرها من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله.
- وكتاب التوحيد، وثلاثة الأصول، وكشف الشبهات لشيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمته الله.
- ٦- الوصية بكتب الحديث كالبخاري ومسلم، وبقية كتب السنة والمسانيد، وغيرها، مع حفظ ما تيسر من كتب الحديث كعمدة الأحكام للمقدسي رحمته الله وبلوغ المرام لابن حجر رحمته الله والأربعين النووية للنووي مع تتمتها لابن رجب -رحمهما الله-.
- ٧- الوصية باجتماع الكلمة، والتحذير من التفرق والاختلاف.

« سماحة الشيخ في أيامه الأخيرة »

أولاً: بداية مرضه الأخير: يروي الشيخ محمد موسى أيام سماحة الشيخ الأخيرة، ووفاته فيقول: «في أواخر شهر شعبان عام ١٤١٩هـ وبالتحديد في ١٤/٨/٢٦هـ قال لي سماحة الشيخ: أنا منذ فترة وأنا أشعر بألم هنا، وأشار إلى ما تحت التجويف الصدري.

ويقول: لقد صبرت عليه لعله يزول، ولكنه استمر معي. فقلت لسماحته: يا سماحة الشيخ! مثلكم لا يُعلم؛ فليتكم أخذتم بالأسباب. ومنذ ذلك اليوم بدأ يراجع المستشفى التخصصي في الرياض. وفي شهر رمضان كان يعاني من الآلام عند الأكل والشرب، وفي بعض الأيام كان يعاني من الآلام إذا جاء وقت الإفطار، فكان لا يستطيع بلع الطعام، ويلاقي من ذلك تعباً عظيماً، ويحصل معه تقيؤ؛ فيضطر إلى الدخول إلى منزله. وإذا أُذُنٌ بالعشاء خرج للصلاة وكأنه لم يصب بشيء قط؛ فيذهب إلى المسجد، ويستمع للحديث الذي يقرأ عليه، ثم يقوم بالتعليق على ما يسمع، ويجيب على أسئلة السائلين، ويؤدي صلاة العشاء، والتراويح، ثم يرجع إلى منزله، ويجلس مجلسه المعتاد، ويستقبل الناس على اختلاف طبقاتهم، وحاجاتهم، ويمضي الساعتين أو الثلاث وهو لم يأكل إلا القليل من الطعام. وفي آخر الشهر لم يكن يتناول إلا بعض السوائل، ومع ذلك لم يتغير شيء من عاداته، فعمله في النهار وبعد الفجر، وبعد المغرب، وبعد العشاء هو هو. وبعد رمضان كان لا يتناول أي طعام، ومع ذلك لم يتغير شيء من عنايته

بضيوفه؛ فكان إذا قدم من العمل في الساعة الثانية والنصف ظهراً يمر بالمجلس الذي يضم عشرات الضيوف، فيسلم عليهم، ويدعوهم إلى مكان الطعام، فإذا أخذوا أماكنهم قال لهم: تفضلوا، وسأحوني أنا عندي بعض الحمية، ويدخل بيته.

ولما علم خادم الحرمين الشريفين بما حصل لسماحته اتصل به، واطمأن عليه. وكذلك صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز كان حريصاً على سماحة الشيخ، ولقد عرض عليه مراراً أن يسافر للخارج للعلاج، ولكن سماحته لم ينشر صدره للسفر.

ثم إن سموه - حفظه الله - أمر بإحضار عدد من الأطباء من خارج المملكة للكشف على سماحته، ووصف العلاج المناسب له، فتم اختيار اثنين من الأطباء المختصين من أمريكا، واثنين من بلجيكا ولما اجتمعوا، وفحصوا حالة الشيخ أوصوا بكَيِّ المريء، فصار الشيخ يتردد إلى المستشفى إذا خرج من درس الفجر في الساعة السابعة والنصف فيأخذ جلسة طبية، ثم يعود إلى بيته، ثم يذهب إلى عمله في الرئاسة.

ولم يتأخر في تلك الأيام يوماً واحداً عن الدوام، واستمر على هذه الحال مدة؛ فكانت الاتصالات لا تنقطع في الداخل والخارج تسأل عن صحة سماحته، وكان كبار المسؤولين يقومون بزيارته، والسؤال عنه، وكان العلماء يتوافدون عليه، وكان سماحة المفتي الحالي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ يأتي لزيارة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمته الله فيقوم بالنفث عليه، ويكي

تأثراً لحاله.

وأذكر أن المرض اشتد به في يوم الجمعة من شهر شوال عام ١٤١٩هـ لما كان في الرياض، فكان يعاني معاناة شديدة، وقد تقياً في ذلك اليوم، ولم يستطع الصلاة مع الناس لا الجمعة، ولا العصر، ولا المغرب، ولا العشاء؛ فأرأوا نقله إلى المستشفى، فجاءه المحبون له، ومن بينهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ - حفظه الله - فقال لهم: أبشركم حالتي مستقرة، والأمر يسير، وسأذهب إلى المستشفى وسأعود بإذن الله.

ثم ذهب إلى المستشفى وهو في حال من الإعياء، والألم، والإرهاق، فعملوا له منظاراً، وأعطوه بعض المغذيات، والعلاجات، فاستقرت حالته.

ولما اتَّصَلْتُ ببعض المرافقين له، وسألتهم عن حالته، قالوا: إنه بخير، ولكنه يجب أن تُقرأ عليه المعاملات أو الكتب، فقام أحد المرافقين له بالقراءة، فقرأ قدرًا لا بأس به، ثم ناموا، فلما جاء وقت التهجد قام سماحته على عادته، فصلى ما شاء الله أن يصلي إلى أن حان وقت أذان الفجر، فصلى الفجر بمن معه، ثم استقبلهم بوجهه وألقى عليهم كلمة، ثم أتى بالأذكار كاملة.

وبعد ذلك سأل الأخ صلاح - أمين مكتبة سماحة الشيخ -: ماذا معك يا صلاح؟ قال: معي فتح الباري، وفتح المجيد.

فقال له: سمَّ الله، اقرأ، فقرأ عليه إلى حوالي الساعة والنصف.

ثم ذهبت إلى المستشفى؛ لأطمئن على سماحته في الساعة الثامنة والنصف.

فلما دخلت على سماحته - وكنت أظنه نائماً - وجدته جالساً على كرسي

يقرأ القرآن، فسلمت عليه فرد السلام، وقال: ماذا معك؟ فقلت: معي معاملات كثيرة، ومعني الجزء الثاني عشر من فتاوى اللجنة الدائمة حيث صدر حديثاً من المطابع، فقرأت عليه معاملة طويلة تتكون من اثنتي عشرة صفحة، ثم بدأت بكتاب فتاوى اللجنة فقرأت عليه أربعين صفحة، فجاء ابنه عبدالله فبدأ يكمل القراءة إلى أن بلغ الصفحة الخمسين.

ثم جاء بعد ذلك الأطباء؛ ليطمئنوا على صحة سماحته، وقالوا له: لقد تحسنت حالتك والله الحمد، فقال: إذاً ماذا ننتظر؟ ألا تأذنون لي بالخروج؟ قالوا: لا بأس، فخرجنا من المستشفى، فقال له ابنه أحمد: سنتجه يا والدي إلى المنزل إن شاء الله، فقال سماحته: بل إلى المكتب، فقال له أحمد: إذاً ننتظركم بعد الظهر مباشرة للغداء، قال: بل نأتيكم في الموعد المعروف، أي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، أي بعد نهاية الدوام.

وهكذا استمرت صحة الشيخ تتدنى حتى شهر ذي القعدة؛ حيث أوصى الأطباء بأن يبقى في المستشفى عدة أيام، ولكنه لم يوافق؛ إذ كان قلبه متعلقاً بالحج، وكان عازماً عليه؛ مما حدا بالأطباء إلى أن يكثرُوا الإلحاح عليه، وعلى أبنائه ليقنعوه بترك الحج ذلك العام؛ حفاظاً على صحته.

كما أن الأمير عبدالله نصحه بترك الحج؛ رافة بحاله.

وبعد إلحاح شديد طويل وافق على ترك الحج ذلك العام، ووجه نائبه سماحة الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ بأن يقوم مقامه بالحج، ولما وصل الخبر إلى سماحة نائبه بكى، وتأثر أيما تأثر.

وهكذا عدل سماحته عن الحج، والأسى يعتصر قلبه، وكان يقول: الله المستعان سبع وأربعون سنة متتابعة لم أترك الحج. وليس هذا عدد حججه، بل هذا عدد حججه المتتابعة، أما عددها جميعاً فتبلغ اثنتين وخمسين حجة.

وفي ٢٢/١٢/١٤١٩هـ توجه سماحته إلى مكة، وأدى العمرة، ومكث في مكة إلى نهاية ذي الحجة، ثم ذهب إلى الطائف.

وفي آخر ليلة قضاها في الرياض جاء الناس إليه أفواجاً تلو أفواج للسلام عليه، وتوديعه؛ حيث جاء المئات من المسلمين والمودعين، وقد حسبتُ مَنْ ضَمَّهم المجلس في آن واحد وإذا هم ثمانون شخصاً قد امتلأت بهم المقاعد، وجلسوا على الأرض، والذين خرجوا قبلهم أكثر منهم».

ثانياً: تدني صحة سماحة الشيخ: ولما وصل إلى الطائف بدأت صحته بالتدني، ولكن همته، وعزيمته، ونشاطه، وعمله، ومزاجه وتفكيره وذاكرته، وعنايته بضيوفه، كل ذلك لم يتغير منه شيء مع أنه يعاني أشد المعاناة، ومع أنه كان في رمضان لا يستطيع أن يتناول إلا تمرة أو تمرتين في اليوم، وبعد رمضان لم يكن يتناول إلا سوائل قليلة جداً من حليب، أو شوربة أو ما شاكل ذلك، وهكذا في شوال.

أما في ذي القعدة وذي الحجة والمحرم فلم يكن يتناول إلا السوائل، بل لم يكن يتناول في اليوم إلا كأس حليب صغيراً، حتى التمر الذي كان أحب الطعام إليه- كما يقول- لم يكن يستطيع تناوله؛ فلم يكن يتناول إلا كأساً صغيراً من

الحليب ، وكان يشربه بتكرُّهٍ ، وإذا كثُر الإلحاح عليه شرب ثانياً على مضض ؛ لأنه كان يعاني من جرَّاء الشرب ، ويظهر عليه التأثير إذا تناول ثانياً ، وربما تقيأه ، وكان يؤتى له بعصير الجزر ، فكان لا يستطيع أن يتناول إلا ربع الكأس ، واستمر على تلك الحال حتى فارق الحياة .

ومع هذا كله فإن عمل سماحته هو هو .

ثالثاً: آخر دروسه التي ألقاها ، وآخر يوم له في الدوام : يقول الشيخ محمد الموسى : « ولما وصلنا إلى الطائف عزم سماحته على البدء بإلقاء دروسه المعتادة ؛ فقلت له ؛ رافة بحاله : إن كثيراً من الطلاب والمدرسين الذين يحضرون دورسكم مشغولون هذه الأيام بالامتحانات ، ويرغبون أن تؤجلوا الدروس ؛ لتعم الفائدة . فقال ﷺ : الدرس سيبدأ يوم الاثنين الآتي في أول شهر الله المحرم ، والذي يحضر حياه الله ، ولن نتوقف ؛ فبدأت دروسه ، واستمر في إلقائها ولم يكن يأتي من الدرس إلا بعد ساعتين من بدايته .

وآخر درس ألقاه كان في يوم الاثنين ١٧/١/١٤٢٠هـ ، وقد استمر في الدرس حتى الساعة الثامنة صباحاً أي أن مدة الدرس استمرت قريباً من ثلاث ساعات . وأذكر أنه سألني بعد الدرس عن الساعة فقلت : الساعة الآن الثامنة ، فقال : تأكد لعلها السابعة ؛ فقلت : بل هي الثامنة يا سماحة الشيخ ، فقال : ما ظننت أنها ثمان ، القراء كثيرون ، والوقت يمضي دون أن ندري ؛ فهذا آخر درس ألقاه ﷺ .

أما الدوام الرسمي فكان مستمراً فيه إلى يوم الثلاثاء ١٨/١/١٤٢٠هـ وذلك لما كان في الطائف ؛ فذلك آخر يوم في دوامه الرسمي .

رابعاً: بقية أيامه الأخيرة: يقول الشيخ محمد موسى: «أما بقية أيامه فاستمر فيها يستقبل الناس، ويقوم بأعماله الأخرى كعادته، وفي يوم الأربعاء ١٩/١/١٤٢٠هـ صلى الفجر مع الجماعة، وبعد الصلاة جلست معه لعرض بعض المعاملات، وعرض عليه الشيخ عبدالرحمن بن عتيق ثلاث معاملات، ثم التفت إليّ فبدأت أقرأ مما كان معي، فقال: أحس بالتعب وأريد الراحة، وكان مرهقاً جداً؛ فلما أمسكت بيده لأدخله داخل المنزل قال: ما أضعف العبد؛ ما كنت أظن أن الإنسان يصل إلى هذا الحد.

ولم يخرج من بيته ذلك اليوم لا للعمل، ولا للمسجد.

ولما كان يوم الخميس ٢٠/١/١٤٢٠هـ حضر ابنه عبدالرحمن وأحمد، ونقلاه إلى مستشفى الهدا بالطائف، وفي المستشفى أجري له اللازم من المغذيات والأدوية، ولكن الألم يشتد عليه، ومع ذلك فنحن موظفي مكتب البيت وغيرنا مرافقون له في المستشفى، ومعنا معاملاتنا، وأوراقنا والمعاملات ترسل إليه -أيضاً- من مكتب الرئاسة، ويأتيه معالي الشيخ عبدالعزيز بن ناصر بن باز، ومعالي الدكتور محمد الشويعر، والدكتور عبدالله الحكمي والشيخ محمد ابن راشد؛ لعرض ما عندهم.

وتقرأ المعاملات عليه عبر الهاتف من طريق فضيلة الشيخ عبدالله بن محمد ابن حمود الزيد، والمستفتون عبر الهاتف لا يتوقفون عن الأسئلة.

والزوار من أمراء، وعلماء، وأعيان، ووجهاء، وعامة لا يحصون.

وسماحة الشيخ يستقبلهم بكل ترحاب، وتهلل وفرح، وسعة بال، واستمر

على تلك الحال إلى يوم الثلاثاء ٢٥/١/١٤٢٠هـ.

خامساً: ملحوظات عجيبة على سماحة الشيخ في آخر أيامه: يقول الشيخ محمد موسى: «لقد لحظت على سماحة الشيخ في أيامه الأخيرة ملحوظات عجيبة غريبة منها:

- أنه منذ شهر رمضان كان كأنه يستعد لفراق هذه الدنيا؛ حيث كان يكثر من ترداد كلمات معينة كقوله: الله يحسن لنا الختام، الله يتوب علينا، ويميتنا على الإسلام.

- وأنه قد أوفى كل ما يتعلق بدمته.

- وأنه قد سامح كل من لديه حق لسماحته من ديون أو غير ذلك.

- وأنه كان حريصاً كل الحرص على إنجاز كل ما لديه من الأعمال، والمعاملات وغيرها، ونرى عليه الفرح بما ينجز من المعاملات، وقضاء حاجات الناس.

- وأن ذاكرته تزداد، وتقوى.

- وأن خلقه وطيب نفسه، وانشراح صدره، وقوة تحمله لا أقول كان على مثل ما كان عليه، بل كان أكثر وأعظم مما عليه من الخلق، وطيب النفس، وانشراح الصدر، وقوة التحمل.

- وأنه لما كان في المستشفى في أيامه الأخيرة لم يكن يهمل أي رسالة تأتيه برغم شدة وطأة المرض عليه، حتى إن أحد الناس أرسل إلى سماحته رسالة أبان خلالها عن عظيم محبته ومحبة الناس لسماحته، ودعا له دعوات عظيمة، وبلغه

دعوات الناس له.

فرد عليه سماحته بجواب مناسب له، حيث ضمنه شكره، والدعاء له بالتوفيق، وسؤال الله أن يميتته وإياه على الإسلام.

- وأنه كان لا يلهيه المرض عمن حوله؛ فكان لا يترك أحداً ممن كانوا معه إلا ويسأله عن أهله، وعن أولاده، وعن أحوالهم، ويقول لهم: عساكم تتصلون على أهليكم، خصوصاً وأن بعض من في الطائف مع سماحته كان أهلوهم في الرياض.

- وكذلك الآتون إليه يسألهم عن أحوالهم، وعن أحوال المسلمين.

- وأنه لم يترك سنة من السنن الراتبية القبلية والبعديّة، ولم يترك ذكراً من الأذكار، أو سنة من السنن التي كان يقوم بها إبان صحته.

ولقد تقصّدت مراقبته في أيامه الأخيرة في صلاته؛ فكان يجافي بين عضديه، ويجلس في مصلاه بعد الصلاة ليأتي بالأذكار، وإذا سلم عليه أحد وهو يؤديها أشار إليه أن انتظر قليلاً.

بل لقد شاهدته يطبق سنن الصلاة كاملة يوم الثلاثاء ١٤٢٠/١/٢٥ هـ أي قبل وفاته بيومين، وقد لفت انتباهي عنايته بتطبيق السنة.

- ولما دخل المستشفى في ١٤٢٠/١/٢٠ هـ بعد أن أنهكه المرض، وفتك بجوفه، وأنحل جسمه كنا نراه أحياناً يضع يده على موضع الألم، ومع هذا لا تراه يشكو إلى أحد، ولا يظهر أنه يعاني من شدة المرض.

بل تراه كلما استعاد نشاطه وأعطيت له المغذيات والمهدئات بدأ يستقبل عرض المعاملات وهو على سريره.

سادساً: محاولات إرساله للخارج للعلاج: مر قبل قليل أن سماحته مكث في المستشفى إلى يوم الثلاثاء ١٤٢٠/١/٢٥هـ وفي ذلك اليوم طلب الخروج؛ لأنه لم يجد فائدة من وجوده في المستشفى.

وبعد ذلك توالى الاتصالات من المسؤولين الكبار لأجل إقناعه بالسفر إلى الخارج للعلاج؛ فخرج سماحته من المستشفى، وقد بلغ به الإعياء مبلغه، حيث تورمت قدماه، وصار مشيه ضعيفاً، ولم ينم تلك الليلة التي خرج فيها من المستشفى، وكأنه في تلك الأثناء قد انشرح صدره للسفر إلى الخارج، والذين حوله يلتمسون الخيرة في سفره أو بقاءه.

هنالك قال له ابنه الشيخ أحمد: ليتك يا والدي تتأمل أكثر وأكثر في موضوع السفر.

وفي تلك الأثناء اتصل صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله ولي العهد يريد رأي سماحة الشيخ في السفر؛ فقال سماحته: نتأمل.

سابعاً: آخر يوم في حياة سماحة الشيخ: يقول الشيخ محمد موسى: «وفي يوم الأربعاء ١٤٢٠/١/٢٦هـ أخذ سماحته ضحى ذلك اليوم قسطاً من الراحة؛ لأنه لم ينم في الليلة التي قبلها.

وبعد الظهر كنت أنا والدكتور محمد الشويعر، والشيخ عبدالرحمن بن عتيق في مكتب البيت، فخرج علينا ابنه الشيخ أحمد، وقال: الوالد جالس داخل المنزل؛ لعلكم تأتون إليه؛ لأنه يرغب في عرض ما لديكم من المعاملات عليه، فحضرنا عنده جميعاً وكان معنا - أيضاً - ابنه عبدالله وعبدالرحمن، فلما جلسنا

إليه وجدناه مرتاح البال، منشرح الصدر، فاستبشرنا كثيراً وحمدنا الله على سلامته.

وقال لنا: لقد تأملت موضوع السفر كثيراً، واتفقت أنا والأبناء على أنه يذهب بعضهم إلى أمريكا، ويعرض التقارير على المستشفيات المشهورة هناك، ويؤخذ رأيهم، وبعد ذلك ننتظر ماذا يختار الله لنا.

وهكذا كتب الله لسماحة الشيخ أن لا يغادر البلاد أبداً، وألا تُجرى له أي عملية جراحية طيلة حياته.

وبعد ذلك سأل عن أخبار ذلك اليوم، وكان الدكتور محمد الشويعر معه صحف ذلك اليوم فاستعرضها عليه، وقرأ النشرة الإخبارية، ثم شرعنا بقراءة ما معنا من المعاملات من طلاق وغيره، وأخذت أتناوب مع معالي الدكتور محمد، فقرأنا عليه في تلك الجلسة ما يقارب خمساً وعشرين معاملة، وبعض المعاملات تبلغ ثلاث صفحات أو أكثر أو أقل، ويقدر مجموع ما قرأناه ثلاثين صفحة أو تزيد، خصوصاً وأن الدكتور محمد سريع القراءة، حسن العرض، فأجرى سماحته عليها اللازم.

ومن بين تلك المعاملات رسالة جاءت من إحدى البلاد الأوروبية بواسطة الفاكس، حيث ذكروا فيها أن (فلاناً) من المعروفين لدى سماحة الشيخ سيقدّم علينا، وهو الوحيد الذي نستفيد منه، وكانوا قد استعدوا للقاء كبير، واجتماع للبحث في أمور الدعوة، وقالوا: إنه وصلنا بعض الأشرطة (لفلان) من الناس يحذر من هذا الرجل، ويقول: إنه حزبي، وإنه ينتمي إلى الجماعة (الفلانية)،

ونحن نرغب من سماحتكم إفادتنا عنه ، هل نقبله؟ أو أن ما قاله عنه ذلك القائل صحيح ، وحينئذ نرده؟

فأجابهم سماحته: بأن ذلك الشخص المقدوح فيه من أهل السنة والعقيدة الطيبة ، وما قاله عنه فلان غير صحيح ، وأرسل جواباً سماحته بواسطة الفاكس ، وتم الاجتماع ، وانتهت الفتنة.

وبعد ذلك سأل سماحة الشيخ عن الساعة فقلنا: الساعة الآن الثالثة إلا خمس عشرة دقيقة؛ فقال: تغدوا مع الضيوف ، وأنا سوف أجلس بعد المغرب للناس؛ فقمنا للضيوف ، واستبشرنا بذلك ، وبشرنا الناس بسلامة الشيخ ، وتذكرنا مرض الرسول ﷺ وخروجه للناس.

ثم أصبح الناس يتناقلون البشرى بسلامة الشيخ ، ومن قدر على المجيء حضر إلى الطائف ، ومن لم يقدر اتصل بالهاتف.

وبعد صلاة المغرب جاء الناس إلى منزل سماحته ، واكتظ بهم المجلس ، وانتظموا للسلام عليه وهم على أحر من الجمر؛ شوقاً لرؤياه ، ثم جاء سماحته إلى المجلس على العربة يقوده ابنه الشيخ أحمد ، ودخل على الناس قادماً من طريق غير طريقه المعتاد؛ حيث دخل المجلس من طريق الغرفة التي يوضع فيها الطعام ، وربما كان ذلك بتوجيه منه؛ حتى لا يراه الناس وهو يسير على العربة؛ فيتكدروا ، ولما اقترب من المجلس ترجل من العربة ، وسار على قدميه؛ ليريهم أنه بخير وعافية.

ثم دخل المجلس مبتسماً يتهلل وجهه بشراً ، وسكينة ، وسروراً؛ فقلنا: هذا

هو شيخنا كأنه في شبابه؛ فلما أقبل على الناس ألقى عليهم السلام، وحياهم، وأخذ مكانه في المجلس، فبدأ الناس يسلمون عليه أرسالاً تلو أرسال، وكل من سلم عليه خرج من المجلس؛ حيث لم يبق مكان للجلوس من كثرة الناس.

وبعد ذلك جلست عن يساره، والشيخ عبدالعزيز بن ناصر بن باز عن يمينه، وبأيدينا جملة من المعاملات من طلاق وغيره كالعادة، وبدأنا عرضها عليه، والناس لا يزالوا يتوافدون، والهاتف يرن بين الفينة والأخرى.

وبعد عشر دقائق من جلوسه تحسس سماعة الهاتف وعلى غير عادته رفعها ووضعها جانباً؛ حتى يتوقف رنين الهاتف، ثم أقبل على الحاضرين، وقال: كيف حال الإخوان، الله يستعملنا وإياكم فيما يرضيه، الله يتوب على الجميع، ثم دعا لهم، وأطال الحديث والدعاء، وتوصية الناس بتقوى الله، والتمسك بالكتاب والسنة.

وبعد ذلك أرجع سماعة الهاتف إلى وضعها الأول، وبدأ يرد على المتصلين، ويستمع إلى عرض المعاملات، والناس في تلك الأثناء يواصلون السلام عليه، وبلغ مجموع ما قرأنا عليه في ذلك المجلس ثمان معاملات، وبعض المعاملات أحالها على اللجنة، وبعضها إلى المكتب.

وبعد أن سمع الأذان أجاب المؤذن كعادته، ثم سلم على الحاضرين، وودعهم ودخل بيته.

وفي تلك الليلة عشنا أسعد ليلة مرت بنا في الطائف، بعد أن رأينا سماحة الشيخ على هذه الحال.

ولما دخل إلى بيته جلس مع أسرته وبعض أقاربه الذين قدموا للسلام عليه من الرياض والمدينة، حيث مكث معهم إلى الساعة الثانية عشرة، وهو في أنس، وسرور، وراحة بال تامة، ثم انصرفوا عنه؛ لينام، فأخذ يذكر الله ويسبحه.

يقول ابنه الشيخ أحمد: «وجلست معه بعد ذلك حتى الساعة الواحدة والنصف، وسألني عن الساعة، فأخبرته، فقال: توكل على الله، نم، وصلى ما شاء الله أن يصلي، واضطجع على فراشه، والوالدة كانت جالسة عنده.

ولما كانت الساعة الثانية والنصف جلس ﷺ وضحك، ثم اضطجع، وبعد ذلك ارتفع نفسه، وحشرج صدره، وحاولت الوالدة أن تنبهه، ولكنه لا يرد.

وبعد ذلك جئت إليه أنا وإخوتي، واستمر على هذه الحال، فاتصلنا بمستشفى الملك فيصل، فأرسلوا سيارة إسعاف، وحمل سماعته إلى المستشفى، وعند حمله فاضت روحه إلى بارئها».

يقول الشيخ محمد موسى: «أما أنا فقد بتُّ تلك الليلة في منزل سماعته، فلما استيقظت مع أذان الفجر، وإذا بأحد الموظفين واقف يبكي، ويحوقل، ويقول: إن سماعة الشيخ متعب جداً، وقد طلب له سيارة إسعاف.

وبعد ذلك بقليل جاءت سيارة الإسعاف ورأيتهم يحملون سماعته فذهبت إلى المسجد لصلاة الفجر والأسى يكاد يقطع قلبي، وقد ترجح عندي أن سماعته سيفارق الحياة.

وبعد أن عدت إلى المنزل اتصلت بالأخ صلاح الدين عثمان أمين مكتبة الشيخ عبر الهاتف الجوال؛ لأنه كان مع أبناء الشيخ، لما نقلوه إلى المستشفى، فلما كلمته لم يستطع الرد من البكاء فأيقنت أن سماحته قد توفي.

وبعد وقت قصير جاء أبناء سماحة الشيخ إلى المنزل، وأفادوا بأن والدهم قد فارق الحياة، وكان ذلك قبيل فجر الخميس ١٤٢٠/١/٢٧ هـ.

وبعد أن توفي وضع في ثلاجة الموتى في مستشفى الملك فيصل في الطائف، ثم نقل إلى مستشفى القوات المسلحة في الهدا، ووضع في الثلاجة إلى أن جاء وقت تغسيله».

« وفاة سماحة الشيخ »

انتشار خبر الوفاة: وبعد وقت قصير من وفاته ذاع الخبر، وعم أقطار الدنيا، وحل بالمسلمين من اللوعة والأسى ما لا يعلم مداه إلا الله.

المداولات في وقت الصلاة عليه، ومكانها، ومكان دفنه: وبعد أن ذاع خبر الوفاة بدأت المداولات بين المسؤولين وأبناء سماحة الشيخ حول وقت الصلاة عليها، ومكانها، ومكان دفنه؛ فاستقر الرأي على أن يصلى عليه في المسجد الحرام بعد صلاة الجمعة ٢٨/١/١٤٢٠هـ، وأن يدفن في مقبرة العدل في مكة المكرمة؛ حيث أعلن الديوان الملكي خبر الوفاة، ومكان الصلاة على سماحته، ووقتها.

توافد الناس إلى مكة: وبعد أن أعلن ذلك النبأ بدأت وفود الناس تتقاطر إلى مكة من كل حدب وصوب، وأقبل الناس من قريب، ومن بعيد، عبر الجو والبر، داخل المملكة وخارجها.

تغسيل سماحة الشيخ وتكفينه: وفي صبيحة يوم الجمعة نقل جثمان سماحة الشيخ من ثلاجة مستشفى الهدا عبر سيارة الإسعاف إلى منزل سماحته في مكة المكرمة؛ حيث تم تغسيه، وتكفينه هناك.

وقد قام بذلك كل من صاحب الفضيلة الشيخ عبدالله بن محمد بن الحمود الزيد مدير إدارة البحوث العلمية والإفتاء، وصاحب الفضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله الغيث، وصاحب الفضيلة الشيخ عبدالعزيز بن محمد الوهيبي.

حضور العلماء والمشايخ في وقت تغسيل سماحته وتكفينه: وفي الوقت الذي كان سماحة الشيخ يجهز فيه-حضر إلى منزل سماحته في مكة جمع كبير من العلماء والمشايخ.

ومنهم: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، مفتي عام المملكة، وأصحاب الفضيلة الشيخ عبدالله بن قعود، والشيخ عبدالمحسن العباد، والشيخ عبدالرحمن البراك، ومعالي الشيخ الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي وزير الشؤون الإسلامية آنذاك، ومعالي الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية حالياً، والشيخ الدكتور عمر بن سعود العيد، والشيخ الدكتور عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد، والشيخ متعب بن سليمان الطيار والشيخ عبدالعزيز بن إبراهيم القاسم، وغيرهم كثير ممن لا تحضرنى أسماؤهم.

الدخول عليه بعد تجهيزه: وبعد أن غسل وكفن دخل عليه جمع من الحاضرين في ذلك الوقت، حيث تقدموا لتقبيله، ورؤيته قبل الذهاب به للصلاة عليه.

وبعضهم قبله قبل أن يغطي رأسه، وبعضهم بعد أن تم تغطيته.

ومن هؤلاء الذين دخلوا عليه سماحة مفتي عام المملكة الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ، وصاحب الفضيلة الشيخ عبدالمحسن العباد، وابنه الشيخ الدكتور عبدالرزاق، وصاحب الفضيلة الشيخ عبدالعزيز بن إبراهيم القاسم وغيرهم.

صلاة أهل بيته عليه في منزله: وبعد ذلك جاء أهل بيت سماحة الشيخ رحمته الله من زوجاته، وبناته، وغيرهن، وتقدم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل

الشيخ مفتي عام المملكة، ومعه أبناء سماحة الشيخ؛ حيث صلى بالنساء على سماحة الشيخ رحمته الله.

الصلاة عليه في الحرم: وبعد ذلك تم نقله إلى المسجد الحرام؛ للصلاة عليه؛ حيث وصل جثمانه إلى الحرم في حدود الساعة الحادية عشرة تقريباً. ولقد جاء الناس إلى المسجد الحرام في وقت مبكر؛ فامتألت بهم جنبات الحرم، ولا ترى إلا باكياً حزيناً، مكفكفاً دموعه، منطوياً على نفسه. ولما حان وقت الخطبة، وأذن الأذان الآخر لصلاة الجمعة خطب الجمعة سماحة الشيخ محمد بن عبدالله السبيل إمام وخطيب المسجد الحرام، ورئيس شؤون الحرمين آنذاك، وقد تكلم في خطبته على فضل العلم والعلماء، وذكر بعض مآثر الفقيد، وعزى الأمة به، وصبر الناس، ودعا لسماحة الشيخ. وبعد صلاة الجمعة قدمت الجنازة وما كادت تصل إلى المكان الذي هو قرب الإمام، حيث صارت تموج إلى أن وضعت أمام الإمام، فصلى بالناس على سماحة الشيخ إمام الحرم الشيخ محمد السبيل.

وكان على رأس المصلين على سماحة الشيخ خادم الحرمين الشريفين الملك فهد، وولي عهده الأمير عبدالله، وسمو النائب الثاني، الأمير سلطان، وسمو وزير الداخلية الأمير نايف، وسمو الأمير سلمان، وجمع كبير من الأمراء.

دفن سماحة الشيخ: وبعد الصلاة على سماحته حملت الجنازة إلى خارج المسجد الحرام، ووضعت في سيارة الإسعاف، وسارت بها السيارة وسط الجموع إلى مقبرة العدل، ثم دخلت جموع يسيرة إلى المقبرة يتقدمهم سماحة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين رحمته الله .

وقد منع الناس في بداية دخول الجنازة المقبرة من الدخول؛ لأنهم لو دخلوا في ذلك لطالت مدة الدفن.

وبعد ذلك تم دفنه في وقت قصير، ثم فتحت أبواب المقبرة؛ فدخل الناس أفواجاً تلو أفواج، ثم وقفوا على القبر، ودعوا لصاحبه، وسألوا له التثبيت عند السؤال، ثم خرجوا من المقبرة.

ملحوظات في يوم دفن الجنازة: من الملحوظات الغريبة في ذلك اليوم أن الناس توافدوا إلى مكة في وقت قصير جداً؛ فمع أن الوقت كان ضيقاً حيث لم يعلن رسمياً عن مكان الصلاة عليه ودفنه وزمانه إلا في وقت متأخر من يوم الخميس، ومع بُعد المسافة بين مكة وبين كثير من البلدان التي قدم منها الناس، ومع أن الوقت كان وقت امتحانات المدارس - إلا أنه لم يسمع بأي حادث مروري ذلك اليوم، بل سارت الأمور كما ينبغي، وسارت الجنازة من الحرم في دقائق معدودة مع أن الناس محيطة بها من كل جانب، ودفنت في وقت قصير.

ومن الملحوظات أن كثيراً من الناس ممن حضروا ذلك يقولون: إننا حضرنا ونحن على درجة من الإعياء كبيرة، ولم نكن نظن أننا إذا وصلنا إلى مكة، ونصلي على الجنازة إلا وقد لزمنا الفراش من التعب.

ولكننا - بحمد الله - أعنّا على ذلك، وأمدنا الله بالقوة.

ولعل ذلك من كرمات سماحة الشيخ.

يقول الشيخ محمد موسى: «وفي ذلك المشهد العظيم تذكرتُ كلمة قالها

سماحة الشيخ قبل وفاته بخمس عشرة سنة تقريباً، وذلك لما جاءه بعض الغيورين، وحدثوه على الأوضاع، ولاموه، وأغلظوا عليه بالقول، وقالوا: الواجب عليك أكبر مما تقوم به؛ لأنك إمام وقدوة، ولك مكانتك عند الجميع. وما علم أولئك بعظم الدور الذي يقوم به.

ولما سمع سماحة الشيخ منهم ذلك الكلام تأثر تأثراً كبيراً، ولم يُرد أن يطلعهم على ما يقوم به، ولكنه قال: إذا أنا متُّ عرفتموني كما عرف الشيخ محمد بن إبراهيم بعد وفاته».

أصدقاء وفاة سماحة الشيخ بعد دفنه:

التعازي: وبعد دفن سماحة الشيخ رحمته الله توالى وفود المعزين من رؤساء، وعلماء، ووجهاء، وغيرهم من شتى بقاع الأرض؛ فمنهم من يأتي بنفسه، ومنهم من يعزي عبر الهاتف، ومنهم من يعزي عبر الرسالة، ومنهم من يعزي عبر المقالة.

والغريب أن الناس يعزي بعضهم بعضاً، فالواحد يعزي بالشيخ، ويعزي به. **المؤلفات والمقالات في سماحته:** وبعد وفاته خرج المئات من المقالات، والعشرات من المؤلفات التي تتحدث عن سيرته، ومكانته.

ولقد استمرت الصحف مدة طويلة تكتب عنه، وتُفرد الملاحق الخاصة به. وهذه المؤلفات والمقالات مليئة بذكر مآثره، وأخلاقه، والحديث عن سيرته. ولا زالت الرسائل العلمية الجامعية تسجل في بعض جوانب سيرته.

المراثي: بعد وفاة سماحة الشيخ جادت قرائح الشعراء، وكتبوا القصائد في

رثاته، وبيان عظيم اللوعة في فقده، وإيضاح الثغرة العظيمة التي تركها.
وبالجملة فإن القصائد التي قيلت فيه لا يمكن حصرها.
ولا يبالغ من يقول: إنه لم يرث أحد بعد النبي ﷺ وأصحابه بمثل ما رثي به
سماحة الشيخ.

المراثي: وكذلك المراثي التي روّيت في سماحة الشيخ لا تكاد تحصى من
كثرتها.

وقل أن تجلس في مجلس أيام وفاة سماحته إلا وتسمع من يذكر طرفاً من
الرؤى.

إجماع الناس على الفضل والعلم: فالناس -على اختلاف طبقاتهم- أجمعوا
على فضل سماحته، وعلمه، وعدله، وتقواه، ومآثره الحميدة.
والذين كتبوا، أو تحدثوا عنه، أو رثوه في القصائد فئات مختلفة، منهم
الأمراء، ومنهم العلماء، ومنهم الوجهاء، ومنهم رجال الصحافة، ومنهم
الأدباء، ومنهم الرجال، ومنهم النساء.
ولو ذكرنا شيئاً من ذلك لطلال بنا، ولما أردنا أن نذكر نماذج من ذلك وقعنا في
الحيرة والخرج؛ فما ندرى ماذا نأخذ، وما ندرى ماذا ندع.

الفهرس

الفهرس

٣	المقدمة
٧	١- أحمد بن فارس اللغوي
٩	معالم بارزة في حياته
٩	مولده ونشأته
٩	علومه
١٠	شعره: نماذج من شعره:
١٠	- بيتان في التهكم والسخرية
١٠	- ثلاثة أبيات في التبرم من العيش بهمذان
١١	- أربعة أبيات في الحمل على من يزهدون في الدينار والدرهم
١١	- ثلاثة أبيات في الحاجات ، وفي السُّور
١١	- أبيات في طبائع الناس ، واستثثارهم بالمال
١٢	- بيتان فيمن يتكاسل في طلب العلم
١٢	- أبيات علمية في كلمة (العين) وما يتفرع عنها من المعاني المشتركة
١٣	أخلاق ابن فارس:
١٣	- قصة لابن فارس مع خادمه تُبين عن كرمه
١٤	تلاميذه
١٤	وفاته

- ١٤ ابن فارس وأثره في علم فقه اللغة
- ١٦ كتابه (معجم مقاييس اللغة): منهجه فيه، وثناء العلماء عليه
- ١٦ - كلمة لعبد السلام هارون في منهجه فيه
- كلمة لياقوت الحموي وعبد السلام هارون في الثناء على معجم مقاييس اللغة
- ١٩ نظرات ابن فارس في النقد والأدب
- ٢١ - رسالته إلى أبي عمرو بن محمد بن سعيد الكاتب
- ٢٧ ٢- نور الدين محمود
- ٢٩ أولاً: نشأته
- ٣١ ثانياً: صفاته ومناقبه
- ٣١ أ- التقوى والصلاح
- ٣٥ ب- العدل: كلمات لابن الأثير والذهبي في عدله
- ٣٦ ج- الغيرة الصادقة
- ٣٧ د- الهمة العالية
- هـ- الشجاعة المتناهية: كلمات لعدد من العلماء والمؤرخين في شجاعته
- ٣٨ و- الهيبة الوافرة، والتواضع الجرم: كلمات لابن الأثير، وابن عساكر، والذهبي، وابن كثير في ذلك
- ٤٠ ز- الحرص على اتباع السنة: نماذج من ذلك
- ٤١ ح - محبة العلم والعلماء والصالحين
- ٤٢

- ٤٢ ط - الرحمة بالمساكين
- ٤٣ ثانياً: جهاده، وفتوحاته، وإصلاحاته: كلمات لعدد من العلماء في ذلك
ثالثاً: نور الدين في الأدب: أبيات لأسامة بن منقذ، وابن القيسراني،
٤٤ والعماد الأصفهاني
- ٥١ ٣ - شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
- ٥٣ نبذة عن نشأته وأخباره في صباه:
- ٥٣ - ولادته
- ٥٣ - سبب تسميته بابن تيمية
- ٥٤ - قدومه إلى دمشق مع أسرته
- كلمة لابن عبد الهادي عن شيوخ ابن تيمية والكتب التي
سمعتها وقرأها، والعلوم التي برع فيها، وعن فرط ذكائه، وذكر
٥٤ قصة على ذلك
- كلمة لابن ناصر الدين الدمشقي حول شدة حافظته ابن تيمية مع
٥٥ ذكر قصة له مع والده
- ٥٦ - كلمة للحافظ الذهبي وابن عبد الهادي عن نشأة ابن تيمية
- ٦٠ علم ابن تيمية:
- كلمات للذهبي، والبزار، وابن عبد الهادي، ومحمد كرد علي
٦٠ في علم ابن تيمية
- ٦٨ مؤلفات ابن تيمية:
- ٦٨ - كلمات للذهبي، وابن عبد الهادي، والبزار في مؤلفات ابن

تيمية

- ٧٢ تعبد ابن تيمية:
- ٧٢ - كلمات لابن القيم، والبزار، والذهبي في ذلك
- ٧٤ سمته وهديه وخلقه:
- ٧٤ - كلمات لابن القيم، وابن عبد الهادي، والبزار في ذلك
- ٧٩ شجاعته:
- كلمات للذهبي، وابن القيم، وابن عبد الهادي، ومحمد كرد
- ٧٩ علي في وصف شجاعته
- ٨٥ فراسته الصادقة:
- ٨٥ - معنى الفراسة
- ٨٥ - كلمة لابن القيم في ذكر فراسة ابن تيمية، وذكر نماذج منها
- ٨٨ ابن تيمية والشعر:
- ٨٨ - أبيات كان يستشهد بها
- ٨٨ - من أشهر ما يثبت له من الشعر:
- القصيدة الأولى: قصيدته الثانية في القدر التي رد بها على**
- ٨٨ سؤال في القدر:
- ٩٠ - نص السؤال
- ٩١ - جواب ابن تيمية
- ٩٨ **القصيدة الثانية: قصيدته اللامية في القصيدة.**
- ٩٨ **القصيدة الثالثة: القصيدة العينية التي أجاب فيها عن لغز**

العلامة الفارقي :

٩٩

- نص اللغز

١٠٠

- جواب ابن تيمية

١٠٦

نموذجان من مكاتبات ابن تيمية في سجنه:

١٠٦

الأول: كتاب من الشيخ إلى والدته وأخيه لأمه بدر وغيرهما

١٠٨

الثاني: كتاب بعثه الشيخ من مصر إلى دمشق

١١٤

وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية:

١١٤

- كلام لابن عبد الهادي في وصف الأيام الأخيرة لابن تيمية

١١٥

- كلام لابن تيمية في آخر أيامه

١١٧

- وفاته

١١٩

٤- الشيخ العلامة محمد الخضر حسين

١٢١

معالم موجزة في سيرة الشيخ محمد الخضر:

- كلمة للشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي في كتب قرأها للشيخ

١٢٤

محمد الخضر

١٢٥

- كلمة لتلميذه الشيخ محمد بهجة البيطار

١٢٨

نماذج من كتابات الشيخ محمد الخضر:

١٢٨

أولاً: مقاطع من كتابه: (الحرية في الإسلام)

١٣٦

ثانياً: خواطر كتبها الشيخ رحمته الله

١٤٤

نماذج من شعره:

١٤٤

١- أبيات في الزجاج

- ١٤٤ ٢- أبيات في الجرس
- ١٤٤ ٣- مقطوعة عنوانها (رقة الطبع تزيد المودة صفاءً)
- ١٤٥ ٤- مقطوعة عنوانها (زهر الدنيا أخلائي)
- ١٤٥ ٥- مقطوعة عنوانها (رفقاً بها)
- ١٤٦ ٦- مقطوعة عنوانها (الصدقة والعزلة)
- ١٤٦ ٧- مقطوعة عنوانها (المحبة الصادقة)
- ١٤٦ ٨- مقطوعة عنوانها (الدعاء للميت خير من تأيينه)
- ١٤٧ ٩- قصيدة عنوانها (حياة اللغة العربية)
- ١٤٩ ١٠- قصيدة عنوانها (القطار في غوطة دمشق)
- ١٥٠ ١١- قصيدة عنوانها (مناجاة الفكر)
- ١٥٠ ١٢- قصيدة عنوانها (القلب كالرحى)
- ١٥١ ٥- العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور
- ١٥٣ نبذة عن سيرته:
- ١٥٣ - ولادته ونشأته
- ١٥٣ - تلقيه للعلم
- ١٥٣ - مؤلفاته
- ١٥٣ - عقليته الجبارة
- ١٥٤ - أسلوبه في الكتابة
- ١٥٤ - كلمة للأستاذ محمد الطاهر الميساوي في سيرة ابن عاشور، وعلمه

- أوليات ابن عاشور:
- ١٥٨ ١- أول من فسر القرآن كاملاً في إفريقية
- ١٥٨ ٢- أول من جمع بين منصب شيخ الإسلام المالكي، وشيخ الجامع الأعظم (الزيتونة)
- ١٥٩ ٣- أول من سمي شيخاً للجامع الأعظم
- ١٥٩ ٤- أول من لقب بـ: شيخ الإسلام المالكي
- ١٦٠ ٥- أول من تقلد جائزة الدولة التقديرية للدولة التونسية
- ١٦٠ ٦- أول من أحيا التصنيف في مقاصد الشريعة في عصرنا الحالي
- ١٦٠ بعد العز بن عبد السلام والشاطبي
- ١٦٠ ٧- أول من أدخل إصلاحات تعليمية وتنظيمية في الجامع الزيتوني
- ١٦٠ أخلاق ابن عاشور وشمائله:
- ١٦٠ - كان متواضعاً
- ١٦٠ - كان مترفعاً عن صغائر الأمور
- اشتهر بالصبر، وقوة الاحتمال، وعلو الهمة، والاعتزاز بالنفس، والصمود أمام الكوارث
- ١٦١ - كان عفّ اللسان، طيب المعاشرة
- ١٦١ - كلمة للشيخ محمد الخضر حسين في صديقه ابن عاشور
- ١٦٢ - كلمة أخرى للخضر، وتحتوي على بيتين طريفيين
- ١٦٢ - كلمة لابن عاشور في وصف نفسه

- ١٦٣ - كلمة في وصفه لتلميذه الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة
- ١٦٤ - كلمة لداغر
- ١٦٤ - كلمة لابن الخوجة
- ١٦٥ - من لطائف ذكاء ابن عاشور لتلميذه أبي الحسن بن شعبان
- ١٦٦ منزلة كتابه (التحرير والتنوير):
- ١٦٦ - بداية تأليفه له ، ونهايته منه
- ١٦٦ - كلمة مؤثرة لابن عاشور عند انتهائه من تفسير: التحرير والتنوير
- ١٦٧ صداقة ابن عاشور للشيخ محمد الخضر حسين:
- ١٦٨ - نماذج مختارة لما كان بينهما من مودة ومكاتبات :
- ١٦٨ ١- قصيدة للخضر بعنوان (عواطف الصداقة)
- ١٧٠ ٢- مقطوعة للخضر عنوانها (الوفاء بعهد الصداقة)
- ١٧٠ ٣- مقطوعة للخضر عنوانها (برقية الشوق)
- ١٧٠ ٤- قصيدة للخضر عنوانها (تهنئة بالقضاء)
- ٥- مقطوعة قالها الشيخ محمد الخضر حسين في صديقيه
- ١٧١ العلامة أحمد تيمور باشا، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور
- ٦- قصيدة للخضر عنوانها (مساعي الورى شتى)، قالها
- الشيخ محمد الخضر مهنتاً لصديقه العلامة ابن عاشور عند
- ١٧٢ ولاية التدريس في جامع الزيتونة
- ١٧٣ نموذج تعريفي بأحد مؤلفات ابن عاشور
- ١٧٥ ٣٧ نقلاً مختاراً من كتاب (أليس الصبح بقريب)

- ١٨٩ ٦ - الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي
- ١٩١ معالم بارزة في سيرته:
- ١٩٢ - مولده
- ١٩٢ - نشأته ، وبداية طلبه للعلم ، ومحفوظاته
- ١٩٦ - توليه للتدريس بعد وفاة عمه وهو لا يزال في سن صغيرة
- ١٩٦ - رحلته إلى المدينة
- ١٩٧ - تعليمه ، وجهاده
- ١٩٧ - حادثة تدل على شجاعة الشيخ
- ١٩٨ - رسالة العلامة ابن باديس للشيخ الإبراهيمي بعد اعتقاله
- ١٩٩ - شخصية الشيخ ومواهبه
- ٢٠٠ - كان متميزاً بثقافة عصرية عالية
- كلمة للأستاذ أحمد توفيق المدني تبين كثيراً من صفات الشيخ الإبراهيمي
- ٢٠١ الإبراهيمي
- ٢٠٣ - نموذج من نثر الإبراهيمي :
- مقامة عنوانها (مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة) كتبها في ابن باديس بعد وفاته
- ٢٠٦
- ٢١٤ - نموذج من شعر الإبراهيمي :
- ٢١٤ أرجوزة عنوانها (إلى علماء نجد)
- ٢٢٣ ٧ - الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي

- ٢٢٥ أولاً: نبذة موجزة عن سيرته
- ٢٢٥ ١- نسبه، ومولده، ونشأته
- ٢٢٦ ٢- شيوخه
- ٢٢٨ ٣- وصفه الخُلقي
- ٢٢٨ ٤- أخلاقه:
- كلمات للمشايخ ابن باز، والألباني، وعبدالرزاق عفيفي،
وابن عثيمين، ومحمد الفقي في حق الشيخ السعدي
- ٢٢٩ ٥- أعماله
- ٢٣١ ٦- مرضه ووفاته
- ٢٣١ ٧- علمه:
- _ كلمات في الثناء على تفسير السعدي للمشايخ:
ابن عقيل، وابن عثيمين، وبكر أبو زيد
- ٢٣٣ ٨- الكتابات والدراسات حول الشيخ عبدالرحمن السعدي:
- ٢٣٩ - ترجمة نادرة لابن سعدي كتبها د. عبدالرحمن العدوي
- ٢٣٩ ثانياً: نماذج من كتابات الشيخ عبدالرحمن السعدي:
- ٢٤٩ ١- قوله في قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ...﴾ النساء: ٧٧
- ٢٤٩ ٢- قوله في قوله -تعالى-: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ...﴾ محمد: ٢٠-٢١
- ٢٥٠ ٣- قوله في قوله -تعالى-: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ ﴿ الأعراف: ١٩٩

- ٢٥٣ ٤- قوله في قصة موسى مع الخضر -عليهما السلام- التي وردت في سورة الكهف
- ٢٦٠ ٥- قوله في تفسير سورة ص مبيناً الفوائد والحكم من قصة داود وسليمان -عليهما السلام-
- ٢٦٤ ٦- قوله في قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعُوا بِهِ... ﴾ النساء: ٨٣
- ٢٦٤ ٧- قوله مبيناً بعض ما ينبغي للإنسان أن يتحلى به في المجالس
- ٢٦٦ ٨- قوله مبيناً بعض آداب الحديث مع الناس على اختلاف طبقاتهم
- ٢٦٧ ٩- كلام له عن بعض آداب الحديث
- ٢٦٧ ١٠- إجابته عن الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب
- ٢٧٢ ١١- قوله حاثاً على العلم، مبيناً فضله
- ٢٧٣ ١٢- قوله في كتابه (وجوب التعاون بين المسلمين) في فقرة عنوانها (الاعتناء بالتربية والتعليم من أصول الجهاد)
- ٢٧٥ ١٣- شرحه لحديث: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث...»
- ٢٧٨ ١٤- حثه على حفظ السر
- ٢٧٩ ثالثاً: لطائف من سيرة الشيخ عبدالرحمن السعدي

- ٢٨٠ - حرص الشيخ على تطبيق السنة
- ٢٨٠ - سخاؤه وكرمه
- ٢٨٠ - عزة نفسه
- ٢٨١ - ورعه
- ٢٨١ - حرصه على نفع الناس
- ٢٨٢ - برنامجه ونظامه اليومي
- ٢٨٢ - وصف مكانه الذي يجلس فيه للقراءة والكتابة
- ٢٨٥ - كان يكثر من تلاوة القرآن ومراجعته في شهر رمضان
- ٢٨٥ - كان يجيب عن أسئلة النساء
- ٢٨٥ - كان يفسر الأحلام أحياناً
- ٢٨٥ - كان حافظاً للسر
- ٢٨٦ - كان حريصاً على جمع الكلمة
- كان يطالع في الصحف، والمجلات الإسلامية التي تصدر في المملكة وخارجها
- ٢٨٦ - كان يحرص على تطيب قلوب الناس
- ٢٨٧ - كان كثيراً ما يمازح الصغار، والكبار، والأغنياء، والفقراء
- لم يكن مقتصراً على الدروس التي تلقى في الجامع، أو المساجد، أو الإشراف على المعهد العلمي فحسب...
- ٢٨٧ - من لطائف سيرته في التأليف

- ٢٨٨ - من لطائف سيرته في التعليم
- ٢٩٠ - من طرقه الرائعة في إلقاء الدروس
- ٢٩٠ - كان يدرّب طلابه على التعليم ، والدعوة إلى الله
- ٢٩١ - كان ينوع في الكتب والفنون التي يُدرّسها
- ٢٩١ - الكتب التي كان يدرسها
- ٢٩١ - كان حريصاً على تدوين الفوائد واللطائف
- ٢٩٢ - من أساليبه في التأليف والكتابة
- ٢٩٣ - حصول الشيخ على إجازة في رواية الكتب الستة
- ٢٩٤ - من لطائف سيرته تنوع خطبه في الجمعة
- ٢٩٥ - من لطائف سيرته أنه أظهر عناية بالنظم والشعر في بواكير عمره
- ٢٩٦ - كان دائم التواصل مع العلماء والمشايخ والقضاة
- ٢٩٨ - كان محل ثقة لدى العلماء والمشايخ خاصة
- ٢٩٨ - من لطائف سيرته وفاؤه المنقطع النظير
- دقته في عرض المسائل ، وأنه لم يكن يستنكر أو يستوحش من
- ٢٩٩ الاستفادة من المخترعات والتقنيات الحديثة
- ٢٩٩ - حلمه ، وتغاضيه وعفوه ، والتماسه العذر للناس
- ٣٠٠ - من آخر أخباره في التأليف
- ٣٠١ - من بديع ما يذكر في سيرته
- ٣٠٤ رابعاً: مواقف من حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي

- ٣٠٤ ١- موقف يبين أن الشيخ كان يمازح أصحابه
- ٣٠٥ ٢- موقف يدل على ملاطفة الشيخ للناس
- ٣٠٥ ٣- موقف يدل على حسن أخلاق الشيخ في السفر
- ٣٠٦ ٤- موقف يبين كيفية توزيعه للصدقات والزكوات
- ٣٠٧ ٥- موقف يدل على حكمته في الدعوة والإنكار
- ٣٠٨ ٦- موقف يبين حب الشيخ للناس ، وحرصه على نفعهم
- ٧- موقف يبين حلم الشيخ ، وسعة صدره ، ورحمته بالصغار ،
٣٠٨ وبعده عن التعنيف عليهم
- ٣١٠ ٨- موقف يدل على حكمة الشيخ ، وتلطفه في النصيح والإنكار
- ٣١١ ٩- موقف تتجلى به حكمة الشيخ في تغيير بعض العادات الشائعة
- ١٠- موقف يدل على رَوِيَّة الشيخ ، وتركه الاستعجال في الإنكار
٣١٢ للأشياء الجديدة؛ حتى يتبين حقيقتها
- ١١- موقف يدور حول تعيين الشيخ عبدالرحمن للقضاء ،
٣١٤ وتكدره ورفضه لذلك
- ١٢- موقف يبين حب الناس للشيخ عبدالرحمن السعدي ،
٣١٧ ورغبتهم في صحبته في السفر
- ٣١٨ ١٣- موقف يدل على دعابة الشيخ ، ومزاحه مع أحبائه وأصحابه
- ١٤- موقف يبين لطافة الشيخ مع أهل بيته ، ومزاحه وحرصه
٣١٩ على إدخال السرور عليهم

- ١٥- موقف آخريين ملاطفة الشيخ مع أهله ٣٢٠
- ١٦- موقف يدل على تنوع علم الشيخ ، واتساع أفقه ومداركه ٣٢٠
- ١٧- موقف يدل على اهتمام الشيخ بالأحداث العالمية ٣٢٢
- ١٨- موقف يبين كيفية تعامل الشيخ مع خصومه ، ومعارضيه ، وكيف كان يداريهم ، ويحرص على تضييق هوة الخلاف ٣٢٣
- ١٩- موقف يدل على مراعاة الشيخ لأدب الاستماع ، ومراعاة حال المتكلم ، وترك مقاطعته أو الاستخفاف بحديثه ولو كان معلوماً مكروراً ٣٢٥
- ٢٠- موقف يحكي قصة مرض الشيخ عبدالرحمن وسفره إلى لبنان للعلاج ، وبعض ما حدث في تلك الرحلة من أخبار ٣٢٦
- ٢١- موقف يُبين عن بعض أخلاق الشيخ في السفر ٣٣١
- ٢٢- موقف يتجلى فيه ذوق الشيخ ، ورهافة حسه ، ومراعاته للمشاعر ٣٣٢
- ٢٣- موقف تتجلى فيه رحمة الشيخ ، وحكمته ، وحسن تعليمه ٣٣٣
- ٢٤- موقف يُبين عن سخاء الشيخ ، وعطفه على الفقراء ٣٣٣
- ٢٥- موقف يدل على تشجيع الشيخ ، وحسن تربيته للصغار ٣٣٤
- ٢٦- موقف يدل على رحمته بالناس ، وحرصه على مواساتهم ، وتخفيف معاناتهم ٣٣٥
- ٢٧- موقف يدل على حكمة الشيخ ، وقوة إقناعه ، وحسن ٣٣٦

عرضه لما يريد

- ٣٣٧ ٢٨- موقف يدل على كرم الشيخ وحرصه على تنشيط الناس على الخير والعبادة
- ٣٣٨ ٢٩- مواقف مليئة بالحنان، والأبوة والعطف، وحسن التعامل مع الأولاد، وخصوصاً البنات
- ٣٤٢ خامساً: الشيخ عبدالرحمن السعدي ورسالة يأجوج ومأجوج
- ٣٤٢ أ- التعريف اللغوي ل: يأجوج ومأجوج
- ٣٤٢ ب- أصلهم
- ٣٤٣ ج- الأدلة على أنهم من ذرية آدم
- ٣٤٣ د- صفتهم
- ٣٤٤ هـ- فسادهم
- ٣٤٥ و- أدلة خروجهم من القرآن
- ٣٤٦ ز- أدلة خروجهم من السنة
- ٣٤٧ ح- هلاكهم
- ٣٤٨ - قصة كتابة الشيخ عبدالرحمن السعدي لرسالة يأجوج ومأجوج
- ٣٦٠ - ملخص كلام الشيخ في مسألة يأجوج ومأجوج:
- ٣٦٠ أولاً: حقيقتهم وأصلهم
- ٣٦١ ثانياً: بلادهم
- ٣٦١ ثالثاً: خروجهم وانفتاحهم

- ٣٦١ رابعاً: من يأجوج ومأجوج الآن
- ٣٦٦ - مراحل كتابة الشيخ للرسالة
- ٣٦٦ أولاً: الرسالة المختصرة
- ٣٦٧ ثانياً: الرسالة المتوسطة
- ٣٦٧ ثالثاً: الرسالة التامة
- ٣٦٩ **٨- الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ**
- ٣٧١ أولاً: معالم عامة في سيرته:
- ٣٧١ توطئة وتمهيد
- ٣٧٢ أ- اشتغاله بالتدريس
- ٣٧٣ ب- أخلاقه وصفاته:
- ٣٧٤ - ذكاؤه الباهر، وذاكرته القوية
- ٣٧٤ - حفظه للمتون
- ٣٧٤ - حادثة تدل على ذكائه وفطنته وهو في الثانية من عمره
- ٣٧٥ - طهارة قلبه
- ٣٧٥ - تأمله، وترويه، وبعد نظره
- ٣٧٦ - فراسته:
- ٣٧٦ قصة تعيينه للشيخ ابن باز في الجامعة الإسلامية
- ٣٧٦ - شجاعته
- ٣٧٧ - هيئته

- ٣٧٧ - أنسه لمخالطيه
- ٣٧٧ - تنزهه عن الغيبة
- ٣٧٨ - ورعه
- ٣٧٨ - بذله وسخاؤه وإكرامه للعلماء
- ٣٧٩ ج- خشيته لله
- ٣٧٩ د- أعماله
- ٣٨٢ ثانياً: أبرز تلامذة الشيخ محمد بن إبراهيم:
- ٣٨٢ - أسباب إقبال الطلاب عليه
- ٣٨٤ - أبرز تلاميذه
- ٣٨٨ ثالثاً: عمل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم اليومي
- ٣٩٢ رابعاً: ترجمة نادرة للشيخ محمد بن إبراهيم أملاها الشيخ ابن باز
- ٣٩٥ خامساً: منزلة الشيخ محمد عند العلماء المعاصرين له:
- ثلاث رسائل من الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى الشيخ محمد ابن إبراهيم:
- ٣٩٥ الأولى: أرجوزة رائية بعث بها إلى علماء نجد، وفيها ثناء عاطر على الشيخ محمد بن إبراهيم
- ٣٩٥ الثانية: أرجوزة سينية عنوانها (إلى علماء نجد) وهي قريبة من الأولى
- ٤٠١ الثالثة: رسالة موجهة من الإبراهيمي إلى الشيخ محمد
- ٤٠٨ سادساً: لطائف من سيرة الشيخ محمد بن إبراهيم

- ٤١٧ سابعاً: من نوادر الشيخ محمد بن إبراهيم
- ٤٢٠ ثامناً: تفضنه في العلوم
- كلمة للشيخ عبدالله بن منيع حول سعة علم الشيخ محمد ابن
٤٢٠ إبراهيم
- ٤٢١ سماحة الشيخ محمد والشعر:
- ٤٢١ تذوقه للشعر ، واستشهاده به
- ٤٢١ نماذج من شعره:
- ٤٢٢ - أربعة أبيات في رثاء الشيخ عمر بن سليم
- ٤٢٢ - مرثية في عمه الشيخ عبدالله بن عبداللطيف
- ٤٢٣ - أبيات في حث الطلبة على العلم
- ٤٢٤ - أبيات أجاب بها بعض المحبين
- ٤٢٥ ٩- الشيخ عبدالعزيز بن باز
- ٤٢٧ توطئة وتمهيد
- ٤٣٦ معالم عامة في سيرة سماحة الشيخ ابن باز:
- ٤٣٦ أولاً: نبذة عن سيرته
- ٤٣٧ ثانياً: من أخبار سماحة الشيخ في صباه
- ٤٣٩ ثالثاً: من أبرز صفات الشيخ على سبيل الإيجاز
- ٤٤١ رابعاً: الأعمال التي تولاهها سماحة الشيخ
- خامساً: أبرز الأعمال التي كان يقوم بها سماحة الإمام على سبيل
٤٤٣ الإيجاز

- ٤٤٤ سادساً: مؤلفات سماحة الشيخ وآثاره العلمية
- ٤٤٩ نظام سماحة الشيخ اليومي، وفي مجلسه، ومكتبه، ومكتبته:
- ٤٤٩ أولاً: النظام اليومي لسماحة الشيخ
- ٤٥٣ ثانياً: وصف ما يدور في مجلس سماحة الشيخ
- ٤٥٦ ثالثاً: سماحة الشيخ في العمل الرسمي في المكتب
- ٤٥٩ رابعاً: سماحة الشيخ في مكتبة منزله
- ٤٦٢ من أحوال سماحة الشيخ:
- ٤٦٢ أولاً: تعظيمه للسنة، وتطبيقه لها:
- ٤٦٢ ١٦ نموذجاً تدل على ذلك
- ٤٦٤ ثانياً: بكاء سماحة الشيخ
- ٤٦٤ مواقف من بكائه
- ٤٦٦ ثالثاً: زهد سماحة الشيخ
- ٤٦٦ مواقف من زهده
- ٤٦٩ رابعاً: ورع سماحة الشيخ:
- ٤٦٩ ٥ نماذج تدل على ذلك
- ٤٧٢ من أخلاق سماحة الشيخ:
- ٤٧٢ أولاً: تواضع سماحة الشيخ:
- ٤٧٢ ١٣ شاهداً على تواضعه
- ٤٧٦ ثانياً: دعاية سماحة الشيخ، ومزاحه:
- ٤٧٧ ٨ مواقف تدل على ذلك

- ٤٨٠ ثالثاً: ذوقه المرهف ، وأدبه الجم :
 ٤٨٠ ١٣ نموذجاً تدل على ذلك
 ٤٨٣ رابعاً: السخاء ، والجود ، وكرم الضيافة :
 ٤٨٤ ٢١ نموذجاً تدل على ذلك
 ٤٨٩ خامساً: ثباته ، وشجاعته
 ٤٩٠ مواقف من شجاعته
 ٤٩٢ سادساً: العدل في الأحكام
 ٤٩٤ سابعاً: حلم سماحة الشيخ ، وسكينته :
 ٤٩٤ موقف من ذلك
 ٤٩٦ ثامناً: لزوم الشورى
 ٤٩٧ من لطائف سيرة سماحة الشيخ:
 ٤٩٧ أولاً: محافظته على الوقت
 ٤٩٧ ١- دقته في المواعيد
 ٤٩٨ ٢- ضبطه العجيب للارتباطات
 ٤٩٨ ٣- معرفته بالوقت
 ٤٩٨ ٤- تنظيم الوقت
 ٤٩٨ ٥- لا يحتقر اغتنام الجزء اليسير من الوقت
 ٤٩٩ ٦- لا يعرف الإجازات
 ٤٩٩ ٧- لا يعرف النزهة والرحلات البرية

- ٥٠٠ ٨- ملء المجالس بالمفيد
- ٥٠٠ ٩- بركة الوقت
- ٥٠١ ١٠- لا يستهين بإنجاز أي عمل ولو قل
- ٥٠١ ١١- اغتنام الوقت في حال المرض
- ٥٠١ ١٢- اغتنام الوقت في المواقف الحرجة
- ٥٠٢ ١٣- اغتنام الوقت في حال السفر
- ٥٠٣ ثانياً: ذكرة سماحة الشيخ
- ٥٠٣ - نماذج ومواقف في ذلك
- ٥٠٧ ثالثاً: صحة سماحة الشيخ
- ٥٠٩ رابعاً: همته العالية
- ٥١٠ خامساً: القيام بصغار الأمور وكبارها
- سادساً: لا يحمّل أحداً ذنب أحد، ولا يشغله شيء عما هو
٥١١ بصدده
- ٥١٢ سابعاً: طريقة سماحة الشيخ في التحية وردها
- ٥١٣ ثامناً: سماحة الشيخ ورياضة المشي
- ٥١٥ تعامل سماحة الشيخ مع الناس:
- ٥١٥ أولاً: سماحة الشيخ مع أرحامه
- ٥١٧ ثانياً: تعامل سماحة الشيخ مع زوجاته
- ٥١٨ ثالثاً: تعامل سماحة الشيخ مع أولاده

- ٥٢٠ رابعاً: سماحة الشيخ مع جيرانه
- ٥٢١ خامساً: تعامل سماحة الشيخ مع من يعملون معه أو تحت رئاسته
- ٥٢٣ سادساً: سماحة الشيخ والفقراء
- ٥٢٣ سابعاً: سماحة الشيخ مع أهل العلم
- ٥٢٨ ثامناً: تعامل سماحة الشيخ مع ولاية الأمور
- ٥٣٠ تاسعاً: منهج سماحة الشيخ مع المخالفين
- ٥٣١ عاشراً: تعامل سماحة الشيخ مع التجار والمحسنين
- ٥٣٣ العلم والدعوة والتربية في سيرة سماحة الشيخ:
- ٥٣٣ أولاً: تفنن سماحة الشيخ في العلوم
- ٥٣٤ ثانياً: تحضير سماحة الشيخ للدروس
- ٥٣٥ ثالثاً: عناية سماحة الشيخ بالدعوة إلى الله
- ٥٣٥ رابعاً: سماحة الشيخ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٥٣٧ خامساً: تربية سماحة الشيخ لطلابه
- ٥٣٨ سادساً: سماحة الشيخ والشعر
- ٥٤٠ سابعاً: وصايا كان سماحة الشيخ يكثر منها
- ٥٤٢ سماحة الشيخ في أيامه الأخيرة:
- ٥٤٢ أولاً: بداية مرضه الأخير
- ٥٤٦ ثانياً: تدني صحة سماحة الشيخ
- ٥٤٧ ثالثاً: آخر دروسه التي ألقاها، وآخر يوم له في الدوام

- ٥٤٨ رابعاً: بقية أيامه الأخيرة
- ٥٤٩ خامساً: ملحوظات عجيبة على سماحة الشيخ في آخر أيامه
- ٥٥١ سادساً: محاولات إرساله للخارج للعلاج
- ٥٥١ سابعاً: آخر يوم في حياة سماحة لشيخ
- ٥٥٧ وفاة سماحة الشيخ
- ٥٦٣ الفهرس